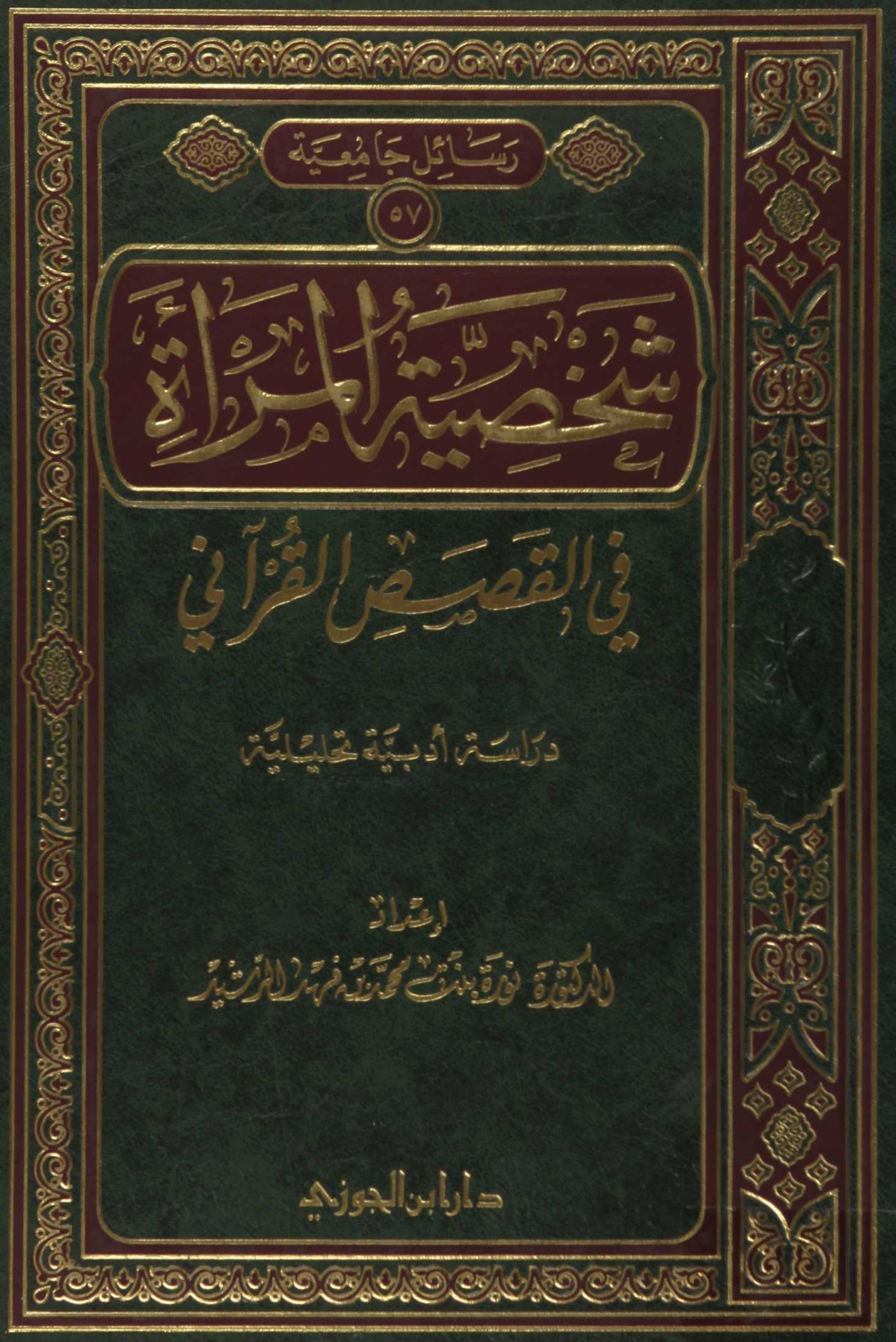
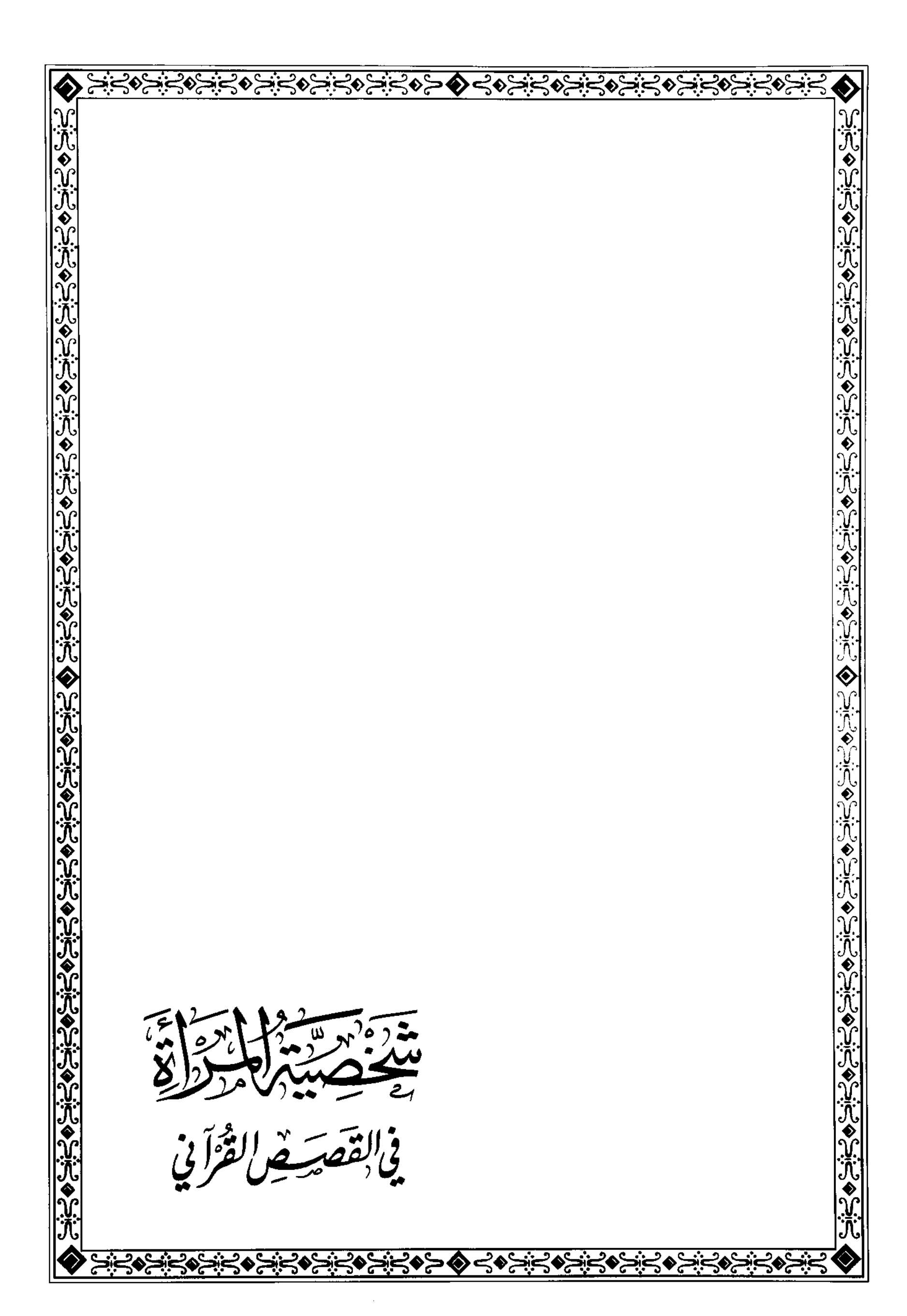
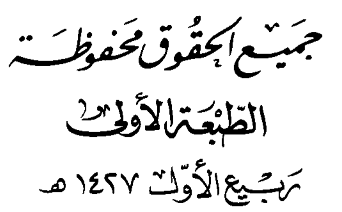

رسائل جامعية
٥٧
شخصية المرأة
في القصص القرآني
دراسة أدبية تحليلية
إعداد
الدكتورة نورة بنت محمد بن فهد الرشيد
دار ابن الجوزي



شخصية المرأة
في القصص القرآني



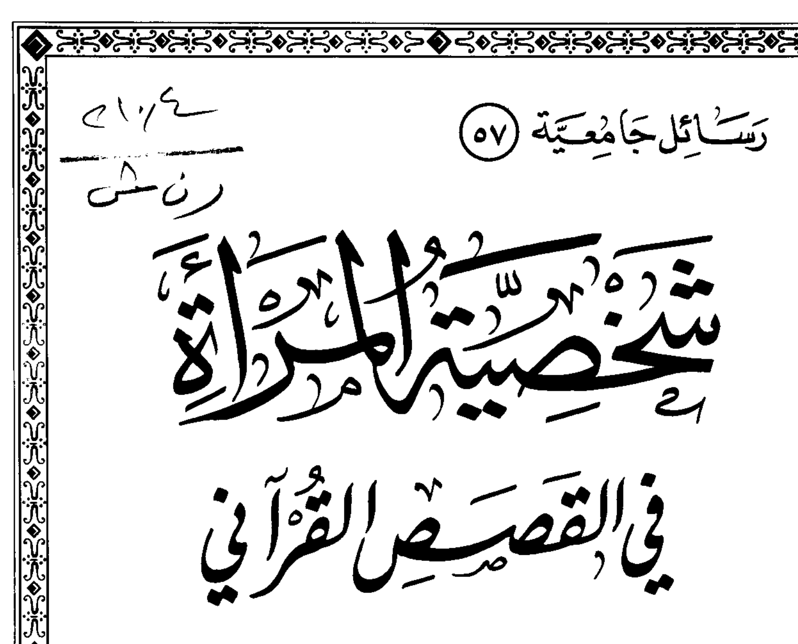


دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - شارع الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٨٩ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢ -
الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - ت: ٤٢٦٦٣٣٩ - الإحساء - الهفوف - شارع الجامعة -
ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - الخبر - ت: ٨٩٩٩٣٥٦ - فاكس: ٨٩٩٩٣٥٧ - بيروت -
هاتف: ٨٦٩٦٠٠/٠٣ - فاكس: ٦٤١٨٠١/٠١ - القاهرة - ج م ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٣٤٤٩٧٠
البريد الإلكتروني: aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

رسائل جامعية (٥٧)

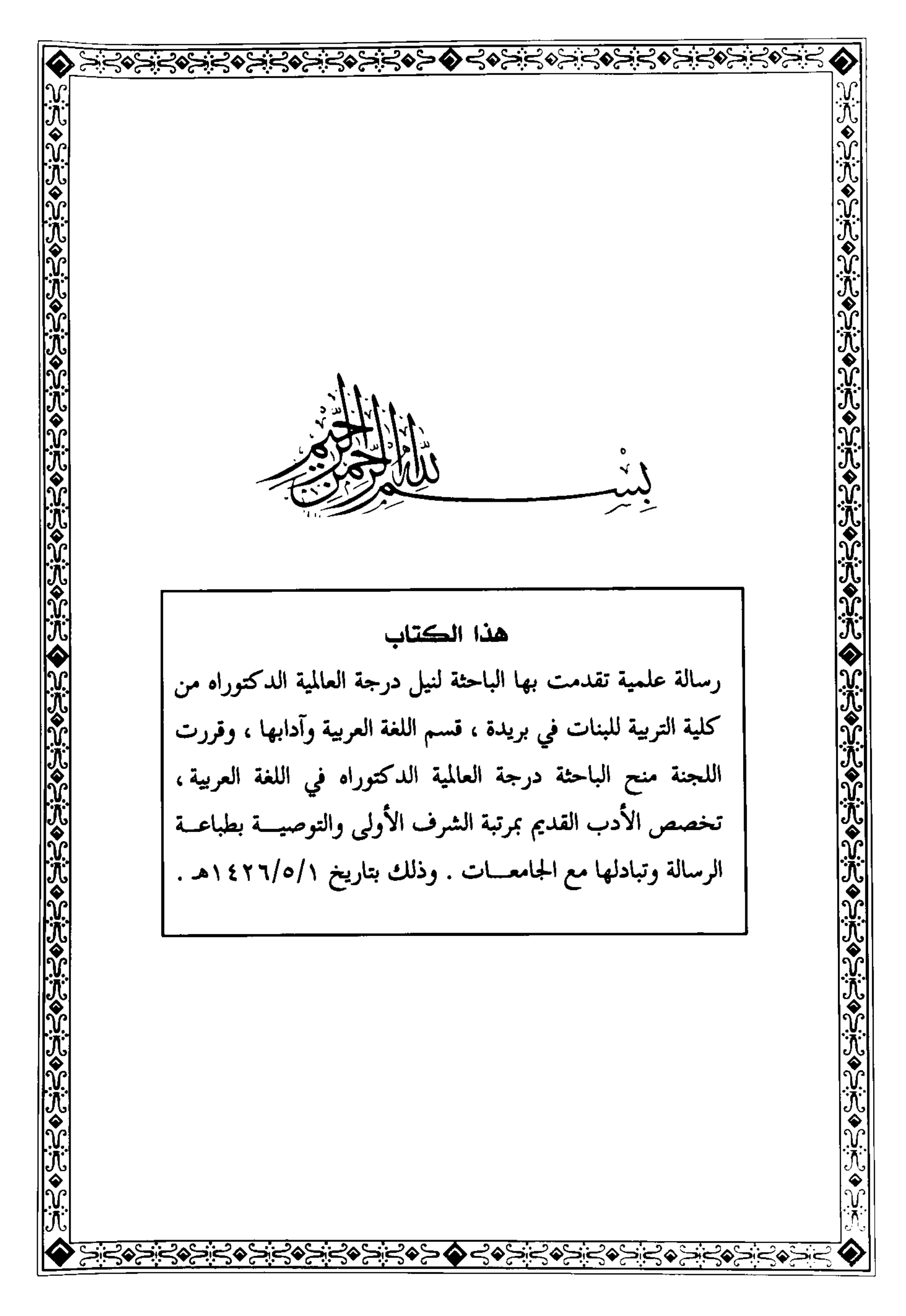


شخصية المرأة في القصص القرآني

دراسة أدبية تحليلية

إعداد
الدكتورة نورة بنت محمد بن فهد الرشيد

دار ابن الجوزي



بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

رسالة علمية تقدمت بها الباحثة لنيل درجة العالمية الدكتوراه من كلية التربية للبنات في بريدة ، قسم اللغة العربية وآدابها ، وقررت اللجنة منح الباحثة درجة العالمية الدكتوراه في اللغة العربية ، تخصص الأدب القديم بمرتبة الشرف الأولى والتوصية بطباعة الرسالة وتبادلها مع الجامعات . وذلك بتاريخ ١/٥/١٤٢٦هـ .

من كلمات بعض الأساتذة عن الرسالة

١- كلمة الأستاذ الدكتور: عبد الباسط أحمد علي حمودة (أستاذ الأدب والنقد في كلية التربية للبنات في بريدة، والمشرف على رسالة الباحثة):

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، وتبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، وأخبر فيه عن أحوال السابقين وأنباء اللاحقين من الأمم ورسلهم: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، محمد بن عبد الله عليه وعلى آله وصحابته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أفضل صلاة وأزكى تسليم.

وبعد: فقد عُني القرآن الكريم بالقصص، وعبَّر عنه بصور مختلفة، منها الحديث والنبأ والخبر وغير ذلك. ونزعم - لو وضعنا في اعتبارنا أسباب النزول - أن أكثر من ثلاثة أرباع القرآن الكريم قصص، فهو مأدبة يجد فيها كل وارد بغيته ومأربه.

والباحثة الفضلى - وفقها الله - قد فهمت رسالة القصة في الأدب عامة وفي القرآن خاصة، وأرادت أن تكشف عن أهم عنصر من عناصرها - كما عرفها الناس الآن في دنياهم المتأخرة - والتي سبق إليها القرآن الكريم قبل خمسة عشر قرنًا، ألا وهي شخصية المرأة. وتلتزم الباحثة الأصالة في مفهوم القصة دون أن تنجرف إلى المفاهيم الأخرى، فالقصة في القرآن الكريم

---

(١) سورة هود: الآية: [١٢٠].

تتسع إلى تتبع الأثر والبيان والخبر والأمر وغير ذلك.

ومن جدة الباحثة - وفقها الله - تفريقها بين القصص العربي الإسلامي وبين القصص الغربي الحديث الذي انحاز إليه أكثر رواد القصة في العصر الحديث وانحرفوا عن أصالة التراث بإغراء من الذين يريدون إذابة الشخصية الإسلامية بإخضاعها للثقافة الغربية العلمانية!

وعناصر القصة في القرآن الكريم متعددة، كالسَّرد والحوار والبيئة الزمانية والمكانية التي أشارت إليها الباحثة، وركزت على دور الشخصية النسوية.

وتأتي أصالة الباحثة في تعريف الشخصية ومدلولها في اللغة وفي علمي الاجتماع والنفس وفي العمل الأدبي.

وتكشف الباحثة عن عناية القرآن الكريم بشخصية المرأة، ومشاركتها في كل مجالات الحياة الاجتماعية والإنسانية، فتعرض نماذج لشخصيتها بين الإيمان والكفر، ومواجهتها للكفر والطغيان، واختلافها مع الزوج المؤمن، والمرأة الحكيمة الحازمة، والعاشقة، والغيرى ... إلى غير ذلك في استقصاء وإحاطة لما عرض له القصص القرآني.

ومع ما تقدم فإن الباحثة الفضلى - وفقها الله - تتحدث عن دور اللغة في بناء القصة واستخدام السرد والحوار والتوافق الصوتي في ترسيخ المبنى والمعنى، مما يبرز الشخصية ويصورها على الوجه الذي يليق بمكانتها الاجتماعية في الحياة العامة والخاصة.

وبعد: فهذا البحث يصور لونًا من ألوان عناصر القصة في القرآن الكريم، وهذا القصص يمتاز بالإيجاز الذي هو سمة الإعجاز في تعبيره بجوامع الكلم، وهو صدى للبلاغة العربية التي تؤثر الإيجاز على الإطناب.

وصلى الله على سيدنا محمد الذي بعثه الله ليتمم مكارم الأخلاق، والذي كان خلقه القرآن.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.



٢- كلمة الأستاذ الدكتور: عبد الجواد محمد محمد طبق (أستاذ البلاغة والنقد في كلية التربية للبنات في بريدة، وعضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة في جامعة الأزهر بالقاهرة، والمشرف المساعد على الرسالة):

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد الكائنات وخير من نطق بالضاد نبينا محمد، وعلى آله وصحابته مصابيح الهدى وأمراء البيان.

وبعد: فأرى أن هذا البحث الذي أشرفتُ عليه قد اجتمعت فيه - بتوفيق الله تعالى ورعايته - عناصر جودة عديدة قلَّما اجتمعت أو تجتمع في بحوث أخرى، ومن أهم هذه العناصر ما يلي:

١- ارتباطه بالقرآن الكريم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1].

٢- كونه غير مسبوق في حديثه عن شخصية المرأة في القصص القرآني على هذا المستوى الذي ورد عليه على الرغم من وجود دراسات سابقة عديدة عن المرأة في القرآن الكريم.

٣- كون الباحثة امرأة تتحدث عن شخصية المرأة في القصص القرآني، ولا شك أنها - في هذا الجانب - أقدر على النفوذ إلى أعماق المرأة وطبيعتها

(١) سورة فصلت، الآية: [٤٢].

وأبعاد شخصيتها النفسية والفكرية من الرجل، وهذا أمر على درجة كبيرة من الأهمية في المعالجة الأدبية والنفسية لشخصية المرأة في القرآن الكريم على أي مستوى من مستويات هذه الدراسة.

٤- استيعاب الحديث لمعظم نماذج المرأة في القرآن الكريم على الرغم من تعدد هذه النماذج ووفرتها.

٥- حسن العرض أسلوبًا وطريقة لوضوح الفكرة في ذهن الباحثة.

٦- الاجتهادات الشخصية التي انفردت بها الباحثة في بعض جوانب البحث فيما لم تجده عند المفسرين، وحسن الفهم لما وجدته عندهم.

٧- وفرة المصادر والمراجع وتنوعها وحسن الإفادة منها.

٨- الأمانة العلمية في عزو الآراء لأصحابها أو التعقيب عليها في حيدة وموضوعية.

ومن هنا أدعو الله تعالى للباحثة بالمزيد من التوفيق في حياتها بصفة عامة، وفي مسيرتها العلمية بصفة خاصة، إنه سميع قريب مجيب الدعوات، كما أوصي بطبع هذا البحث لتعم الفائدة منه على المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بصفة عامة، وعلى المرأة المسلمة بصفة خاصة، علمًا بأن هذا البحث قد أجيز من اللجنة العلمية المشكلة لمناقشته بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى والتوصية بطبعه على نفقة وكالة كليات البنات بالمملكة العربية السعودية.

وصلى الله وسلم وبارك على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحابته أجمعين.



٣- كلمة الأستاذ الدكتور: حسن محمد باجوده (أستاذ الدراسات القرآنية الأدبية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، وعضو لجنة المناقشة):

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعـد:

فإنّي بفضل الله تعالى قد قرأت قراءة فاحصةً الرسالة المذكورة لنيل درجة الدكتوراه، وتبيّنت أنّها قد بُذِل فيها مجهودٌ كبيرٌ من أجل الإلمام بالموضوع الذي تبيّن أنه واسع، واجتهادٌ من أجل دراسته من الوجهتين الأدبيّة والتحليلية، والمراد بذلك الدّراسة البلاغيّة في المقام الأوّل ...

وقد بذلت الطالبة جهدها في توظيف المصادر والمراجع وتوظيف ملكتها. وقد حالفها التوفيق كثيرًا ...



٤- كلمة الأستاذ الدكتور: خليل إبراهيم أبو دياب (أستاذ الأدب العربي بجامعة القدس المفتوحة في الرياض، وعضو لجنة المناقشة):

أودّ أن أشيد بالجهود الطيبة التي بذلتها الباحثة في إعداد المادة العلمية ومناقشتها وتحليلها للوصول إلى النتائج العلمية المناسبة بشيء كثير من الحيدة والموضوعية، فضلًا عن الاطلاع الواسع والعميق على مختلف كتب التفسير والدراسات القرآنية المتنوعة ... مما جعل الرسالة صورة جيدة ورائعة لثقافة الباحثة وعقليتها البحثية، وقدرتها المتميزة على البحث والمناقشة والتحليل ...

نرجو للباحثة مزيد التوفيق، وأن يبارك الله في جهودها العلمية المقبلة.

٥- كلمة الأستاذ الدكتور: عيد محمد الطيب (أستاذ فقه اللغة في كلية التربية للبنات في بريدة):

قرأتُ للباحثة مبحث التوافق الصوتي للشخصية في أسلوب السرد القصصي، فوجدتها قد استثمرت معلوماتها الصوتية في هذا العمل الأدبي.

أكثر الله من أمثالها، وجعلها في خدمة لغة كتابه الكريم.



المقدمة

المقدمة

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحابته والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن كتاب الله ﷻ هو أشرف ما صرفت إليه الهمم، وأعظم ما مد به قلم، يجد فيه الدارسون والباحثون في علوم اللغة، وغيرها من العلوم المختلفة بغيتهم، فهو البحر الذي لا ينضب معينه مهما اختلفت المشارب.

أودع الله في ألفاظه من صنوف الجزالة والفصاحة، وفنون البيان ما أذهل عقول العقلاء، وأدهش ألباب الفضلاء وتحدى به الإنس والجن، فكان كما قال - تعالى -: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1].

وحري بكل مسلم ومسلمة أن يتعلمه، ويفهم معانيه، ويستكنه أسرار تعبيراته، ويغوص في أسرار بلاغته، ولغته، وفصاحته، وأوجه إعجازه وبيانه، ويتدبره حق التدبر، كما أمر الله - تعالى - في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[2].

ومن هذا المنطلق سعيتُ جادة في البحث عن دراسة أدبية قرآنية لأطروحتي للدكتوراه، ولم أشأ أن أتوجه توجهًا آخر؛ حرصًا على الفائدة

---

(١) سورة الإسراء، الآية: [٨٨].

(٢) سورة النساء، الآية: [٨٢].

العميمة، والنفع الثر، وأعظمه « علمٌ ينتفع به »[1] يكون - بإذن الله - صدقة جارية في الدنيا، وذخرًا في الآخرة.

فهداني الله - بعد مشورة الأستاذ الدكتور: حسن محمد باجودة (أستاذ الدراسات القرآنية بجامعة أم القرى) - جزاه الله خيرًا - إلى اختيار (**شخصية المرأة في القصص القرآني**)، لدراستها دراسة أدبية تحليلية. وذلك من بين نماذج الشخصيات المختلفة في قصص القرآن الكريم. ولا غرو، فالقرآن الذي جعل القصة وسيلة من أنجح الوسائل لتحقيق معظم أغراضه؛ اهتم بالمرأة أيما اهتمام، وعني بإبراز سمات شخصيتها المختلفة، وأبدع في تحليل عواطفها وانفعالاتها، وجعلها أنموذجًا بارزًا من بين نماذجه المتعددة في قصصه، وكل ذلك بأساليب متنوعة من شأنها توجيه السلوك الإنساني نحو الخير والفضيلة، والنأي به عن الشرِّ والرذيلة.

وتبرز أهمية الموضوع من خلال الأمور التالية:

١ - أنه يركز على دراسة شخصية المرأة من جوانبها العديدة، من خلال أقدس الكتب والمصدر الأول للتشريع، وللقصة اعتبارات فيه، وهو القرآن الكريم.

٢ - أن لدراسة « الشخصية » في القصة أهمية كبرى، بوصفها المجال الذي تدور حوله الأحداث، والحديث عنها يرتبط ارتباطًا تلازميًا بتحليل أبعادها المختلفة.

٣ - أن في اختيار شخصية المرأة من بين الشخصيات الأخرى، للدراسة

---

(١) جزء من حديث رواه أبو هريرة رضي الله عنه، ونصه: « أن رسول الله ﷺ قال: « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له ». مسلم ابن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم [٤٢٢٣].

والتحليل ما يضفي على البحث امتيازًا خاصًّا، وجِدَّة ؛ حيث لم تسبق هذه الدراسة دراسة أخرى على هذا النحو الذي نحوته فيها.

٤ - هذه الدراسة تعين على تذوق نصوص القصص القرآني، والتأمل في معانيها، واستكناه أسرار تعبيراتها ؛ لإبراز ما حوته من كنوز مزخورة في شخصية المرأة ؛ لتكون معلمًا بارزًا ومنارة مضيئة لشخصية المرأة اليوم وغدًا.

وإلى جانب ما سبق كان من وراء قصدي لهذه الدراسة أسباب عدة، من أهمها وأبرزها ما يلي:

١ - الحرص على فهم معاني كتاب الله ﷻ، وتأمل أساليبه، بقدر الاستطاعة.

٢ - خلو المكتبة الأدبية من الأبحاث المفصلة والمحللة لشخصية المرأة في القصص القرآني.

٣ - الإفادة من القيم الخلقية والمبادئ الاجتماعية التي اشتمل عليها القرآن الكريم في قصصه، في حياتنا المعاصرة.

٤ - توضيح ما اتصف به المنهج القرآني في تناوله لشخصية المرأة.

٥ - إظهار ما اشتمل عليه القصص القرآني من التشويق والمتعة على الرغم من قيامه على الحقائق المطلقة.

هذا ومما تجدر الإشارة إليه، أني بذلت كل ما في وسعي في البحث عن دراسة أدبية تحليلية خاصة بشخصية المرأة في القصص القرآني، فلم أجد !، على الرغم من كثرة الدراسات في مجال القصص القرآني !.

والذين كتبوا عن القصص القرآني، ركزوا على إظهار سماته، وخصائصه الفنية، وعناصره، ومن ضمنها الشخصية...، وأورد بعضهم

نماذج مختصرة لشخصيات من قصص الرجال والنساء. وإن كان أبرز ما كتب في القصص القرآني وأهمه، كتاب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، لعبدالكريم الخطيب.

على أني وجدت كتابين عن الشخصية في القصص القرآني، يتطلب المقام أن أذكرهما؛ حتى لا يفهم أنهما متشابهان مع دراستي هذه.

أحدهما: بناء الشخصية في القصة القرآنية، للدكتور مصطفى عليان. وفيه حديث عن مفهوم الشخصية وبنائها في القصص القرآني. ونماذج لعدد من الشخصيات البارزة من الأنبياء، والمؤمنين،والكافرين. ومن ضمنهم شخصية مريم ابنة عمران، وشخصية ملكة سبأ باعتبارهما أنموذجين للمرأة المؤمنة، والمرأة الكافرة. والكتاب مختصر جدًا، من القطع الصغير الحجم، على الرغم من جودة إشاراته.

ثانيهما: الحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني: للدكتور، عبدالمرضي زكريا وفي الباب الثاني من هذه الدراسة، حديث عن أنماط الشخصية ونماذجها في القصص القرآني، وذكر لنماذج عدة من شخصيات الرجال والنساء، والأخيار والأشرار. ولكن هذه النماذج جاءت مختصرة جدًا، وأفاد الكاتب في بعضها من كتاب القصص القرآني للخطيب.

وعلى هذا، فأرجو أن تكون دراسة شخصية المرأة في القصص القرآني - على الصورة التي سأتناولها في أطروحتي هذه - إضافة مثمرة في مكتبة الدراسات الأدبية القرآنية.

ولعل من أظهر معالم الصورة التي انفردت بها هذه الدراسة ما يلي:

١ - التركيز على إبراز أبعاد رسم شخصية المرأة في القصص القرآني المختلفة.

٢ - توظيف مواقف النساء المختلفة لبيان دور الشخصية النسوية في القصص القرآني وعلاقتها بالعناصر الأخرى.

٣ - توظيف هذه المواقف - أيضًا - لبيان المنهج الذي احتذاه القرآن الكريم في تناوّل شخصية المرأة.

٤ - بيان التوافق الصوتي لشخصية المرأة في أسلوب السرد القصصي.

وإذا كانت هذه المعالم وغيرها، تؤكد أهمية هذا البحث، وحاجة المكتبة الأدبية إليه، فقد واكب ذلك أن يكون المنهج الذي احتذيته في التناول، هو المنهج التحليلي الفني.

وقد تناولت هذا الموضوع وفق خطة قائمة على تمهيد، وثلاثة فصول، وخاتمة. وذلك على النحو التالي:

١ - **التمهيد**. ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: القصة بين القديم والجديد.

المبحث الثاني: مدلول الشخصية.

المبحث الثالث: عرض لآيات القصص المعنيَّة بالدراسة والتحليل.

٢ - **الفصل الأول**: **أبعاد شخصية المرأة في القصص القرآني**. ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: البعد العقدي، ونماذجه.

المبحث الثاني: البعد النفسي، ونماذجه.

المبحث الثالث: البعد الاجتماعي، ونماذجه.

٣ - **الفصل الثاني**: **دور الشخصية النسوية في القصص القرآني**. ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: شخصية المرأة والحدث القصصي.

المبحث الثاني: شخصية المرأة والبيئة.

المبحث الثالث: الدور الوظيفي وتفاوته بين الشخصية الرئيسة والشخصية الثانوية.

٤ - **الفصل الثالث**: **المنهج القرآني في تناول شخصية المرأة**. ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: المنهج ولغة السرد في الكشف عن ملامح الشخصية.

المبحث الثاني: المنهج وأهمية الحوار في المشهد القصصي.

المبحث الثالث: المنهج وطرائق البناء الفني في عرض الشخصية وتصويرها.

٥ - **الخاتمة**: وتشتمل على أبرز النتائج التي توصلت إليها في هذه الدراسة.

وأما عن المنهج الذي اتبعته في هذه الدراسة، فهو على النحو التالي:

١ - حرصت على أن أجمع المادة العلمية من مظانها، وكان جمعي لها قائمًا على الاستقصاء. كما حرصت على أن أتتبع تفسير الآيات موضع الدراسة والبحث من معظم كتب المفسرين، وكان في مقدمة التفاسير التي أفدت منها: (جامع البيان للطبري، والكشاف للزمخشري، والتفسير الكبير للرازي، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، والبحر المحيط لأبي حيان، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، ونظم الدرر للبقاعي، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود، وروح المعاني للألوسي، ومحاسن التأويل للقاسمي، وتيسير الكريم الرحمن للسعدي، والتحرير والتنوير لابن عاشور، وفي ظلال القرآن لسيد قطب، وتفسير الشعراوي).

كما أني أفدت من تفاسير أخرى رجعت إليها، وبحثت فيها، وأشرت إلى ذلك في الهامش في حالة الاستفادة. وإن كنت لم أجد فيها من غزارة المادة العلمية التي أحتاجها ما وجدته في غيرها.

وقد رتبت التفاسير - أثناء جمعي للمادة العلمية - حسب تاريخ وفيات أصحابها، بينما رتبت المراجع التي أفدت منها حسب أسبقية تأليفها.

٢ - من حيث الآيات المختلف في تفسيرها: قمت بجمع أقوال المفسرين في الآية ثم رجحتُ أحد الأقوال حسب قوة استدلال صاحبه. وقد أذكر الخلاف دون ترجيح. وكثيرًا ما أكتفي بذكر الراجح من تفسير الآية المختلف في المراد منها دون ذكر الخلاف.

ومما يطمئن قلبي، ويريح ضميري، رجوعي إلى أقوال المحققين من علمائنا الأفاضل، وترجيحاتهم في تفاسيرهم، كالشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله.

٣ - بذلت جهدًا في البحث عن الأحاديث النبوية من مظانها، وإن كنت قد استعنت كثيرًا بصحيحي البخاري ومسلم. وسألت فضيلة الشيخ: سليمان العلوان - حفظه الله - عن بعض الأحاديث التي وجدتها في مصادر أخرى غير الصحيحين، وأشكلت عليَّ صحتُها؛ حرصًا مني على ألا أورد في الرسالة حديثًا ضعيفًا أو موضوعًا أو في سنده كلام. كما أفدتُ منه - حفظه الله - في ترجيح بعض الأحاديث على بعض حسب قوة السند والمتن.

٤ - كان منهجي المتبع في الحاشية على النحو التالي:

- عزو كل آية إلى السورة التي وردت فيها، مع تحديد رقم الآية، واسم السورة.

- ذكر المصادر التي استقيت منها الأحاديث النبوية، وتوضيح ما في الأحاديث من ألفاظ غريبة إن وجدت.

- توضيح معاني المصطلحات والمفردات التي تحتاج إلى توضيح.

- التعليق على بعض المواطن التي يستدعي البحث التعليق عليها، ولا يحسن إيرادها في المتن.

- إيراد لفظ (ينظر) عند التصرف في المادة العلمية للمصدر أو المرجع المفاد منه، والاستغناء عنه عند النقولات النصية من المصدر أو المرجع.

٥ - قمت بالتعريف بأسماء النساء المختارات للدراسة، حسب ما ورد في كتب التفاسير، والتنبيه على من لم يثبت اسمها في خبر صحيح.

٦ - كنتُ قد رتبت البحث على أن أذكر آيات القصص كاملة في البعد العقدي، وأكتفي بالإشارة إليها في البعدين النفسي والاجتماعي، ولكني رأيت أن حاجتي للاستشهاد بآيات القصص ليست فقط في الفصل الأول، ووجودها مجموعة تحت البعد العقدي فقط، مما لا يستقيم به البحث، ولهذا اخترت أن أعرض آيات القصص المختارة في بداية البحث، ثم أختار منها موضع الاستشهاد في فصول الرسالة ومباحثها حسب ما يتطلبه المقام ويقتضيه الحال.

٧ - تم تصنيف شخصيات النساء في كل بعد من الأبعاد في الفصل الأول إلى مجموعات، كل مجموعة منها تضم قصص النساء اللاتي يجمع بينهن هدف واحد أو سلوك معين، وقد حال هذا التصنيف دون التزام الترتيب التاريخي لقصصهن في هذا الفصل، بينما تم التزامه في الفصلين الثاني والثالث.

٨ - قمتُ بمحاولة التنسيق بين المباحث، حرصًا على تلافي التكرار في مواقف النساء. وإن اقتضى الحال وناسب المقام ذكر موقف سبق الحديث عنه، أشرتُ إلى موضعه في الهامش.

٩ - عرضتُ في خاتمة الرسالة أهم نتائج البحث وتوصياته.

١٠ - قمتُ بعمل فهارس في نهاية الرسالة ؛ فهرس الآيات القرآنية، وفهرس الأحاديث النبوية، وفهرس المصادر والمراجع.

هذا، ومن أهم الصعوبات التي واجهتني في دراستي هذه ما يلي:

١ - غزارة المادة العلمية، وضخامتها، الأمر الذي استدعى مني مزيدًا من الجهد في البحث والاستنباط وتخير المطلوب، مع تحري الدقة، والحذر من الإسرائيليات، والاكتفاء بما ثبتت صحته.

٢ - وجود أكثر من بعد في معظم شخصيات القصص المختارة، وهو ما استنفد مني وقتًا طويلًا، ومحاولات مضنية لا يعلمها إلا الله ! فضلًا عن دقة مبحث التوافق الصوتي للشخصية في الفصل الثالث، حيث استغرقت مدة طويلة وأنا أتملاه وأتأمله حتى فتح الله عليّ فيه.

وعلى الرغم من هذه الصعوبات، وغيرها التي واجهتني في هذه الدراسة، فقد كنت أستعذب مرارتها، وأستلذ تعبها، وأشغف بها، ولا أراها إلا من بركة كتاب الله الذي يسره الله للذكر، ومن فتح الله وتيسيره عليّ، فله الحمد والمنة والفضل، ولا حول ولا قوة إلا به.

وإن كان من كلمة شكر بعد شكر الله - عز وجل -، وشكر والديّ الكريمين - أطال الله في عمريهما على طاعته، ورضي عنهما - فهي لمشرفيّ الفاضلين: الأستاذ الدكتور / عبد الباسط أحمد حمودة، والأستاذ الدكتور / عبد الجواد محمد طبق، فقد وجهاني، وبصراني، حتى استوت هذه الدراسة قائمة على سوقها. أسأل الله - سبحانه - أن يجزيهما خير الجزاء، ويرفع مقامهما في عليين.

ولا يفوتني أن أشكر الدكتور الفاضل: عبد الله بن محمد العضيبي (الأستاذ المشارك في كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى في مكة المكرمة)، الذي دلني على بعض ما استرشدت به من كتب، وبصَّرني بقواعد أفدت منها، وكان مستشارًا أمينًا.

كما يطيب لي أن أوجه شكري إلى كلٍّ من:

- وكيلتي الدراسات العليا، السابقة منهما واللاحقة، الأستاذة الدكتورة/ عفاف صبرة، والدكتورة/ فاطمة عبده؛ لقاء حرصهما ومتابعتهما.
وإلى كل من تعاون معي من داخل كلية التربية، ومن خارجها.

- الأستاذ الدكتور/ فتحي أبو عيسى (أستاذ الأدب والنقد في كلية التربية للبنات في الرياض سابقًا)، الذي كان مقررًا أن يشرف على الرسالة، فلم يُكتب له ذلك، وكان عمله معي في تعديل الخطة آخر عهدي به.

- عضوي لجنة المناقشة، الأستاذين الفاضلين: الأستاذ الدكتور/ خليل إبراهيم أبو دياب، والأستاذ الدكتور/ حسن محمد باجودة، على تشجيعهما.

- فضيلة الشيخ المحدِّث: سليمان العلوان؛ لتفضله بالإجابة على الأسئلة التي طرحتها عليه فيما يخصُّ بعض الأحاديث.

- أختي في الله: أم عاصم؛ لمساندتها لي، وتجشمها عناء السفر للبحث عن مراجع مهمة عزَّ عليَّ الوصول إليها.

- أشقائي الأفاضل، وشقيقاتي الفضليات؛ لتعاونهم.

- أخواتي في الله، وكلَّ من دعا لي، أو شاركني باهتمامه وسؤاله.

لكل هؤلاء أدعو الله - سبحانه - أن يوفقهم لما يحب ويرضى، ويجزيهم خيرًا.

هذا، والله من وراء القصد.



التمهيـــــد

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحــث الأول: القصة بين القديم والجديد.

المبحــث الثاني: مدلول الشخصية.

المبحث الثالث: عرض لآيات قصص النساء المعنيّة بالدراسة والتحليل.

المبحث الأول

القصة بين القديم والجديد

(أ) المدلول اللغوي للقصة:

إن تناول المفاهيم اللغوية للمصطلحات من شأنه أن يجليِّها وبخاصة إذا كان المفهوم اللغوي يتلاقى مع المفهوم الاصطلاحي في أساسه. وهذا ما ينطبق على مفهوم « القصة ». فالقصة مصطلحٌ يضم معاني عدة جَلَتْها لنا المعاجم اللغوية وبينتها، فكان من أبرز معانيها ما يلي:

١ - تتبع الأثر:

فالقَصُّ والقَصَصُ تتبع الأثر، يقال: قصصتُ الشيء إذا تتبعتُ أثره شيئًا بعد شيء، ومنه قوله - تعالى -: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾[1]، وقوله - تعالى-: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾[2]. أي اتّبعي أثره.

والقاصُّ: من يأتي بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها وألفاظها[3].

٢ - الحفظ:

يقال: تقصصَ كلامه: أي ؛ حفظه.

(١) سورة الكهف، جزء من الآية: [٦٤].

(٢) سورة القصص. جزء من الآية: [١١].

(٣) ينظر: الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن، كتاب القاف (مادة قصص)، وابن منظور: أبو الفضل جمال الدين: لسان العرب (مادة قصص)، و: الزبيدي، محمد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس (مادة قصّ).

٣ - البيان:

فالقصُّ: البيان، ومنه قوله - تعالى -: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[١]، أي نبيِّن لك أحسن البيان.

٤ - الخبر والأمر والحديث:

فالقِصَّةُ والقَصَصُ: الخبر المَقْصُوص، وقصّ عليه الخبر قصصًا: أعلمه به وأخبره، وتقصّص الخبر تتبعه.

والقِصَّةُ: الأمر والحديث. واقْتَصَصْتُ الحديثَ: رويتُه على وجهه[٢].

ومن كلمة قَصَّ يَقُصُّ بمعنى: تتبعَ الأثر شيئًا بعد شيء، خرج المعنى الاصطلاحي؛ قصّ يقصُّ بمعنى: تتبَع الصحيحَ وأعلمَ عنه ببالغ الدقة والتحري والأمانة العلمية.

«وبهذا تجرد معنى القصص من أعمق جذوره في الفعل العربي، وفي جميع استعمالاته الاصطلاحية من أي تخييل، أو تلفيق، أو تصور لما لم يقع»[٣].

(ب) مدلول القصص القرآني:

نستطيع أن نعرِّف القصص القرآني بأنه الجزء القرآني الذي يتتبع أحوال الأمم الماضية والنبوات السابقة، والأحداث الواقعة ليقدم منها ما يرى أنه

---

(١) سورة يوسف، جزء من الآية: [٣].

(٢) ينظر: ابن منظور: المصدر السابق نفسه والمادة نفسها، و: الزبيدي: المصدر السابق نفسه والمادة نفسها، و: الجوهري: الصِّحاح (مادة قصص).

(٣) أحمد موسى سالم: قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح، ص ١٦٠، دار الجيل، بيروت، ط١، ت ط ١٩٧٨م.

يحقق الغاية، ويفي بالمقصود في معرضه[١]. ومن هنا كانت تسمية الأخبار التي جاء بها القرآن الكريم قصصًا مما يدخل في المعنى العام لكلمة خبر أو نبأ، فالنبأ يطلق على كل خبر ذي فائدة عظيمة يحصل به علمٌ أو غلبة ظن[٢].

ولقد استعمل القرآن الكريم الخبر والنبأ للتحدث عن الماضي، وإن كان قد فرق بينهما في الاستعمال؛ فاستعمل النبأ والأنباء في الإخبار عن الوقائع البعيدة، كما في قوله - تعالى -: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[٣]، وقوله - تعالى -: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾[٤]. في حين أنه استعمل الخبر والأخبار في الكشف عن الأحداث والوقائع القريبة العهد بالوقوع[٥]، كما في قوله - تعالى - للمؤمنين: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾[٦] وقوله - تعالى - في المنافقين: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾[٧].

ولا يصح أن يطلق على القصص القرآني اسم (الحكاية) برغم أن الحكاية تدل على المحاكاة والتقليد[٨]، بمعنى نقل الحدث كما رآه الناقل

(١) ينظر: مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، ص٣٠٦، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢١، ت ط ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م. وينظر: عبدالكريم الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص٤٥، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ت.

(٢) ينظر: الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، كتاب النون (مادة نبأ).

(٣) سورة هود، جزء من الآية: [١٢٠].

(٤) سورة الكهف، جزء من الآية: [١٣].

(٥) ينظر: الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص.٤٥

(٦) سورة محمد، الآية: [٣١].

(٧) سورة التوبة، جزء من الآية: [٩٤].

(٨) ينظر: الزبيدي: تاج العروس (مادة حكا)، وينظر: الجوهري: الصحاح (مادة حكى).

أو كما سمعه، بدليل القرآن الكريم لم يطلق على قصصه هذا اللفظ، ويبدو أن السبب في ذلك - والله أعلم - « هو أن عرض القرآن للأحداث الماضية ليس محاكاة لها، ولا تمثيلًا لشخوصها ومشاهدها، وإنما هو بعث لها، وإعادة لوجودها، في النظم المعجز الذي ينقل إلينا الماضي أو ينقلنا إليه، فنطالع هناك وجوه الحياة، في زمانها ومكانها حتى لكأننا أبناء هذه القطعة أو القطع من الزمن وأهله »[1].

كما لا يصحُّ أن يُطلق عليه لفظ (أسطورة) أو (أساطير) ؛ لأن الأساطير تعني الأباطيل والأكاذيب والأحاديث التي لا نظام لها[2]. وقد ظن المشركون أنَّ ما جاء في القرآن الكريم من أنباء الأمم السابقة وأخبارها أنه من قبيل الخرافات المسطورة، فقالوا - كما أخبرنا - تعالى - عنهم -: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[3]، وافتروا على رسول الله ﷺ بأنه يأتي إليهم بأساطير تملى عليه، وفي ذلك يقول - تعالى-: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[4].

وعلى هذا فالأسطورة أحاديث كاذبة ملفقة خلافًا للقصة القرآنية التي جاءت بالصدق والحق.

(جـ) الفرق بين القصص القرآني والقصص الأدبي:

القصة الفنية هي مجموعة من الأحداث، يرويها الكاتب، تتناول حادثة واحدة أو حوادث عدة بينها ترابط سردي، ويجب أن يكون لها بداية ونهاية.

---

(١) ينظر: الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص.٤٩

(٢) ينظر: ابن منظور: لسان العرب (مادة سطر)، وينظر: الزبيدي: تاج العروس (مادة سطر).

(٣) سورة النحل، الآية: [٢٤].

(٤) سورة الفرقان، الآية: [٥].

وهذه الحوادث تتعلق بشخصيات إنسانية مختلفة، تتباين أساليب عيشها وتصرفها في الحياة، على غرار ما تتباين حياة النّاس على وجه الأرض. ويكون نصيبها في القصة متفاوتًا من حيث التأثر والتأثير[1].

وينقسم الفن القصصي من ناحية المظهر والقالب إلى أقسام أربعة، وهي:

١ - **الأقصوصة**: وهي قصة قصيرة يعالج فيها الكاتب جانبًا من حياة، لا كل جوانب هذه الحياة؛ فهو يقتصر على سرد حادثة أو بضع حوادث يتألف منها موضوع مستقل بشخصياته ومقوماته. على أن الموضوع مع قصره، يجب أن يكون تامًا ناضجًا من وجهة التحليل والمعالجة ولا يتهيأ هذا إلا ببراعة يمتاز بها الكاتب الأقصوصي، إذ إن المجال أمامه ضيق محدود، يتطلب التركيز الفني.

٢ - **القصة**: وهي التي تتوسط بين الأقصوصة والرواية، وفيها يعالج الكاتب جوانب أرحب مما يعالج في الأولى، فلا بأس هنا بأن يطول الزمن، وتمتد الحوادث، ويتوالى تطورها في شيء من التشابك.

٣ - **الرواية**: وفيها يعالج المؤلف موضوعًا كاملًا أو أكثر، زاخرًا بحياة تامة واحدة أو أكثر، فلا يفرغ القارىء منها إلا وقد ألمَّ بحياة البطل أو الأبطال في مراحلها المختلفة.

٤ - **الحكاية**: وما هي إلا سوق واقعة أو وقائع حقيقية أو خيالية، لا يلتزم فيها الحاكي قواعد الفن الدقيقة، بل يرسل الكلام كما يواتيه طبعه.

---

(١) ينظر: محمد كامل حسن المحامي: القرآن والقصة الحديثة، ص٩، دار البحوث العلمية، ط١، ت ط ١٩٧٠م. وينظر: د / محمد يوسف نجم: فن القصة، ص٩، دار صادر - بيروت، دار الشروق - عمان، ط١، ت ط ١٩٩٦م.

والقصة بمعناها العام تتألف عادة من **ثلاثة عناصر رئيسة**، هي: الموضوع والشخصيات والحوار. وتبدأ القصة بالتمهيد للفكرة، ثم تتطرق إلى ظهور العقدة، ثم تتوصل إلى حل هذه العقدة أو ما يشبه الحل. وهذا هو الهيكل المألوف في بناء القصة بوجه عام.

ومن القواعد المقررة في كتابة القصة ما يأتي:

١ - أن تكون للقصة وحدة فنية.

٢ - أن يراعى فيها جانب التلميح ما أمكن.

٣ - أن يُعنى الكاتب برسم شخصياته.

٤ - أن يبقي الكاتب للشخصيات كيانها المستقل، فلا يجعلها بوقًا ينقل ما يلقيه إليه من الكلام.

٥ - أن يكون لكل قصة معنى ومغزى.

٦ - ألا تكون الفكرة التي يعالجها الكاتب في قصصه مصوغة في قالب موعظة أو حكمة، بل يجب أن تكون مطوية في غضون الحوادث.

٧ - ألا تخلو القصة من عنصر التشويق.

٨ - أن يُعنى الكاتب بلغة قصته؛ فيجعل الألفاظ على أقدار المعاني، ويتجنب المبالغة في تنميق الكلام وتحسينه، كما يتجنب الأسلوب المبتذل[١].

تلك هي أقسام الفن القصصي، وعناصر القصة، والقواعد المقررة في كتابة القصة بوجه عام. وبإمعان النظر في قصص القرآن نجد أن الحدود

---

(١) ينظر: محمود تيمور، فن القصص (دراسات في القصة والمسرح) ص٩١ وما بعدها، دار ومطابع الشعب، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة التربية والتعليم، ط بدون، ت ط بدون.

والأبعاد التي رسمها النقاد المحدثون للقصة الفنية لا تنطبق عليها إلا في نواح محددة سنتعرض لها في دراستنا لاحقًا إن شاء الله .

فمفهوم القصة بالمعنى الحديث إنما هو وليد أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر نتيجة لما توافر بين أيدي الباحثين من تراث يختلف في تاريخه ومدلولاته وبيئته عن تراثنا العربي، ولهذا فإن هذا المفهوم يصدق على أهل الغرب ولا يمكن تطبيقه وأمثاله على القصة العربية فضلًا عن محاكمة القصص القرآني لمدلولاته .

وليست القصة القرآنية لونًا من ألوان الأقصوصة أو القصة أو الرواية أو الحكاية بالمعنى المتواضع عليه، كما أنها لا تحمل من العناصر الفنية ما حمَّلها نُقَّاد العصر الحديث[1] .

وإن من خطل الرأي وفساد المذهب أن نخلط بين التراث العربي والإسلامي وبين التراث الغربي في الدراسة ثم نخرج بمصطلحات واحدة تعمم عليها . وهذا لا يعني أبدًا أن نغفل ما بين النصِّ القرآني وما يتحقق فيه مِنْ عناصر قصصية تلتقي بصورة ما مع عناصر القصة الحديثة[2]، ستدل عليها الباحثة وتسميها فيما بعد - إن شاء الله - .

ولعل من أبرز ما يمتاز به القصص القرآني عن القصص الأدبي ما يلي :

١ - القصص القرآني جزء من كتاب الله - ﷻ - الذي : ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ

---

(١) ينظر: محمد خير محمود العدوي: معالم القصة في القرآن الكريم، ص٣٨، دار العدوي، عمان، الأردن، ط١، ت ط ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

وينظر: د/ بكري شيخ أمين: التعبير الفنيّ في القرآن الكريم، ص٢٢٤، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان ط ١، ت ط ١٩٩٤م.

(٢) ينظر: د / محمد بن حسن الزير: القصص في الحديث النبوي ص٢٤، ط٣، ت ط ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾[١].

أما القصص الأدبي فمصدره البشر الذي يعتري كلامهم القصور وتشوبه المثالب والعيوب.

٢ - القصة القرآنية وسيلة لإبلاغ دعوة القرآن الكريم الدينية وتثبيتها، وليست عملًا فنيًّا مستقلًا في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه - كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة التي ترمي إلى أداء غرض فني طليق - ولهذا خضعت القصة القرآنية للأغراض الدينية في الموضوع وطريقة العرض وإدارة الحوادث، ولكن هذا الخضوع لم يمنع من بروز الخصائص الفنية في عرض القصة، وبخاصة خصيصة التصوير، ومعنى هذا أن التعبير القرآني يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني فيما يعرضه من الصور والمشاهد. بل إنه يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية[٢].

٣ - لا يمكن أن يتخلل القصص القرآني الخيال[٣]؛ لأن الخيال يضاد الحقيقة والصدق وليس كذلك القصص القرآني الذي هو: «في موضوعه نسيج من الصدق الخالص، وعصارة من الحقيقة المصفَّاة، لا تشوبه شائبة من وهم، أو خيال. إنه يُبنى من لبنات الواقع، بلا تزويق ولا تمويه. وهذا

(١) سورة فصلت، الآية: [٤٢].

(٢) ينظر: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص١٤٣، دار الشروق في القاهرة وبيروت، ط١٣، ت ط ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

(٣) الخَيَال والخَيَالة: ما تشبه لك في اليقظة والحُلُم من صورة. والخَيَال والخيالة: الشخص والطَّيف. والخيال لكل شيء تراه كالظِّل، وكذلك خيال الإنسان في المرآة وخَياله في المنام صورة تِمثْاله، وربما مرَّ بك الشيء شبه الظل فهو خيال، يقال: تخيَّل لي خَيالُه (لسان العرب، مادة خيل).

الواقع لا يتغير وجهه حين يعرض هذا العرض المعجز في ذلك الأسلوب القرآني الرائع »[١].

أما القصة الأدبية فلا تكاد تخلو من عنصر الخيال، فهي لا تعرض لنا إلا صورة مموهة من الواقع الذي تعرضه كتب السير والتاريخ، ولا يطالب الكاتب الذي يتجه اتجاهًا واقعيًّا في قصصه أن يعرض علينا من الحوادث ما سبق وقوعه فعلًا، أو ما تثبت صحته بالوثائق، ولا من الشخصيات ماله ذكر في سجلات المواليد والوفيات ولكن عليه أن يقنعنا بإمكان حدوث مثل تلك الحوادث ووجود مثل تلك الشخصيات في الحياة التي نحياها ونعيشها[٢]، ولذا كان الخيال في الغالب « هو اللون الذي تعتمد عليه القصة في الإثارة والتشويق »[٣].

٤ - القصص القرآني يختلف عن القصص الفني من حيث الجانب النفسي ؛ فالقصص الفني الذي يترجم عن مشاعر وانفعالات انفعل بها صاحبها وعانى تجربة نقلها إلى مشاعر أخرى ليس في غنى عن علم النفس الذي يرتاد هذه المجالات بحثًا وتحليلًا، فيهتدي على ضوء ما يستخلصه من ذلك الأثر الفني إلى خفايا نفسية صانعة، فيحللها ويدرسها، كما يفعل نقاد الأدب الذين يتوصلون إلى نفسية الشاعر من خلال شعره، ونفسية القاصّ من خلال قصصه.

وأما القصص القرآني فلا يخضع لهذه الطريقة من الوجهة النفسية إلا من جانب واحد، وهو تحليلها لمعرفة مدى تأثيرها في النفوس، وعوامل

---

(١) الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص٩.

(٢) ينظر: نجم: فن القصة، ص١٠.

(٣) الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص٣٩.

التأثير فيها ؛ لأن مصدرها الخالق الذي يعلم السر وأخفى. وأما من حيث الجانب الآخر وهو المتعلق بذات منشئها ﷻ فهذا لا يصح الخوض فيه أو البحث عنه ؛ لأن المطلوب منا هو التفكر في خلقه لا في ذاته سبحانه[١].

٥ - القصة القرآنية تهتم بإيراد المغزى، في حين أنه من مقاتل القصة الفنية إن ورد فيها المغزى مباشرًا غير منسوج من بنيتها الداخلية[٢]، ومن أمثلة إيراد المغزى قوله - تعالى - في سورة يوسف عليه السلام بعد ذكر أحداث القصة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٣]، وقوله - تعالى - في قصة موسى عليه السلام مع فرعون في سورة يونس، إشارة إلى فرعون: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[٤].

تلك هي بعض من المزايا التي امتاز بها القصص القرآني عن القصص الفني بمفهومه الحديث، ولعل هذه الدراسة ستكشف لنا عن مزايا أخرى لم تورد في هذا الموضع.

(د) أنواع القصص القرآني:

في القرآن الكريم أنواع عدة من القصص، وهذه الأنواع نستطيع تصنيفها إلى صنفين: الصنف الأول، يختص بالبناء الموضوعي، ويشمل:

---

(١) د / التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص٣٠٩ - ٣١٠، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر ١٩٧١م، الشركة التونسية للتوزيع.

(٢) ينظر: د / سليمان الطراونة: دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية، ص١٦، ط١، ت ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

(٣) الآية: [١١١].

(٤) الآية: [٩٢].

القصص التاريخي، والتمثيلي، والغيبي، والقصص الواقع للرسول ﷺ.

والصنف الآخر، يختص بطريقة العرض، وأسلوب الأداء، ويشمل: القصص الطويل، والمتوسط، والقصير[1]، **وفيما يلي توضيح ذلك**:

١ - القصص من حيث البناء الموضوعي:

أ - القصة التاريخية:

وهي التي تستمد مادتها من أحداث التاريخ الواقعة فيما مضى مِن الزمان، بيد أنها لا تُعنى من الأحداث في القرآن الكريم إلا بما يحقق الغرض المقصود، ويوافق الهدف المُتوخى؛ لأن التاريخ فيه لم يقصد لذاته بل لاستخلاص العظة والعبرة منه، والتفكُّر في العلاقات السببية بين مقدمات الأحداث ونتائجها وفق سُنن إلهيّة يصلها بالإنسان ما في كيانه مِن نوازع خير وشر.

ومن هنا نجد أن القرآن الكريم لم يلتزم في عرض أخبار التاريخ التي انتقاها قواعد تدوينه وعرضه، كذكر زمان الواقعة ومكانها وترتيبها الزمني، ولكنه مع ذلك صاغها في أسلوب إنشائي مؤثر.

وقد عُدّ هذا القصص القرآني أشدّ تأثيرًا من التاريخ؛ لأنه يمد الإنسان بسلاح الإيمان والثبات، ويُعرِّفه بسنن الله الجارية التي لا تحابي أحدًا من البشر[2].

---

(١) تصنيف القصة إلى اللونين السابقين تصنيف فريد استأثر به « محمد شديد » من بين الباحثين، بيد أنه أغفل إيراد القصة التمثيلية من بين أنواع القصص ذي البناء الموضوعي برغم أهميتها، ينظر: محمد شديد: منهج القصة في القرآن، ص٣٥، شركة ومكتبات عكاظ، جدة، ط١، ت ط ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

(٢) ينظر: نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص١٧٦، ١٨٣، ٢٤٤.

والقصص التاريخي يشتمل على:

١ - قصص الأنبياء السابقين قبل محمد ﷺ:

وقد تضمن دعوتهم إلى أقوامهم، والمعجزات التي أيدوا بها، وموقف أقوامهم منهم، ومراحل الدعوة وتطورها، وعاقبة المصدقين بهم والمكذبين[١].

وقصصهم تمثل لنا الصراع بين الخير والشر، وتبرز طبيعة البشر[٢]. والأنبياء الذين وردت قصصهم في القرآن هم: آدم، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ولوط، وشعيب، ويعقوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وداود، وسليمان، ويونس، وإلياس، وإدريس، وزكريا، ويحيى، وعيسى - عليهم السلام - مع التفاوت في المادة المعروضة.

٢ - قصص غير الأنبياء ومن لم تثبت نبوتهم:

ومنها: قصص ابني آدم، وهاروت وماروت، والذي مر على القرية الخاوية على عروشها، و الذي انسلخ من آيات الله، وأصحاب السبت، وأصحاب القرية، وأصحاب الأخدود، وأهل الكهف، وصاحب الجنتين، وذي القرنين، ولقمان.

ومن القصص ما هو متصل بقصص الأنبياء، فقصص: أم موسى، وابنتي الرجل الصالح، وقارون، ومؤمن آل فرعون، وبقرة بني إسرائيل، وتيه بني إسرائيل، ورحلة موسى مع الخضر، متصلة بقصة موسى عليه السلام.

---

(١) ينظر: القطان، مباحث علوم القرآن، ص٣٠٦.

(٢) ينظر: محمد ناجي مشرح: الآفاق الفنية في القصة القرآنية، ص٨٧، دار المجتمع، جدة، ط١، ت ط ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

وقصة مريم، متصلة بقصة عيسى عليه السلام . وقصة طالوت وجالوت، متصلة بقصة داود عليه السلام [١]. وقصة امرأة العزيز، متصلة بقصة يوسف عليه السلام.

ب - القصة التمثيلية:

« وهي كل قصة بُدئت بما ينبئ أنها مثل مضروب لمشابهة حال المخاطَبين لأحداثها، أو كانت غير منسوبة إلى أشخاص معينين ودلت أحداثها على إمكان وقوعها من بعد أكثر من مرّة »[٢].

ومن أغراضها: العظة والعبرة، وتقريب المعقولات من المحسوسات، أو أحد المحسوسين من الآخر، وتأمل عدل الله - عز وجل - بين خلقه فيما تجلى من نتائج الحكم الواحد لأمرين متماثلين، وإن باعد بينهما الزمان والمكان[٣].

وليس في القصة التمثيلية في القرآن أي تخييل أو تلفيق إذ إن كل مثل ضربه القرآن سواء كان مقيدًا بأشخاص وأمكنة أم غير مقيد بهما هو من عين الواقع فعلًا وليس مِنْ قبيل الفرض الذي قد يقع أو لا يقع[٤]. فهي قصة تصور الواقع في أحداثها، ومواقفها، وحوار شخصياتها، وفي كل ما دار فيها من قول أو فعل.

ومن أبرز أمثلتها: قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف، وأصحاب الجنة في سورة القلم.

---

(١) ينظر: د/ صلاح الخالدي: القصص القرآني (عرض وقائع وتحليل أحداث) ج١، ص٢٨ وما بعدها، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.

(٢) د/ مأمون فريز جرار: خصائص القصة الإسلامية، ص٧٥، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، ط١، ت ط ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

(٣) ينظر: نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص٢٤٦.

(٤) ينظر: الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص١٠٤.

ج - القصة الغيبية:

وتشمل كل ما قصه القرآن الكريم من أحداث ووقائع من صميم الغيب، ومن أبرزها: قصة آدم عليه السلام التي حدثت في الملأ الأعلى، وقصة محاكمة عيسى عليه السلام التي وردت في ختام سورة المائدة، في مشهد من مشاهد الآخرة.

د - القصة الواقعة للرسول ﷺ:

وهي قصص تتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن الرسول ﷺ، ومن أبرزها: غزوة بدر وأحد في سورة (آل عمران)، وغزوة حنين وتبوك في سورة (التوبة)، وغزوة الخندق في سورة (الأحزاب)، وغزوة الحديبية في سورة (الفتح)، وحادثة الإسراء في سورة (الإسراء)، وحديث الإفك في سورة (النور). وغير ذلك مما جاء به القرآن الكريم من أحداث الوقائع الدائرة في محيط الدعوة الإسلامية بقصد العبرة والعظة والتوجيه والتربية[1].

٢ - القصص من حيث طريقة العرض وأسلوب الأداء:

أ - القصة الطويلة:

القصة الطويلة ليس لها مقياس محدد لا تحيد عنه، بل مقياسها تقريبي للتفريق بين أشكال القصة القرآنية التي روعي فيها من حيث الإطناب والإيجاز الفائدة المترتبة على مجيء الشكل على ما هو عليه.

وعلى كلٍّ نستطيع القول: بأن القصة الطويلة - على وجه التقريب - هي

---

(١) ينظر: شديد: منهج القصة في القرآن، ص٣٧ وما بعدها، وينظر: القطان: مباحث في علوم القرآن، ص٣٠٦.

ما حوت جوانب كثيرة مِنْ حياة صاحبها، كأن تتناول مولده، ونشأته، ورسالته، وموقف قومه منه.... إلخ[1]، ومن أمثلتها: قصص يوسف، وموسى، وعيسى عليهم السلام.

وقد لا تعرض القصة من أولها، ولكن تعرض منها جوانب شتى. وعلى سبيل المثال: قصتا إبراهيم وسليمان - عليهما السلام - ليس فيهما خبر ولادتهما أو نشأتهما، ولكن فيهما لمحات أخرى من حياتهما، ومع ذلك تصنفان ضمن القصة الطويلة[2]، وكل ذلك مرتبط بالمقام الذي استدعى جانبًا معينًا من القصة دون سواه، والذي قد يذكر في موقع آخر استدعاه مقام آخر.

ب - القصة المتوسطة:

وهي ما تناولت مواقف من جزء من حياة صاحبها بالتفصيل الذي لا يبلغ درجة القصة الطويلة في المشاهد والحلقات المعروضة، فهي تتوسط بين القصتين الطويلة والقصيرة، ومن أمثلتها: قصة آدم، ونوح، وداود عليهم السلام، ومريم[3].

ج - القصة القصيرة:

وهي التي تُعرض حلقتها أو حلقاتها مختصرة، ولا تبلغ ما بلغته القصة المتوسطة مِنْ حيث التفصيل، ومن أمثلتها: قصص هود، وصالح، ولوط، وشعيب، وإسماعيل عليهم السلام.

---

(١) ينظر: مشرح: الآفاق الفنية في القصة القرآنية، ص٣٥ وما بعدها.

(٢) ينظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص١٦٦.

(٣) ينظر: مشرح: الآفاق الفنية في القصة القرآنية، ص٤٤، وينظر: قطب: التصوير الفني في القرآن، ص١٦٦ وما بعدها.

ومن القصص القرآني ما هو متناهٍ في القصر، من أمثلة: قصص زكريا، وأيوب، ويونس عليهم السلام. ومنه ما يشار إلى صاحبه إشارة ولا يذكر شيءٌ عنه سوى وصف خاطفٍ، كقصص إدريس، واليسع، وذي الكفل(١) عليهم السلام، وكل ذلك مرتبط بالمقام كما سبق.

(هـ) أغراض القصص القرآني:

القصص القرآني قصص هادف، لا يساق لأجل التسلية أو المتعة الفنية، أو لمجرد التأريخ، وهو وإن كان ذا خصائص فنية راقية، وتأثير نفسي ووجداني في المتلقي، لكنه صدق لا خيال فيه، وحق لا زيف فيه(٢).

وبما أن القصص القرآني جزء من القرآن الكريم، فإن مقاصده وأغراضه تتواكب مع المقصد العام للقرآن، فما هو إلا وسيلة من وسائل التبليغ فيه. ولهذا كان من أبرز أغراضه ما يلي:

١ - إثبات أن ما جاء به النبي محمد ﷺ من القرآن، وحي منزل من عند الله، فالرسول ﷺ لا يعلم الغيب، وبالتالي فلا يعلم عن قصص السابقين شيئًا، فيكون ما جاء به من قصصهم وحيًا منزلًا من الله - سبحانه وتعالى -، وفي ذلك يقول - تعالى -: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾(٣)، ويقول - تعالى -: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٤).

---

(١) ينظر: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص١٦٧ وما بعدها.

(٢) ينظر: د/ فضل عباس: قصص القرآن الكريم، ص٣٤، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط١، ت ط ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.

(٣) سورة آل عمران: [٤٤].

(٤) سورة هود: [٤٩].

٢ - بيان اشتراك جميع الرسل في الدعوة إلى العقيدة الإسلامية التي أساسها التوحيد، وإن اختلفوا في الشرائع، وفي ذلك يقول - تعالى -: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[1]، ويقول - تعالى-: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[2].

٣ - تصديق التبشير والتحذير، من خلال عرض نماذج واقعية من هذا التصديق ومثاله ما جاء في سورة الحجر: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾، وتصديقًا لذلك جاءت قصة بشارة إبراهيم بغلام: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾، ففي هذه القصة تبدو الرحمة.

ثم قال- تعالى -: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾[3] وفي هذه القصة تبدو الرحمة في جانب لوط، والعذاب في جانب قومه المهلكين[4].

٤ - تثبيت فؤاد النبي ﷺ وزيادة يقينه أنه على حق، وفي ذلك يقول - تعالى-: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[5]، وكذلك

---

(١) سورة الأنبياء: [٢٥].

(٢) سورة الشورى جزء من الآية: [١٣].

(٣) الآية: [٤٩ - ٦٤].

(٤) ينظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص١٥٣، ١٥٤.

(٥) سورة هود، جزء من الآية: [١٢٠].

تخفيف ما أصابه من قومه، حيث واجه إخوانه الرسل من قبله من أقوامهم مثل ما واجه. إضافة إلى تثبيت قلوب المؤمنين الذين يؤذون ويضطهدون، وبيان أنهم هم المنصورون، وفي ذلك يقول - تعالى - بعد أن ذكر علو فرعون وشدة أذيته للمؤمنين: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾[1].

٥ - إظهار فضائل الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وإبراز مكانتهم عند الله، وتخليد ذكرهم.

٦ - مقارعة أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى، ومواجهتهم بما وقعوا فيه من التحريف والتبديل[2]، كقوله - تعالى -: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[3]، وقوله - تعالى -: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾[4].

٧ - تمكين حقائق الإيمان والتوحيد في نفوس المتلقين وقلوبهم، وذلك من خلال أحداث بعض القصص وما فيها من حوار هادف مقنع[5].

٨ - التحذير من عداوة الشيطان الأزلية، وكيف أخرج أبوينا من الجنة،

(١) سورة القصص: الآية [٥، ٦].

(٢) ينظر: مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ص٣٠٧.

(٣) سورة آل عمران: الآية [٩٣].

(٤) سورة المائدة: الآية [١٥].

(٥) ينظر: د / فضل عباس، قصص القرآن الكريم، ص٣٦.

وتوعد ذريتهما بالإغواء والإغراء والإضلال، وجنّد كثيرًا، فضلوا وأضلوا، وفي ذلك يقول - تعالى -: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

٩ - تقوية ثقة المؤمن بربه، وتوكله عليه، عن طريق عرض بعض القصص المشتملة على المعجزات والكرامات، كما حدث لإبراهيم وزكريا - عليهما السلام - حيث رزقهما الله بالولد، برغم ما هما عليه من كبر السن، وعقر الزوج!

١٠ - ترسيخ العظة والعبرة في النفس، والإفادة من النماذج الفاضلة في الاقتداء بسلوكها، والتحذير من النماذج السيئة واجتناب سلوكها. فالله - تعالى - يقول في ختام سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

هذه بعض الأغراض والمقاصد التي من أجلها ساق القرآن الكريم ما ساق من قصصه، وهي غيض من فيض، وحسب المتلقي أن يمعن النظر في كتاب الله؛ فيجد كثيرًا من المقاصد السامية والأغراض النبيلة التي لا يتسع المقام لذكرها.



(١) سورة الأعراف: الآية [٢٧].

(٢) الآية: [١١١].

المبحث الثاني

مدلول الشخصية

مما لا ريب فيه أن للشخصية المتوازنة المتكاملة المتمتعة بالصِّحة النفسية والعقلية والجسمية والروحية والخلقية، أثرًا كبيرًا في سعادة الفرد والمجتمع، ولأجل هذا نهضت العلوم على اختلافها كعلم النفس وعلم التربية وعلم الاجتماع لدراسة الشخصية، وارتبطت دراستهم تلك بالدراسة الأدبية.

ولهذا كان على الباحثة: أن تتناول الشَّخصية بالتعريف اللغوي حسب ما ورد في المعاجم ثم تبين صلتها بعلمي النّفس والاجتماع، وتنتقل من ذلك كله إلى إبراز مفهومها الأدبي بوصفها عنصرًا بارزًا من عناصر القصة، مع توضيح أهمية دراستها والوقوف عندها، ثم تشير إلى الشخصية في القصص القرآني تمهيدًا للتوسع في عرضها وتصويرها وتحليلها.

(أ) مدلول الشخصية في اللغة:

يشير المعجم إلى دلالة لفظة (الشخصية) من خلال مادة (شخص) فيقول: الشَّخْصُ: سواد الإنسان وغيره تراه من بعيد، وكل شيء رأيت جُسْمانَه، فقد رأيتَ شَخْصَه.

والشَّخْص: كلُّ جسم له ارتفاع وظهور، والمرادُ به إثبات الذات فاستُعير لها لفظ الشَّخْص. والجمع أشْخَاصٌ وشُخُوصٌ وشِخاص.

والشَّخِيصُ: العظيم الشَّخْص، والأنثى شَخِيصةٌ، والاسمُ الشَّخاصةُ. ورجلٌ شَخِيصٌ إذا كان سيِّدًا، وقيل: شَخِيصٌ إذا كان ذا شَخْصٍ وخَلْقٍ

عظيم بَيّن الشَّخاصَة. وشَخُصَ الرجلُ، بالضم، فهو شَخيصٌ أي جَسِيم.

وشَخَص، بالفتح، شُخُوصًا: ارتفع. والشُّخُوصُ: ضِدُّ الهُبوط.

والشُّخُوصُ: السَّيْرُ من بَلَدٍ إلى بلدٍ.

وشَخَص الرجل ببصرِه عند الموت يَشْخصُ شُخُوصًا: رفَعه فلم يَطْرِفُ[1].

وهذه المعاني تشير إلى ارتباط مدلول « الشخص » بالإنسان واقتصاره عليه.

ولم ترد مادة « شخص » في القرآن الكريم إلا في آيتين اثنتين ؛ في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[2]، وفي قوله - تعالى -: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[3].

أما مصطلح « الشخصية » فهو مصطلح محدث، فقد جاء في المعجم الوسيط: إن « الشخصية صفات تميز الشخص عن غيره. ويقال: فلان لا شخصية له: ليس فيه ما يميزه من الصفات الخاصة (محدثة) »[4].

(ب) مدلول الشخصية في علمي الاجتماع والنفس:

حين نتتبع مدلول الشخصية في العلوم التي أولت الشخصية جُلّ اهتمامها، وارتبط ذلك بالدراسة الأدبية نجد أن **علم الاجتماع** يركز على دراسة ما يحدث لشخصية الفرد نتيجة لارتباطه في المجموعات الإنسانية

---

(١) ابن منظور: لسان العرب (مادة شخص).

(٢) سورة إبراهيم جزء من الآية: [٤٢].

(٣) سورة الأنبياء جزء من الآية: [٩٧].

(٤) مادة (شخص).

المختلفة، والتي يتبع أعضاؤها طرقًا منسقة اجتماعيًا في تفكيرهم وشعورهم وأفعالهم، فشخصية الفرد الاجتماعية تكتسب قيم وثقافة وتراث المجتمع الذي تعيش فيه، كما تؤثر شخصيته فيمن حوله وتترك انطباعاتها عليهم[١].

وعلى هذا فإن شخصية الفرد تؤثر في تفاعله مع المجتمع، كما يؤثر المجتمع على بناء الشخصية وتكوينها، بوصفه منظومة شاملة للثقافة والحياة[٢].

وقد اهتم علم الاجتماع بهذه الجوانب من الشخصية التي لا تبرز ولا تظهر إلا في نطاق الجماعة. وسيفيد البحث من هذه النظرة في الكشف عن أوجه الارتباط بين شخصيات القصص، وعن أثر ثقافة المجتمع على تكوين أنماط معينة مِنْ الشخصيات بوصف الشخصية هي عنصر البناء الاجتماعي في كافة مستويات المجتمع[٣].

أما **علم النفس** فإنه حين يدرس الشخصية فإنه ينظر إلى الفرد كلًّا متكاملًا، « يعمل ويستجيب كوحدة تنتظم وتتفاعل فيها جميع أجهزته البدنية والنفسية، وتحدد سلوكه واستجاباته بطريقة يتميز بها عن غيره من الناس »[٤].

وإذا كانت الشخصية في علم النفس تعني مجموعة السمات الجسمية

(١) ينظر: قيس النوري: الاتجاه النفسي في الأنثروبولوجيا، ص٣٢٧، مجلة كلية الآداب، العدد (١١)، حزيران ١٩٦٨م. وينظر: د/ علي جلبي: دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية، ص١٧٩، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط و ت ط بدون.

(٢) ينظر: ناصر الحجيلان: الشخصية في قصص الأمثال العربية، ص٥، رسالة ماجستير لم تنشر، ١٤٢٠هـ، قسم اللغة العربية، جامعة الملك سعود.

(٣) ينظر: الحجيلان: المرجع السابق، مقتبس من: حسين الحاج حسن: علم الاجتماع الأدبي، ص١١٩، ط٢، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٠م.

(٤) د/ محمد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس، ص٢٢٣، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط٦، ت ط١٤١٣هـ /١٩٩٧م.

والعقلية والانفعالية والاجتماعية التي تميز الشخص عن غيره ؛ فإنَّ هذه السمات لا يستقل الواحد منها عن الآخر، بل إنها تتكامل وتتفاعل في الشخصية ويؤثر بعضها في بعض، فالشخصية وحدة متكاملة جسمية نفسية عقلية اجتماعية[١].

والحديث عن الشخصية يرتبط ارتباطًا تلازميًا بتحليل أبعادها المختلفة، ولعل سمات كل شخصية سنتناولها في هذا البحث ستتضح لنا من خلال تحليلها ودراسة أنماطها وأبعادها.

(جـ) مدلول الشخصية الأدبي، وقيمتها في العمل القصصي:

ورد مصطلح « الشخصية » بمعنى الفاعل الذي يقوم بالفعل، ويكون مدار المعاني الإنسانية ومحور الأفكار العامة.

ومعنى هذا أن الأفكار والمعاني لا تستقل عن الشخصية، فهي تحيا في الأشخاص، وتحيا بها الأشخاص، وسط مجموعة من القيم الإنسانية يتفاعل فيها الوعي الفردي مع الوعي العام في مظهر من مظاهر التفاعل على حسب ما يهدف إليه الكاتب في أغراضه الإنسانية، وفي نظرته لهذه القيم[٢].

والشخصية عنصر أساس في القصة، بل إنها أكثر عناصر القصة أهمية ؛ لأنها تصنع الأحداث، وتجري الحوار، وتكون متنوعة الأسلوب، بل إنها تكوِّن منظومة متداخلة متشابكة مع بقية عناصر القصة والتي يأتي الحدث

---

(١) ينظر: د / عبد المجيد منصور، و د / صالح أبو عباة: الشخصية الإنسانية والهدي الإسلامي، ص٩، دار غريب، القاهرة، ط بدون، ت ط ١٤١٧هـ.

وينظر: د / عبد الرحمن عيسوي: الإسلام والعلاج النفسي الحديث، ص٧٤، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط بدون، ت ط ١٩٨٨م.

(٢) ينظر: د / محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص٥٢٦، دار نهضة مصر بالفجالة، ط و ت ط بدون.

والحوار في مقدمتها، فالحدث يؤثر في الشخصية، والحوار يبلورها، ويكشف عن الكثير من جوانبها، كما أنه يؤدي وظيفة حيوية في سبيل تعميق الحدث وتطويره[١].

وبذلك نستطيع التعرف على الشخصية من خلال الحدث أو الحوار الذي تقوم به، فهي عندما تطلق في مجال دراسة القصة «يراد منها الجانب المحسوس الظاهر الذي تشترك به في بناء القصة من حديث وحدث، بصورة متوازنة مع بقية العناصر»[٢].

وتُعد الشخصية الإنسانية مصدر إمتاع وتشويق في القصة لعوامل كثيرة؛ منها أن هناك ميلًا عند كل إنسان إلى تحليل النفسيات ودراسة الشخصيات، والبحث عن الدوافع والأسباب التي تدفع المرء إلى أن يتصرف تصرفات معينة في الحياة، فضلًا عن رغبته الجموح في دراسة الأخلاق الإنسانية والعوامل التي تؤثر فيها، ومظاهر هذا التأثير.

وقارئ القصة لا يجد متعة في تصرفات الشخصيات، بقدر ما يجدها في الأسباب التي دعتها إلى مثل تلك التصرفات، وهو لا يعنى بالحوادث إلاّ لأنها تلقي أضواء جديدة على مشارب الشخصية، وليس الذي يعلق بذهنه بعد القراءة تطورُ الحوادث وتعقدها، بل الشخصية الإنسانية النابضة التي خلقها الكاتب.

ولعل سبب هذه المتعة التي يجدها القارئ عند تتبع خط سير الشخصية الإنسانية في القصة، ناتجٌ عن تلك الأواصر التي تنعقد بينهما؛ فقد يميل

---

(١) ينظر: د / الزير: القصص في الحديث النبوي، ص٢٣١.

(٢) د / علي حسن سليمان: القصة القرآنية الخصائص والأهداف، ص٥٤، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، ط١، ت ط ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

القارئ إلى الشخصية ويتعاطف معها ؛ لأنه يجد فيها مشابه منه، أو مشابه لشخصيات أخرى التقاها أو عرفها في جملة صفاتها أو في بعضها، وقد يحاول القارئ التشبه ببعض الشخصيات التي قرأها بسبب إعجابه بها.

ومن أسباب المتعة كذلك؛ الرغبة في التعرف على شخصيات جديدة تتصف بصفات ومُثُل تلقى هوىً في نفس القارئ[1].

(د) الشخصية في القرآن الكريم :

صور القصص القرآني الشخصية أحسن تصوير، وأعطاها ما تستحق من اهتمام، ومنحها قوامها الذي كانت تدب به بين الناس، بطريقة تجعلنا نتابعها بدقة، ونميز بين أنماط الخبيث والطيب، وبين مَنْ يُقتدى به ومن هو حقيق بالتجنب[2].

وفي القرآن نجد وصفًا للشخصيتين السوية وغير السوية، والعوامل المكونة لكلٍّ منهما.

وإذا ما أردنا أن نفهم شخصية الإنسان فهمًا واضحًا، فعلينا أن نفهم حقيقة العوامل المحددة لشخصيته سواء كانت جسمية أم روحية أم اجتماعية أم ثقافية، دون الاقتصار على دراسة العوامل الجسمية والاجتماعية والثقافية فقط، وإهمال الجانب الروحي في الإنسان، لأن الاقتصار على ذلك من شأنه أن يعطينا صورة غير واضحة وغير دقيقة للشخصية.

ولقد أخبرنا القرآن الكريم كيف خلق الله الإنسان من مادة وروح، فقال – تعالى –: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾

---

(١) ينظر: د/ نجم: فن القصة، ص٤٢ – ٤٤.

(٢) ينظر: طول محمد: البنية السردية في القصص القرآني، ص٥٦، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط بدون، ت ط ١٩٨٩م.

فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[1].

وفي موضع آخر يقول - تعالى -: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[2].

ومعنى الروح الذي ورد في الآيات التي تشير إلى خلق آدم هو: «روح منه - تعالى - يكون به استعداد الإنسان لمعالي الصفات وموالاة الحق»[3]، وهو: «عنصر علوي يتضمن استعداد الإنسان لتحقيق معالي الأمور، وأقدس الصفات. . . فهو الذي يؤهله للارتفاع فوق مستوى الحيوان، ويقرر له أهدافه وغايته العليا في الحياة، ويرسم له خطوط منهاجه، ويضيف على بشريته النزوع إلى مصدر القيم والمعارف التي تجعل له حقيقة إنسان»[4].

وعليه، فالإنسان يمتاز عن سائر المخلوقات بالروح التي تسري بين جنبيه وتجعله ينزع إلى معرفة الله، وعبادته، والتشوق إلى الفضائل والمثل العليا؛ ليكون أهلًا لخلافة الأرض.

ولا يمكن بحال أن تستقل المادة عن الروح في الإنسان، وإنما تمتزجان معًا ليتكون من هذا المزيج المتناسق شخصية الإنسان وكيانه.

ولأجل وجود المادة التي تنزع للهوى والشهوات، ووجود الروح التي تنزع للتسامي وطلب المثل؛ وجد الصراع في النفس الإنسانية؛ فإما أن

---

(١) سورة ص: الآية: [٧١، ٧٢].

(٢) سورة الحجر: الآية: [٢٨، ٢٩].

(٣) د / محمد نجاتي: القرآن وعلم النفس، مقتبس من: البهي الخولي، آدم عليه السلام، ص٢٢، ٣٢، ٣٣، القاهرة، مكتبة وهبة، ط ٣، ت ط ١٩٧٤م.

(٤) المرجع السابق نفسه.

تتغلب المادة فتكون الهزيمة والخسران، وإما أن تتغلب الروح فيكون النصر والغلبة. ولذا يقول -تعالى -: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾(١).

ومن رحمة الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - وحكمته؛ أن وهب الإنسان العقل الذي يميز به بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، وأمده بحرية الإرادة والاختيار؛ ليبتّ في أمر الصراع، ويختار الطريق الذي يريد، وعلى حسب ما يختار يكون نجاحه أو فشله في الاختبار، يقول - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(٢).

وحين لا يستخدم الإنسان عقله، فينساق وراء شهواته وملذاته وينسى ربه، يكون أضل من بهيمة الأنعام، كما أخبر - تعالى - في محكم تنزيله فقال: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾(٣).

بل هل هناك ما يدلّ على عدم نضوج الشخصية في إنسان لا يعرف كيف يتحكم في ميوله وشهواته ولا يعلم كيف يكبح جماح نفسه، فينساق خلف ما تمليه عليه من أمرٍ بالسوء، كما قال - تعالى - حكاية عن امرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٤).

ولا ريب في أن من كان مستيقظ الضمير، يستنكر ضعف إرادته وخطأه

---

(١) سورة النازعات: الآية: [٣٧ - ٤١].

(٢) سورة فصلت: الآية: [٤٦].

(٣) سورة الفرقان: الآية: [٤٣، ٤٤].

(٤) سورة يوسف: الآية: [٥٣].

ومعاصيه، ويعاجل نفسه باللوم والتقريع بعد كل معصية، ثم يعود إلى ربه مستغفرًا تائبًا، وهذا هو حال صاحب النفس اللوامة التي أقسم الله - سبحانه - بها فقال: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[1].

وأمّا من أخلص لربه، وتقرب إليه بالطاعات، ونهى نفسه عن المحرمات، وحقق التوازن التام بين مطالب الجسد ومطالب الروح فهنيئًا له نفسًا مطمئنة وعد الله صاحبها بالفوز والفلاح فقال - عز وجل -: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[2].

وحين يتحقق التوازن بين البدن والروح؛ تتحقق ذاتية الإنسان في صورتها الحقيقية الكاملة فيسعد في الدنيا والآخرة[3].

وفي هذا البحث ستعرض الباحثة نماذج عدة من الشخصيات النسوية في القرآن، وتحلل كنهها، وتبين كيف أن القصص القرآني صور شخصياته أروع تصوير، وأبرز صفاتها وسماتها وأبعادها المختلفة. والله أسأل العون والسداد.



(١) سورة القيامة: الآية: [١، ٢].

(٢) سورة الفجر: الآية: [٢٧ - ٣٠].

(٣) ينظر: د/ محمد نجاتي، القرآن وعلم النفس، ص٢٢٣ - ٣٣٦.

المبحث الثالث

عرض لآيات القصص المعنيّة بالدراسة والتحليل

(أ) قصة حواء :

١ - قال - تعالى -: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

٢ - وقال - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[2].

٣ - وقال - تعالى - ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل

---

(١) سورة البقرة، الآية: [٣٥-٣٩] .

(٢) سورة النساء، الآية: [١] .

لَكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[1].

٤ - وقال - تعالى -: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[2].

٥ - وقال - تعالى -: ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾[3].

٦ - وقال - تعالى -: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾[4].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: [١٩-٢٧].

(٢) سورة الأعراف، الآية: [١٨٩، ١٩٠].

(٣) سورة طه، الآية: [١١٧-١٢٣].

(٤) سورة الزمر، جزء من الآية: [٦].

(ب) قصة امرأة نوح:

١ - قال -تعالى-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾(١).

٢ - وقال - تعالى -: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾(٢).

٣ - وقال - تعالى -: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾(٣).

(جـ) قصة سارة:

١ - قال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾(٤).

٢ - وقال - تعالى -: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟

---

(١) سورة هود، الآية: [٤٠].

(٢) سورة المؤمنون، الآية: [٢٧].

(٣) سورة التحريم، الآية: [١٠].

(٤) سورة هود، الآية: [٦٩-٧٣].

عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾(١).

(د) قصة امرأة لوط:

١- قال - تعالى-: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾(٢).

٢- وقال - تعالى-: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾(٣).

٣- وقال - تعالى -: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾(٤).

٤ - وقال - تعالى -: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾(٥).

---

(١) سورة الذاريات، الآية: [٢٤-٣٠].

(٢) سورة الأعراف، الآية: [٨٣].

(٣) سورة هود، الآية: [٨١].

(٤) سورة الحجر، الآية: [٥٧-٦٦].

(٥) سورة الشعراء، الآية: [١٧٠-١٧٣].

٥ - وقال - تعالى -: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾(١).

٦ - وقال - تعالى-: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾(٢).

٧ - وقال - تعالى -: ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾(٣).

٨ - وقال - تعالى-: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾(٤).

(هـ) قصة امرأة العزيز:

قال -تعالى-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ

---

(١) سورة النمل، الآية: [٥٧] .

(٢) سورة العنكبوت، الآية: [٣٢-٣٣] .

(٣) سورة الصافات، الآية: [١٣٤-١٣٥] .

(٤) سورة التحريم، الآية: [١٠] .

لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ

بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾(١).

(و) قصة أم موسى وأخته:

١ - قال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾(٢).

٢ - وقال - تعالى -: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٣).

---

(١) سورة يوسف، الآية: [٢١-٣٥، ٥٠-٥٧].

(٢) سورة طه، الآية: [٣٧ - ٤٠].

(٣) سورة القصص، الآية: [٧ - ١٣].

(ز) قصة امرأة فرعون:

١ - قال - تعالى -: ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾(١).

٢- وقال - تعالى -: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢).

(حـ) قصة ابنتي شيخ مدين:

١ - قال - تعالى-: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾(٣).

(ط) قصة زوج موسى:

١ - قال - تعالى -: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾(٤).

---

(١) سورة القصص، الآية: [٩].

(٢) سورة التحريم، الآية: [١١].

(٣) سورة القصص، الآية: [٢٣-٢٨].

(٤) سورة طه، الآية: [٩ - ١٠].

٢ - وقال - تعالى -: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾(١).

٣ - وقال - تعالى -: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾(٢).

(ي) قصة ملكة سبأ:

قال - تعالى -: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ

(١) سورة النمل، الآية: [٧].

(٢) سورة القصص، الآية: [٢٩].

صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

(ك) قصة امرأة عمران:

قال - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

(ل) قصة مريم:

١ - قال - تعالى -: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

---

(١) سورة النمل، الآية: [٢٠-٤٤].

(٢) سورة آل عمران، الآية: [٣٣-٣٧].

وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾(1).

٢ - وقال - تعالى -: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(2).

٣ - وقال - تعالى -: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾(3).

٤ - وقال - تعالى -: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ

---

(1) سورة آل عمران، الآية: [٣٦ - ٣٨] .

(2) سورة آل عمران، الآية: [٤٢ - ٤٧] .

(3) سورة المائدة، الآية: [٧٥] .

بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[(١)].

٥ - وقال - تعالى -: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[(٢)].

٦ - وقال - تعالى -: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[(٣)].

٧ - وقال - تعالى -: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[(٤)].

(م) قصة زوج زكريا:

١ - قال - تعالى -: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ

(١) سورة مريم، الآية: [١٦ - ٣٣].

(٢) سورة الأنبياء، الآية: [٩١].

(٣) سورة المؤمنون، الآية: [٥٠].

(٤) سورة التحريم، الآية: [١٢].

وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾(١).

٢ - قال - تعالى -: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾(٢).

٣ - قال - تعالى -: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾(٣).

٤ - قال - تعالى -: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾(٤).

(ن) قصة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

قال - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ

(١) سورة آل عمران، الآية: [٤٠].

(٢) سورة مريم، الآية: [٥].

(٣) سورة مريم، الآية: [٨، ٩].

(٤) سورة الأنبياء، الآية: [٩٠].

عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[١].

(س) قصة أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها :

قال - تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾[٢].

(ع) قصة عائشة وحفصة رضي الله عنهما :

قال - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ... ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ

---

(١) سورة النور، الآية: [١١ - ٢٦] .

(٢) سورة الأحزاب، الآية: [٣٦، ٣٧] .

نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾[1].

(ف) قصة المجادلة (خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها):

قال - تعالى -: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

(ص) قصة امرأة أبي لهب:

قال - تعالى -: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾[3].



(١) سورة التحريم، الآية: [١، ٣ - ٥].

(٢) سورة المجادلة، الآية: [١ - ٤].

(٣) سورة المسد، الآية: [١ - ٤].

الفصـل الأول

أبعاد شخصية المرأة في القصص القرآني وأسس بنائها

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحـث الأول: البعد العقدي، ونماذجه.

المبحث الثاني: البعد النفسي، ونماذجه.

المبحث الثالث: البعد الاجتماعي، ونماذجه.

أبعاد شخصية المرأة في القصص القرآني وأسس بنائها

إن مما يجدر التنبيه عليه هو أن مصطلح الأبعاد مصطلح فني حديث لدى نقاد القصة اليوم، ومنقول عن كلمة أجنبية يقصد بها: جوانب الشخصيّة الثلاثة التي تتكون منها، وهي: الجانب الخارجي، والجانب الداخلي، والجانب الاجتماعي[1].

وعلى الرغم من حداثة هذا المصطلح لكننا نجد أن القصص القرآني قد سبق كُتَّاب القصة في العصر الحديث، والأدباء في رسم ملامح الشخصية، وإبراز جوانبها المختلفة العقدية، والنفسية، والاجتماعية، وعليه، فلا ضير - إن شاء الله - من استخدامه مصطلحًا متعارفًا عليه للتقريب للأذهان، والبيان، والتوضيح.

وتتجلى أهمية دراسة الأبعاد في القدرة الفنية التي تربطها رباطًا وثيقًا بنمو الحدث والشخصية؛ « لتتحقق وحدة العمل الأدبي أو وحدة الموقف، في توتره، وغزارة معناه، وفي تجسيم هذه المعاني في نتاج حي لا يخرج عن دائرة الاحتمال، ولا استقلال لبعد منها عن البعدين الآخرين »[2].

كما أن دراسة الأبعاد تساعدنا على التعرف على الشخصية وفهمها، فضلًا عن إسهامها في تحقيق الهدف من سرد القصة.

---

(١) ينظر: د / الزير: القصص في الحديث النبوي، ص٢٩٦، بتصرف من: حسين القباني: فن كتابة القصة، ص٧٠، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، مصر، ١٩٦٥م.

(٢) د / غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص٥٧٣.

ولقد وضع القصص القرآني نماذج عدة للمرأة، وكشف عن انفعالاتها، وأبان عن مشاعرها وهواجسها وخواطرها، وحدَّد مستوى فكرها وعقيدتها، وأبرز مكانتها الاجتماعية... فاتضحت جوانب شخصيتها عقديًّا، ونفسيًّا، واجتماعيًا.

وفي هذا الفصل سيتم تناول أبعاد شخصية المرأة في القصص القرآني، وما يندرج تحت كلِّ بعد منها من نماذج.

المبحث الأول

البعد العقدي ونماذجه

تأتي العقيدة التي يؤمن بها المرء، وينافح عنها، في مقدمة الأمور التي تسهم في تكوين شخصيته، وفي تحديد سماته المميزة له، وفي توجيه سلوكه على نحو معين خاص يمتاز به.

ولما كان العامل الرئيس في تقويم الشخصية في نظر القرآن هو العقيدة والتقوى، فإنا نجد القرآن الكريم قد اهتم بتصنيف الناس على أساس العقيدة إلى أنماط ثلاثة هي: المؤمنون، والكافرون، والمنافقون، ولكلٍّ نمط من هذه الأنماط الثلاثة سماته الرئيسة العامة التي يمتاز بها عن النمطين الآخرين.

وتصنيف القرآن الكريم للناس على أساس العقيدة يتفق مع أهدافه الجليلة من حيث هو كتاب عقيدة وهداية، ودعوة، وسلوك، وحياة، وتشريع ...

ويعد الإيمان بعقيدة التوحيد والحساب في الآخرة، بمثابة القوة المحركة للشخصية، والموجهة لها في سياق معيّن من السلوك الخاص الذي امتاز به المؤمنون.

بينما يعد فقدان الإيمان بتلك العقيدة، بمثابة فقدان تلك القوة المنظمة والمنسِقة للسِّمات الأخرى للشخصية، والموجهة لها نحو هدف محدد واضح في الحياة، هو عبادة الله وابتغاء وجهه.

وعليه؛ فإن غياب هذا الهدف الدافع والموجه للسلوك قد أفقد الكافرين توازن شخصياتهم؛ فانحرفوا باتباع ملذاتهم وشهواتهم، كما

أفقدهم اتزانهم الانفعالي؛ فكانوا يكرهون المسلمين، ويحقدون عليهم، ويحسدونهم، ويعادونهم[١].

والبعد العقدي في القرآن يسم شخصية الرِّجال والنساء على السواء؛ فكما نجد في القرآن رجالًا مؤمنين وكافرين ومنافقين، نجد فيه نساءً مؤمنات وكافرات، يفرض وجودهن في القصص القرآني تجلية شخصياتهن من حيث البعد العقدي، وبيان مدى تأثيره في توجيه سلوكهن. فإلى هذه النماذج:

(أ) النماذج بين الإيمان والكفر:

٭ نماذج الإيمان:

١ - أنموذج المرأة الراسخة الإيمان أمام الكفر والطغيان:

(امرأة فرعون):

واسمها الثابت « آسية » كما في الحديث الذي سيأتي ذكره. وقيل: إن اسم والدها: مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد، الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف عليه السلام، وعلى هذا لم تكن من بني إسرائيل. وقيل: إنها كانت من بني إسرائيل من سبط موسى. وقيل: إنها كانت عمته[٢].

وقال الألوسي: والمشهور القول الأول[٣]. والله - تعالى - أعلم.

---

(١) ينظر: د / محمد نجاتي: القرآن وعلم النفس، ص٢٣٨ وما بعدها.

(٢) ينظر: إسماعيل بن كثير: قصص الأنبياء، ص٣٥١، تحقيق: د / مصطفى عبد الواحد، دار القبلة للثقافة الإسلامية في جدة، مؤسسة علوم القرآن في بيروت، ط٤، ت ط ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

(٣) ينظر: شهاب الدين محمد الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، جـ٢٠- ص٣٤٤، تعليق: محمد أحمد الآمد، وعمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط١، ت ط١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

امتن الله- تعالى - عليها بكفالة نبيه موسى عليه السلام صغيرًا، والإيمان به كبيرًا، كما أعانها - عز وجل - على تحمل الأذى في سبيل ثباتها على الدين، فكان ثوابها عند الله عظيمًا.

والقرآن الكريم يحدثنا عن موقف مشرِّف لهذه المرأة قبل إيمانها يتمثل في محاماتها عن نبي الله موسى عليه السلام لدى فرعون، واستيهابها له منه، وقد أراد قتله، الأمر الذي جعلها سببًا رئيسًا في نجاته من القتل والإبقاء على حياته ليكبر بعد ذلك، ويبعثه الله رسولًا، ويكون هلاك فرعون ونجاة بني إسرائيل على يديه.

ففي الوقت الذي التقط فيه آل فرعون تابوت موسى عليه السلام من السَّاحل وحملوه إلى فرعون.. وقفت امرأة فرعون تحاج عن الصغير، وتذبُّ دونه، وتحببه إلى فرعون، وقد حنّن الله قلبها عليه، وعطّفه، وحببه إليها كأشدِّ ما يكون الحب، وفي ذلك يقول - تعالى -: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[1]، فرجت نفعه، وتوسَّمت فيه الخير، فتركه فرعون واستحياه. ويقال: إنها لما قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَۖ﴾قال لها فرعون: أمّا لك فنعم وأما لي فلا. أي فلا حاجة لي به[2].

ولم تزل هذه المرأة تحرص عليه، وتجري على مرضعته الهبات والعطايا حتى انتهت مدة رضاعته فضمته إليها في القصر، وأغدقت عليه من برها وحنانها، وكان منها بمنزلة الولد حتى بلغ أشده واستوى.. وخرج من مصر إلى مدين بعد حادثته مع القبطي والإسرائيلي.

ولمّا نبّأ الله - عز وجل - موسى عليه السلام، وبعثه لدعوة فرعون وقومه، وزوّده

---

(١) سورة القصص: جزء من الآية: [٩].

(٢) ينظر: ابن كثير: قصص الأنبياء، ص٣٥٢. والمراد بـ: قرة العين: السرور والفرح. (ينظر ابن منظور: لسان العرب، مادة «قرر»).

بالآيات والدلائل على صدقه، بادرت آسية إلى الإيمان برسالته، واستقر الإيمان في قلبها. وكان رجاؤها نفعه حين قالت لفرعون: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ سببًا في انتفاعها به، وإنقاذها من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى النور، ورفع منزلتها ومقامها في الدنيا والآخرة.

ولم تخش هذه المرأة سطوة زوجها لكونه أعظم ملوك الأرض في زمانه، ولم تفتنها حياة القصور والدور وما فيها من مفاتن ومشتهيات، وخدم وعبيد، ولم يطغها ثراؤها، وحب زوجها لها.

بل استعلت على كلِّ هذه المغريات ووقفت أمامها بصلابة، وتبرأت من فرعون وقومه، ووقفت - وهي المرأة الضعيفة الخِلقة - تتحدى فرعون أعتى أهل الأرض وأشدهم طغيانًا.

وحين علم فرعون بإيمانها تفانى في تعذيبها والتنكيل بها؛ فصبرت ثباتًا على مبدئها، واحتسابًا لأجرها على الله، ورفضت كل المساومات، واستعاذت بالله من الفتنة في الدين والتجأت إليه، « في وسط ضغط المجتمع، وضغط القصر، وضغط الملك، وضغط الحاشية، والمقام الملوكي »[١].

في وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السماء واختارت جوار الله والدار الآخرة على العيش في تلك البيئة الآسنة الفاسدة، قائلة: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢].

فاستجاب الله لها، وقبضها إليه، وبنى لها بيتًا في الجنة، وكان ثوابها عنده عظيمًا، ورفع مقامها في الدنيا والآخرة، وجعلها مثلًا خالدًا في كتابه

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، مجـ٦، ص ٣٦٢٢، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط٤، ت ط ١٣٩٧هـ /١٩٧٧م.

(١) سورة التحريم، الآية: [١١].

لعباده المؤمنين، فقال - تعالى -: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١].

فكانت أنموذجًا في الثبات وصلابة الإيمان وقوة المعتقد، ولم يضرها كفر زوجها وطغيانه، إذ كانت مؤمنة بالله؛ لأن من قضاء الله في خلقه ألاّ تزر وازرة وزر أخرى[٢].

ولفضلها، وعلو شأنها، ورفعة مقامها في الدنيا والآخرة؛ عدها رسول الله ﷺ من النسوة الكُمَّل، خير نساء العالمين، وأفضل نساء الجنة. فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « **كَمُلَ من الرجال كثير ولم يَكْمُلْ من النساء إلاّ آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإنَّ فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام** »[٣].

وعن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: « **حسبك من نساء العالمين: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمدٍ، وآسية امرأة فرعون** »[٤].

---

(١) سورة التحريم، الآية: [١١].

(٢) ينظر: أبو جعفر بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج٢٨، ص٢١٠، اعتنى بتصحيحه وفهرسته: مكتب التحقيق والإعداد العلمي بدار الأعلام، دار الأعلام، عمان - الأردن، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، ط١، ت ط ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.

(٣) رواه محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، رقم (٣٤١١) و(٣٤٣٣)، وكتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، رقم (٣٧٦٩)، وكتاب الأطعمة رقم (٥٤١٨). ورواه مسلم بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم رقم (٢٤٣١).

(٤) رواه محمد بن عيسى الترمذي: جامع الترمذي، أبواب المناقب، باب فضل خديجة رضي الله عنها، رقم (٣٨٧٨)، وقال الترمذي: « هذا حديث صحيح »، وقال الشيخ المحدث سليمان العلوان: هذا حديث حسن بشواهده.

٢ - أنموذج المرأة المتحولة من الكفر إلى الإسلام: (ملكة سبأ) :

واسمها - كما هو مشهور لدى المفسرين - بلقيس بنت شَرَاحيل[١]، وهذه التسمية لم تثبت لها في كتاب الله - عز وجل - ولا في سنة محمد ﷺ.

وكانت امرأة تحكم بلاد سبأ[٢] وقد ورثت الحكم عن أبيها، وكانت هي وقومها مجوسًا يعبدون الشمس من دون الله، ولكن الله منّ عليهم بالإسلام فأسلموا.

وقصة إسلامها حدثت في عهد نبي الله سليمان بن داود - عليهما السلام - ومفادها، أن سليمان عليه السلام لم يكن يعرف عن خبرها ولا عن خبر أحوال مملكتها وعقيدتها شيئًا لولا أن انتدب أحد جنوده نفسه، فخرج مستطلعًا أحوال المملكة، ثم عاد بعد مدة وجيزة إلى سليمان بخبره اليقين.

ولم يكن هذا المستطلع والمستكشف إنسيًا ولا جنيًّا، ولكنه كان طائرًا صغير الحجم، يعرف بـ « الهدهد » لم يحقر نفسه أن يكون داعية إلى الله، وأدركته الغيرة على العقيدة فعجّل لسليمان عليه السلام بنقل خبر ملكة سبأ وقومها.

يقول - تعالى - : ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ

---

(١) ينظر: الطبري: جامع البيان، ج١١، ص١٧٩.

(٢) سبأ: أرض باليمن مدينتها مأرب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام، وسميت هذه الأرض بهذا الاسم ؛ لأنها كانت منازل ولد سبأ بن يشجب بن يَعْرُب بن قحطان، وكان اسم سبأ عامرًا، وإنما سمي سبأ ؛ لأنه أول من سبى السَّبْيَ. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان (باب السين والباء وما يليها).

مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1].

فالهدهد رأى من سبأ قومًا يدينون بالولاء والطاعة لامرأة ! ! وهذه المرأة قد أوتيت من كلِّ شيء يؤتاه الملوك في عاجل الدنيا، وأعظمه؛ سرير ملك ضخم عظيم.

ولكنّهم أخطأوا الجادّة، وضلوا الطريق حين ألّهوا الشمس فسجدوا لها من دون الله ! وكان الأولى بهم أن يتجهوا لعبادة الله ! فهو الرّزاق، المستحق للعبادة وحده دون سواه.

وأدرك سليمان عليه السلام من فوره خطورة خبر الهدهد الذي جاء به، فجعله - إنْ صحّ - حجّة بيّنة، وشافعًا له عنده يدرأ به عنه ما كان أوعده به حين غاب بدون إذنه: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾[2].

فحتى يتيقن الخبر، ويعرف صحة النبأ؛ حمَّل الهدهد كتابًا إلى ملكة سبأ يدعوها فيه إلى الإسلام، ويحذّرها من التعالي على أمره، وأمره بغاية الإسراع، وأن يبادر فور وصوله إلى إلقائه إليهم، ثم يتنحى عنهم قريبًا ليرقب أثره على الملكة وحاشيتها، ويرصد ردود أفعالهم.

---

(١) سورة النمل: الآية: [٢٠ - ٢٦].

(٢) سورة النمل، الآية: [٢٧ - ٢٨].

وانطلق الهدهد الحكيم من فوره، وأدى مهمته على أكمل وجه، وبكلِّ دقة وأمانة؛ فألقى الكتاب بين يدي الملكة.

وتسلمت الملكة الكتاب، فقرأته، وتأملت فيه، ثم جمعت حاشيتها ومستشاريها؛ لتخبرهم بأمره، وتطلعهم على مضمونه، وتستشيرهم في كيفية الرد عليه: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾[١]، فوصفت - لبعد نظرها - الكتاب بالكرم؛ لما رأته من وجازة لفظه، وبلوغ معناه، ولأنه مختوم، ومرسل من عند ملك كريم، ومفتتح بالاسم الأعظم[٢].

ثم كشفت عن شخصية مرسله، فقالت: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾، وشرعت في قراءة مضمونه: ﴿وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾[٣].

وكان سليمان عليه السلام قد عرّف بنفسه؛ ليكون ذلك أجدر بقبوله؛ لأن أكثر الخلق إنما يعرف الحق بالرِّجال، ولما في كتابه من الدلالة على نبوته»[٤].

ثم بين مراده بلهجة الآمر المحذِّر، فقال: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾ فأمرهم بألا يتكبروا عمَّا دعاهم إليه، وألا يمتنعوا من إجابته، وأن يأتوه مسلمين، منقادين، مذعنين لله بالوحدانية.

---

(١) سورة النمل، الآية: [٢٩].

(٢) ينظر: أبو القاسم جار الله الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج٤، ص ٤٥٢، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ت ط ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م، وينظر: برهان الدين إبراهيم البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مجـ ٥، ص٤٢٣، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

(٣) سورة النمل، الآية: [٣٠، ٣١].

(٤) البقاعي: نظم الدرر، مجـ٥، ص٤٢٣.

ثم إنَّ الملكة استشارتهم فيه : ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾[1] .

وردَّ عليها ملؤها بقولهم: ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾[2] .

فأظهروا استعدادهم للحرب والقتال؛ لقوتهم ووفرة أسلحتهم ورجالهم، ولكنهم لم يستقروا على هذا الرأي بل فوضوا الأمر إليها؛ ثقة في رأيها وتدبيرها، وأبدوا منتهى الطاعة والخضوع لما تأمرهم به.

وعند ذلك قالت الملكة: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[3] .

فاختارت أن تصانع سليمان عليه السلام بهدية عظيمة بدلًا من حربه ومواجهته؛ وقصدت من هديتها اختبار سليمان عليه السلام وامتحانه؛ فإن كان نبيًّا فسيرد هديتها؛ لأن صاحب العقيدة لا يقبل المساومة على عقيدته، وإن كان ملكًا فسيقبلها وتكون الهدية رشوة تطامن ما في نفسه من رغبة في الغلبة والحرب.

وانصرف الرسل بهدية ملكتهم إلى سليمان عليه السلام، وقابلهم سليمان عليه السلام برد الهدية، والإنكار عليهم، وتهديدهم بالمصير المرهوب ! : ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[4] .

---

(١) سورة النمل، الآية: [٣٢] .

(٢) سورة النمل، جزء من الآية: [٣٣] .

(٣) سورة النمل، جزء من الآية: [٣٤] ، والآية: [٣٥] .

(٤) سورة النمل، الآية: [٣٦، ٣٧] .

وحينئذٍ أدركت الملكة أن الرجل صاحب عقيدة، وأنه مستعد لتسخير كل قواه وطاقاته في سبيل نصرة ما يدعو إليه، وأنه لا أحسن من إجابته إلى ما طلب.

وعلم سليمان عليه السلام من كراهية الملكة للحرب أنها ستأتيه وقومها مسلمين مذعنين فأراد أن يَفْجَأها بمفاجأة تؤثر في قلبها وتقودها إلى الإسلام عن اقتناع، حيث تتعرف على قدرة الله - عز وجل - وعظيم شأنه، وتعرف صدق سليمان عليه السلام في نبوته؛ فطلب من ملئه إحضار عرشها العظيم الذي خلفته في مملكتها، وحصّنته وحرّزته: ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾[1].

ثم إن سليمان عليه السلام فكّر في أن يختبر عقلها؛ فأمر بتنكير العرش: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾[2].

فلما جاءت ورأت العرش، وسُئلت: ﴿أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ﴾، أجابت إجابة غاية في الذكاء، فلم تثبته ولم تنفه، بل أجابت بما يدل على قوة الشبه احتياطًا في التعبير، فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ﴾[3]. وسيمر بنا في البعد النفسي تحليل لإجابتها هذه، وما تدل عليه من ذكاء وصحة فراسة.

ولما تعرّف سليمان عليه السلام على قوة تمييزها، شهد لها بالعلم، وإن كان

---

(١) سورة النمل، الآية: [٣٨ - ٤٠].

(٢) سورة النمل، الآية: [٤١].

(٣) سورة النمل، جزء من الآية: [٤٢].

قد أوتي العلم بالله وبقدرته، وبصحة ما جاء من عنده قبل علمها، فقال: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾[١]، وأخبر - عَزَّ وَجَلَّ - أن ما صدها عن عبادة الله هو بيئتها الكافرة التي نشأتْ فيها، واتباعها دين آبائها وأجدادها، وليس هو الجهل وضعف العقل والتمييز، فقال - تعالى -: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ﴾[٢].

ولم تكد الملكة تخرج من مفاجأة العرش، حتى وقعت على مفاجأة أخرى أعدّها لها سليمان عليه السلام، وهذه المفاجأة كانت قصرًا من زجاج أبيض، أقيمت أرضيته فوق ماء، فظهر كأنّه لُجة[٣]، أمرت أن تدخله: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ﴾، وفي التعبير بلفظ ﴿حَسِبَتْهُ﴾ دلالة على أن عقلها وإن كان في غاية الرجاحة، ناقص لعبادتها غير الله تعالى.

ولكن السياق القرآني امتدحها بالحرص على إظهار تمام الاستسلام بقوله - تعالى-: ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ﴾ فلقد عزمت على خوض ما حسبته لجّة وإن كان فيه مشقة عليها، لتصل إلى سليمان عليه السلام، وحتى لا تبتل ثيابها قبل القدوم عليه، رفعتها؛ فانكشف ساقاها[٤].

ولما تحقق المراد، ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ﴾، وحينئذ وقفت الملكة مبهورة عاجزة إلا عن الاعتراف بنبوة سليمان عليه السلام بعد أن رأت ملكًا أعزَّ من ملكها، وسلطانًا أقوى من سلطانها، وأدركت أن هذا لا يؤتاه إلا

(١) سورة النمل، جزء من الآية: [٤٢] .

(٢) سورة النمل، الآية: [٤٣] .

(٣) لُجَّةُ: لُجَّةُ البَحْر: حيث لا يدرك قَعْرُه،، ولُجُّ البحرِ: الماء الكثير الذي لا يُرى طرفاه (ابن منظور: لسان العرب، مادة (لجج).

(٤) ينظر: البقاعي: نظم الدرر، مجـ٥، ص٤٢٩.

رجل مؤيّد من ربٍّ عظيم؛ فأعلنت توبتها، وانقيادها لله: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

فدعت الله بوصف الربوبية الموجبة للعبادة بالإحسان، وجرّدت لفظ ﴿رَبِّ﴾ من أداة النداء، فلم تقل: يا رب، بل قالت: ﴿رَبِّ﴾، وفي هذا دلالة على شعورها بقرب الله منها، وقربها منه.

ثم اعترفت بظلمها نفسها في اتباع غير الإسلام، فقالت: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، وهذه درجة أولى في الاعتقاد وهي درجة التخلية.

ثم انتقلت إلى درجة التحلي بالإيمان الحق فقالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فذكرت الاسم الأعظم الدال على الذات المستجمع للصفات الموجبة لألوهية الذات، فقالت ﴿لِلَّهِ﴾، واعترفت بأنَّ الله رب الموجودات، فقالت: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وهذا مقام التوحيد[2].

كما أنها أسلمت لله إسلامًا خالصًا من كلِّ شرك، فلم تقل: أسلمت لسليمان، وإنما قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾.

وهكذا، اعترفت الملكة بفساد عقيدتها وقومها، وتحوّلت من امرأة مجوسية تعبد الشمس وتسجد لها من دون الله - عز وجل - إلى امرأة مسلمة لا تعبد غير الله - عز وجل - وقادتها فطرتها إلى الحق، وسلك بها تمييزها وعقلها إلى معرفة الصواب.

وأسلم الوفدُ معها... وعادوا إلى ديارهم مسلمين، وكان سبب إسلامهم إخلاص نبي الله سليمان عليه السلام في دعوته، وبذله كل ما يمكن من

---

(١) سورة النمل، الآية: [٤٤].

(٢) ينظر: البقاعي: المصدر السابق، مج ٥، ص٤٣٠، وينظر: محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مج ٩، ص٢٧٩، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ط و ت ط بدون.

أسباب بقصد ترغيبهم في الدين. . . واستعانته بملأ من جنده جنّدوا أنفسهم لصالح الدعوة، فهدى الله على أيديهم مملكة بأسرها.

إنها قصة انتصار العقيدة على المبادئ المنحرفة، وإن الملكة لتعدُّ أنموذجًا فاضلًا في التسليم للحق وسرعة اتباعه، وترك التكبر عليه.

إنها مثال المرأة العاقلة المميزة ذات الفطرة السليمة. فرضي الله عنها جزاء إسلامها وأرضاها.



* نماذج الكفر :

١ - أنموذج المرأة الكافرة ضد الزوج المؤمن:

(أ) (امرأة نوح):

واسمها مختلف فيه عند المفسرين؛ فمنهم من يقول: إن اسمها واعلة[١]، ومنهم من يقول: إنه والعة[٢]، والصحيح أنه لم يثبت لها اسم في الكتاب ولا في السّنة، فالأولى السكوت عنه.

ونوح عليه السلام زوجها، هو نبي الله ورسوله، ويقال: إنها أم أولاده كلهم، وهم حام، وسام، ويافث، ويام، ويسميه أهل الكتاب: كنعان، وهو الذي قد غرق[٣].

كانت كافرة بالله وبرسوله، معاندة جاحدة، حربًا على الدعوة الإسلامية وعلى المؤمنين.

وقد انتقم الله - عز وجل - منها كما انتقم من قومها، وجعل من قصتها عبرة لكل معتبر، ومن نهايتها المؤسفة درسًا بليغًا في جزاء كل من كفر بالله، وتواطأ مع أهل الكفر والطغيان.

عاشت هذه المرأة مع نبي الله ورسوله دهرًا طويلًا، وعاصرت دعوته، وجهاده، ومصابرته، وعبادته، وبرغم ذلك لم تتأثر بموعظة، ولم ينشرح صدرها للإسلام، بل ظلت تتخبط في غيها وضلالها.

وزادها كفرها قسوة وشراسة على زوجها، فكانت - كما قيل - تتهمه

---

(١) ينظر: البقاعي: نظم الدرر، مج ٨، ص ٥٧.

(٢) ينظر: الألوسي: روح المعاني، جـ ٢٨، ص٤٩٢.

(٣) ينظر: ابن كثير: قصص الأنبياء، ص١٠٣.

بالجنون مع قومها[١]، ولشدة نفاقها وكفرها لم تأخذها الحمية لأجل نوح، ولا الرحمة به، فكانت ترى قومها يتهمونه بالضلال، فيقولون له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٢]، وبالجدال العقيم: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾[٣]، ويتهكمون به ويسخرون: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾[٤]، ويتوعدونه بالرجم: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾[٥]، وهي معهم عليه توافقهم على أذيتهم له، وتشجع تطاولهم عليه.

وكان نوح عليه السلام صابرًا عليها، يرجو هدايتها وإيمانها، كما كان صابرًا على قومه رغم رسوخهم في الكفر وطغيانهم، ولكن الهداية من الله، وليس بيد نوح أو غيره أن يهدي من يشاء!

وظلت امرأة نوح عليه السلام على خيانتها لزوجها لكفرها وتكذيبها حتى أذن الله - عز وجل - بإهلاكها مع قومها بعد أن استنفد نوح كل ما في وسعه في دعوتهم إلى الله.

وجاء الأمر الإلهي إلى نوح عليه السلام بأن يركب السفينة التي صنعها، ويحمل فيها من كل ذكر وأنثى اثنين، وأهله المؤمنين، ومن آمن به من سائر قومه وهم قليل، وذلك بعد أن يرى علامة انبجاس الماء في التنور الذي يوقد فيه[٦]، وفي ذلك يقول - تعالى -: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا

---

(١) ينظر: الطبري، جامع البيان، مج ١٤، ص٢٠٨.

(٢) سورة الأعراف، الآية: [٦٠].

(٣) سورة هود، الآية: [٣٢].

(٤) سورة هود، الآية: [٣٨].

(٥) سورة الشعراء، الآية: [١١٦].

(٦) ينظر: الطبري: جامع البيان، مج٧، ص٥١، ٥٢.

وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[١].

وقال - تعالى -: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[٢].

وفعل نوح عليه السلام ما أمره به ربه، وخلّف زوجه الكافرة، وابنه الضال اللذين ختم الله على قلبيهما، ليغرقا مع من غرقوا في الطوفان الذي عمَّ الأرض، وأراح البلاد والعباد من شرِّ الكافرين. ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣].

وطويت صفحة تلك المرأة الضّالة التي عاندتْ، فشقيت في الدنيا والآخرة، إذ تبعث يوم القيامة على كفرها، وتخلّد في النار مع الخالدين.

ولم ينفعها إيمان زوجها عند الله، أو يغني عنها أنها زوجة نبي عظيم الشأن، متمكِّن من تحصيل خيري الدنيا والآخرة، بل خسرتْ دنياها وأخراها، وباءت بخطيئتها وذنبها، وانتقم الله منها ومن قومها؛ لكفرهم وإيذائهم نبيه ووليه الصالح، ونصر نوحًا عليه السلام نصرًا مؤزرًا، ولا ريب؛ فالله - عز وجل - يغضب لأوليائه، ويعادي من عاداهم.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: [٢٧].

(٢) سورة هود، الآية: [٤٠].

(٣) سورة هود، جزء من الآية: [٤٢]، والآية: [٤٣، ٤٤].

وانقطعت الوشيجة التي كانت تربط بين الزوج وزوجه، إذ أهلكها الله وأنجاه، فهو على الإيمان، وهي على الكفر، فلا ولاء إذن، ولا رباط إلا بالعقيدة الصحيحة والتقوى.

(ب) (امرأة لوط):

وقيل: إن اسمها واهلة[١]، وقيل: والهة[٢]، وإن كانت هذه التسمية لم تثبت لها في القرآن ولا في السنة.

وهي امرأة تنتمي إلى قوم شذّاذ، منحرفي الفكر والسلوك، كانوا يقطنون في القرى الواقعة إلى الجنوب الشرقي من فلسطين،وهم القوم الذين بعث الله إليهم لوطًا عليه السلام.

عاشت هذه المرأة مدة طويلة مع نبي الله، بيد أنها كانت من ألدِّ أعدائه، ومن أبغض الناس لدعوته، ولم ينفتح قلبها لموعظة، أو تذكير منه، بل أغلقت قلبها وحواسها إلاّ عن الكفر والضلال.

ولكن الله - عز وجل - عاقبها عقابًا شديدًا، إذ أنزل بها من العذاب والنكال الشديد في الدنيا ما أنزله بقومها، وجعل مآلها وإياهم في الآخرة الخلود في نار جهنم.

ولم تكن امرأة لوط بمنأى عن دعوة زوجها، ولكنها كانت منطمسة البصيرة كما كانت عليه امرأة نوح، ولم تنفعها دعوة زوجها، إذ كان هواها مع شُذّاذ قومها الذين كانوا يجاهرون بإتيان الذكور، ويقطعون السَّبيل؛ ليفجروا بالمارّة، ويأتون في ناديهم المنكر والتصرفات الشاذة، كما قال -

---

(١) ينظر: البقاعي: نظم الدرر، مج ٨، ص٥٧.

(٢) ينظر: أبو عبد الله محمد القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مج ١٨، ص٢٠١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ت ط ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

تعالى -: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[١].

ومما قيل عنها: إنها كانت تدل قومها على ضيف لوط ﷺ ليفجروا بهم[٢] ! وكانت توافق قومها على سلوكهم واعتقادهم ومنهجهم برغم قربها وصلتها من نبي الله !

ولما أذن الله - ﷻ - باستئصال قوم لوط، وحلت الملائكة ضيفًا على لوط ﷺ، وكان من أمرهم مع قومه ما كان، أمرت الملائكة لوطًا ﷺ أن يسري بأهله ليلًا إلا امرأته فإنه أمر بتخليفها، ونهي أن يسري بها؛ لأنه سيصيبها من العذاب مثل قومها[٣]، كما أمرته ومن معه من المؤمنين ألا يلتفتوا حين خروجهم، « وسبب النهي عن الالتفات التقصي في تحقيق معنى الهجرة غضبًا لحرمات الله بحيث يقطع التعلّق بالوطن ولو تعلّق الرؤية »[٤]، وفي الأمر بذلك يقول - تعالى -: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[٥].

ويقول - تعالى - : ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: [٢٨ - ٢٩] .

(٢) ينظر: الطبري: جامع البيان، مج ١٤، ٢٠٨، وينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مج ١٨، ص٢٠٢.

(٣) ينظر: الطبري: المصدر السابق، مج ٧، ص١١١.

(٤) ابن عاشور: التحرير والتنوير مج ٦، ص ١٣٢.

(٥) سورة هود، الآية: [٨١] .

إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾[1] .

ويقول – تعالى –: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[2] .

وفعل لوط عليه السلام ومن معه ما أمروا به، ولما كانت ساعة الصباح التي أهلك فيها قومه، أخذتهم صيحة عظيمة وقت الشروق، ثم قلب الله – عز وجل – مدائنهم فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من طين متراكم متتابع، وهذه الحجارة معلّمة وكأنها ليست من حجارة الأرض، أو أنه مكتوب على كل حجر اسم من يرمى به[3] .

وكان نصيب امرأة لوط من العذاب مثل نصيب قومها، إذ هلكت معهم، وبقيت في عذاب الله . وفي ذلك يقول – تعالى –: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[4] .

ويقول – تعالى –: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾[5] .

---

(١) سورة الحجر، الآية: [٥٧-٦٥] .

(٢) سورة العنكبوت، الآية: [٣٣] .

(٣) ينظر: الزمخشري: الكشاف، مجـ ٣، ص٢٢٢.

(٤) سورة الأعراف، الآية: [٨٣] .

(٥) سورة الشعراء، الآية: [١٧٠ - ١٧٣] .

ويقول - تعالى -: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[١].

ويقول - تعالى -: ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[٢].

ولقد جعلها الله - ﷻ - وامرأة نوح مثلًا للذين كفروا في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين من غير إبقاء ولا محاباة، ومهما كان بينهم وبين المؤمنين من لحمة نسب، أو وصلة صهر، ذلك لأن كفرهم بالله وعداوتهم لعباده المؤمنين قطع العلائق، وبتّ الوصل[٣].

فقال - تعالى -: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾[٤].

« فلا كرامة ولا شفاعة في أمر الكفر والإيمان، وأمر الخيانة في العقيدة حتى لأزواج الأنبياء »[٥].

فلم ينج هذه المرأة من عذاب الله - ﷻ - صلتها بلوط، بل باءت بالخسران والخزي في الدنيا والآخرة، وعلى الرغم من أنه لم يصدر منها فاحشة لكنها عوقبت بالعقاب نفسه الذي عوقب به قومها، ذلك لأنها كانت شريكتهم في الإثم بتأييدهم على الفعل وموافقتهم عليه، مع ما وافق ذلك من إفشائها سر زوجها حين كانت تدل قومها على ضيفه.

ولقد كبر سنُّ هذه المرأة فأصبحت عجوزًا وهي مقيمة على غيها

---

(١) سورة النمل، الآية: [٥٧].

(٢) سورة الصافات، الآية: [١٣٤، ١٣٥].

(٣) ينظر: الزمخشري: المصدر السابق، مج ٦، ص١٦٣، ١٦٤.

(٤) سورة التحريم، الآية: [١٠].

(٥) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٦، ص٣٦٢١.

وضلالها وكفرها، وخيانتها العقدية لزوجها، فلم يزدها ذلك من الله إلا بعدًا، وسخطًا وغضبًا، وكان جزاؤها أن أزالها الله عن وجه الأرض، ومحا أثرها هي وقومها، وجعلها وإياهم من الخالدين في نار جهنم.

٢ - أنموذج المرأة الكافرة عدوة الإسلام اللـدَّاء :

(امرأة أبي لهب) :

هي أروى بنت حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وكنيتها « أم جميل »، وهي أخت أبي سفيان بن حرب، وزوجها عبد العزى ابن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي، عم رسول الله ﷺ [(١)]، وكنيته « أبو عُتبة »، وإنما سمي: « أبو لهب » لحسنه وإشراقة وجهه[(٢)].

فهي إذن قريبة للنبي ﷺ ذلك أن جدها أمية بن عبد شمس ابن عم عبد المطلب ابن هاشم جد النبي محمد ﷺ .

كانت امرأة كافرة شديدة العداوة للنبي ﷺ ، وكانت عونًا لزوجها أبي لهب على إيذائه، وتنقّص دينه، وازدرائه، وبغضه، ولشدة ما نال رسول الله ﷺ منها هي وزوجها ذكر القرآن خبرهما وعقابهما في سورة المسد، وذكرت هي بعد ذكر زوجها أبي لهب، في قوله - تعالى -: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ

---

(١) ينظر: أبو محمد عبد الملك بن هشام: السيرة النبوية، ج ١، ص٨٦-٩٩، تعليق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، ت ط ١٩٧٥م.
وينظر: إسماعيل بن عمر بن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٨، ص٥١٥، تحقيق: سامي محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط١، ت ط ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.
وينظر: البقاعي: نظم الدرر، مج ٨، ص٥٧٣.

(٢) ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٢٠، ص٢٣٦، وينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٨، ص٥١٤.

وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾[1].

فلقد كانت هذه المرأة فوق كفرها من رؤوس الإفساد والتضليل، وكان إيذاؤها وزوجها لرسول الله ﷺ من الابتلاءات العظيمة التي واجهها ﷺ وتألّم منها، خاصّة أنهما قريبان له، ومجاوران له في بيته في مكة، الأمر الذي يجعل أذاهما أشدَّ إيلامًا لنفسه الشريفة.

ولقد تفننت هذه المرأة الشّقية في صنوف أذاها للنبي ﷺ ولدعوته، فقيل عنها: إنها كانت تحمل الشّوك فتطرحه في طريق النبي ﷺ ليعقره وأصحابه[2]، وذلك هو المراد من قوله - تعالى: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ وقيل: إنها كانت تمشي بالنميمة[3]، وقيل: إنها كانت تعيِّر رسول الله ﷺ بالفقر، وكانت تحتطب فعيِّرت بذلك[4].

وكان جزاء هذه المرأة عند الله عظيمًا، إذ توعدها بأنها ستصلى مع زوجها أبي لهب نار جهنم، فنالت من الله البغض، والزراية، والعذاب الشديد، جزاء طغيانها وكفرها.

ولم يغن عن امرأة أبي لهب قرابتها من رسول الله ﷺ ، فخلدها الله - ﷻ - في النار.

وهذا جزاء الكفر والطغيان، والتعاون على الشّر، وإيذاء رسول الله ﷺ وعباد الله الصالحين.

---

(١) سورة المسد، الآية: [١- ٥].

(٢) ينظر: الطبري: جامع البيان، مج ١٥، ص٤٣٤.

(٣) ينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٨، ص٥١٥.

(٤) ينظر: الطبري: جامع البيان، مج ١٥، ص٤٣٦.

ومن قصة هذه المرأة الشريرة، وعقوبتها، نفيد أن أهل الشّر لا يرضيهم أن يستمر الدعاة في دعوتهم، ولهذا يضعون العراقيل في طريقهم، ويتفننون في صنوف إيذائهم، ويحاربون الدعوة، ويتصدون لانتشارها؛ حسدًا من عند أنفسهم على الرغم من معرفتهم لحقيقتها.

وهذه الأذية هي ابتلاء من الله لعباده الصالحين، فعليهم أن يصبروا ويحتسبوا، فالله ناصرهم لا محالة: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

ومهما بلغت مكانة أهل الشرِّ والضَّلال في الدنيا، فإن لهم العذاب والنكال الشّديد في الآخرة، وكل ما يملكونه لا يغني عنهم من الله شيئًا.

(ب) نماذج السلوك الإيماني للمؤمنات:

١ - أنموذج المرأة التائبة من الخطيئة:

(حواء):

وهي أم البشر، وزوجها آدم عليه السلام أبوهم. وقد ورد اسمها صريحًا في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « **لولا بنو إسرائيل لم يَخْنَز اللَّحم، ولولا حوَّاءُ لم تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَها** »[2].

---

(١) سورة الحج، جزء من الآية: [٤٠].

(٢) البخاري: صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، حديث رقم [٣٣٣٠] ومعنى يخنز اللحم: أي ينتن. « والخنز: التغير والنتن، قيل: أصله أن بني إسرائيل ادخروا لحم السلوى وكانوا نهوا عن ذلك فعوقبوا بذلك... وقال بعضهم: معناه لولا أن بني إسرائيل سنوا ادخار اللحم حتى أنتن لما ادخر فلم ينتن ... » وقوله: « لم تخن أنثى زوجها » فيه إشارة إلى ما وقع من حواء في تزيينها لآدم الأكل من الشجرة حتى وقع في ذلك، فمعنى خيانتها أنها قبلت ما زين لها إبليس حتى زينته لآدم».

أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح الإمام البخاري، مجـ٦، ص٣٦٧ وما بعدها، أشرف على تحقيقه: الشيخ عبد العزيز بن باز، نشر وتوزيع: رئاسة إدارات =

قيل في سبب تسميتها بحواء: إنها خلقت من شيء حي[١]، وقيل: لأنها أمُّ كل حي[٢].

وقد أخبر الله - سبحانه وتعالى - عن خلقها فقال في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[٣].

وقال - تعالى - في سورة الأعراف: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[٤].

وقال - تعالى - في سورة الزمر: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[٥].

فالآيات تبين أن حواء خلقت من نفس آدم عليه السلام، أي من ضلع من أضلاعه[٦]. وفي السنة أن النبي ﷺ ذكر خلقها من ضِلَع فقال: «**واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن خلقن من ضِلَع**»[٧]، وقال: «**إن المرأة خُلِقَت من ضِلَع**»[٨].

= البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، ط و ت ط بدون.

(١) ينظر: الطبري، جامع البيان، مج ١، ص٣٠٢.

(٢) ينظر: محمد بن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص٤٠، تقديم د / إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط و ت ط بدون.

(٣) الآية: [١].

(٤) جزء من الآية: [١٨٩].

(٥) جزء من الآية: [٦].

(٦) ينظر: الطبري: جامع البيان، مج ٣، ص٢٨١.

(٧) البخاري: صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء، جزء من حديث رقم [٥١٨٦]، وينظر: باب المداراة مع النساء، حديث رقم [٥١٨٤]، وكتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، حديث رقم [٣٣٣١].

(٨) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، جزء من حديث رقم [٣٦٤٣].

ومن اللافت للانتباه أنَّ الله - عَجَّلَ - عبرّ عن خلق زوجها بالخلق في سورة النساء، بينما عبر عن ذلك بالجعل في سورتي الأعراف والزمر، ولعل الحكمة من ذلك أن سورة النساء هي أولى السور الثلاث التي تعرضت لهذه القضية، فكان التنصيص على خلق حواء من آدم عليه السلام هدفًا مقصودًا، مع ما في ذلك من تناسب مع اسم السورة وموضوعها.

وأما التعبير بالجعل في سورتي الأعراف والزمر فللإشارة للغاية التي خلقت من أجلها الأنثى، وهي كونها زوجًا للرجل، خلقت من أجله، فليس المقصود الإخبار عن خلقها في ذاته؛ لأنه معلوم ضمنًا من قوله - تعالى -: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[1].

فموضوع سورة النساء هو الاجتماع على التوحيد، وسبب الاجتماع والتواصل هو الأرحام العاطفة التي مدارها النساء؛ فالسورة تدعو إلى الاجتماع والتراحم والتعاطف والتواصل.

ولما كان سياقها للترهيب الموجب للتقوى، كان التعبير بالخلق الذي هو أعظم في إظهار الاقتداء - لأن اختراع الأسباب وترتيب المسببات عليها - أحق من الجعل الذي هو ترتيب المسببات على أسبابها وإن لم يكن اختراع[2].

وفي خلق حواء من نفس آدم عليه السلام آية على قدرة الله - سبحانه وتعالى - فلقد خلقها بلا أب ولا أم، كما خلق عيسى عليه السلام بلا أب، وفي هذا ما يعمّق الإيمان بقدرته - سبحانه وتعالى - على كلِّ شيء، و﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3].

---

(١) ينظر: د / عبد الجواد محمد طبق: نقض بلاغي لعلاقات مزعومة بين القرآن ونظرية دارون، ص٦٨، دار الأرقم للطباعة والنشر، مصر، ط١، ت ط ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.

(٢) ينظر: البقاعي: نظم الدرر، مج ٢، ص٢٠٤ - ٢٠٦.

(٣) سورة يس، الآية: [٨٢].

وأسكن الله حواء مع زوجها آدم عليه السلام الجنة - بعد أن طرد منها إبليس - ، وأمرهما أن يأكلا منها رغدًا؛ أي واسعًا من العيش حيث أرادا، وكانت وسائل الراحة مهيأة لهما، وفي ذلك يقول - تعالى - : ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾[١] .

ويقول - تعالى - : ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾[٢] .

والآيتان تدلان على تكريم الله - عز وجل - لآدم عليه السلام وحواء، ورفعة شأنهما، كما أن فيها ما يدل على أن الأصل في الأشياء الحل والإباحة ما لم يقم الدليل على تحريمها .

ولما كان - سبحانه وتعالى - قد خلق آدم ليعيش في الأرض ويعمرها، ويكون خليفة له فيها؛ فقد ابتلاه وحواء بابتلاء يكون سببًا في إهباطهما إلى الأرض . وذلك أنه - سبحانه وتعالى - نهاهما عن الاقتراب من شجرة معينة في الجنة، وحذرهما من الأكل منها، واعتبر اقترابهما منها - إن حدث - ظلمًا لنفسيهما، ولحق الرب الواجب طاعته[٣] .

كما حذرهما من عدوهما إبليس، وبين لهما أنهما سيعاقبان بالخروج من الجنة إن عصيا وخالفا أمر ربهما . وفي ذلك يقول - تعالى - : ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٤]، ويقول - تعالى - : ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾[٥] .

---

(١) سورة البقرة، جزء من الآية: [٣٥] .

(٢) سورة الأعراف، جزء من الآية: [١٩] .

(٣) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مج ٥، ص٥٦.

(٤) سورة البقرة، جزء من الآية: [٣٥] .

(٥) سورة طه، الآية: [١١٧] .

وفي هذا التحذير الإلهي ما ينبئ عن أن الإنسان مخلوق له إرادة، وأنَّ الله - عَزَّ وَجَلَّ - قد بيّن له طريقي الخير والشر، فإن هو أطاع ربه واجتنب معصيته فقد أفلح ونجح، وإن هو طاوع الشيطان وعصى ربه فقد خاب وخسر.

ومعنى هذا أن الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أراد تدريب آدم وحواء على مناط فكرة الاختيار في الإنسان؛ لأنَّ هذه الفكرة هي سر العصيان أو الطاعة.

ولأنه لو لم يكن في الإنسان اختيار بين الفعل أو تركه لما كان هناك داعٍ لمهمة تكليفه بخلافة الأرض وبأنْ يفعل الأوامر ويترك النواهي.

فالله أعطى الإنسان الإرادة ولم يجعله مرغمًا؛ لأن الإرغام لا تكليف فيه، ولكن التكليف منشؤه وجوب الاختيار[١].

ولقد كان النهي الإلهي لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وحواء على السواء؛ لأنهما متساويان في التكاليف الشرعية، وعليهما معًا طاعة الله في كل ما أمرهما به، واجتناب معصيته في كلِّ ما نهاهما عنه.

وفي تحذيره - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لهما من الشيطان، ما يؤكد عداوة الشيطان للزوجين وذريتهما؛ فعداوته أزلية منذ أن خلق الله آدم وأمر الملائكة بالسجود له، فمن اللازم مخالفته، والحذر من كيده ووسوسته.

ومن اللافت للنظر في قصة حواء، أن الله - عَزَّ وَجَلَّ - حذرهما من الاقتراب من الشجرة فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، وفي هذا من الأبعاد العقدية ما يدل على ضرورة سد الذرائع بمعنى إغلاق كل الطرق والمنافذ التي تؤدي إلى فعل المحذور، فإن اقتراب آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وحواء من الشجرة قد يطمعهما في

---

(١) ينظر: الشيخ محمد الشعراوي: التربية الإسلامية، ص٤٧، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط٢، ت ط بدون.

الأكل منها، ومن ثمّ يقعان في المحذور، وهذا ما نهاهما - سبحانه وتعالى - عنه، وحذرهما مغبته.

ولم يكن يرضى إبليس أن يسكن الله - سبحانه وتعالى - الزوجين الجنة، ويطرده هو منها، فتربّص بهما - حسدًا وحقدًا - ليخرجهما منها، وشرع يوسوس لهما ليأكلا من الشجرة التي نهيا عنها. وفي ذلك يقول - تعالى -: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[1].

ويقول - تعالى -: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[2].

ففي الآيات أن إبليس ادعى أن الله - سبحانه وتعالى - ما منعهما من الشجرة إلا لأنه لا يريد لهما أن يكونا ملكين أو يكونا من الخالدين.

ولما لم يصدقاه لشدة خوفهما من الله أقسم لهما بالله على صدقه ونصحه لهما. ولم يكن الزوجان يعلمان أن هناك من يجرؤ على الحلف بالله كذبًا، فنسيا التحذير والعهد، ولم يستطيعا الثبات في الابتلاء، وأقدما على الأكل من الشجرة!

وبهذا استطاع الشيطان أن يُنزل الزوجين بغروره من الطاعة إلى المعصية، ونجح الخبيث في خطته التي حاكها إرواءً لحسده وحقده.

وما إن ذاقا الشجرة حتى أقبلت عليهما نتائج المعصية تَتْرَى؛ فبدت لهما سوءاتهما اللتان كانتا غائبتين عنهما، فأسقط في أيديهما، وشرعا يسترانها

---

(١) سورة الأعراف، الآية: [٢٠].

(٢) سورة طه، الآية: [١٢٠].

بورق الجنة، يقول - تعالى -: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾(١).

ويقول - تعالى -: ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾(٢).

وعاتبهما ربهما على فعلهما فقال - تعالى -: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾(٣).

فأدركا فداحة جرمهما، وعظيم زللهما، وندما أشد الندم، واعترفا بذنبهما، وسألا ربهما - سبحانه وتعالى - الرحمة والمغفرة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾(٤).

وتاب الله - عز وجل - عليهما وغفر زلتهما، ولكنه أهبطهما إلى الأرض، وأهبط إبليس معهما؛ ليتحقق بذلك الابتلاء، ويبدأ الصراع في الأرض بين الحق والباطل، وبين الخير والشر.

يقول - تعالى -: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٥)، ويقول - تعالى -: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾(٦)، ويقول - تعالى-: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾(٧).

---

(١) سورة الأعراف، الآية: [٢٢].

(٢) سورة طه، الآية: [١٢١].

(٣) سورة الأعراف، الآية: [٢٢].

(٤) سورة الأعراف، الآية: [٢٣].

(٥) سورة البقرة، الآية: [٣٧].

(٦) سورة الأعراف، الآية: [٢٤].

(٧) سورة طه، جزء من الآية: [١٢١]، والآية: [١٢٢]، وجزء من الآية: [١٢٣].

لقد هبطت أمنا حواء وأبونا آدم عليه السلام بعد أن تلقيا درسًا عظيمًا في وجوب مخالفة الهوى، وترك مطاوعة الشيطان، فالمعركة معه أزلية أبدية.

وعلمنا كيف أن المعصية تورث العقوبة العاجلة ما لم يتب الإنسان، ويرجع إلى الحق، ومهما كان حجم المعصية فإنه لا ينبغي التساهل فيها، فربما كانت سببًا في طرده من رحمة الله.

خرج الزوجان من الجنة طاهرين، كما دخلاها طاهرين، فلقد قبل الله توبتهما وغسل حوبتهما، ليبدآ بعد ذلك حياتهما في الأرض نقيين من المعصية التي اقترفاها.

وفي هذا درس عظيم في وجوب المبادرة إلى التوبة والاستغفار والاعتراف بالذنب، والندم على فعله؛ ليحظى العبد بتوبة ربه عليه، ورفعة درجاته عنده، فلقد اعترفت حواء وآدم بذنبهما، وأقرا بجرمهما، وندما على فعلهما، واستغفرا ربهما؛ فغفر لهما، بينما استكبر إبليس وأخذته العزة بالإثم؛ فطرده الله من الجنة، ولعنه، وغضب عليه، وجعل النار مثواه ومن اتبعه.

وحين أهبط الله - عز وجل - الزوجين من الجنة قال لهما: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

وفي هذا تعليم لهما ولذريتهما بأن «مدة هذه الحياة مؤقتة عارضة، ليست مسكنًا حقيقيًا، وإنما هي معبر يتزود منها لتلك الدار، ولا تعمر للاستقرار»[1]. فوجب المبادرة إلى فعل الطاعات والتزود منها قبل حلول الأجل، وفوات الفرص.

---

(١) الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج١، ص٧٥، تحقيق: محمد زهري النجار، مكتبة الخلفاء للكتاب الإسلامي، الرياض، مكتبة الهدى الإسلامية، الخبر، ط١، ت ط ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

كما أن الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لم يدع الزوجين لنفسيهما وما فيهما من ضعف، ولا لعدوهما المترصد لهما في كلِّ سبيل، بل هداهما السَّبيل إلى مناجزة العدو، والسبيل إلى تقوية النَّفس، والسَّبيل إلى القيام بالخلافة كما ينبغي.

إنه يمدهما بالهدى، وبالدستور الذي ينظم حياتهما على الأرض، ويوجههما وجهة الخير، ويزودهما بالمعرفة النافعة التي تعينهما على تخطي العقبات. . . وتكشف لهما عن طاقات نفسيهما الحقيقية، وما تستطيع أن تكون عليه من رفعة واقتدار لو سارا بها على منهج الله القويم، وفي ذلك يقول - تعالى -: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

ويقول - تعالى -: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾[2].

إنها البشارة بالنجاة من العدو ومن عثرات الطريق، تكون لمن سار على النهج، وعمل بالدستور القويم ليكون آخر خطوة يخطوها الجنة.

وأمّا من ضلَّ الطريق، واتّبع الشهوات، وأطاع إبليس فـ: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[3].

وفي عتاب الله - عَزَّ وَجَلَّ - لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وحواء على السواء، وتحميلهما معًا

---

(١) سورة البقرة، جزء من الآية: [٣٨، ٣٩] .

(٢) سورة طه: جزء من الآية: [١٢٣] ، والآية: [١٢٤] .

(٣) ينظر: محمد قطب: منهج الفن الإسلامي، ص١٦٨، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط٦، ت ط ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

مسؤولية الذنب ما يفيد بأن كل إنسان مسؤول عن تصرفاته، وسيحاسب عليها وحده، وأن آدم وحواء لا يتحملان أوزار ذريتهما من بعدهما.

ومخطئ من يحمل حواء مسؤولية إخراج آدم عليه السلام وذريته من الجنة، فالله - سبحانه وتعالى - لم يخص حواء بالعقاب، ولم يعاقبها وحدها، بل إنه - تعالى - قال عن آدم: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾، وحواء تبع له.

بقي أن نقول: إن السياق القرآني ذكر ملخصًا تعقيبيًا لقصة آدم وحواء يدعو فيه بني آدم إلى التقوى، يقول - تعالى -: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾[1].

فالله - سبحانه وتعالى - يدعو إلى ستر الظاهر والباطن، فالظاهر يستر باللباس، والباطن يستر بالتقوى.

٢ - أنموذج المرأة المهاجرة إلى الله مع زوجها:

(سـارَة):

وهي امرأة إبراهيم خليل الله عليه السلام، وابنة عمه هاران بن ناحور بن ساروج بن راعو بن فالغ، كما ذكر المفسرون[2].

كان إبراهيم عليه السلام يحبها حبًا شديدًا؛ لدينها وقرابتها منه وحسنها الباهر، فإنه قد قيل: «إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها أحسن منها»[3].

وكانت امرأة مؤمنة صالحة صابرة، شدّ الله بها أزر إبراهيم عليه السلام؛

---

(١) سورة الأعراف، جزء من الآية: [٢٦].

(٢) ينظر: الطبري: جامع البيان، مج ٧، ص٨٩، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٩، ص٧٠، وابن كثير: قصص الأنبياء، ص١٧٥.

(٣) ابن كثير: قصص الأنبياء، ص١٧٩.

إذ كانت ترافقه في هجرته إلى الله - ﷻ -، محتملة كلَّ ما أصابها من تعب، وابتلاء في ذات الله، فلقد هاجر بها إبراهيم عليه السلام من بابل في العراق إلى فلسطين في الشام بعد أن لاقى من أهل بابل ما لاقى من أذى، وقال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[١]، ثم رحل معها إلى مصر[٢]. وهناك حدث لها ابتلاء عظيم مع جبّار مصر، ذلك الذي أخبرنا به رسولنا محمد ﷺ بقوله في الحديث الذي يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه : « لم يكذب إبراهيمُ النبيُّ عليه السلام قطُّ، إلاّ ثلاث كَذَباتٍ، ثِنتين في ذات الله، قوله: إنِّي سقيمٌ، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وواحدةً في شأن سارة، فإنَّه قدم أرض جبَّارٍ ومعه سارَة، وكانت أحسن النّاس، فقال لها: إنَّ هذا الجبار، إن يعلم أنّك امرأتي، يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنّك أُختي، فإنك أختي في الإسلام، فإنِّي لا أعلمُ في الأرض مسلمًا غيري وغيرك، فلمّا دخل أرضه رآها بعض أهل الجبّار، أتاه فقال له: لقد قدمت أرضك امرأةٌ لا ينبغي لها أن تكون إلاّ لك، فأرسل إليها فأُتي بها، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاّة، فلمَّا دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يَده إليها، فَقُبِضتْ يدهُ قبضة شديدة، فقال لها: ادعِي الله أن يُطْلِقِ يدي ولا أضُرُّكِ، ففعلتْ، فعادَ، فَقُبِضتْ أشدَّ من القبضةِ الأولى، فقال لها مثل ذلك، ففعلتْ، فعادَ فقُبِضت أشد من القبضتين الأُولَيَيْن، فقال: ادعي الله أن يطلق يدي، فلكِ الله أن لا أضُرَّكِ، ففعلت، وأطلقت يده، ودعا الذي جاء بها فقال له: إنّك إنما أتيتني بشيطانٍ، ولم تأتني بإنسانٍ، فأخرجها من أرضي، وأعطِها هاجَر.

قال: فأقبلت تمشي، فلمَّا رآها إبراهيم عليه السلام انصرف، فقال لها:

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: [٢٦] .

(٢) ينظر: ابن كثير: قصص الأنبياء، ص١٧٤ - ١٧٥.

مهيم؟ قالت: خَيْرًا، كفَّ الله يد الفاجر، وأخدمَ خادِمًا. قال أبو هريرة: فتلك أُمُّكم يا بني ماء السَّماءِ»(١).

ولقد كشف هذا الابتلاء عن قوة إيمان سارة، وعن منزلتها من الله حين أكرمها بحمايتها من الجبار الذي مدَّ يده إليها ثلاثًا، وحين استجاب دعاءها في كلِّ مرة كان يطلب منها الجبار أن تدعو الله أن يطلق له يده.

وعادت سارة إلى زوجها معزّزة مكرمة حامدة الله على نعمته حين أنجاها من الفاجر، ناسبة النعمة له - سبحانه وتعالى -، معترفة له بالفضل فقالت: «كفّ الله يد الفاجر».

وعاد بها إبراهيم عليه السلام ومعها جاريتها حيث استقرا هناك، ثم حدثت قصتها مع هاجر حين أهدتها إبراهيم فولدت له إسماعيل عليه السلام وانطلق بها وبولدها إلى مكة، ثم منَّ الله على سارة العقيم بالولد بعد كبر سنها.

والقرآن الكريم يقصّ لنا خبر بشارة سارة بإسحاق ويعقوب، وموقفها من ذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب: من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ، حديث رقم [٦١٤٥]، ورواه البخاري موقوفًا على أبي هريرة: صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله - تعالى -: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، حديث رقم [٣٣٥٨]، ومعنى مهيم: ما الخبر، وقول أبي هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء: «كأنه خاطب بذلك العرب لكثرة ملازمتهم للفلوات التي بها مواقع القطر لأجل رعي دوابهم، ففيه تمسك لمن زعم أن العرب كلهم من ولد إسماعيل، وقيل: أراد بماء السماء زمزم، لأن الله أنبعها لهاجر فعاش ولدها بها فصاروا كأنهم أولادها». ابن حجر: فتح الباري، جـ٦، ص٣٩٤.

وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾[١].

وقوله - تعالى - : ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[٢].

والآيات الكريمة في السورتين تمهِّد لقصة بشارة سارة بخبر الملائكة الذين جاءوا إبراهيم عليه السلام في صورة بشر، وما أن رآهم وسلّموا عليه حتى ردّ عليهم التحية بأحسن منها، وسارع إلى إكرامهم، وتقديم الطعام لهم، ثم إنه شعر بالفزع منهم حين رأى أيديهم لا تصل إلى طعامه، فطمأنوه لما رأوا فزعه، وأخبروه بمهمتهم التي جاءوا لأجلها وهي إهلاك قوم لوط.

وكانت زوجه سارة في هذا الوقت قائمة في خدمتهم، فلما سمعت من الرسل الخبر؛ ضحكت عجبًا « من غفلة قوم لوط عما قد أحاط بهم من عذاب الله وغفلتهم عنه »[٣]، وسرورًا بهلاك أهل الخبائث[٤].

وفي هذا ما يكشف عن قوة إيمانها، إذ كان فرحها لقرب هلاك الطغاة الذين بغوا، وانتهكوا حرمات الله، وتمادوا في الغي والضلال.

وكان ثواب نكيرها وعجبها من فعلتهم، أن بشّرتها الملائكة بإسحاق[٥]

---

(١) سورة هود، الآية: [٦٩ - ٧٣].

(٢) سورة الذاريات، الآية: [٢٤ - ٣٠].

(٣) الطبري: جامع البيان، مج ٧، ص٩٢.

(٤) ينظر: الزمخشري: الكشاف، ج٣، ص٢١٦.

(٥) ينظر: الطبري: جامع البيان، مج ٢٧، ص٩٢.

عليه السلام، ثم ضاعفت عليها البشارة فبشّرتها بيعقوب عليه السلام، ومعنى هذا أنها سوف تعيش حتى ترى ابن ابنها[١].

فلما سمعت الخبر، تعجبت أشد العجب؛ إذ كيف تلد وهي عجوز عقيم، وبعلها شيخ كبير! إن أسباب الإنجاب في حقها غير متوافرة، ومن هنا فولادتها أمر عجيب خارج عن العادة، «وما خرج عن العادة مستغرب ومستنكر»[٢].

ولقد أنكرت عليها الملائكة تعجبها؛ لأنها في بيت نبوة، ومهبط المعجزات، والأمور الخارقة للعادات، فكان عليها أن تتوقر، وأن تمجِّد الله وتسبحه مكان التعجب[٣].

وذكرتها الملائكة بالأصل الإيماني وهو قدرة الله على كلِّ شيء، ونفوذ قضائه، فهو الحكيم في تدبيره خلقه، العليم بمصالحهم.

ثم أثنت عليها الملائكة خيرًا، فهي من أهل بيت إبراهيم عليه السلام، البيت الصالح المؤمن، ودعت لهم بالرحمة والسّعادة والبركة، ومن تلك البركات التي حصلتْ لهم أن كثَّر الله الأنبياء والمرسلين في ولد سارة من إبراهيم[٤]: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾.

وبهذا كانت سارة المؤمنة مكرّمة من الله، ومباركة؛ فمن كرامتها على الله، أن ردَّ عنها كيد الفاجر الذي راودها عن نفسها، واستجاب دعاءها، وأنعم عليها بخدمة هاجر.

---

(١) ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٩، ص٦٩.

(٢) القرطبي: المصدر السابق، والجزء والصفحة نفسها.

(٣) ينظر: الزمخشري: الكشاف، ج٣، ص٢١٧.

(٤) ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٩، ص٧١.

ومن كرامتها على الله، أن منَّ عليها بتكليمها الملائكة وتكليم الملائكة لها شفاهًا، حين بشرتها الملائكة، وحاورتها ودعت لها، وأثنت عليها.

ومن كرامتها جزاء إيمانها، وطول صبرها، وجهادها، ومساندتها خليل الرحمن في دعوته، واحتسابها الأجر في ذلك كله، أن أكرمها الله بالولد على عجز وعقم ومن شيخ كبير، بقدرته -ﷻ- وجعلها أمًا لجميع الأنبياء من ذرية إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام. فرضي الله عن سارة وأرضاها.

٣ - أنموذج المرأة الواثقة من ربها:

(أم موسى):

واسمها مختلف فيه، فقيل: إن اسمها أيارخا، وقيل: أيارخت، وقيل: لوحا بنت هاند بن لاوي بن يعقوب[١]، وقيل: محيانة بنت يصهر بن لاوي، وقيل: يوخابذ، وقيل غير ذلك[٢]، وكلُّ هذه الأسماء لا يوثق بصحتها، ولا يصح الجزم بها.

شرفها الله -سبحانه وتعالى- بأمومة نبيه موسى عليه السلام، وجعلها مباركة على قومها حين ولدت لهم من كان سبب إهلاك عدوهم، وإنقاذهم من حياة الذل والمهانة التي كانوا يرزحون تحت أغلالها.

ولكن هذه المرأة ابتليت بموقف من أشد المواقف وأصعبها؛ فثبتت فيه، وتوكلت على ربها -سبحانه وتعالى-، وأيقنت بوعده، وانتصرت فيها عاطفة الإيمان على عاطفة الأمومة.

ذلك أن الله -ﷻ- قدر لها أن تلد ابنها موسى عليه السلام في زمن عانى فيه بنو إسرائيل من فرعون وملئه أعظم المعاناة، وذاقوا أشد المحن، وواجهوا

---

(١) ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، جـ ١٣، ص٢٥٠.

(٢) ينظر: الألوسي: روح المعاني، جـ٢٠، ص٣٤١.

أقسى المصائب والنكبات، فقد استضعفهم فرعون وجعلهم شيعًا، فكان يذبّح أبناءهم سنة، ويستحييهم سنة، خوفًا من أن يكثروا، فيغمروه في بلاده، وينازعوه الملك(١)، وفي هذا يقول - تعالى-: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾(٢).

وولد موسى عليه السلام في العام الذي يُذبَّح فيه الولدان؛ فتملك أمه من جراء ذلك حزن عظيم، واغتمت غمًّا شديدًا، وضاقت حيلتها، وعيل صبرها، وحارت في أمرها كيف تخفيه عن أعين الذباحين؟ ولو أخفته هل سيسكت عن الصياح والبكاء؟

وشاء - سبحانه وتعالى - أن يلهمها ويلقي في روعها أن ترضعه فإذا خافت عليه فلتلقه في تابوت في اليم، ثم عليها بعد ذلك ألا تخاف عليه من القتل أو البحر، ولا تحزن لفراقه فإنه - سبحانه وتعالى - سيرده إليها لترضعه، وسيبعثه رسولًا إلى من تخافه عليه أن يقتله(٣).

وفي ذلك يقول - تعالى -: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(٤).

ويقول - تعالى-: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ﴾(٥).

---

(١) ينظر: السعدي: تيسير الكريم الرحمن، ج٤، ص٦، ط / دار المدني، جدة.
(٢) سورة القصص: الآية: [٤].
(٣) ينظر: الطبري: جامع البيان، مج ١١، ص٤٠.
(٤) سورة القصص: الآية: [٧].
(٥) سورة طه، الآية: [٣٨]، وجزء من الآية: [٣٩].

فكيف تلقت الأم هذا الإيحاء، بل الابتلاء الذي تؤمر فيه بإلقاء المهجة في اليم؟! وهل خشيت عليه إلا من الذبح، حتى تسلمه بيدها إلى الغرق؟

إن عاطفتها الإيمانية تدعوها إلى تنفيذ أمر ربها، وتأمرها بالتوكل عليه، والثقة به، وعاطفة أمومتها الحانية التي تعزّزت لديها بعد أن أرضعت وليدها، تدعوها للتمسك بالطفل ولو ذبح أمامها، فربما كان أهون من إلقائه إلى مصير لا تعلمه!!

وما كان لها وهي المرأة الصالحة إلا أن اختارت تنفيذ أمر ربها؛ فألقت بمهجة قلبها وثمرة فؤادها في النيل!

ولم لا؟ وقد وعدها ربها برده إليها، وبشّرها بعلو شأنه.

وفي هذا درس عظيم في التوكل على الله، واليقين بوعده، وتعظيم أمره، وتقديمه على كلِّ أمر.

وإن «ركوب البحر لطفل وحيد في تابوت صغير تتلاقفه الأمواج، وتيار النيل الهادر؛ يبدو كل ذلك للنظرة المجردة مصدر خطر، وطريقًا للغرق، وضياع الطفل، ولكن لا يرتفع على تلك النظرة إلا كل مؤمن كامل الإيمان... وهو ما يطلب منا جميعًا أن نكونه، أو نقرب منه»[١].

وما كان الامتثال للأمر الإلهي أن يجرد الأم من مشاعرها الجيَّاشة، وعواطفها الدفّاقة، فها هو ذا القرآن الكريم يصور لنا اللحظات العصيبة التي مرّت بالأم بعد أن ألقت بابنها في اليم فيقول - تعالى -: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

---

(١) د / إبراهيم هلال: من بطولات المرأة في القرآن، ص٢٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط بدون، ت ط ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

(٢) سورة القصص، الآية: [١٠].

فلقد أصبحت عقب الليلة التي ألقته فيها في اليم في غاية الذعر، وفرغ قلبها من كل شيء إلا من ذكر موسى عليه السلام، والخوف عليه، والشوق إليه لدرجة أنها قاربت أن تخرج فتذيع أمره، وتخبر الناس بفعلتها.

وما كان خوفها هذا لينافي إيمانها أو ينقص منه؛ فهو خوف طبيعي و« الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان ولا يزيله »[١].

بيد أنَّ الله - عز وجل - ربط على قلبها؛ فعصمها من إبداء أمرها بتثبيتها، وإلهامها الصبر، وإنزال السَّكينة عليها؛ فصار قلبها « كالجراب الذي ربط فمه حتى لا يخرج شيء مما فيه »[٢].

وذلك لتكون بصبرها وثباتها من المؤمنين؛ فإن العبد إذا أصابته مصيبة فصبر وثبت، ازداد بذلك إيمانه، وإن استمر جزعه ضعف إيمانه[٣].

وهكذا يصنع الله بأوليائه وصالحي عباده، فيثبتهم عند المقلقات والمخاوف[٤]، ويلهمهم الصَّبر.

وشرعت الأم بعد أن عادت إلى قلبها السكينة، في البحث عن ابنها، ومحاولة الوصول إليه، من باب فعل السبب الذي لا ينافي توكل المؤمن على ربه، وهداها الله لإرسال ابنتها لقص أثر أخيها: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ﴾[٥]، وامتثلت البنت لأمر أمها، وأبصرت أخاها عن بعد، فأوهمت

---

(١) الشيخ عبد الرحمن السعدي: تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، ص١٣٠، مطبعة الإمام، الدمالشة، مصر، عابدين، ت ط ١٣٦٨هـ /١٩٤٩ م.

(٢) البقاعي: نظم الدرر، مج ٥، ص٤٦٨.

(٣) ينظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، مج ٤ / ص ٩، ط. دار المدني.

(٤) ينظر: السعدي، تيسير اللطيف المنان، ص١٣١.

(٥) سورة القصص، الآية: [١١].

أنها مارة لا قصد لها فيه: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[١].

وكان اليم قد ألقى بتابوت موسى بالسَّاحل في المجرى الموصل إلى قصر فرعون، بتدبير الحكيم - ﷻ - الذي قال: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾، والتقط آل فرعون التابوت: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾[٢]، والآية فيها تهكم بفرعون؛ ذلك أن العاقل لا يقدم على أمر حتى يعلم عاقبته فكيف إذا كان يدعي أنه إله ! ولهذا عبَّر - سبحانه وتعالى - بلام العاقبة التي معناها التعليل تهكمًا بفرعون، فقال: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ بطول خوفهم منه ﴿وَحَزَنًا﴾ على زوال ملكهم: «والمعنى على طريق التهكم أنهم ما أخذوه إلا لهذا الغرض، لأنا تحاشيهم من الإقدام على ما يعلمون آخر أمره»[٣].

وحمل التابوت إلى امرأة فرعون، فاكتشفت الطفل، وألقى الله في قلبها حبه، فاستوهبته من فرعون، فوهبه لها: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٤].

ومن لطيف صنع الله بأم موسى وابنها أن منع موسى عليه السلام من قبول ثدي كل المراضع اللائي عرضن عليه من قبل أن تأتي أخته لتقص أثره؛ وذلك ليكون سببًا في عودته لأمه تحقيقًا للوعد الإلهي السَّابق.

وكان آل فرعون قد اغتموا لرفض الطفل المراضع، واهتموا لأجله اهتمامًا بالغًا، حتى خشوا عليه الموت. فلما رأتهم أخته على تلك الحال

---

(١) سورة القصص، الآية: [١١].

(٢) سورة القصص، الآية: [٨].

(٣) البقاعي: نظم الدرر، مج ٥، ص٤٦٦.

(٤) سورة القصص، الآية: [٩].

دلتهم على من يستطيع إرضاعه بطريقة ذكية: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾(١)، ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾(٢).

واستبشر آل فرعون بالخبر، ورجوا أن يكون صوابًا؛ فطلبوا أمه وهم لا يعلمون من أمرها شيئًا؛ فحملت الصغير، فلما وجد ريحها أقبل على ثديها يرضع منه.

وانكشفت الغمة عن آل فرعون، وعرضت امرأة فرعون على الأم أن تقيم معها في القصر ترضع الصغير وتجري عليها الرزق، فأبت إلا العودة إلى بيتها؛ فأذنت لها بأخذ الطفل معها، وأجرت عليها الرزق.

و«عاد الطفل الغائب لأمه الملهوفة، معافى في بدنه، مرموقًا في مكانته، يحميه فرعون، وترعاه امرأته، وتضطرب المخاوف من حوله وهو آمن قرير»(٣).

وقرت عين الأم، وزاد إيمانها بالله، ويقينها بتحقيق وعد الله، وزاد تسليمها لأمره - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - وتعمّق علمها بقدرته - عَزَّ وَجَلَّ - وحكمته. وفي ذلك يقول - تعالى -: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٤) ويقول - تعالى-: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾(٥).

فلقد وصفها الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - بأنها أهل للعلم بأحقية وعد الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - لها في

---

(١) سورة القصص، الآية: [١٢].

(٢) سورة طه، جزء من الآية: [٤٠].

(٣) قطب، في ظلال القرآن، مج ٥، ص٢٦٨٠-٢٦٨١.

(٤) سورة القصص، الآية: [١٣].

(٥) سورة طه، جزء من الآية: [٤٠].

هذا الموقف العصيب الذي تضطرب فيه العقول، وتتزلزل فيه القلوب، بينما نفى العلم المطلق عن فرعون وملئه، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وكأنهم ليسوا أهلًا للعلم على أية حال.

٤ - أنموذج الأم الصالحة الحريصة على صلاح ذريتها: (امرأة عمران):

وهي أم مريم الصديقة، وجدّة عيسى عليه السلام رسول الله وكلمته، واسمها - كما جاء في التفاسير - حنّة بنت فاقود أو فاقوذ بن قبيل[1]، وهذه التسمية لم تثبت.

كان زوجها عمران بن ياشهم أو بن ماثان، إمام قومه وصاحب قربانهم[2]، وكان من سلالة أنبياء، فهو من نسل سليمان بن داود. . . بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام[3].

اصطفاها الله - سبحانه وتعالى - من ضمن آل بيت عمران على العالمين، ومنّ عليهم بالفضائل العالية والأعمال الصالحة، فقال فيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[4]. وأكرم بها وبزوجها عمران شرفًا وقدرًا أن يصطفي الله - سبحانه وتعالى -

(١) ينظر: الطبري: جامع البيان، مج٣، ص٣٠٣، وينظر: ابن كثير: قصص الأنبياء، ص٦٤٥.

(٢) ينظر: الطبري: المصدر السابق، مج ٣، ص٣١٤.

(٣) هكذا ذهب جُلّ المفسرين وكبارهم إلى أن عمران من نسل سليمان بن داود، ينظر: الطبري: المصدر السابق، مج ٣، ص٣٠٣.

وينظر: الزمخشري: الكشاف، ج١، ص٥٤٨، وينظر: الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج ٨، ص١٢٢، ط٢، دار الكتب العلمية، طهران.

وينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص٣٣، وينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٤، ص٦٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية: [٣٣، ٣٤] .

لهما مريم لتلد عيسى عليه السلام من غير أب، ولم يكن ذلك لأحدٍ من العالمين.

وفي قصتها ما يجلّي شخصيتها، ويبين عن قوة إيمانها، وعمق يقينها بالله - سبحانه وتعالى - فلقد كان من شأنها أنها لما حملت، اختارت أن تتقرب إلى الله بأعز ما لديها؛ فلذة كبدها، وعزمت على أن تضحي بحاجتها إلى وليدها فيما يخص أمر دنياها من انتفاع ونصرة وأنس؛ توكلًا منها على ربها - سبحانه وتعالى -، وإخلاصًا لدينه، وحبًّا له، وتعظيمًا لبيته. ولهذا نذرت ما في بطنها مخلصًا لعبادة الله، متفرغًا لطاعته، محرّرًا من أسر الدنيا وقيودها خادمًا لبيت المقدس.

وأي امرأة تختار أن تضحي بحاجتها لابنها، وبقربه منها، فتهبه لخدمة بيت ربه، والتفرغ لعبادته - سبحانه وتعالى - إلا إذا كانت من التقوى والإيمان بمكان.

ولبالغ إخلاصها قامت تدعو الله - سبحانه وتعالى - بكلِّ ضراعة وخشوع أن يتقبل منها نذرها، فتقول: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[(1)].

إنها تدعو الله بربوبيته دون أي وسيط من أدوات النداء؛ لأنها تعلم أنه - سبحانه وتعالى - المتولِّي للتربية، القريب من عباده.

وتؤكد خلوص نذرها وصدق نيتها فتقول: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ﴾ لا لغيرك، كما في معنى اللام: الملك والاستحقاق.

وفي التعبير بـ (ما) دون (من) في قولها: ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ إشارة إلى الإبهام، أي أنها نذرت ما في بطنها محررًا، سواء أكان ذكرًا أم أنثى، وكانت وقتئذ لا تعلم نوع حملها وإن كانت ترجو أن يكون ذكرًا.

---

(١) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٣٥] .

ثم تستدعي القبول منه - سبحانه وتعالى - وتأمل في الرضا والإثابة من حيث إن علمه بصدقها وإخلاصها مستدع لقبول نذرها، فتقول: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وهذا الدعاء الخاشع من امرأة عمران: « ينمُّ عن ذلك الإسلام الخالص لله، والتوجه إليه كلية، والتحرر من كلِّ قيد، والتجرد إلا من ابتغاء قبوله ورضاه »[1].

ولكن الأمر لم يكن كما توقعت امرأة عمران، فلقد وضعت أنثى لا ذكرًا، فأُذْهِلَتْ للمفاجأة، وارتاعت، ولجأت إلى الاعتذار والتحزُّن إلى ربها على خيبة رجائها، وعكس تقديرها[2]، فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾[3]، إذ كيف تحرّر أنثى لخدمة البيت، والانقطاع للعبادة، والتحرير إنما ينهض به الغلمان!

ولأن الله - سبحانه وتعالى - أعلم منها بنفاسة ما وضعته، وأنها خير من مطلق الذكر الذي سألته[4]؛ قال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾[5]، وفي هذا بيان لعلو منزلة المولودة، وسمو قدرها، ورفعة شأنها.

وكان مراد امرأة عمران من قولها: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾[6]، أن الأنثى لا تنهض بما ينهض به الذكر من الاستمرار على خدمة المسجد؛ لما يصيبها من الحيض والنفاس، ولضعف بنيتها، ولكون اختلاطها بالناس يعدُّ معيبًا

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ١، ص٣٩٢.

(٢) ينظر: الزمخشري: الكشاف، ج ١، ص ٥٥٠.

(٣) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٣٦].

(٤) ينظر: ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مج ٣، ص٢٣٣.

(٥) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٣٦].

(٦) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٣٦].

على عكس الذكر، هذا فضلًا عن أن شرعهم يجوّز تحرير الذكور دون الإناث[١].

ولكنها رضيت بحكم الله وأذعنتْ، وأحسنت الظن بربها أن يتقبل منها نذرها، وفي هذا ما يفيد بأن من فوّض أمره إلى الله لا ينبغي أن يتعقب تدبيره[٢].

وعرَّضت بيتمها استعطافًا لله - سبحانه وتعالى - حيث تولّت تسميتها[٣]، واختارت لها اسم مريم الذي يعني في لغتهم العابدة[٤]، أو الخادم[٥]؛ تفاؤلًا بحالها، وما تود أن تصير إليه من التبتل والعبادة في بيت الله، فقالت: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾[٦]، وللاسم علاقة بالمسمى.

ثم إنها ختمت مناجاتها لربها بالدعاء لابنتها أن يعيذها الله وذريتها من الشيطان الرجيم، فقالت: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[٧].

فهي لحنانها وإخلاصها وصدقها لا تودُّ الخير لابنتها فحسب، بل ولذرية ابنتها، وأقصى ما تتمناه أن تكون البنت وذريتها في صيانة وحفظ من الشيطان الرجيم؛ لأنها تدرك أن السعيد من حفظ من كيد إبليس ووسوسته، ونجا من حبائله ومصائده.

---

(١) ينظر: الرازي: التفسير الكبير، ج ٨، ص.٢٧ و«لَدُنْ»: ظرف مكان بمعنى «عند» إلا أنه أقرب مكانًا من «عند»، وأخصُّ منه. (ينظر: ابن منظور: لسان العرب «مادة لدن»).

(٢) ينظر: ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مج ٣، ص٢٣٣.

(٣) ينظر: الألوسي: روح المعاني، ج ٣، ص١٨٢.

(٤) ينظر: الزمخشري: الكشاف، ج١، ص٥٥١، وينظر: الرازي: التفسير الكبير، ج٨، ص٢٧.

(٥) ينظر: ابن حجر: فتح الباري، ج ٦، ص٥٤١.

(٦) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٣٦].

(٧) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٣٦].

« وهذا الحديث على هذا النحو فيه شكل المناجاة القريبة. مناجاة من يشعر أنه منفرد بربه، يحدثه بما في نفسه، وبما بين يديه، ويقدم له ما يملك تقديمًا مباشرًا لطيفًا، وهي الحال التي يكون فيها هؤلاء العباد المختارون مع ربهم حال الود والقرب والمباشرة، والمناجاة البسيطة العبارة، التي لا تكلف فيها ولا تعقيد، مناجاة من يحس أنه يحدث قريبًا ودودًا سميعًا مجيبًا »(١).

تلك بعض الدعوات الخاشعة التي صدرتْ من قلب امرأة عمران التقية للرب - سبحانه وتعالى - ، فماذا كانت نتيجتها ؟

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾(٢)، لقد رضي الله بالمولودة الأنثى - على غير مثالٍ سابق - أن تكون محررة لعبادته وخدمة بيته، وأغدق عليها من فضله، وأنبتها في غذائه فكملت امرأة بالغة تامة، ورأف بيتمها؛ فضمها إلى زكريا عليه السلام؛ فكانت ثمرة طيبة لأمٍّ صالحة، عمرت بيتها بالعبادة، وقلبها بالإخلاص.

وأنعم بأم مريم زوجة مخلصة لزوجها، حافظة لعرضها وشرفها، ممدوحة من قومها بالعفة، وحسن الخلق؛ ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾(٣).

وأنعم بها مؤمنة تقية، عاشت لدينها في كلِّ خلجة من خلجات نفسها الطاهرة وفي كل لحظة من لحظاتها، فلولا صدقها في نذرها لما تقبل الله منها و ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٤).

إن امرأة عمران فوق صلاحها، وتقواها، وإخلاصها، وحسن خلقها،

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، جا، ص٣٩٢ وما بعدها.

(٢) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٣٧] .

(٣) سورة مريم، جزء من الآية: [٢٨] .

(٤) سورة المائدة، جزء من الآية: [٢٧] .

أنموذج الأم المحبة المشفقة الحريصة على صلاح ذريتها؛ فلقد أحسنت تسمية ابنتها وعوذتها وذريتها من الشيطان الرجيم، الأمر الذي أسهم في تثبيت الإيمان في قلب مريم وابنها.

وهكذا أثر الإيمان في شخصية (امرأة عمران) فكانت شخصية مستقيمة، محرّرة من رق العبودية لغير الله، متوجهة بكليتها إلى ربها، مخلصة له، مستجابة الدعوة، محفوظة في نفسها وفي ذريتها.

٥ - أنموذج المرأة العابدة المتبتلة:

(مريم ابنة عمران):

وهي مريم ابنة عمران بن ياشهم أو بن ماثان، من سلالة سليمان بن داود بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وأمها (امرأة عمران)، الصالحة التي أثنى الله على إخلاصها، كما مر ذكره في الأنموذج السابق.

والمتأمل في قصة مريم يجد أن البعد الإيماني يبدو عميقًا راسخًا في شخصيتها، ذلك أن العقيدة الصحيحة كانت الأساس الذي بني عليه البيت الذي ولدت فيه، فأبوها وأمها بلغا من الصلاح والإخلاص شأوًا بعيدًا، ولهذا تقبلها الله من أمها محررة، وأنشأها نشأة حسنة في خَلْقها وخُلُقها، وأعاذها وذريتها من الشيطان الرجيم، فلم يجعل له عليهما سبيلًا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « **ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخًا من مس الشيطان، غير مريم وابنها** » ثم يقول أبو هريرة: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ »[1].

---

(١) البخاري: صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله - تعالى -: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾، حديث رقم [٣٤٣١] ،والآية: في سورة آل عمران، جزء من آية: [٣٦] .

واختار الله - سبحانه وتعالى - نبيه زكريا ليكون كافلًا لها، ملتزمًا بمصالحها، وضمها إليه لتقتبس من علمه وعبادته وتبتله[(١)] وتقواه، فكان لها نعم المربي الكامل المصلح، فنشأت نشأة « دينية أخلاقية، أدبية، كملت بها أحوالها، وصلحت بها أقوالها وأفعالها، ونما فيها كمالها »[(٢)].

وابتنى لها زكريا عليه السلام محرابا في المسجد، فكانت ملازمة له، مكثرة فيه من العبادة والتبتل، فنالت بتبتلها درجة الولاية وطابق اسمها فعلها - كما رجت بذلك أمها - وأكرمها الله - سبحانه وتعالى - برزقه، فكان يفيض عليها في محرابها، فإذا سألها زكريا عليه السلام عن مصدره، أجابته في ثقة بربها ويقين: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[(٣)].

وشهدت مريم كرامة الله لكافلها زكريا، حين وهبه يحيى عليه السلام على الرغم من كبر سنه وعقر زوجه؛ فازداد يقينها بأن الله قادر على كل شيء، وإن عدمت الأسباب المعتادة.

تلك هي الظروف التي أحاطت بنشأة مريم، والملاحظ أن « الطهارة والعبادة أظلتها وهي جنين في بطن أمها، إلى أن بلغت مبلغ النِّساء »[(٤)].

واصطفى الله مريم مرة بعد مرة، وكانت الملائكة تكلمها شفاهًا: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(٥)].

---

(١) التبتل: الانقطاع عن الدنيا إلى الله - تعالى -، يقال للعابد إذا ترك كل شيء وأقبل على العبادة: قد تبتل: أي قطع كل شيء إلا أمر الله وطاعته. (ابن منظور: لسان العرب، مادة تبل).

(٢) السعدي: تيسير الكريم الرحمن، جـ ١، ص٣٧٦، ط. مكتبة الخلفاء للكتاب الإسلامي بالرياض.

(٣) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٣٧] .

(٤) عفيف طبارة: مع الأنبياء في القرآن الكريم، ص٣١٨، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان ط١٨، ت ط ١٩٩٣م.

(٥) سورة آل عمران، الآية: [٤٢] .

فقد اصطفاها الله أولًا واختارها لعبادته، وخصّها بكرامته، وشرفها وطهرها من « الأقذار الحسية والمعنوية والقلبية والقالبية »(١). واصطفاها للمرة الثانية على نساء العالمين في زمانها أو في سائر الأزمنة لفضل عبادتها، ولكونها ولدت من غير زوج، وهي مسألة لم يشاركها فيها أحد، ولكونها محررة ولم تحرّر أنثى قط(٢).

ولأن هذا الاصطفاء المتكرر، والتطهير نعمة عظيمة من الله تقتضي مزيد الشكر أمرتها الملائكة أن تجتهد بالعبادة الخاشعة المستديمة لربها الذي خصَّها بمزيد المواهب والعطايا: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾(٣).

تلك هي المراحل الأولى بالنسبة لإعداد مريم وتهيئتها لتلقي النفخة العلوية، فلقد كانت ترى في المرحلة الأولى رزق الله يفيض عليها في محرابها دون بذل سبب منها أو من غيرها في تحصيله فتتيقن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾.

وشهدت في المرحلة الثانية حدث ولادة يحيى عليه السلام دون تدخل الأسباب المعتادة في عرف البشر.

وفي المرحلة الثالثة خاطبتها الملائكة شفاهًا فبشرتها بالاصطفاء والتطهير، وأمرتها بلزوم العبادة والاستدامة عليها.

---

(١) الألوسي: روح المعاني، ج٣، ص٢٠٥.

(٢) ينظر: الطبري: جامع البيان، مج٣، ص٣٣٨، وينظر: الزمخشري: الكشاف، ج١، ص٥٥٧، وينظر: أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط، ج٢، ص٤٧٦، تحقيق: عادل عبد الموجود، وعلي معوض، وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ت ط ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

(٣) سورة آل عمران، الآية: [٤٣].

وأما المرحلة الجديدة فتتمثل في قوله - تعالى-: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[١].

إنها بشارة سارّة بالنسبة لها من حيث تضمنها الإخبار عن مكانة ابنها من ربه ومن الناس، والمعجزة التي ستصاحب مولده، والموكب الذي سينسب إليه، ولكنها مفاجأة مستغربة! إذ كيف ترزق بولد من غير بعل!

وما إن تتساءل عن ذلك بقولها متعجبة: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾! حتى يأتيها الجواب رافعًا إنكارها وتعجبها: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٢].

وعند ذلك يطمئن قلبها، ويزداد يقينها بقدرة الله على فعل ما شاء.

ومن كل ما سبق، تبرز الأسس التي ارتكزت عليها شخصية مريم، وهذه الأسس ترتكز على العقيدة الصحيحة، والأخلاق الفاضلة، والآداب الرفيعة التي نمت إليها من أصولها الوراثية الطيبة.

ولما حان الوقت الذي أراد الله فيه - سبحانه وتعالى - أن يخلق منها الولد؛ أرسل إليها روحه جبريل عليه السلام ففاجأها بدخوله عليها في المكان الذي انفردت به عن أهلها؛ لأجل التفرغ للعبادة، والتبتل الدؤوب، وفي الوقت الذي اتخذت فيه الحجاب الساتر من دونهم، وقد تمثل لها جبريل عليه السلام في صورة بشر سوي. وفي ذلك يقول - تعالى - : ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: [٤٥، ٤٦].

(٢) سورة آل عمران: جزء من الآية: [٤٧].

مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[١].

وارتاعت مريم لما رأته، وظنته يراودها عن نفسها، وعلمت أنه لا يصرف عنها شره إلا الله - سبحانه وتعالى -؛ لأنها دائمة التذكر لربها على كل أحوالها، في رخائها وشدتها، وهو ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن. ولهذا لجأت إلى الاستعاذة بالرحمن منه: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾[٢]، فلم تقل: أعوذ بالله، بل اختارت وصف الرحمن فقالت: ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ﴾؛ وذلك لأنها أحوج ما تكون في تلك اللحظات إلى رحمة ربها، أن يرحم ضعفها ويصرف عنها شر من اقتحم عليها خلوتها، كما أن فيه تذكيرًا للرجل أن يرحمها هو أيضًا فلا يمسها بسوء، فهي فريدة، بعيدة عن أهلها!

كما لجأت مريم إلى استثارة التقوى في قلبه فقالت: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾؛ لأنها علمت أنه لا شيء يحصن الإنسان ويصبره عن الإقدام على الحرام إلا التقوى.

وكان في موقف مريم هذا من الالتزام بالتقوى والعفة درس عظيم للأجيال المؤمنة، وإلا فما كان يمنعها من الفعل المحرم وهي شابة فتية، بعيدة عن نظر أهلها والناس، وأمامها رجل في أحسن صورة، وهما في خلوة!، ما يمنعها إلا التقوى والعفة والخوف من الجبار المطلع على عباده - سبحانه وتعالى -.

وكان موقف جبريل، أن عرفها بنفسه، وبمهمته التي جاء لأجلها: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾[٣]، فعبر بالربوبية مع الإضافة

---

(١) سورة مريم، الآية: [١٦، ١٧].

(٢) سورة مريم، الآية: [١٨].

(٣) سورة مريم، الآية: [١٩].

إلى ضميرها؛ لقصد تشريف مريم وتسليتها والإشعار بعلة الحكم؛ لأن هبة الغلام من أحكام تربيتها[١]، كما أن فيه تطمينًا لها، فربها الذي يتولاها ويرعاها ويحرسها فعلام الخوف؟.

ثم إن مريم راجعته لا على سبيل الاعتراض على قضاء الله، ولكن على سبيل التعجب من أمر سيحصل لها على خلاف العادة: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾[٢].

فهذا أمر مقدور، مسطر في اللوح المحفوظ، ومن قضاه قادر على فعل كلِّ شيء. وحينئذ استسلمت مريم لقدر الله - عز وجل -، وفوضت إليه أمرها، فنفخ جبريل فيها من روح الله؛ فحملت بعيسى عليه السلام من جرّاء تلك النفخة. وامتدحها الله - سبحانه وتعالى - بعفتها وحصانتها فقال - تعالى - : ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٣].

وقال -تعالى-: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾[٤].

فلقد حفظت فرجها عن الحلال والحرام حفظًا يحق له أن يذكر، وعفت عن السوء وجميع مقدماته عفة كانت كالحصن المانع من العدو[٥]، وتخلت عن ملاذ الدنيا وشهواتها إلى الانقطاع إلى الله بالعبادة[٦]، والتبتل؛

---

(١) ينظر: أبو السعود محمد العمادي: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج٥، ص٢٦٠، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٤، ت ط ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

(٢) سورة مريم، الآية: [٢٠، ٢١].

(٣) سورة الأنبياء، الآية: [٩١].

(٤) سورة التحريم، الآية: [١٢].

(٥) ينظر: البقاعي: نظم الدرر، مجـ٨، ص٦٠.

(٦) ينظر: البقاعي: المصدر السَّابق، مجـ ٥، ص ١٠٨.

﴿فَنَفَخْنَا﴾ أي بعظمتنا بواسطة روح القدس ﴿فِيهِ﴾ أي في جيبها؛ لأن كل جيب يسمى فرجًا[١]، ولعله أضاف النفخ إليها في قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ لا إلى فرجها وحده؛ « ليفيد أنه - مع خلق عيسى عليه السلام به، وإفاضة الحياة عليه حسًّا ومعنىً - أحياها هي به معنى بأن قوى به معانيها القلبية حتى كانت صديقة »[٢].

وكان حملها من غير بعلٍ آية من آيات الله، وكرامة لها، ورحمة بها حين اصطفاها على نساء العالمين بهذه الآية العجيبة.

وحين جاءها المخاض[٣]، وألجأها إلى جذع النخلة اليابسة، تمنّت الموت، ولم يكن تمنيها الموت بقولها: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾[٤] لم يكن جزعًا من قضاء الله، ولا يأسًا من رحمته، وحاشاها ذلك وهي الصِّديقة المؤمنة بل جرى منها هذا القول حين « آلمها وجع الولادة، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من قالة الناس، وخافت عدم صبرها »[٥]؛ تمنت الموت لكونه من عادة الصالحين إذا وقعوا في بلاء أن يقولوا ذلك، كما تمنى علي بن أبي طالب رضي الله عنه الموت يوم الجمل فقال: « يا ليتني مِتُّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة »، وتمناه بلال فقال: « ليت بلالًا لم تلده أمه ». وربما خشيت أن يظن قومها بها السوء فتقع منهم معصية التكلم فيها والخوض في عرضها[٦].

---

(١) ينظر: الطبري: جامع البيان، مج ٢٨، ص٢١١.

(٢) البقاعي: نظم الدرر، مج ٥، ص١٠٨.

(٣) المخاض: وجع الولادة وهو الطَّلْق. (ابن منظور: لسان العرب « مادة: مخض »).

(٤) سورة مريم، جزء من الآية: [٢٣] .

(٥) السعدي: تيسير الكريم الرحمن، ج٣، ص١٩٧.

(٦) ينظر: الرازي: التفسير الكبير، ج٢١، ص٢٠٣.

ولكن وليدها عيسى عليه السلام ناداها حين وضعته: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾(١) (*).

فلقد أجرى الله - سبحانه وتعالى - تحتها نهرًا، وأنبت لها رطبًا طيبًا طريًّا يتساقط عليها بمجرد أن تبذل السبب في هز النخلة.

وفي الأمر بهز الجذع لتساقط الرطب الجني مع قدرة الله - تعالى - على

---

(١) سورة مريم، الآية: [٢٤ - ٢٦] .

(*) اختلف المفسرون في المنادي الذي نادى مريم ؛ فقال بعضهم: هو عيسى، وقال بعضهم: هو جبريل ناداها من تحت النخلة وكان أسفل منها، وقال بعضهم: إن المنادي على القراءة بالكسر « مِن تحتها » هو الملك، وعلى القراءة بالفتح « مَنْ تحتها » هو عيسى.

واستظهر القول الأول كثير من المفسرين، منهم: الطبري في: (جامع البيان، مج٩، ج١٦، ص٩٤- ٩٥)، والرازي في: (التفسير الكبير، ج٢١، ص٢٠٤)، وأبو حيان في: (البحر المحيط، مج٦، ص١٧٣)، والبقاعي في: (نظم الدرر، مج٤، ص٥٢٩)، وابن عاشور في: (التحرير والتنوير، ج١٦، ص٨٧)، والشنقيطي في: (أضواء البيان، ج٤، ص٢٦٦، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ت ط ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م)، وسيد قطب في: (الظلال، ج٤، ص٢٣٠٧).

واستدلوا على ذلك بوجود قرينتين:

الأولى: أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور إلا بدليل صارف عن ذلك يجب الرجوع إليه، وأقرب مذكور في الآية هو عيسى لا جبريل ؛ لأن الله قال: « فحملته » يعني عيسى، « فانتبذت به » أي بعيسى.

ثم قال بعده: « فناداها » فالذي يظهر ويتبادر من السياق أنه عيسى.

القرينة الثانية: أنها لما جاءت به قومها تحمله، وقالوا لها ما قالوا أشارت إلى عيسى ليكلموه ؛ كما قال تعالى عنها: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ﴾ وإشارتها إليه ليكلموه قرينة على أنها عرفت قبل ذلك أنه يتكلم على سبيل خرق العادة لندائه لها عندما وضعته. أهـ.

قُلْتُ: والباحثة تختار القول الأول وترجحه - والله تعالى أعلم -.

أن يجعل هذا التساقط بدون هز، إشارة بالغة إلى ربط الأسباب بالمسببات في دنيا البشر.

وفي هاتين الكرامتين، تسلية لقلب مريم؛ لكونهما حدثتا على خلاف العادة، وهو أمر سيثبت للناس أنها معصومة عن فعل السوء، وأن ولادتها من غير فحل ليس ببدع في شأنها[١].

واستسلمت مريم لقضاء الله، واستجمعت قوتها وشجاعتها، فحملت صبيها ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾، فكان ذلك دليلًا على قوة يقينها بالله وثباتها في الأزمات.

ولما واجهها قومها ولاموها واتهموها بالسوء فقالوا: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾[٢]، وأخذوا يتعجبون من فعلتها برغم حصانتها الخلقية وحصانة والديها: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[٣]؛ لم ترد عليهم، والتزمت الصمت لكمال امتثالها لأمر ربها: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ ففوضت أمرها إلى ربها، وأعرضت عن سفه من طعنها في عرضها، واكتفت بالإشارة إلى وليدها؛ ثقة منها بوعد الله، ويقينًا بنصره، ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[٤].

---

(١) ينظر: الزمخشري: الكشاف، جـ ٤، ص١٦.

(٢) سورة مريم، جزء من الآية: [٢٧].

(٣) سورة مريم، جزء من الآية: [٢٨].

(٤) سورة مريم، الآية: [٢٩ - ٣٣].

وما إن سمع قومها كلام وليدها حتى عرفوا لها طهارتها ونزاهتها بعد أن ظنوها تسخر بهم وتهزأ حين أشارت إليه.

وبذلك رفع الله قدرها، وأشاد بها، وذكرها في معرض الثناء والمدح، وبلّغها درجة الصديقيّة؛ لبالغ تصديقها بأمره، وكمال امتثالها ويقينها فقال عنها: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾[1]، وقال - سبحانه -: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[2].

كما شهد لها نبينا محمد بن عبد الله ﷺ بالكمال فقال: « **كمل من الرجال كثير ولم يَكْمُل من النساء إلاّ آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام** »[3].

وأخبر ﷺ أنها خير نساء أهل الجنة فقال: « **خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة** »[4].

٦ - أنموذج المرأة المسارعة في الخيرات:

(امرأة زكريا):

واسمها- كما ذكر المفسرون - ألاشياع أو إيشاع أو أشياع بنت فاقوذا بن قبيل، أو بنت عمران بن ياشهم المنتسب إلى سليمان بن داود عليه السلام[5].

وعلى القول الأول تكون امرأة زكريا هي أخت حنة بنت فاقوذا امرأة

---

(١) سورة المائدة، الآية: [٧٥].

(٢) سورة التحريم، جزء من الآية: [١٢].

(٣) رواه البخاري: صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، حديث رقم [٣٤١١، ٣٤٣٣].

(٤) رواه البخاري: المصدر السابق، كتاب أحاديث الأنبياء، حديث رقم [٣٤٣٢] ، وكتاب مناقب الأنصار، حديث رقم [٣٨١٥].

(٥) ينظر: الطبري: جامع البيان، مج٣، ص٣١٤، وينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج١١، ص١٩، وينظر: ابن كثير: قصص الأنبياء، ص٦٤٥.

عمران، وخالة مريم بنت عمران، وعلى القول الثاني تكون أخت مريم لا خالتها(*)، وما دام القرآن الكريم والسنة النبوية لم ينصا على اسمها، فالأولى تجنب الخوض في هذه المسألة وعلمها عند الله - سبحانه وتعالى - .

ولقد أكرم الله هذه المرأة بالزواج من نبيه زكريا عليه السلام؛ فكانا نعم الزوجين الصالحين، والمسارعين في الخيرات، وإلى عبادة الله - سبحانه وتعالى - ودعائه؛ رغبة منهما في رحمته وفضله، ورهبة من عقابه وعذابه، فهما أبدًا خاضعان متذللان لا يستكبران عن عبادة ربهما ولا عن رجائه.

ولكن امرأة زكريا ابتليت بابتلاء عظيم، من أشد ما تبتلى به المرأة، ألا وهو العقر الذي يؤدي إلى الحرمان من الولد!، فصبرت واحتسبت، كما صبر عليها زوجها، رضىً منه بقضاء الله، واطمئنانًا إلى حكمته - سبحانه وتعالى - في حرمانه وزوجه من الولد.

وكبرت المرأة وهي على عقرها، وأدرك زكريا الكبر؛ فوهن العظم منه[١]، واشتعل رأسه شيبًا؛ فبلغ من الكبر عتيًا[٢].

ولما أراد الله - سبحانه وتعالى - إكرام هذين الزوجين الصالحين بالولد؛ كفّل مريم بنت عمران زكريا، وجعله قيمًا عليها، وكان يرى من كرامتها على الله ما يدفعه إلى طلب الولد، وفي ذلك يقول - تعالى -: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ

(*) قلتُ: روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - حديث: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، إلا ابني الخالة عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا»، وسألت فضيلة الشيخ المحدث: سليمان العلوان، عن صحته، فقال: إن أول الحديث صحيح، أي قوله: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»، وباقي الحديث منكر.

(١) وهن العظم: ضعف ورق ونحل من الكبر (الطبري: جامع البيان، مج٩، ص٦٥).

(٢) عتيًا: العتي، هو اليبس والجساوة في المفاصل والعظام كالعود القاحل [اليابس] ، يقال: عتا العود وعسا من أجل الكبر والطعن في السن العالية. (الزمخشري: الكشاف، ج٤، ص٨).

يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[١].

وكان من دعاء زكريا أيضًا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[٢].

وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[٣].

فزكريا الطَّيْلا لم ييأس من رحمة الله، ورجاء حصول الولد، على الرغم من افتقاده وزوجه أسباب الحصول على الذرية، فهو طاعنٌ في السن، وزوجه عاقر !، ولهذا قال: ﴿فَهَبْ لِى﴾، « لأن الهبة إحسان محض، ليس في مقابله شيء، وهو يناسب ما لا دخل فيه للوالد، لكبر سنه، ولا للوالدة، لكونها عاقرًا لا تلد »[٤].

كما أنه عبر بـ ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ دون التعبير بـ (من عندك)؛ لأنه يريد من الله - سُبحانه وتعالى - أن يحدث هذا الولد، بمحض قدرته من غير توسط شيء من الأسباب[٥].

وكانت دعواته بركة عليه وعلى زوجه، حيث إن الله استجاب له في الحال لما علم صدقه وصلاحه هو وزوجه؛ فأصلح الله زوجه للحمل

(١) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٣٧] ، والآية: [٣٨] .
(٢) سورة مريم، الآية: [٤-٦] .
(٣) سورة الأنبياء، جزء من الآية: [٨٩] .
(٤) الألوسي: روح المعاني، جـ٣، ص١٩٢.
(٥) ينظر: الرازي: التفسير الكبير، جـ٨، ص٣٣. و« لَدُنْ »: ظرف مكان بمعنى « عند »، إلا أنه أقرب مكانًا من « عند »، وأخصُّ منه . (ينظر: ابن منظور: لسان العرب « مادة لدن »).

والولادة، ورزقهما غلامًا برًّا زكيًا، فقال - تعالى -: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(١). وقال - تعالى -: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾(٢). وقال - تعالى -: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾(٣).

وتفاجأ زكريا، وتساءل متعجبًا عن كيفية وقوع البشارة: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾(٤). و ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾(٥)، فأتاه الجواب رادًّا له إلى الحقيقة التي يغفل عنها كثير من البشر لطول إلفتهم للأسباب الظاهرة: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾(٦)، ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾(٧).

فالأسباب ليست هي التي تعطي الولد، وإنما إذا قضى الله شيئًا كان، والذي ينبغي على العبد؛ أن يتعلق قلبه بربه، ويسارع في الخيرات، ولا يدع الدعاء على كلِّ حال، فلقد امتدح الله آل زكريا بمسارعتهم في الخيرات فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾(٨).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: [٣٩].

(٢) سورة مريم، الآية: [٧].

(٣) سورة الأنبياء، جزء من الآية: [٩٠].

(٤) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٤٠].

(٥) سورة مريم، الآية: [٨].

(٦) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٤٠].

(٧) سورة مريم، الآية: [٩].

(٨) سورة الأنبياء، جزء من الآية: [٩٠].

فالعقيدة الصافية الصحيحة، والتوكل على الله، والصَّلاح والطاعة مفاتيح للرزق، وكذلك الإحسان إلى الضعفاء والمحتاجين، فزكريا أحسن إلى مريم فكفلها، فكافأه الله بالولد.

هذا وبرغم صلاح امرأة زكريا - كما أفادته الآية - لكن صلاح زوجها زكريا عليه السلام، وإلحاحه في الدعاء، وشدة رغبته إلى الله كان سببًا أكبر في إكرامهما بالولد، وفي هذا ما يدل على أن الزوج الصالح بركة على زوجه وعلى ذريته.

ولقد جعل الله آل زكريا (زكريا وزوجه وابنهما يحيى) آية من آيات قدرته - سبحانه وتعالى - التي لا يعجزها شيء.

٧ - أنموذج المرأة الصابرة في الابتلاء:

(عائشة بنت أبي بكر الصديق):

هي عائشة بنت عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم ابن مرة بن كعب بن لؤي القرشي التميمي، أبو بكر الصديق بن أبي قحافة، خليفة رسول الله ﷺ.

وأمها، أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية. وكنيتها: أم عبد الله.

ولدت عائشة بعد البعثة بأربع سنين أو خمس، وتزوج بها النبي ﷺ وهي بنت ست سنين، وبنى بها في شهر شوال في السنة الأولى للهجرة وهي بنت تسع. ولم ينكح رسول الله ﷺ بكرًا غيرها، وكانت أحب الخلق إليه، ولم ينزل عليه الوحي في لحاف امرأة غيرها[١]، وهي أفقه نسائه ﷺ وأعلمهن، بل أفقه نساء الأمة وأعلمهن على الإطلاق، وكان الأكابر من مشيخة

(١) ينظر: البخاري: صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب فضل عائشة رضي الله عنها، حديث رقم: [٣٧٧٥].

رسول الله ﷺ يسألونها. وقال فيها رسول الله ﷺ : « **فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام** »[١]. وقد نزلت براءتها من فوق سبع سماوات. وتوفيت رضي الله عنها سنة ثمان أو سبع وخمسين، ليلة الثلاثاء، لسبع عشرة خلتْ من رمضان، ودفنت بالبقيع[٢].

ابتليت رضي الله عنها بابتلاء عظيم، وامتحنت بامتحان قلّ من يصبر عليه، ولكنها صبرتْ واحتسبتْ وفوضت أمرها إلى الله - سبحانه وتعالى - حتى جاءها الفرج من عنده. وآيات سورة النور تشير إلى ذلك الابتلاء العظيم الذي ابتليت به[٣].

فلقد رميت رضي الله عنها في عرضها، وكان المدبر لذلك رأس المنافقين عبد الله بن أُبيّ ابن سلول، وتابعه على قوله هذا من شايعه من المنافقين، وعصبة من المؤمنين غفلوا عن خطورة أمره، وتلقفته ألسنتهم؛ فآذوا به رسول الله ﷺ وأهل بيته، ولقيت بسببه عائشة وأهلها والمؤمنون ما لقوا من الابتلاء العظيم، حتى نزلت آيات براءتها من فوق سبع سماوات.

وكان من خبرها رضي الله عنها أنها خرجت مع رسول الله ﷺ في إحدى غزواته بعدما نزلت آية الحجاب، وكانت تحمل في هودج . . . وساروا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل، ودنوا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل، فقامت عائشة لقضاء حاجتها بعيدًا عن نظر الجيش، حتى إذا فرغت ورجعت، تفقدت عقدًا لها فلم تجده، فرجعت تلتمسه، وحبسها ابتغاؤه،

---

(١) البخاري: المصدر السابقة نفسه، والكتاب والباب نفسهما. حديث رقم [٣٧٦٩] .

(٢) ينظر: ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة. جـ ٤، ص٣٥٩ وما بعدها، وجـ٢ ص. ٣٤١ ط دار الفكر العربي.

وينظر: ابن قيّم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد. جـ١، ص٢٦، المطبعة المصرية ومكتبتها، ط و ت ط بدون.

(٣) الآيات: [١١-٢٦] .

فلما وجدته ورجعت؛ لم تجد الجيش، فلقد احتملوا هودجها، وساروا، وهم يحسبون أنها فيه! فبقيت رضي الله عنها في مكانها، وظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون إليها، ثم غلبتها عينها فنامت.

وكان صفوان بن المعطَّل السُّلميُّ ثُمَّ الذَّكواني رضي الله عنه من وراء الجيش، فأصبح عند منزلها، فرأى سواد إنسان نائم، فعرف عائشة - وكان قد رآها قبل الحجاب- فاستيقظت باسترجاعه، وخَمَّرت وجهها بجلبابها، ولم يتكلما أو يكلمها بكلمة، وما زاد على أن استرجع، وأناخ دابته؛ فركبتها عائشة، وانطلق بها رضي الله عنهما حتى أتيا الجيش.

فلما رآهما عبد الله ابن أُبيٍّ ابن سلول، أشاع عليهما حديث الإفك، وتولّى كبره، وهلك في شأنها من هلك!.

وقدموا المدينة، واشتكت عائشة رضي الله عنها حين قدمت شهرًا، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك وهي لا تشعر بشيء من ذلك، ولا يريبها في وجعها إلا أنها لا ترى من رسول الله ﷺ اللطف الذي كانت تراه منه حين تشتكي.

حتى إذا نقهت، خرجت مع أم مِسْطَح بن أثاثة لقضاء حاجتها ليلًا... وأخبرتها أم مسطح بقول أهل الإفك؛ فازدادت مرضًا على مرض.

فلما رجعت إلى بيتها استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أبويها، فأذن لها، وكان قصدها من ذلك أن تستيقن الخبر من قبلهما.

ولما استيقنته، وعلمت أنه قد بلغ رسول الله ﷺ، وتحدث به الناس، بكت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع[١] ولا تكتحل بنوم.

---

(١) لا يرقأ: لا يجف ولا ينقطع. (ابن منظور: لسان العرب، مادة رقأ).

وسأل عنها ﷺ بعض أصحابه، فلم يشهد عليها أحدٌ بسوء أبدًا. . . ثم إنه استعذر من عبد الله بن أبيّ، فقال: « **من يعذرني من رجلٍ قد بلغني عنه أذاه في أهلي ؟ والله ما علمتُ على أهلي إلا خيرًا ...** »، واختلف الأوس والخزرج على قتل المنافق الذي أشاع الإفك، وكادت تحدث بينهم مقتلة عظيمة، وهم لا يعلمونه. ولم يزل رسول الله ﷺ يخفضُّهم حتَّى سكتوا وسكت.

ثم دخل رسول الله ﷺ على عائشة رضي الله عنها وقال: « **أما بعد، يا عائشة، إنّه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة، فسيبرئُكِ الله، وإن كُنْتِ ألممتِ بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإنَّ العبد إذا اعترف، ثُمَّ تابَ، تاب الله عليه** ».

وكان جواب عائشة أن قالت: « إني والله لقد علمتُ: لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقرَّ في أنفسكم وصدَّقتُم به، فلئن قلتُ لكم: إنِّي بريئةٌ لا تصدِّقوني، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ والله يعلم أنِّي منه بريئةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، فوالله لا أجدُ لي ولكم مثلًا إلا أبا يوسف حين قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1] .

وما لبث الوحي حتى تنزل على رسول الله ﷺ بآيات براءتها، فَسُرِّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، وبشّر عائشة، فقالت لها أمها: قومي إليه، فقالت: « لا والله لا أقوم إليه فإني لا أحمد إلا الله - عز وجل - »[2] .

هذه هي قصة الإفك - مختصرة -، ومن خلالها تتضح الأبعاد العقدية

(١) سورة يوسف، جزء من الآية: [١٨] .

(٢) ينظر: البخاري: صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل النِّساء بعضهن بعضًا، حديث رقم [٢٦٦١] ، وكتاب المغازي، باب حديث الإفك، حديث رقم [٤١٤١] .

في شخصية الصديّقة رضي الله عنها؛ والتي من أبرزها وأهمها ثباتها في الابتلاء العظيم الذي ابتليت به، وهو الطعن في عرضها وشرفها!

ومما لا شك فيه أن من أعظم الابتلاء الذي يواجهه المرء أن يُبتلى في عرضه، ويطعن في شرفه، ويكون أشد حين يطول ويمتد لتمتد معه المعاناة كما طال على عائشة - رضي الله عنها- فكان الناس يتحدثون في شأنها شهرًا كاملًا ولم يوح إلى رسول الله ﷺ في ذلك شيء.

ولقد كانت عائشة الصديقة - رضي الله عنها أكرم عند الله - عز وجل - من أن يبتليها بالفاحشة وهي زوجة رسوله ﷺ ، وهو ﷺ أكرم عنده من أن يجعل زوجه الحبيبة إلى قلبه الأثيرة عليه بغيًا، ولكن شاء الله - سبحانه وتعالى - أن يجعل في هذا الابتلاء خيرًا عظيمًا لعائشة، ولرسوله ﷺ ، وللمؤمنين عامة، وذلك ليرفع بهذا الأمر أقوامًا ويضع به آخرين، « ويزداد المؤمنون الصادقون إيمانًا وثباتًا على العدل والصدق وحسن الظن بالله ورسوله وأهل بيته والصديقين من عباده، ويزداد المنافقون إفكًا ونفاقًا، ويظهر لرسوله وللمؤمنين سرائرهم، ولتتم العبودية المرادة من الصديقة وأبويها، وتتم نعمة الله عليهم، ولتشتد الفاقة والرغبة منها ومن أبويها، والافتقار إلى الله، والذل له، وحسن الظن به، والرجاء له، ولينقطع رجاؤها من المخلوقين وتيأس من حصول النصرة والفرج على يد أحد من الخلق. ولهذا وفت لهذا المقام حقه لما قال لها أبواها: قومي إليه - وقد أنزل الله عليه براءتها - فقالت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله هو الذي أنزل براءتي ... »[1]. وفي قولها هذا ما يدل على « معرفتها وقوة إيمانها وتوليتها النعمة لربها، وإفراده بالحمد في ذلك المقام، وتجديدها التوحيد، وقوة جأشها، وإدلالها ببراءة ساحتها، وأنها لم

---

(١) ابن قيِّم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، جـ٢، ص١١٤.

تفعل ما يوجب قيامها في مقام الراغب في الصلح الطالب له»[1].

وكان من فضل عائشة رضي الله عنها أن الله - سبحانه وتعالى - تولى الدفاع عنها، وإثبات براءتها، وجعل العذاب العظيم لمن تولى كبره.

وهكذا؛ فرب محنة في طيها منحة، فالله - سبحانه وتعالى - خصَّ هذه الشخصية المؤمنة التقية بهذا الابتلاء دون غيرها من زوجات رسوله ﷺ ليزداد بذلك إيمانها، ويمحص ذنوبها، ويظهر لذلك فضلها وكرامتها.

ولقد كانت عائشة أنموذج الشخصية الثابتة في الابتلاء، فلم تزلزلها الشائعات، ولم يهزها ما انتشر عنها من قالة، بل صبرت واحتسبت، وفوضت أمرها إلى ربها، فنصرها - سبحانه وتعالى -، وعاتب في شأنها المؤمنين الذين خاضوا في الإفك، فقال - تعالى -: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾[2].

ففي هذا توبيخ لهم وعتاب، إذ لو كانوا صادقين في دعواهم لجاءوا ببينة ولكنهم كاذبون. كما أن فيه وعظًا لهم بعدم العودة إلى الإفك الذي ينافي أخلاق الإسلام.

ووصف - سبحانه وتعالى - هؤلاء الذين تحدثوا، بارتكاب آثام ثلاثة، وعلق مس العذاب العظيم بها وهي: تلقي الإفك بألسنتهم، والتكلّم فيما لا علم لهم به، واستصغارهم لذلك وهو عظيمة من العظائم.

ويتبين من آيات العتاب والوعظ والتوبيخ التي نزلت في شأن حادثة الإفك، مكانة عائشة الصديقة عند الله - سبحانه وتعالى -، وعظيم فضلها وكرامتها عليه - عز وجل - وما ذاك إلا لامتيازها بالتقوى والعمل الصالح، ولكونها زوجة

---

(١) ابن قيّم الجوزية: : المصدر السابق، جـ٢، ص١١٥.

(٢) سورة النور، الآية: [١٢].

رسوله ﷺ ، والله يريد أن يظهر منزلة رسوله وأهل بيته عنده وكرامتهم عليه، فكان - سبحانه وتعالى - هو الثائر له ولأهل بيته[١]. ولا غرو في أن ينتصر الله لأوليائه، ويغضب لهم ويدافع عنهم. وفي هذا درس عظيم لكل من ابتليت من المؤمنات بقالة السُّوء أيًا كانت وهي بريئة، أن تصبر وتحتسب وتفوض أمرها إلى الله الذي يحق الحق بكلماته ولو كره المجرمون.

٨ - أنموذج المرأة المؤثرة مراد الله - سبحانه وتعالى - ورسوله ﷺ على مراد نفسها:

(زينب بنت جحش).

هي أم المؤمنين زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة. . . بن خزيمة الأسدية.

وأمها أميمة بنت عبدالمطلب الهاشمية القرشية عمة رسول الله ﷺ . تزوجها رسول الله ﷺ في السنة الخامسة من الهجرة بعد أن انقضت عدتها من زوجها الأول زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ . ونزلت آية الحجاب صبيحة عرسها برسول الله ﷺ[٢].

كان اسمها « بَرّة » فسماها رسول الله ﷺ « زينب » وكانت تكنى « بأم الحكم ». وهي من المهاجرات الأوليات[٣]، وممن شهد لهن بالفضائل العظيمة.

قالت عنها أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -: « ولم أر امرأةً قطُّ خَيْرًا في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم، وأعظم

(١) ينظر: ابن قيِّم الجوزيّة: زاد المعاد في هدي خير العباد، ج٢، ص١١٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: [٣٥] .

(٣) ينظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص١٤٥-١٤٩، مكتبة المعارف، بيروت، ط٣، ت ط ١٩٧٩م

صدقة، وأشد ابتذالًا لنفسها في العمل الذي تصدَّق به، وتَقَرَّبُ به إلى الله - تعالى -، ما عدا سورةً مِنْ حِدَّةٍ كانت فيها، تسرع منها الفيئة »[١].

وقالت - رضي الله عنها - عن زينب - كذلك - في حديث الإفك: « وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمري، . . . فقالت: يا رسول الله، أَحْمي سمعي وبصري، والله ما علمتُ إلاَّ خيرًا، قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع »[٢].

كانت كثيرة الخير والصدقة، تقول عائشة: قال رسول الله ﷺ: « **أسرعكن لحاقًا بي، أطولكن يدًا** ». قالت: فكنّ يتطاولن أيّتهنَّ أطولُ يدًا. قالت: فكانت أطولنا يدًا زينب، لأنها كانت تعمل بيدها وتصدَّق «[٣].

توفيت رضي الله عنها سنة عشرين من الهجرة، وصلّى عليها أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، ودفنت بالبقيع[٤].

وإن مما جرى لزينب بنت جحش الأسدية الشريفة أن الله ابتلاها بالزواج من زيد بن حارثة الكلبي المولى، وكان في ذلك تمحيص لإيمانها، واختبار لإيثارها مراد الله على مراد نفسها؛ ذلك أن رسول الله ﷺ أراد أن يلغي الفوارق الطبقية بين الناس؛ لأن التفاضل بينهم لا يكون إلا بالتقوى، لا بالحسب والنسب، ولا بالشرف والسؤدد. فاختار زينب ابنة عمته ليزوجها مولاه زيدًا.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها رقم الحديث [٦٢٩٠].

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، رقم الحديث [٤١٤١]. والمراد بقولها: تساميني: تعاليني وتفاخرني وتباريني، وهي مُفَاعَلة من السُّموّ، أي تطاولني في الحُظْوة عنده. (ينظر: ابن منظور: لسان العرب « مادة سما »).

(٣) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل زينب بنت جحش رضي الله عنها رقم الحديث [٦٣١٦].

(٤) ينظر: ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٤ صـ١٤٩.

ولم يكن زيدٌ هذا إلا عربيًا قحطانيًا، ولكنه ابتلي بالرق، وهو أمر تأنف منه العرب. ولقد عاش طفولته بين أبيه حارثة بن شراحيل الكلبي، وأمه سعدى بنت ثعلبة ابن عبد عامر من بني معن بن طيء. وكان من أمره أن أمه خرجت به ذات يوم لتزيره قومها، فأغارت على بني معن خيل لبني القين بن جسر في الجاهلية، فاحتملوا زيدًا وهو غلام، وباعوه في سوق عكاظ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد. ولما تزوجت خديجة رضي الله عنها رسول الله ﷺ ؛ أهدته زيدًا. وحين قدم والده وعمه في فدائه، خيره - عليه الصلاة والسلام - بينه وبين الرجوع مع أهله، فاختار زيد البقاء مع النبي ﷺ ، وتبناه، وصار يدعى زيد بن محمد، وظل كذلك حتى جاء الإسلام وأبطل التبني[1].

ولما أرسل رسول الله ﷺ إلى زينب يخطبها، ظنته يخطبها على نفسه فرضيت، ولكنها لما علمت أنه يخطبها على زيد بن حارثة أبت وأنكرت وكرهت وامتنعت، فأنزل الله - تعالى - قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[2].

والآية فيها تهديد لمن يخالف أمر الله ورسوله ﷺ ، وقد وقعت النكرة في سياق النفي في قوله: «: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ ؛ لإفادة العموم في الحكم، وهو عدم الخيرة في قضاء الله لأمر من الأمور إلى يوم القيامة، ويدخل في ذلك الأمر الخاص في هذه الآية دخولًا أوليًا.

فليس لزينب ولا لأي مكلف خيرة عند سماع أمر الله وأمر رسوله، ومن

---

(١) ينظر: ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، جا، ص٥٩٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: [٣٦] .

بقيت له خيرة فهو عاص، والضلال معلق على المعصية[١].

وحاشا لزينت المهاجرة، التقية، أن تعصي أمر الله وأمر رسوله، وما ينتظر منها إلا أن تقدم أمرهما على هوى نفسها، وعلى محابها ومشتهياتها، وهو ما فعلته، إذ إنها أذعنت للأمر، وتزوجت من زيد رضي الله عنه[٢]. وخالفت بذلك مألوف الناس وقتذاك من منع تزويج الشريفة بالمولى، وجمع الإسلام بينهما بالتقوى والعمل الصالح.

بيد أن زينب ساءت علاقتها بزيدٍ بعد زواجها منه، فكانت تغلظ له القول، وتتعاظم عليه بشرفها[٣]. وكان زيدٌ يأتي إلى رسول الله ﷺ يشكو إليه خلق زوجه، فيقول له - عليه الصلاة والسلام- : « امسك عليك زوجك واتق الله »، ينصحه بإبقائها والصبر عليها، وعدم مفارقتها. هذا برغم أن الله - سبحانه وتعالى - كان قد أعلم نبيه ﷺ أن زيدًا سيطلق زينب، ثم تكون بعده من أزواجه ولكنه ﷺ كان يخشى أن يقول عنه الناس: إنه تزوج امرأة ابنه!

وتطور الحال بين زينب وزيد، فضاقت نفس زيد بها، وكره البقاء معها، فطلقها. ثم لما انقضت عدتها، ولم يبق في نفس زيد أي حاجة منها، تولّى الله - سبحانه وتعالى - أمر تزويجها من رسوله ﷺ، فدخل عليها رسول الله ﷺ « بغير إذن، ولا تجديد عقد، ولا تقرير صداق، ولا شيء مما يكون شرطًا في حقوقنا ومشروعًا لنا »[٤].

واستطاع رسول الله ﷺ بزواجه من زينب أن يبطل أحكام التبني التي

---

(١) ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج١٤، ص١٨٨.

(٢) ينظر: الطبري: جامع البيان، مج١٢، ص١٨، وينظر: القرطبي: المصدر السابق، ج١٤، ص١٨٦.

(٣) ينظر: القرطبي: المصدر السابق: ج١٤، ص١٨٩.

(٤) القرطبي: المصدر السابق، ج١٤، ص١٩٣.

كانت معروفة لدى العرب في الجاهلية، ومن أهمها؛ إباحة زواج المتبني من زوجة متبناه ولو بعد دخوله بها.

ونالت زينب - رضي الله عنها - التكريم العظيم من الله - سبحانه وتعالى - إذ زوجها أفضل خلقه من فوق سبع سماوات، وما ذاك إلا لعظيم منزلتها عند الله، وتشريف الله لها لفضلها وتقواها، وأنزل الله في ذلك قوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾(١).

وفي قوله - تعالى-: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ ما يشير إلى تشريف هذا الزواج الذي أسنده الله - سبحانه وتعالى - إلى نفسه مباشرة؛ لإرساء حكم شرعي جديد عليهم آنذاك.

ولقد عرفت زينب نعمة الله عليها، فكانت تقول للنبي ﷺ: « إني لأدل عليك بثلاث، ما من نسائك امرأة تدل بهن: إنَّ جدي وجدك واحد، وإني أنكحنيك الله من السماء، وإنَّ السّفير لجبرائيل عليه السلام »(٢).

ولا أدلّ على فضلها - رضي الله عنها - من أنها قدّمت خيرته ﷺ في تزويجها لزيد على خيرتها، فعوّضها الله أن صيّرها لنبيه ﷺ ومعه في أعلى الدرجات(٣).

والمؤمن لا يعلم أين تكون الخيرة، فلربما كره شيئًا فكان خيرًا له،

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: [٣٧] .

(٢) الطبري: جامع البيان، مجـ١٢، صـ٢١.

(٣) ينظر: البقاعي: نظم الدرر، مجـ٦، ص١٠٧.

ولربما أحبّ شيئًا فكان شرًا له، والله - تعالى - يقول: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[١].

ولقد كرهت زينب زواجها من زيد فكان فيه خيرٌ عظيم، ومن ذلك بيان تقواها وخوفها من الله وإيثار مراده ورسوله على مراد نفسها حين وافقت على الزواج من مولى. ومنه ما تحقق للنبي ﷺ مما أراده من الإبطال العملي لتفاخر الناس وتفاضلهم بالحسب والنسب، وتقرير تفاضلهم بالتقوى. ومنه ظهور منزلة زينب عند الله - ﷻ - حين زوجها نبيه ﷺ بعد انقضاء عدتها من زيد، ليبطل رسول الله ﷺ بذلك أحكام التبني التي كانت معروفة لدى العرب في الجاهلية.

٩ - أنموذج المرأة المفوضة أمرها إلى الله - سبحانه وتعالى - :

(خولة بنت ثعلبة):

وهي صحابية جليلة، خزرجية أنصارية، اختلف أهل العلم في اسمها ونسبها، فقيل: إنها خولة بنت ثعلبة بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف، وقيل: خويلة بنت ثعلبة، وقيل: خولة بنت مالك بن ثعلبة، وقيل: خويلة بنت خويلد، وقيل: خويلة بنت الدليج[٢]. والمشهور الأول، والله - تعالى - أعلم.

وزوجها أوس بن الصَّامت الخزرجي الأنصاري، أخو عبادة بن الصَّامت رضي الله عنهما، كانت امرأة مؤمنة فاضلة، ملأت مهابة الله وخوفه قلبها

(١) سورة البقرة، جزء من الآية: [٢١٦] .

(٢) ينظر: محمد بن سعد: الطبقات الكبرى، ج٨، ص٣٧٨، وينظر: ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج٤، ص.٢٨٩ وينظر: الطبري: جامع البيان، مج١٤، ص١١.

حين ظاهر منها زوجها، فلم تدعه يقربها حتى تأتي رسول الله ﷺ فيفتيها في أمرها[١].

فلقد قال لها زوجها يومًا: أنت عليّ كظهر أمي. فحرمها على نفسه بالظِّهار الذي يوجب فرقة مؤبدة[٢]. فلما قال لها ذلك، جاءت تشكو أمره إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: « يا رسول الله، أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي، ظاهر منيّ ». وكانت أثناء ذلك ترفع شكواها إلى الله - تعالى -، قائلة: « اللهم إني أشكو إليك »[٣].

وسمع المولى - عز وجل - مجادلتها ومراجعتها رسوله في أمرها، وشكواها إليه، وعلم صدقها واضطرارها، وانقطاع رجائها إلا منه - سبحانه وتعالى -، فعاجلها بتفريج كربتها، وإزالة غمها وهمها، واستجابة دعوتها، وقضاء حاجتها رحمة بها؛ إذ أنزل على رسوله ﷺ آيات تحريم الظهار[٤]، والكفارة التي تلزم من ظاهر زوجه، وأراد أن يرجع عما قال، حتى يعود إلى معاشرتها كما كان.

وفي قصتها تقول عائشة رضي الله عنها: « تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: يا رسول الله أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك ». قال

---

(١) ينظر: علاء الدين علي بن بلبان: صحيح ابن حبّان بترتيب ابن بلبان، ج١٠، ص١٠٧ وما بعدها، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ت ط ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

(٢) ينظر: عبدالرحمن الثعالبي: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ج٣، ص٣٠٧، تحقيق: أبو محمد الغماري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ت ط ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

(٣) الطبري: جامع البيان، مج١٤، ص١٠.

(٤) ينظر: كلام ابن قيم الجوزية في تحريم الظهار: زاد المعاد، ج٤، ص٨٢.

عروة بن الزبير راوي حديث عائشة: « فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ① ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ② وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ③ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]. قال: زوجها أوس بن الصامت »[2].

وبذلك فرّج الله - سبحانه وتعالى - عن هذه المرأة وزوجها، وجعل واقعتها رخصة عامة للمسلمين، وشرفها بذكر قصتها في القرآن في آيات تتلى إلى قيام الساعة. ففي قوله - تعالى -: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾دون التصريح باسمها؛ لعمومية حكم الظِّهار، فليس هذا الحكم خاصًا بها.

ولقد تبين في شخصيتها الصدق مع الله، بدليل توجهها بكليتها إليه - سبحانه وتعالى - واشتكائها ما أصابها من ضر إليه، ولذا جاءها الفرج. والعبد إذا صدق مع الله، ولجأ بكليته إليه، ووصل إلى مرحلة الاضطرار، فإن فرج الله - سبحانه وتعالى - لا يكاد يخطئه، وبخاصة أن الله - سبحانه وتعالى - قريب من عباده، سميع بصير، فلقد خفي على عائشة رضي الله عنها بعض من كلام خولة، وهي قريبة منها، ولم يخف على الله - سبحانه وتعالى - شيء منه. وهذا ما كانت تستشعره خولة

(١) سورة المجادلة، الآيات: [١-٤].

(٢) الطبري: جامع البيان، مجـ١٤، ص١٠.

وتؤمن به وهو ما دعاها إلى تكرار شكواها، وإظهار فقرها وحاجتها إلى الله.

وفضلًا عن ذلك فلقد كانت امرأة صبورا، إذ لم تكتف بعرض قضيتها على رسول الله ﷺ ثم تذهب، بل صبرتْ في أمر مراجعته ومجادلته، من منطلق حرصها الشديد على بقاء العشرة الزَّوجية.

ومما لا شك فيه أن شجاعتها هذه، وصبرها، أثر من آثار الإيمان القوي، الذي يحث المرء، ويرغبه في ضرورة فعل السَّبب، وعدم اليأس، مع الاستعانة بالله، حتى يتحقق له مطلوبه، ويفرِّج الله عنه.



المبحث الثاني

البعد النفسي، ونماذجه

إنَّ الكشف عن مكنونات نفس الشخصية، وبيان طبيعتها أمر يجذب إليه القارىء ويشوقه، ويقوده للتفاعل مع هذه المكنونات حتى نهاية الحدث، بل إنها تظل راسخة في ذاكرته، يحاول محاكاتها إن كانت ممدوحة، وينأى عما يؤول به إلى مشابهتها إن كانت مذمومة.

ويهدف البعد النفسي إلى الكشف عن استعدادات الشخصية، وإبراز رغباتها، وآمالها، وفكرها، وعزيمتها، ويتبع ذلك تصوير مزاجها من انفعال وهدوء، ومن انطواء، وانبساط[١].

كما يرمي إلى كشف دوافع السلوك في كل شخصية، على حسب العوامل النفسية التي يقتضيها الموقف أو مجموعة المواقف، حتى يصل إلى ماهية النفس وخباياها على ضوء هذه الأحداث وتلك المواقف[٢].

والقرآن الكريم يكثر من الآيات التي تصور النفس الإنسانية وما فيها من إيمان وكفر، ومن استواء وشذوذ، ومن ضعف وقوة، ومن صعود وهبوط، ومن مشاعر وأحاسيس وانفعالات مختلفة. ولا ريب، فالله - سبحانه وتعالى - هو الذي خلق النفس فسواها: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[٣]. كما أنَّ القرآن

---

(١) ينظر: د / غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص٥٧٣.

(٢) ينظر: د / محمد الدالي: الوحدة الفنية في القصة القرآنية، ص٥٢، أمون للطباعة، ط١ / ت ط ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

(٣) سورة الشمس، الآية: [٧-١٠].

الكريم حافل بطرائق التربية النفسية مرشد لاتباعها.

على أنه ليس لباحثٍ أن يواجه نصوص كتاب الله بمبادىء نفسية أو علمية في موضوع تلك الآيات؛ ذلك لأن المبادىء النفسية نسبية الصحة قابلة للتجريب والملاحظة، والقرآن الكريم هو المصدر اليقيني الصادق[١]، وهو كتاب تربية وتوجيه وهداية وإرشاد وتشريع: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[٢].

وفي القصص القرآني تواجهنا مواقف نفسية تمدنا بنماذج مختلفة لشخصيات نسوية، نحتاج قبل الشروع في إبرازها إلى أن نبين مدلول « الموقف النفسي »، وأهميته التربوية، وصلته بالقصة الأدبية.

فالموقف في الحياة النفسية يُعرَّف بأنه: « مجموعة من العوامل الانفعالية التي تجعل صاحبها أو أصحابها يقومون بنوع مركزي من السلوك تدور حول تلك الانفعالات بجوانبها الإيجابية والسلبية »[٣].

وتبرز أهمية الموقف التربوية في أنه يعد بأبعاده وأشخاصه صورة صادقة من الحياة الإنسانية في تعدد الدوافع وتفاعل العوامل النفسية والاجتماعية، كما أنه يساعد على فهم متكامل للنفس الإنسانية في أبعادها المختلفة، فضلًا عن أنه يقدم للمربين معونة عملية لنجاح ما يعنيهم من عمليات التربية والتعليم أو الإرشاد النفسي وعلاجه.

ويأتي دور الموقف النفسي في القصة واضحًا جليًّا، من حيث إنه جزء

---

(١) ينظر: د / عبدالحميد محمد الهاشمي: لمحات نفسية في القرآن الكريم، ص٩ وما بعدها، الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي، السنة الثانية، عدد (١١)، صفر ١٤٠٢هـ.

(٢) سورة الإسراء، الآية: [٩] .

(٣) د / عبدالحميد محمد الهاشمي: لمحات نفسية في القرآن الكريم، ص١٢٨.

أساسي منها، فهو يمثل مرحلة مهمة تتفاعل فيها شخصيات القصة في ذروة التفاعل الانفعالي إشباعًا لتوترهم السلوكي.

فالموقف مشهد نفسي مشحون بانفعالات متعددة، تدور حول محور انفعالي مركزي، يمثل قمة تصاعد أحداث القصة، كما أنه ينهض بتقديم درس متجدد، ونموذج لنوع سلوكي أو نمط شخصي يمكن أن يحدث في كل جيل وفي كل مكان.

والقرآن الكريم يقدم لمواقفه النفسية عوامل الثبات والتعزيز لما كان خيرًا، كما يحدد أساليب الوقاية والعلاج لما كان شرًا.

وتمتاز المواقف النفسية في القرآن الكريم بالصدق الواقعي، وبكونها تقدم نماذج إنسانية، كما أنها تهدف إلى تربية الإنسان انطلاقًا من واقعه النفسي في مجرى حياته العملية[1].

ومن أبرز النماذج الإنسانية النسوية التي قدمتها لنا المواقف النفسية في القصص القرآني ما يلي:

---

(١) ينظر: د / عبدالحميد الهاشمي: المرجع السابق، ص١٢٨-١٣٠.

(أ) نماذج المرأة سكن الزوج

١ - أنموذج المرأة أصل السَّكن والمودة:

(حواء):

وهي المرأة التي خلقها الله - سبحانه وتعالى - من جنس آدم عليه السلام؛ لغاية نفسية عظيمة، هي تحقيق السَّكن النفسي والجسدي لزوجها آدم. وفي لذلك يقول - تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[1].

ففي وجود حواء بجوار آدم تتحقق معاني المودة والرحمة والألفة والسكن النفسي والجسدي، وهذا ما يدفعهما: « لتكوين خلية زوجية شريفة يكون الأبناء نتيجةً تلقائية لها لدوام الارتباط بينهما أبًا وأمًّا لهذه الذرية »[2].

وهذا ليس خاصًا بحواء وحدها، وإنما هو شأن كلّ زوج مع زوجها، بدليل قوله - تعالى -: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[3]، ولهذا كان اسم حواء مشتقًّا من الحياة، فلا سكن ولا أنس في الحياة بدون المرأة، ولو لم تكن حواء من جنس آدم وشكله لما اطمأن إليها ولما ألفها.

وفي خلق حواء من ضلع آدم معنى نفسي بعيد المدى، عظيم الدلالة، فالرسول ﷺ يقول: « **واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهنَّ خُلِقن من ضِلَعٍ، وإنَّ**

(١) سورة الأعراف، جزء من الآية: [١٨٩] .

(٢) د / عبدالحميد الهاشمي: لمحات نفسية في القرآن الكريم، ص١٨٤.

(٣) سورة الروم، جزء من الآية: [٢١] .

أعوجَ شيءٍ في الضِّلَعِ أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنِّساء خيرًا »[١].

وقال - عليه الصلاة والسلام -: « **إنَّ المرأة خُلِقَتْ من ضِلَعٍ لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عِوَجٌ، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها** »[٢].

فالمعنى النفسي المفهوم من الحديثين مرتبط بوظيفة حواء وما يراد منها، وذلك أن الضلع موجود حول القلب لغرض حمايته، ولكي يحمي الضلع القلب لابد أن يكون أعوج، ولولا اعوجاجه لتعرض القلب للصدمات، ففقد الضلع دوره.

ومعنى هذا أن دور المرأة هو حماية قلب آدم، ومنحه الحنان والأنس والسكن، وأن الرجل لو أراد من المرأة أن تستقيم فتدع عاطفتها، أو أن تسترجل فتنزل معه في الميدان الذي لا يصلح له إلا الرجال، لو أراد ذلك؛ لفقدت المرأة وظيفتها ودورها الأساس الذي خلقت لأجله، ولانكسرت فلم تعد تصلح لمنح آدم الحب والأنس (وكسرها طلاقها)، وبدون الحب والأنس والطمأنينة والسكن الذي تمنحه المرأة للرجل تفسد الأرض، فلا يجد الرجل سكنًا[٣].

ونظرًا لحاجة الإنسان الذي خلق ليعيش في الأرض إلى التدرب على ضبط رغباته، وتقوية إرادته، والامتناع عن كلِّ ما فيه هلاكه وفساد دينه وخلقه؛ دُرِّبت حواء كما دُرِّب آدم على تجربة عملية في ضبط النفس، وذلك

---

(١) سبق تخريجه، ص٩٨.

(٢) سبق تخريجه، ص٩٨.

(٣) أ/ عمرو خالد: قصة آدم وحواء (مادة سمعية).

عندما نهاهما الله - سبحانه وتعالى - عن الاقتراب من شجرة في الجنة، بعد أن أباح لهما الأكل من الجنة حيث شاءا.

ووجد الشيطان في هذا النهي مدخلًا على آدم وحواء، بتطميعهما في الممنوع، وتسمية الحرام بغير اسمه، مع تكرار الإغراءات والمحاولات والتدرج فيها.

فأطمعهما في الأكل من الشجرة التي نهيا عن الاقتراب منها برغم أنَّ كل شيء في الجنة كان مباحًا لهما غيرها. وفي هذا ما يدل على أن النفس مولعة بالممنوع تتمناه وتشتهيه ولو كان كل شيء مباحًا لها سواه، ظنًا منها أن في الممنوع شيئًا أو لذة ليست في المباح !، وهكذا يسوّل لها الشيطان !.

كما أن إبليس سمّى الشجرة بغير اسمها، مغتنمًا نقطة الضعف التي لمسها من آدم وحواء، ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾[1].

فبما أن آدم مخلوق من طين، وحواء مخلوقة منه، فهما مجبولان على الرغبات والشهوات، ولذا ادعى إبليس أن أكلهما من الشجرة يحقق لهما الخلود، والتملك، فضعفا أمام هاتين الرغبتين فأقدما !.

ومعنى هذا أن إبليس يسمى المحرمات بغير اسمها؛ ليزين للإنسان الوقوع فيها والولوغ، تمامًا كما يفعل اليوم أتباعه حين يسمون الحرام بغير اسمه، كتسمية الخمر مشروبًا روحيًا، وتسمية العلاقات المحرمة صداقة، وتسمية السفر إلى بلاد الكفر نزهة...، وذلك ليغروا النفوس الضعيفة ويجرئوها على الإقدام على الحرام.

---

(١) سورة طه، جزء من الآية: [١٢٠] .

كما أن من مداخله، أنه يلتمس نقطة الضعف في كل إنسان فيدخل عليه منها.

وفي القصة، أن إبليس كرر محاولاته في إغراء الزوجين، ولم ييأس أول الأمر لمّا رأى امتناعهما، بل حاول وحاول، حتى لجأ إلى القسم بالله كذبًا ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[١]، فلما أقسم لهما بالله أقدما !.

وفي هذا ما يدل على أن للشيطان وسائل متنوعة وخبيثة في الإغراء، فإن هو فشل مع الإنسان في وسيلة لجأ إلى الأخرى، وهكذا حتى يرديه، - إن لم يرحمه الله، وفي كتاب الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - أن إبليس قال: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾[٢].

وإذا كانت حواء هي من زيّن لآدم الأكل من الشجرة بعد أن قبلتْ أولًا تزيين إبليس بدليل قوله ﷺ : « **ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها** »[٣]، إذا كانت كذلك، فإنَّ هذا يكشف عن طبيعة الأنثى، فهي - غالبًا - موهونة الإرادة، قليلة العزم، لا تطيق الصَّبر على حَثَّة الغواية والامتناع[٤].

ولمَّا أكلت حواء من الشجرة، تنبهت إلى أنها صارت مكشوفة السوءة، تمامًا كما حدث لزوجها، فأدركهما الاستحياء، وشرعا يستران عورتيهما من أوراق الجنة، وهذا ما أملته عليهما فطرتهما السليمة؛ لأن الفطرة السليمة تنفر من انكشاف العورة، وتستهجن إظهارها بأي شكل من الأشكال.

وكان إغراء إبليس لهما من أجل أن يعريهما، فيسقط مقامهما وقدرهما،

---

(١) سورة الأعراف، الآية: [٢١].

(٢) سورة الأعراف: الآية: [١٧].

(٣) جزء من حديث، تقدم تخريجه ص ٩٧.

(٤) ينظر: عباس محمود العقاد: المرأة في القرآن الكريم، ص٢١، دار نهضة مصر، ط و ت ط بدون.

ولذا يقول - تعالى -: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾[(١)]، وكان انكشاف عورتهما عقوبة لهما على ما اقترفاه من النهي الإلهي.

والملاحظ أن السياق القرآني سمى العورة سوءة، وذلك لأنه يسوء الإنسان إظهارها وانكشافها.

ولقد كان في تصرف حواء الفطري في مبادرتها لستر سوءتها خجلاً وحياءً، كان فيه درس عظيم لبناتها في الحياء والحرص على الستر.

فهل تَعْتَبِر[(٢)] المرأة التي خلعت عنها جلباب الحياء، فتبرجت، وأبرزت مفاتنها، بعد أن انتكست فطرتها وحسبت العري جمالًا، وظنت القبيح حسنًا، وأفسحت للشيطان الطريق ليعبث بفكرها، ويخرجها عن فطرتها، ويحط من قدرها، ويزج بها في مهاوي الخنا والرذيلة ؟ !

إنَّ العري فطرة حيوانية، وإن رؤيته جمالًا انتكاس في الذوق البشري[(٣)]، وإن الشيطان ليعلم أن أوسع أبواب الشر بالنسبة للإنسان هو أن ينساق وراء شهواته، وأن يلهث خلف نزواته، وأن أقرب طريق إلى ذلك هو التبرج والسفور الذي يفضي إلى كشف العورات وفضح المستورات[(٤)].

ولقد حذرنا الله - سبحانه وتعالى - من فتنة الشيطان التي أخرجت أبوينا من الجنة بعد أن نُزع عنهما لباسهما فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ

(١) سورة الأعراف، جزء من الآية: [٢٠] .

(٢) تعتبر : تتعظ . (ابن منظور : لسان العرب « مادة عبر »).

(٣) ينظر : سيد قطب : في ظلال القرآن، جـ ٣، صـ١٢٧٥.

(٤) ينظر : د / محمد السيد الوكيل: نظرات في أحسن القصص، جـ١، ص٤١، الدار الشامية، بيروت، دار القلم، دمشق، ط١، ت ط ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[١].

وحين عاتب المولى - عز وجل - الزوجين بقوله: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٢]، بادرا لفورهما بالاعتراف بالخطأ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾، ثم أتبعا اعترافهما بالتوبة النصوح قائلين: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٣]، وندما ندمًا شديدًا وتحسرًا على ما فعلاه؛ فأدركتهما الرحمة والمغفرة، وكانت توبتهما علاجًا نفسيًا لجآ إليه لتطهير نفسيهما من إثم الخطيئة؛ فالتوبة هي المدخل إلى المغفرة، وهي التي تسمح بإيجاد مصرف للمشاعر الثائرة التي أوجدتها المعصية[٤].

كما أنَّ التوبة إحدى وسائل وقاية النفسية في الشخصية الإسلامية من التردي والانحراف، «وصيانة لها من اليأس الذي قد يؤدي بها إلى الانهيار، فبها يعيد الإنسان تماسكه، ويستأنف نشاطه وسيره على نهج قويم؛ لأن مما يزيد في حيرته وآلامه النفسية شعوره بالإثم»[٥].

والله - عز وجل - طمأن الزوجين حين أهبطهما من الجنة بقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٦]، وهذا

---

(١) سورة الأعراف، الآية: [٢٧].

(٢) سورة الأعراف: جزء من الآية: [٢٢].

(٣) سورة الأعراف، جزء من الآية: [٢٣].

(٤) ينظر: د/ مصطفى فهمي: الصحة النفسية، ص٣٧٣ - ٣٧٤، ٣٧٨، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ت ط ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(٥) د/ التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص٥٩٢.

(٦) سورة البقرة، جزء من الآية: [٣٨].

التطمين الكامل لهما ولذريتهما مقابل ما تحدثه كلمة (اهبطوا) من خوف سوء المنقلب، وما تثيره من رعب[١]. وهذا الترغيب والترهيب من أبرز عوامل التأثير النفسي في القرآن وأشدها ظهورًا وتأثيرًا.

وأخيرًا، انتهى أمر خطيئة آدم وحواء الأولى وتاب الله عليهما، ولكن على الإنسان أن يقوي في نفسه جانب الحذر من أن ينتهب العدو منه لحظة ضعف فيدخل إلى نفسه، كما انتهز إبليس رغبة حواء وآدم في الخلود والملك، فوسوس لهما بالأكل من الشجرة. وليتذكر أنه بفطرته، وبتكوينه، معرض لوسوسة إبليس، ومعرض للنسيان والمعصية، فليلزم الحذر.

٢ - أنموذج المرأة الحسناء المتواضعة المخلصة للزوج:

(سارة):

زوج إبراهيم عليه السلام تلك المؤمنة التي نالت الكرامة والثناء من الله - سبحانه وتعالى - وملائكته، وأحسنت توجيه مشاعرها وأحاسيسها، وتهذيب نفسها وفق منهج الله.

فعلى الرغم من أن سارة كانت ذات جمال أخاذ - كما تقدم ذكره في البعد العقدي[٢]، لكن جمالها لم يقدها إلى الغرور والتكبر والتطّاول على زوجها، كما لم توقف هذا الجمال على غير زوجها، فكانت متواضعة، صابرة، عفيفة، حيية. لم تلتفت لأبهة الملك، ولم يبهرها قصر جبار مصر الذي راودها عن نفسها بل لجأت إلى الله تدعوه وترجوه أن يعفها ويخلصها من شره.

---

(١) ينظر: د / التهامي نقرة: المرجع السابق، ص٤٤٥.

(٢) ينظر: ص١٠٦ من البحث.

وكانت سارة قائمة بخدمة زوجها وضيوفه حتى بعد أن كبرت سنها ورق عظمها، مع أنها كانت تستطيع العيش عند أعظم ملوك الأرض، وأرفههم، ولكنها لم تقدم على إبراهيم أحدًا.

إن كثيرًا من النسوة الممتازات بالحسن الأخاذ قد يعتري نفوسهن العجب، وقد يقودهن إلى التكبر على أزواجهن، والترفع عن ابتذال أنفسهن لخدمتهم !

وإنَّ منهن من يقودها الغرور إلى كشف زينتها عند من لا يحل له النظر إليها، فتضنُّ بجمالها أن يقصر على زوجها فتفتن الرجال، ويلذ لها أن يطرق مسمعيها عبارات ثنائهم وإعجابهم.

وإنه لا أعظم من الإيمان، يهذب النفوس المترفعة، والدواخل المغرورة المتكبِّرة، فلقد كان إيمان سارة وتقواها خير معين لها على العفة والتواضع.

وتظهر سارة في قصتها مع زوجها، نعم المرأة المحبة له، المخلصة لعهده، الطّالبة رضاه. فلقد آثرت جاريتها هاجر على نفسها، وأهدتها إبراهيم عليه السلام رحمة به؛ لحرمانه من الولد[1].

والمرأة التي تتدفق مشاعرها بالحب الصادق لزوجها، لا تمانع أن تضحِّي لأجله بكلِّ ما تملك، وتؤثره على نفسها بكلِّ ما تستطيع، ولو كان على حساب مشاعرها وأحاسيسها. وإنَّ من آيات التضحية في المرأة ما يقف الرجل إزاءه متحيرًا مندهشًا ! !.

---

(١) ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية ١/ ١٥٣.

(ب) نماذج الحنان الفطري

١-أنموذج الأم المشفقة :

(أم موسى) :

وتتجلى في شخصيتها العظيمة أبعاد نفسية كشف عنها السياق القرآني، مما لا يخفى على المتأمل بحال.

فهي أم شجاعة القلب، برزت شجاعتها حين غالبت عاطفتها وقذفت بابنها في اليم استجابة للإلهام الإلهي، ويقينًا بالحفظ الرباني... وحين طلبت من ابنتها أن تقص أثر أخيها برغم علمها بخطورة الأمر وأنها تواجه طغيان فرعون وجبروته.

كما تبرز شجاعتها في ثباتها في كتمان أمرها، وعدم إخبار أحدٍ بفعلتها بعد أن كاد يطيش عقلها كمدًا وخوفًا على صغيرها.

وما كان لهذه الشجاعة القلبية أن تكون لولا تثبيت الله لها، وربطه على قلبها؛ جزاء إيمانها وصلاحها.

وهي أمٌّ حنون جيّاشة العاطفة، تسري فيها عاطفة الأمومة التي أودعها الله فيها، ومما يبرز حنانها الفياض المركوز في فطرتها، قوله - تعالى - عنها في إطار الحديث عن قصتها : ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ، ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ ، ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ﴾ ، ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾[1] .

---

(١) سورة القصص، الآية: [٧] ، وجزء من الآية: [١٠، ١١، ١٣] .

فهي مأمورة بأن تسعى لحماية طفلها إذا خافت عليه فتلقيه في اليم.
والأم -بطبعها- تسعى لحماية أبنائها من كل خطر، بما أودعه الله في نفسها من حرص عليهم، واهتمام بمصالحهم.

وقد تقتحم الأم الأخطار، وتلقي بنفسها في المكاره لأجل حماية طفلها، ودفع العدوِّ عنه، كما فعلت أم موسى حين أرسلت ابنتها لتتبع أثر أخيها وأوصتها بالسرية والكتمان؛ لأنها تعلم أنهما أمام أعتى ملوك الأرض يومئذٍ!

والأم تحب لأبنائها رفعة الشأن، وتسرّ لنجاحهم في حياتهم، ولهذا بشرّها الله - عز وجل - بأنه سيرفع قدر موسى عليه السلام ويجعله من المرسلين.

وهي تحب أن يكون وليدها تحت بصرها، ولهذا رده الله إليها: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾.

وكما كشف السياق القرآني عن انفعالات أم موسى وأبان عن أحاسيسها ومشاعرها، فلقد كشف عن حاجاتها النفسية التي تحتاجها هي وطفلها باعتبارها أمًا تقوم بوظيفة من أسمى الوظائف التي هيأها الله لها.

فلقد أمرت أن ترضع طفلها، فقال - تعالى - : ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾، والرضاعة الطبيعية تشبع عاطفة الأمومة لدى الأم، وذلك حين تحتضن صغيرها، وتدنيه من صدرها؛ فيتولد بينهما تقارب نفسي وعاطفي يؤدي إلى استقرار نفسيتها وإياه[١].

وفي الرضاعة الطبيعية فوائد عظيمة وحاجات نفسية تحدث عنها الأطباء[٢]،

(١) ينظر: د/ محمد علي البار: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص ٤٦٦، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جده، المملكة العربية السعودية، ط ١١، ت ط ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
(٢) ينظر: د/محمد البار: المرجع السابق، ص ٤٦٥ وما بعدها، وينظر: د/ سليمان عمرقوش: =

ولهذا ركزّ القرآن الكريم على أمر الرضاعة فكان أول أمر تلقته أم موسى هو إرضاع طفلها : ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ .

والأم بحاجة إلى الراحة النفسية والاستقرار بعد الولادة ولهذا يقول الله لها : ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ ، ويطمئنها - سبحانه وتعالى - بالجملة المؤكدة مراعاة لحالتها النفسية : ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ ، ويبشّرها : ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1] . ويأتي العلم الحديث اليوم ليثبت أن الخوف والانفعال النفسي وعدم الراحة يؤثر في نضوب الحليب وضعف إدراره[2] .

والطفل بحاجة إلى التربية الإيمانية الرشيدة ، وقد أعاد الله موسى عليه السلام إلى أمه ليتربى في حضنها تلك التربية .

٢-أنموذج المرأة الحنون :

(امرأة فرعون) :

وهي المرأة التي امتازت شخصيتها بالرأفة والرحمة والرقة . تجلى ذلك في موقفها من موسى عليه السلام حين رأته في تابوته ، فأحبته ، وشرعت تحامي عنه ، وهي تصرخ بمن حولها : ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ ، وقد تدفقت في قلبها مشاعر الأمومة الفياضة ، والرحمة بالصبي ، فكانت سبب نجاته وحمايته وحصول الوجاهة له والحظوة في دار عدوه فرعون ، كما تقدم ذكره بالتفصيل في البعد العقدي[3] .

= الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالتها في القرآن الكريم، ص ٤٩ وما بعدها، دار الثقافة، الدوحة، ط ٢، ت ط ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

(١) سورة القصص، جزء من الآية: [٧] .

(٢) ينظر: مها عبد الله الأبرش: الأمومة ومكانتها في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة، ج١، ص ٢٦٧، رسالة ماجستير مطبوعة، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة، ت ط ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

(٣) ينظر: ص٧٦- ٧٩ من البحث.

(جـ) نماذج الذكاء والفطنة

١- أنموذج المرأة اللبيبة الفَطِنة:

(آسية امرأة فرعون):

وكانت امرأة نبيهة فَطِنة، والدليل على ذلك أسلوبها الذي استخدمته مع فرعون لغرض استمالته، والتأثير فيه، واستجلاب رضاه عن موسى عليه السلام ، مستغلة في ذلك مكانتها من قلبه، وحبه لها.

فلقد قالت له حين رأت الصغير وأحبته: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾، ولم تقل: قرة عين لنا؛ تفخيمًا منها لشأن القرة، « وكأنها لما تعلم من مزيد حب فرعون إياها... قدمت نفسها عليه فيكون ذلك أبلغ في ترغيبه بترك قتله »[1]، فضلًا عن أن قرة العين بالوليد تكون أولًا للأم بعدما عانت من مشقة الحمل والوضع.

ثم إنها خاطبت فرعون خطاب الكبراء والجبارين وكما يخبرون عن أنفسهم[2]، فقالت: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾، وذلك من باب التعظيم والإجلال حتى يساعدها فيما تريد، وربما أرادت لنباهتها أن تستخدم صيغة الجمع؛ ليكون الخطاب له ولقومه، فلا يقتله بنفسه ولا يأمر أحدًا بقتله[3]. ثم رغبته في استبقائه رجاء نفعه أو تبنيه، فقدمت الأدنى على الأعلى؛ ليكون آخر ما يطرق سمعه ذكر الولد فتستثير عاطفته فقالت: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[4].

---

(١) الألوسي: روح المعاني، جـ ٢٠، ص ٣٤٤، ٣٤٥.

(٢) ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، جـ ١٣، ص ٢٥٣.

(٣) ينظر: البقاعي: نظم الدرر، جـ ٥، ص ٤٦٧.

(٤) سورة القصص، جزء من الآية: [٩].

ولقد كان لهذا الأسلوب تأثيره العظيم على نفسية فرعون، حيث أجابها إلى طلبها وترك موسى لها.

وفي هذا درس عظيم لكل من يطلب حاجة من عظيم، بأن يتلطف في الطلب أولًا، وهذا ما يفهم من قول آسية: ﴿عَسَىٰٓ﴾، ثم يبين قيمة حاجته في أوجز عبارة.

(أم موسى وأخته) :

وهما ممن اتسم بالحكمة والذكاء والحذر التام. فلقد مر بنا كيف أن أم موسى حرصت على كتمان أمر إلقائها لموسى عليه السلام في اليم بعد أن ثبتها الله - عز وجل - وربط على قلبها.

وكان لهذه الأم ابنة تدعى (مريم أو كلثوم أو كلثمة) - كما ذكر المفسرون[1] مما لم تثبت صحته ولا يُجزم به - وكانت قد بلغت الغاية في الذكاء، والنهاية في الطاعة لأمها، والشفقة على أخيها.

فما إن تلقت الأمر من أمها بقصّ أثر أخيها، حتى مضت في مهمتها مباشرة وفور تلقيها الأمر، وأخذت تتحسس خبره، وتتبع أثره حتى أبصرته عن بعدٍ ولم تأته وأوهمتْ كأنها مارة لا قصد لها فيه: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[2]، وهذا من تمام الحزم والحذر؛ فإنها لو أبصرته وجاءت إليهم قاصدة لظنوا بها أنها هي التي ألقته، فربما عزموا على ذبحه، عقوبة لأهله »[3].

---

(١) ينظر: الرازي: التفسير الكبير، جـ ٢٤، ص ٢٣٠، وينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، جـ ١١، ص ١٩٧، و جـ ١٣، ص ٢٥٦.

(٢) سورة القصص، جزء من الآية: [١١] .

(٣) السعدي: تيسير الكريم الرحمن، جـ ٤، ص ٩، ط، دار المدني.

وقد تضمنت لفظة « جنب » في التعبير القرآني معنيين؛ أحدهما: جانب العين وطرفها، والآخر: بعد الأخت عن تابوت أخيها[١].

ولم تكلِّم هذه الأخت آل فرعون بشأن الصبي إلا في اللحظة المناسبة، فإنها لما رأت حيرتهم في أمر إرضاعه؛ لرفض الصبي قبول حليب أيٍّ من المرضعات اللاتي عرضن عليه، لما رأت ذلك أقبلت عليهم بشجاعة وثبات وفطنة قائلة: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾[٢]، وقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾[٣].

« وعرضت سعيها في ذلك بطريق الاستفهام المستعمل في العرض تلطفًا مع آل فرعون، وإبعادًا للظنة عن نفسها »[٤]، فقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾، كما أن في هذا الاستفهام تشويقًا لهم؛ حتى يجيبوها إلى ما أرادت.

ثم إنها لم تقل: أدلكم على امرأة، بل قالت: ﴿عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ﴾ وذلك لتوسِّع دائرة الظن[٥]، وللإشارة إلى أنَّ المراد امرأة من أهل الشرف تليق بخدمة الملوك »[٦].

ثم رغبتهم في أهل هذا البيت بتمام كفالته وحفظه والنصح له[٧]؛ تقربًا إلى الملك فقالت: ﴿يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾.

فلما قالت لهم ذلك، بادروا إلى أجابتها، واستدعوا أمه، فلما جاءت

---

(١) ينظر: د / صلاح الخالدي: القصص القرآني، ج ٢، ص ٢٩٠.

(٢) سورة القصص، جزء من الآية: [١٢].

(٣) سورة طه، جزء من الآية: [٤٠].

(٤) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج ١٠، ج ٢٠، ص ٨٤.

(٥) ينظر: البقّاعي: نظم الدرر، ج ٥، ص ٤٦٩.

(٦) الألوسي: روح المعاني، ج ٢٠، ص ٣٤٨.

(٧) ينظر: السعدي: تيسير الكريم الرحمن، ج ٤، ص ١٠، ط. دار المدني.

الأم تصرفتْ هي أيضًا بمنتهى الفطانة، إذ لم تبادر لضم ابنها كما تفعل الأم الوالهة، ولم تظهر أيًا من أشواقها ومشاعرها، بل أخذته وألقمته ثديها بشكل طبعيّ لا يوحي لآل فرعون بشيء عن علاقتها بالصبيّ.

وعادت الأم بصغيرها تشكر ربها على إنجازه لوعده برده إليها، في قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾[1].

وهكذا كان لفطنة هؤلاء النسوة وحكمتهن أكبر الأثر في نجاة موسى عليه السلام وحمايته والإبقاء على حياته. وفي ذلك ما يدل على قوة عقلية المرأة في كثير من المجالات، وبخاصة في العناية بأطفالهن.

٢-أنموذج المرأة الحكيمة الحازمة:

(ملكة سبأ):

وهي الملكة التي دخلت في الإسلام بعد المجوسية، على يد نبي الله سليمان عليه السلام، كما مر ذكره في البعد العقدي[2].

وكانت هذه المرأة على درجة عالية من الذكاء، والتعقل، وحصافة الرأي، وثراء الذهن، وعمق التفكير، والقدرة على تحمل المسؤولية وفي أحلك الظروف.

وهذه الصفات النفسية دلتنا عليها أمور عدة حدثت منها خلال تعاملها مع نبي الله سليمان عليه السلام، ومع ملئها.

ومن ذلك، أنه لما ألقي إليها كتاب سليمان عليه السلام وقرأته، وأدركت خطورة مضمونه، وأنه مرسل من حاكم أعظم دولة في وقتها؛ لم تشأ أن

---

(١) سورة القصص، جزء من الآية: [٧] .

(٢) ينظر: ص٨٠ من البحث.

تقطع الأمر وحدها، بل جمعتْ ملأها لاستشارتهم، وأرادت بذلك أن تستطلع آراءهم «لقصد استعطافهم وتطييب نفوسهم، ليمالؤها ويقوموا معها»[١]؛ فتستعين بهم على هذه النازلة الكبرى، وكان ذلك منها لحسن أدبها وغزارة علمها، وبذلك زادت ثقتهم فيها، وطابت نفوسهم.

وحين أشار عليها ملؤها بمنطق القوة، لم تشأ أن تبين لهم خطأهم دون إقناع، بل لجأت إلى إقناعهم بخطورة الحرب، وما تجره على البلاد من ويلات ونكبات، وما يفعله الغالبون من إفساد القرى حين دخولها. واختارات مصانعة سليمان عليه السلام بهدية عظيمة.

ولقد امتدح عقلها، وقوة رأيها حين لجأت إلى الهدية؛ فقال قتادة: «يرحمها الله، إن كانت لعاقلة في إسلامها وشركها؛ قد علمتْ أن الهدية تقع موقعًا من الناس»[٢].

ومن آثار عقلها ورزانتها، تماسكها وثباتها في أخطر موقفين مرت بهما في القصة، أحدهما، حين ألقي إليها كتاب سليمان عليه السلام فإنها «لم تغلبها عواطف الضعف التي تتسلط على كثير من النساء في مثل تلك الأزمة التي أحاطت بها وهددت ملكها، بل استقبلت الأزمة بجنان ثابت، وعقل يقظ، فجمعت إليها ذوي الرأي والنصح في مملكتها، تشركهم في هذا الأمر، وتلتزم بالرأي الذي ينجلي عنه الموقف»[٣].

والموقف الآخر، حين علمت برد سليمان عليه السلام هديتها، وتهديده لها وقومها، فإنها لم تأخذها العزّة بالأثم، فتغضب، وتعلنها حربًا عليه، بل

---

(١) الزمخشري: الكشاف، ج ٤، ص ٤٥٢.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ١٣، ص ٢٠٠.

(٣) عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص ١١٢.

تأنت وتريثت وحكمت عقلها، ثم قدمت عليه مع قومها كأسلوب آخر للمفاوضة.

وكان لثباتها هذا، وتماسكها، أثر كبير على رعيتها، كما سيمرُّ ذكره في البعد الاجتماعي.

كما كان ذكاؤها واضحًا حين قدمت على نبي الله سليمان عليه السلام، ذلك أن سليمان عليه السلام أراد امتحان قوة ملاحظتها وذكائها وفراستها، فأمر بتنكير العرش قبل قدومها عليه.

ولما جاءت سُئلت سؤالًا يتضمن دعوتها إلى إمعان النظر في العرش الموجود أمامها: ﴿قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾؟، وهو سؤال في قمة النباهة والفطنة، وهو أنسب من قول: (أهذا عرشك). إذ لو كان السؤال: (أهذا عرشك ؟)، لكان فيه نوع من التلقين والإيحاء بالجواب، وسوف يكون جواب الملكة: نعم، هذا عرشي.

ونظرت الملكة بإنعام إلى العرش، وأدركت وجه التشابه الكبير بينه وبين عرشها، وكان بإمكانها أن تجيب بـ: (هذا عرشي)، ولو قالته، لكانت ساذجة، إذ إنها ستتهم جنود سليمان عليه السلام بالنهب، وهذا مما لا يتفق مع الكياسة الرسمية بين ملكة قادمة لزيارة ملك.

كما كان بإمكانها أن تجيب بـ: (ليس هذا العرش عرشي)، ولو قالته، لكانت غير فطنة، إذ كيف لا يكون عرشها، وهو يشبهه في معظم الأمور ![1].

وحتى تتلافى محذور الإجابتين، لجأت إلى إجابة غاية في الذكاء

---

(١) ينظر: د/ صلاح الخالدي: القصص القرآني، ج ٣، ص ٥٦٠ وما بعدها.

والفطنة: ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾[١]. فاختارت أداة التشبيه (كأن) المتركبة من كاف التشبيه وأن المؤكدة والتي تدل على قوة الشبه، حتى كأنه لا فرق بينهما. وقد استدعى المقام هذه الأداة بدليل أن العرش كان عرشها بالفعل، ولكنها احتاطت في التعبير عندما استعملت أسلوب التشبيه، بدلًا من أن تقول: (هو هو)، أو: (ليس هو)[٢].

ومن أعظم آثار عقلها وقوة تمييزها، مسارعتها إلى إعلان إسلامها لله رب العالمين بعد أن عرفت الحق.

وبذلك كان ذكاء ملكة سبأ « عاملًا مهمًا في طريقة تفكيرها، فقد ربطت واقع حالها وحال سليمان بخبراتها التي هي مفاهيمها عن الملك والحياة والقهر والسيطرة، ولما أمدها سليمان بمعلومات عن النبوة وإعجازها بوسائل عدة، منها المحسوس ومنها المعقول، غيّرت هذه المعلومات الجديدة من طريقة تفكيرها »[٣]، وجعلتها تنقاد مسلمة لله رب العالمين.

ومن السمات النفسية التي لوحظت على ملكة سبأ، اعتدادها بنفسها باعتبارها حاكمة على مملكة عظيمة، ومن أمارات ذلك، أنها لما جمعت ملأها، ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾، فبينت لهم أن الأمر يخصها أولًا باعتبارها صاحبة القرار، ويخص محكوميها ثانيًا باعتبارهم تابعين لها.

ثم بينت لهم أن المشورة صفة لازمة لها، حتى لا يظنوا أن مشورتها لهم في هذا الأمر ناتجة عن ضعف وخوف، فقالت: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ

---

(١) سورة النمل، جزء من الآية: [٤٢].

(٢) ينظر: الزمخشري: الكشاف، ج ٤، ص ٤٥٧.

(٣) د / مصطفى عليان: بناء الشخصية في القصة القرآنية، ص ٨٤، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١، ت ط ١٤١٣هـ - ١٩٩٢ م.

﴿تَشۡهَدُونِ﴾[١] . فهي تنبئهم بما يشبه التصريح بأن رأيهم غير ملزم إياها، فلم تقل: (حتى ترشدون)، أو: (حتى تدلون)، وإنما قالت: ﴿حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾، فالأمر إليها، ولكنها تؤثر أن يكونوا على علم بما يجري من أمور، وأن تسمع رأيهم، وإن لم تلتزم به[٢] .

وبرغم هذا الاعتداد التي تتصف به الملكة، لكنها لم تكابر عن اتباع الحق بعد أن عرفته، ولم تتعصب لعقيدة آبائها وأجدادها بعد أن ظهر لها زيفها؛ لأن شخصيتها تتصف بالمرونة والتي تعني استجابة الفرد للمؤثرات الجديدة استجابات ملائمة، وتقبل أيّ تغيير يطرأ على حياته[٣] .

وتظلُّ ملكة سبأ - على الرغم من كونها حاكمة - أنثى، لها من السمات النفسية الأنثوية ما يميزها كغيرها من الإناث.

ومن ذلك، حبها للزينة والمظاهر، بدليل ما أحاطت به نفسها من أبهة تليق بمقام الملوك، وأعظم ذلك، سرير ملكها العظيم المميّز والذي لفت نظر الهدهد فخصّه بالذكر حين نقل نبأها إلى سليمان عليه السلام، فقال: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾[٤] .

ولما قد يجره التعلق بزخرف الحياة الدنيا، والتوسع في الملذات من غرور في نفس الإنسان؛ كان من حكمة سليمان عليه السلام أن يجعل تجربته في بناء الصرح الممرَّد من قوارير؛ لإسقاط الغرور عن نفس ملكة سبأ[٥] ،

---

(١) سور النمل: الآية: [٣٢] .

(٢) ينظر: د / عبد الحليم حفني: أسلوب المحاورة في القرآن، ص ١٣١، ١٣٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ت ط ١٩٨٥م.

(٣) ينظر: د / مصطفى فهمي: الصحة النفسية، ص ٣٩.

(٤) سور النمل: جزء من الآية: [٢٣] .

(٥) ينظر: رفاعي سرور: أصحاب الأخدود، ص ٣٢، مكتبة الحرمين للعلوم النافعة، ط ٤، ت ط بدون.

إذ ترى ملكًا لا يضاهيه ملك في الدنيا.

ومن السمات النفسية الأنثوية لدى الملكة، ميلها إلى تغليب جانب السِّلم والموادعة على جانب الحرب والمصادمة، ولجوؤها إلى سلاح الحيلة والكيد، حين أرسلت إلى سليمان ﷺ بالهدية، مما يوحي بالضعف الأصيل والرقة لدى المرأة.

وبرغم ضعف المرأة الأصيل، لكنَّ ما ظهر في القصة من حسن سياسة الملكة، وتعقلها، وبعد نظرها، وقوة شخصيتها، وقدرتها على تحمّل المسؤولية في أحلك الظروف والمواقف، يدعونا إلى القول: إن المرأة ليست ضعفًا دائمًا.

ومن السِّمات النفسية التي ظهرت على ملكة سبأ؛ حياؤها الفطري، الذي من أماراته، لباسها الطويل السّابغ الذي كانت ترتديه عند قدومها على سليمان ﷺ، ودلنا على ذلك قوله - تعالى-: ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾، استعدادًا منها لخوض ما حسبته لُجّة.

بقي أن نقول: إن في قول ملكة سبأ: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١]، ما يفيد أهمية القدوة الصالحة في التأثير على سلوك المرء، فملكة سبأ اقتدت بنبي الله سليمان ﷺ، وسلكت مسلكه، ونهجت طريقته، فأعلنت إسلامها خالصًا لله رب العالمين.



(١) سورة النمل، جزء من الآية: [٤٤].

(د) أنموذج العفة والحياء

أنموذج المرأة العفيفة الحيية:

(ابنتا شيخ مدين):

وهما امرأتان مؤمنتان صالحتان، روي أن اسم إحداهما: صَفُّورا[١]، أو صفوريا[٢]، أو صفوراء، أو صفيراء[٣]، أو صفراء[٤]، والأخرى: لَيّا، أو شَرْفا[٥]، أو عبرا[٦]. وكل هذه التسميات لا يجزم بصحة أيٍّ منها، والله - تعالى - أعلم.

وأما أبوهما فمختلف في اسمه أيضًا، فقيل: يثرون أو يثرى، ويثرون ابن أخي شعيب النبي عليه السلام[٧]، أو هو النبي شعيب نفسه عليه السلام[٨]، وقيل: بل هو رجل مؤمن من قوم شعيب[٩].

وقال أبو جعفر الطبري: « وهذا مما لا يُدرك علمه إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجب حجته »[١٠].

---

(١) الطبري: جامع البيان، مج ١١، ص ٧٩.
(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ١٣، ص ٢٧٠.
(٣) الألوسي: روح المعاني، ج ٢٠، ص ٣٦٠.
(٤) أبو السعود: إرشاد العقل السليم، ج ٧، ص ٩.
(٥) الطبري: جامع البيان، مج ١١، ص ٧٩.
(٦) الألوسي: روح المعاني، ج ٢٠، ص ٣٦٠.
(٧) الطبري: جامع البيان، مج ١١، ص ٧٩.
(٨) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ١٣، ص ٢٧٠.
(٩) ابن كثير: قصص الأنبياء، ص ٣٥٩.
(١٠) جامع البيان، مج ١١، ص ٨٠.

والراجح أنه ليس شعيبًا النبي عليه السلام، وإنما هو شيخ مؤمن من قومه، وبه قال ابن كثير رحمه الله، فقد ذكر أنَّ شعيبًا قبل زمان موسى بمدة طويلة، ولو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ها هنا[١].

وقال سيد قطب بعد أن رجح أن الرجل شيخ من مدين: « والذي يحمل على هذا الترجيح أن هذا الرجل شيخ كبير. وشعيب شهد مهلك قومه، المكذبين له، ولم يبق معه إلا المؤمنون به. فلو كان هو شعيب - النبي - بين بقية قومه المؤمنين، ما سقوا قبل بنتي نبيهم الشيخ الكبير. فليس هذا سلوك قوم مؤمنين، ولا معاملتهم لنبيهم وبناته من أول جيل ! يضاف إلى هذا أن القرآن لم يذكر شيئًا من تعليمه لموسى صهره. ولو كان شعيبًا النبي لسمعنا صوت النبوة في شيء من هذا مع موسى وقد عاش معه عشر سنوات »[٢].

وقد كانت ابنتا شيخ مدين مثالًا في الحياء والعفة، ووردت قصتهما في القرآن الكريم في إطار الحديث عن قصة موسى عليه السلام بعد خروجه من مصر إلى مدين في سورة القصص[٣].

والقصة تبدأ عند بئر الماء الذي قصده موسى عليه السلام بعد وصوله إلى مدين، فلقد وقفتا عند المسقى في مكان أدنى من مكان الرعاة الذين كانوا يسقون ماشيتهم ويتزاحمون حول الماء، ورآهما موسى عليه السلام تبذلان جهدًا كبيرًا، وتكابدان عملًا شاقًّا في كفِّ أغنامهما، ومنعها من الاختلاط بغنم القوم والنزوع إلى الماء.

وحينئذ تقدم إليهما مستفسرًا عن السبب الذي اقتضى منهما بذل كلّ هذا

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ج ٦، ص٢٢٩.

(٢) في ظلال القرآن (حاشية الكتاب)، مجـ ٥، ص ٢٦٨٧.

(٣) ينظر: سورة القصص، الآية: [٢٣ - ٢٧].

الجهد في صرف ماشيتهما، وألجأهما إلى هذا الوقوف والانتظار الطويل ! واقتصر عليه السلام على سؤال مقتضب وجيز، فقال : ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ ؟

وردَّت الفتاتان ردًا موجزًا موفيًا بالغرض، وعلى قدر سؤاله، فقالتا : ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾، أي يرجعون عن السقي، ويذهبون بأنعامهم.

ثم اعتذرتا عن خروجهما للرعي والسقي، وقيامهما بهذه المهمة الشاقة التي لا تصلح إلا للرجال بأنه لا يوجد لهما رجل قوي يقوم بالمهمة، وليس في البيت سوى شيخ كبير لا يقوى، هو أبوهما، فقالتا : ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[١].

وأنهت المتحدثتان كلامهما الوجيز المعبّر، بما يحمل في طياته من عفة وأصالة، وحسن تربية، وبرٍّ بالأب، وصبر ومصابرة على مشاق العمل.

وما إن سمع موسى عليه السلام من الفتاتين ما سمع حتى أدركته الرحمة بهما، والشفقة عليهما؛ « لكونهما على الذياد للعجز والعفة، وكونهم على السقي غير مبالين بهما »[٢]، وفهم من قولهما : ﴿لَا نَسْقِي﴾ أن هذا ديدنهما في كل مرّة، وأنهما يعانيان مثل هذا عند كل سقاية.

وتقدم عليه السلام إلى البئر - برغم ما هو فيه من تعب ونصب - وزاحم الرجال على الماء، حتى أخَّرَهم عنه، وسقى للمرأتين محتسبًا أجره على الله.

وآبت المرأتان إلى بيتهما في غير أوان الأوبة، لتخبرا والدهما الشيخ بما حدث، وانصرف موسى عليه السلام إلى ظلٍّ يستريح تحته في يوم صائف، وفي وسط نهار، وأخذ يدعو ربه، ويسترزقه، ويسأله من فضله قائلًا :

---

(١) سورة القصص، جزء من الآية: [٢٣] .

(٢) أبو السعود: إرشاد العقل السليم، ج ٧، ص ٨.

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[١].

وما إن أتمَّ دعاءه حتى عاجله الله بالفرج، إذ أرسل الشيخ إحدى ابنتيه لاستدعائه.

وانطلقت البنت البارّة إلى حيث أمرها أبوها، شاعرة بثقل المهمة التي ألقاها على كاهلها؛ إذ كيف تخاطب رجلًا أجنبيًّا عليها؟! ولكنها الضرورة.

ولقد ركز القرآن الكريم على وصف مشية هذه المرأة، وطريقة كلامها، وأسلوبها في الخطاب الأمر الذي له أكبر الأثر في الدلالة على عفتها، وحسن تربيتها، وبالغ حيائها، فالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يقول: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ﴾[٢].

لقد جاءت إلى موسى عليه السلام تمشي مستحيية متخفرة «غير متبخترة ولا متثنية ولا مظهرة زينة»[٣] مشية الفتاة العفيفة الطاهرة حين تلقى الرجال. قد سترت وجهها بثوبها مِنْ شدة حيائها.

وفي التعبير بأداة الاستعلاء ما يوحي بأن الحياء صار« وكأنه مركب لها وهي متمكنة منه، مالكة لزمامه... لأنها كلفت الإتيان إلى رجل أجنبي تكلمه وتماشيه»[٤]، بل كأن الحياء تجسَّد «فصار بساطًا ممدودًا تمشي عليه... تتعثر فيه قدماها، وتقصر به خطاها، ويضطرب له كيانها»[٥]!.

---

(١) سورة القصص، جزء من الآية: [٢٤].

(٢) سورة القصص، جزء من الآية: [٢٥].

(٣) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج ١٠، ج ٢٠، ص ١٠٣.

(٤) البقاعي: نظم الدرر، ج ٥، ص ٤٧٧.

(٥) عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص ١٠٨.

ولقد أحسن عمر بن الخطاب ﷺ وصفها فقال: « لم تكن سلفعًا من النساء خرَّاجة ولاّجة »[١].

وما إن وصلت المرأة إلى موسى عليه السلام حتى خاطبته بلهجة كلها أدب وحياء، وبأقصر لفظٍ وأوجزه؛ فقالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ﴾.

فـ« أسندت الدعوة إلى أبيها وعلّلتها بالجزاء لئلا يوهم كلامها ريبة »[٢]، ولم تزد على ما قالته، ولم يبدر منها أي خضوع في القول، وذلك كله أثر من آثار فطرتها النظيفة المستقيمة، وتربيتها القويمة.

واستجاب موسى عليه السلام لدعوة الشيخ، وقام وذهب مع الفتاة بكل وقار إلى حيث مسكنهم... وهناك أكرم الشيخ وفادته... وطمأن قلبه بعد أن استمع إلى قصته، و: ﴿قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣]. فلا حكم لفرعون في أرض مدين، ولا سلطة له عليها، فطب نفسًا، وقرَّ عينًا.

ولم تشأ إحدى الفتاتين - ولعلها التي استدعت موسى - إلا أن تدلي برأيها، وتفتح لأبيها مداخل الحديث إلى ما يوثق الصلة بينه وبين موسى عليه السلام[٤]، فقالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾[٥]. فخاطبت أباها بلفظ ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ وفيه من الأدب والاحترام

---

(١) الطبري: جامع البيان، مج ١١، ج ٢٠، ص ٧٧. و « السلفع »: هي السليطة، البذيَّة، الفحاشة القليلة الحياء، الجريئة على الرجال (مادة سلفع). و « خراجة ولاجة »: أي كثيرة الخروج والولوج (مادة خرج). (ابن منظور: لسان العرب).

(٢) أبو السعود: إرشاد العقل السليم، ج ٧، ص ٩، وينظر: ابن كثير: تفسيير القرآن العظيم، ج ٦، ص ٢٢٨.

(٣) سورة القصص، جزء من الآية: [٢٥].

(٤) عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص ١٠٨.

(٥) سورة القصص، جزء من الآية: [٢٥].

ما فيه، ثم عرضتْ عليه أن يستأجر موسى عليه السلام لرعاية ماشيته بدلًا منهما؛ فهو عمل لا يصلح إلا للرجال وقمين بالمرأة العفيفة الحيية أن تبتعد عن كل ما يؤدي بها إلى مزاحمة الرجال ومخالطتهم، ثم رغبت أباها فيه بذكر صفتين من صفاته يستحق بهما أن يستأمن ويستأجر فقالت: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾، واكتفت بمدح القوي الأمين عامة، ولم تمدح موسى عليه السلام مدحًا خاصًا وفي هذا من الحشمة والعفة ما فيه[1].

ولعلنا نلحظ الوضوح في كلام البنت مع والدها، والصَّراحة في إبداء رأيها دون تلعثم أو اضطراب، أو خشية سوء ظنٍّ وتهمة. وما ذاك إلا لبراءة نفسها، ونظافة حسها[2]، فضلًا عن دلالته على حسن تربية والدها لها، واحترامه لرأيها وشخصيتها.

ولقد شُهد لها بالفراسة الصَّادقة، وأنها من أفرس النّاس، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرّس في يوسف فقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾. وأبو بكر حين تفرس في عمر. والتي قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾»[3].

واستجاب الشيخ لعرض ابنته الحيية، ولعله فهم من كلامها إعجابها بشخصية موسى عليه السلام فبادر إلى عرضها عليه ليتزوج بها مقابل أن يأجره ثماني سنوات، ولكنه كان حكيمًا حين لم يحدد أيًّا من فتاتيه يريد تزويجها، وذلك مراعاة لمشاعر كلتيهما، وحتى يدع لموسى عليه السلام حرية الاختيار.

---

(١) ينظر: الزمخشري: الكشاف، جـ٤، ص٤٩٣.

(٢) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مجـ ٥، ص ٢٦٨٧.

(٣) الطبري: جامع البيان، مجـ ٧، جـ ١٢، ص ٢١٩. وينظر: الزمخشري: الكشاف، جـ ٤، ص ٤٩٤، والرازي: التفسير الكبير، جـ ٢٤، ص ٢٤٢.

ووافق موسى عليه السلام، وأشهد الله - عز وجل - على العقد . . . وتزوج إحداهما ، ولعلها الفتاة التي استدعته ، وعرضت على أبيها استئجاره ومدحت قوته وأمانته .

وكفاهما بذلك مؤونة العمل الذي كانتا تقومان به، وتضطران بسببه إلى مكابدة ذياد الماشية وتكلف البعد عن مخالطة الرجال .

ولقد جعل القرآن الكريم من قصتهما أنموذجًا فاضلًا للعفة والحياء، والبعد عن مخالطة الرجال ومخاشنتهم . وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « **الحياء لا يأتي إلا بخير** »[١]، وقال: « **الحياء من الإيمان** »[٢].

(مريم ابنة عمران) :

وهي المرأة التي تقلبت في الأصلاب الطاهرة، وأحيطت بالحب والحنان، والتربية الحسنة، والنشأة الفاضلة في كل طور من أطوار حياتها .

ولا ريب في أن (الحاجة إلى الحب) هي أولى الحاجات التي يحتاج الطفل إلى إشباعها، لكونها عاملًا أساسيًا لصحته النفسية، وبدونها ينشأ قلقًا مضطربًا[٣] . ولقد أشبعت حاجة مريم إليه وهي بين يدي أمها الصالحة، ثم بعد أن كفلها نبي الله زكريا عليه السلام ، فأغدق عليها من الحب والعناية ما عوضها عن فقد والديها، خاصة أنه زوج أختها أو خالتها .

كما أن زكريا عليه السلام غذى حاجتها إلى (التربية الحسنة)، فكان حريصًا عليها، يتفقد شؤونها، ويتردد عليها في محرابها الذي ابتناه لها في المسجد، بدليل قوله -تعالى-: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ . أي كل وقت دخول زكريا عليها .

---

(١) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحياء. حديث رقم [٦١١٧] .

(٢) البخاري: المصدر السابق نفسه، والكتاب والباب نفسه. حديث رقم [٦١١٨] .

(٣) ينظر: د / مصطفى فهمي: الصحة النفسية، ص ٢٧.

وأثبتت مريم - لطول تبتلها وصبرها على العبادة - قدرتها على التعامل مع نفسها، والسيطرة عليها، والتحكم في مشتهياتها، وهذا يدل على قوة إرادتها وعزيمتها المستمدة من قوة إيمانها بربها وعمق صلتها به - سبحانه وتعالى -.

ومنَّ الله على مريم بنفس واثقة من رحمته وقدرته، مطمئنة إلى حكمته. ومما يعكس جانبًا من هذه النفسية المطمئنة الواثقة ردها على سؤال زكريا عليه السلام عن مصدر الرزق الذي كان يأتيها في محرابها بقولها: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

ولقد كان لهذه الشخصية الرزينة، والنفسية المطمئنة أكبر الأثر في نبي الله زكريا عليه السلام، إذ هيجته لطلب الذرية الطيبة من الله - سبحانه وتعالى -.

ولما كان تحقيق المعجزة الكبرى التي قدرت لمريم، يحتاج إلى تمهيد نفسي، حتى إذا حدثت لم يكن وقعها عليها عنيفًا، كانت الملائكة - لأجل ذلك - تتردد على مريم وتكلمها شفاهًا، فلقد بشرتها بالاصطفاء المتكرر والتطهير، وامرأتها بإدامة العبادة وطول القنوت: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[2].

وهذا الأمر وإن كان من باب الشكر لله على النعمة، لكنه زاد نفسي روحي عظيم، يؤثر في صفاء النفس، وانشراح الصدر، وقوة الروح، ونشاط البدن.

وكان من تمام تمثل مريم لأمر ربها بملازمة القنوت والعبادة أن ﴿ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٣٧].

(٢) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٤٢] ، والآية: [٤٣].

(٣) سورة مريم، جزء من الآية: [١٦، ١٧].

وفي خلوتها هذه لأجل الذكر والابتهال راحة نفسية، وخشوع وخضوع، وتسام عن الانشغال بغير العبادة، وتفريغ للقلب والخاطر من الهواجس الشاغلة والأفكار الصارفة.

والقرآن الكريم يحدثنا عن أعظم موقف واجهته مريم في خلوتها تلك، ويبين مشاعرها، ويصور فزعها ورعبها من ذلك الأمر.

ففي غمرة استغراقها في مناجاة ربها، وأنسها بذكره، وبينما هي مطمئنة القلب، منشرحة الصدر، إذا بمشاعرها تتغير عليها، فينتابها الفزع، ويأخذ منها الاضطراب كل مأخذ، وذلك حين فاجأها جبريل عليه السلام بدخوله عليها في صورة بشرية حسنة جميلة مستوية الخَلْق! والنساء - بالطبع - يستهويهن جمال صور الرجال كما يستهوي الرجال حسن صور النساء، ولكن مريم الطاهرة العفيفة لم تبهت لجمال صورة الرجل ولا إلى حسنه، بل انتفضت انتفاضة العذراء المهددة في عرضها، وظنته فاتكًا يريدها بسوء، فانبعثت تتعوذ بالرحمن منه، وتستنهض بواعث الرحمة في قلبه: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾[1]. هذا برغم أنها لم تنكر عليه سوى دخوله عليها، ولكنه فزع العذراء التي تربت على الحصانة والعفة، فصانت نفسها وأربأت بها عن السوء[2].

ورأى جبريل جزعها، فأراد تطمينها فقال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا﴾[3].

ويا للأمر المهول الذي هزها!، فما كادت تخلص من مفاجأة حتى

---

(١) سورة مريم، الآية: [١٨].

(٢) أربأت بها: رفعتها. (ينظر: ابن منظور: لسان العرب « مادة ربأ »).

(٣) سورة مريم، جزء من الآية: [١٩].

وقعت في أخرى ! ولكنها تمالكت نفسها، واستجمعت قوتها، فاستفهمت منه: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾(١).

هكذا، بهذه النبرة التي توحي بأن تأثير الفزع من المفاجأة الأولى لم يبرح مخيلتها. فهل أنساها هذا الفزع بشارة الملائكة الأولى لها بقولهم: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾(٢) . ! !

ولكن جبريل عليه السلام أعاد إليها طمأنينتها حين ذكرها بأن هذا هو ما قدره الله عليها، ثم انصرف عنها بعد أن نفخ فيها، وحملت من لحظة النفخ بعيسى عليه السلام.

والقرآن يحدثنا عن ذلك الموقف النفسي الرهيب الذي عانته مريم منذ أن حملت بعيسى. فلقد شعرت بصعوبة مواجهة الناس بحملها، وأهمها حديثهم في عرضها، وخشيت قالة السوء، واستحيت.

ولنا أن نتخيل مشاعر أنثى عذراء مبالغة في العفة والإحصان يفجؤها جنين يتحرك في أحشائها من دون بعل ! ماذا سيقول عنها قومها ؟ وأي آلام نفسية ستعاركها ؟ بل وأي لحظات صعبة ستعيشها ؟ وهي التقية النقية الطاهرة الذيل، سليلة الأطهار ! !.

ومريم وإن كانت واثقة من عون الله، مطمئنة إلى حكمته، راضية بقضائه، لكن حساسيتها للمساس بعرضها كانت عظيمة، وذلك لبالغ عفتها، فضلًا عن أن مكانتها ووالديها بين قومها كانت عظيمة. فهل سيمر عليها تبكيت قومها سهلًا ؟ ومن سيصدقها بأنه نفخة من روح الله ؟ !

(١) سورة مريم، الآية: [٢٠] .

(٢) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٤٥] .

ولم تجد هذه العفيفة الطاهرة بدًّا من أن تعتزل بحملها، وتتوارى به عن أعين أهلها وقومها في مكان متباعد، ناءٍ، قاصٍ، حياءً منهم، وخشية قالتهم. ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾[١].

ولنا أن نتصور مقدار الهم والقلق والفزع النفسي الذي كانت تعيشه هذه الطاهرة وهي حامل بجنينها! حتى إذا ما اقتربت ساعة الوضع، اشتدت عليها آلام المخاض اشتدادًا أوهن جسدها، وأضعف قوتها، وألجأها إلى التشبث بجذع نخلة استطاعت أن تصل إليها لتتقوى بها، ولربما أنها أرادت أن تتستر بها[٢] ممن يخشى منه القالة إذا رآها!.

وتجمعت عليها فوق آلامها الجسدية آلامها النفسية، وتعمق فيها شعور الغربة، وخشية القالة، وآلمها انفرادها عن أهلها في أحرج المواقف، وأصعبها على الأنثى، وأشدها فيها حاجة إلى عون من حولها، ورأت نفسها في مكان مهجور لا طعام فيه ولا شراب ولا أنيس، فتمنت الموت قبل أن يحدث لها هذا، بل وتمنت أن لو كانت شيئًا تافهًا لا يؤبه له، وأطلقت زفرة حارة نمت عن بالغ حزنها وعظيم أسفها: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[٣]. وهنا يتبين ضعف الأنثى على أشده.

والملاحظ أنها تمنت الموت - لو ماتت - قبل الحمل ولم تتمنه بعده، والسبب يعود والله - تعالى - أعلم إلى أنها أرادت أن لا يتطرق عرضها بطعن ولا تجر على أهلها معرة[٤]، ولو تمنته بعد الحمل، لم يغن عنها الموت شيئًا

---

(١) سورة مريم، الآية: [٢٢].

(٢) ينظر: الزمخشري: الكشاف، ج ٤، ص ١٣.

(٣) سورة مريم، جزء من الآية: [٢٣].

(٤) المَعَرّة: الأمر القبيح المكروه والأذى. (ابن منظور: لسان العرب، مادة: عرر).

من دفع القالة، إذ يشاهد أهلها بطنها وهي ميتة، فتجر عليهم المعرة ![١].

وفي ذروة هذا الاضطراب النفسي والألم الجسدي يعينها الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فتضع وليدها عند جذع النخلة التي ألجأها المخاض إليها، وبقدرة ربانيّة ينطق الله وليدها؛ ليبدد وحشتها، ويمسح بمواساته دموعها وأساها، ولهذا قال أول ما أنطقه الله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾، وكأن هذه الكلمة إشارة منه إلى أن كل أحزانها ستتبدد وأن حالتها النفسية ستتطور إلى الأحسن، كما أن فيه إشارة منه إلى أنه سيكون بارًّا بها مواسيًا لها.

وأرشدها بوحي من الله إلى الجدول أو النهر الصغير الذي أجراه الله تحتها؛ لتشرب منه، وأمرها بهز جذع النخلة التي ولدت عندها؛ ليتساقط عليها رطب جنيٌّ شهيٌّ، فلتأكل ولتشرب، ولتقر عينها، أي لتطب نفسها ولتفرح، ولا تحزن بولادتها لعيسى[٢]. ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾[٣].

ومن اللافت للانتباه تنزيل الفعل المتعدي ﴿وَهُزِّىٓ﴾ منزلة اللازم، وذلك لجذب انتباه مريم إلى الهز ليصرف عنها ما هي فيه من هموم. وكأنها قالت: ما أهز؟ فقيل: ﴿بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾، وكأنها قالت: وما فائدة ذلك؟ فكان الجواب: ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾. فأتى بناء الأسلوب على هذه الصورة المثيرة للانتباه مراعاة لحالتها النفسية.

وبذلك انتقلت مريم إلى حالة نفسية عالية، بعد حالة التوتر والقلق التي

---

(١) ينظر ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج ٨، ص ٨٥، ٨٦.

(٢) ينظر: الطبري: جامع البيان، مج ٩، ص ١٠٠.

(٣) سورة مريم، الآية: [٢٤، ٢٥] ، وجزء من الآية: [٢٦] .

كانت تعيشها قبل الولادة، بدلالة انتباذها مكانًا قصيًا حين حملت، وقولها عند المخاض: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾. وأمَّا بعد الولادة فقد قرت عينها بما رأت من معجزات باهرات، أولاها: تحدث صغيرها معها، وثانيها: سريان الجدول تحتها، وتساقط الرطب عليها بمجرد أن هزت جذع النخلة بيدها الواهية الضعيفة. وكأن النخلة حنت عليها وأكرمتها فأسعفتها برطب يتساقط بالتدريج، استجابة لأمر الله[١].

ولم تكن مريم بحاجة إلى الطعام والشراب أكثر من حاجتها إلى الراحة النفسية، والشعور بالطمأنينة، ونبذ الهم والقلق الذي أصابها، ومع ذلك أمرت بالأكل والشرب من الماء والرطب الذي رزقته، والسبب؛ أن التسلية بهما لم تقع من حيث إنهما طعام وشراب « ولكن من حيث أنهما معجزتان تريان الناس أنها من أهل العصمة، والبعد عن الريبة . . . وأن لها أمورًا إلهية خارجة عن العادات الخارقة لما ألفوا واعتادوا، حتى يتبين لهم أن ولادتها من غير فحل ليس ببدع من شأنها »[٢].

وأمرت أن تأكل الرطب أولًا ثم تشرب الماء، ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي﴾. وذلك لأنها نفساء، والنفساء تحتاج إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى شرب الماء؛ لكثرة ما سال منها من الدماء[٣].

وبذلك هيأ الله لمريم كل أسباب الراحة والرعاية، ومن ذلك وجود الرطب. والرطب من فوائده أنه مهديء للأعصاب، وباعث على الراحة النفسية للإنسان، ولاسيما للماخض، فهو والتمر يساعدان على عملية

---

(١) ينظر: د. الخالدي: القصص القرآني، عرض وقائع وتحليل أحداث، ج ٤، ص ٢٥٨.
(٢) الزمخشري: الكشاف، ج ٤، ص ١٦.
(٣) ينظر: الرازي: التفسير الكبير. ج ٢١، ص ٢٠٦.

الولادة وتسهيلها، وتوقف النزف الناتج عن الولادة، ويعطي الطاقة لعضلة الرحم لتقوم بعملها على أكمل وجه[١].

كما أمرها - سبحانه وتعالى - أن لا تحزن، وتقر عينها. وفي ذلك إعجاز رباني عظيم، وفيه بعد نفسي عميق، ذلك أن « فترة النفاس ينبغي أن تكون فترة راحة للأم بعد الجهد الشاق الذي بذلته أثناء الحمل والولادة »[٢]، ولذا ينبغي أن تحاط الأم الوالدة بجو من الرعاية والهدوء والاطمئنان النفسي؛ لأن أي انفعال يمكن أن يتسبب في مضاعفات خطيرة عليها وعلى المولود، ومن تلك المضاعفات الناتجة عن الانفعال النفسي والاكتئاب والإجهاد، وعدم الراحة، وعدم الكفاية من الغذاء والنوم: نضوب الحليب أو ضعف إدراره وجفاف الثدي[٣].

ثم أمرها ابنها عليه السلام بوحي من الله - سبحانه وتعالى - أن تمسك عن الكلام حين ترى أحدًا من البشر فقال: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[٤].

وفي هذا بعد نفسي عميق، إذ إن مريم الطاهرة لم تكن لتحتمل تنابز الناس في عرضها، وخوضهم في شأنها، وعلمت أن ردها عليهم بأن أصل وليدها نفخة من الله لن يصدق، وسيسخر منها، وستتهم بالكذب، لأن القرينة على الفعل حسية واضحة، فلتصمت إذن ولتدع المجال لمن حجته أقوى في الرد، ولتسكت عن السفهاء؛ لأن الجدل معهم مذموم.

---

(١) ينظر: مها الأبرش: الأمومة ومكانتها في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة، جـ ١، ص ٢٥٠، بتصرف من: د / عبد الله السعيد: الرطب والنخلة، ص ١٥٥.

(٢) د. محمد على البار: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص ٤٥٧.

(٣) ينظر: الأبرش: الأمومة ومكانتها في الإسلام، جـ ١، ص ٢٦٧.

(٤) سورة مريم، جزء من الآية: [٢٦] .

وحملت مريم وليدها بين ذراعيها، وقربته من صدرها بكل حنو ورحمة وعطف. وصوّر لنا القرآن هذا الموقف النفسي العظيم من مواقف الأمومة بقوله: ﴿تَحْمِلُهُۥ﴾. وهي لفظة توحي برحمتها بابنها، وحبها له، وحرصها عليه، وتذكرنا بموقف أمها منها حين وضعتها فسمتها (مريم) وأحاطتها بالحب والرعاية وعوذتها وذريتها من الشيطان الرجيم.

ولا ريب في أن الحب هو الذي يمنح الطفل الاستقرار والأمن والطمأنينة فينشأ سويًا سليمًا[١]. وكم من طفل حرم حنان أمه وحبها « فنشأ ضعيف الشخصية، هش العاطفة، سيء النمو، مريض الجسد والنفس »[٢].

كما صور لنا القرآن شجاعتها، وقوة شخصيتها وقدرتها على تحمل المسؤولية، والتأقلم مع الظروف التي واجهتها بقوله: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾، هكذا ﴿تَحْمِلُهُۥ﴾ في شجاعة نفسية عظيمة، مستمدة من الثقة بنصر الله والتصديق بوعده.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا﴾ وهي التي انتبذت به مكانًا قصيًا بالأمس حين كان جنينًا ! وما ذاك إلا لأنها رأت من الكرامات والمعجزات الباهرات ما طمأن قلبها، وأزال وحشتها، وجرّأها على إتيان قومها.

ورأى قوم مريم هذا المشهد، فتأتيهم العذراء تحمل بين يديها طفلًا حديث الولادة فبهتوا ! وأدهشهم الأمر ! وأخذ منهم العجب كل مأخذ ! فانطلقوا يبكّتونها، ويلومونها، ويؤنبونها: ﴿قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[٣].

---

(١) ينظر: الأبرش: الأمومة ومكانتها في الإسلام، جـ ١، ص ١٠٥.

(٢) د / غالب خلايلي: الحب بين الأدب والطب، ص ٩، كتيب المجلة العربية، العدد (٧١)، ذو القعدة ١٤٢٣هـ، يناير، فبراير ٢٠٠٣م.

(٣) سورة مريم، الآية: [٢٧ - ٢٨].

فلقد اتهموها بأنها جاءت بأمر فظيع عظيم مستنكر، ثم بالغوا في تقريعها وتعييرها، فخاطبوها بالإضافة إلى أخيها هارون المشهور بالصلاح زيادة في توبيخها(١). أي ما كان لك أن تفعلي هذه الفعلة وأخوك هارون.

وكيف تجرأت على الفعل وأنت سليلة أطهار، ألم يكن من الأولى بك أن تعرفي قدر أبويك، وتحترمي مكانتهما فتكفي عن ما فعلت؟!

ولاذت مريم بالصمت، وكظمت غيظها، وأخفت ألمها، ووارت حسرتها من هذا الاتهام الجائر، ولم تزد إلا أن أشارت إلى وليدها - كما أمرت- ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾. وازداد قومها غضبًا وحنقًا وظنوها تسخر منهم، وتهزأ بهم. ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾(٢).

ولكن الله - سبحانه وتعالى - أنطق عيسى عليه السلام في مهده، وكان في ذلك تبكيت لهم، وذود عن حياض والدته، وإثبات لعبوديته لله، ونبوته، وبيان لعلو منزلته في الدنيا والآخرة: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾(٣).

---

(١) هذا على قول من يقول: إن هارون أخ لمريم. وممن رجح هذا القول من المفسرين: الرازي في تفسيره الكبير، ج ٢١، ص ٢٠٨، وأبو حيان في البحر المحيط، مج ٦، ص ١٧٦، والسعدي في تيسير كلام المنان، ج ٣، ص ١٩٩. وقد تباينت الأقوال في هارون هذا، فمن قائل: إنه أخ لموسى عليه السلام وكانت مريم من أعقابه، ومن قائل: بأنه رجل صالح أو طالح في زمانها شبهت به، ومن قائل: إنه أخ لها، وهو ما رجحته الباحثة، والله - تعالى - أعلم. (ينظر: الطبري: جامع البيان، مج ٩، ص ١٠٤ - ١٠٦، والزمخشري: الكشاف، ج ٤، ص ١٨، والرازي: التفسير الكبير، ج ٢١، ص ٢٠٨).

(٢) سورة مريم، الآية: [٢٩].

(٣) سورة مريم: الآية: [٣٠ - ٣٣].

وبهذا الانتصار وبراءة الساحة والطهر، ختم لقاؤها بقومها، وجعلها الله وابنها آية للعالمين.

(عائشة بنت أبي بكر):

الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها ، المبرأة من فوق سبع سماوات، حبيبة رسول الله ﷺ.

نشأت رضي الله عنها على الطهر والعفة والشرف وحسن الخلق، وتربت في بيت أبوين مؤمنين مهاجرين، ثم هيأ الله - سبحانه وتعالى - لها الانتقال إلى بيت سيد ولد آدم محمد ﷺ ، فتربت على أخلاقه الشريفة، وكان لها نعم الزوج كما كانت له كذلك.

وشاء الله - سبحانه وتعالى - أن يبتلي هذه الطاهرة العفيفة بحادثة الإفك المشهورة. تلك الحادثة التي كلفت أطهر النفوس في تاريخ البشرية كلها آلامًا لا تطاق، وعانى المسلمون فيها تجربة من أشق التجارب التي مروا بها، وعاشوا بسببها في جوٍّ خانق، وفي ظل آلام هائلة.

بل إنها علقت قلب رسول الله ﷺ ، وقلب عائشة حبيبته، وقلبي والديها، وقلب صفوان بن المعطل السلمي رضي الله عنه، بحبال القلق والألم مدة شهر كامل !.

ولم يكن من السهل على عائشة العفيفة الطاهرة أن ترمى في شرفها وطهارتها وهي ابنة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، المنشّأة في العش الطاهر، وترمى في أمانتها وهي زوج خير البشر، وترمى في وفائها وهى حبيبة رسول الله ﷺ ، ثم ترمى في إيمانها وهي المسلمة الناشئة في حجر الإسلام... وكل ذلك مَرَّ وهي بريئة غافلة لا تتوقع شيئًا، ولا تحتاط لشيء، وكل ما ترجوه أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا في شأنها تبرئها مما رميت به[1].

---

(١) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٤، ص ٢٤٩٥، و ص ٢٤٩٨.

« وليس أهول على نفس الفتاة خاصة، ولا أوجع لضميرها من مطعن يهدم سمعتها، ويعصف بهناءتها، ويفقدها الرجل الذي تحبه، والمكانة التي تبوأتها. وأهول ما يكون ذلك على البريئة العزيزة التي يهولها الأمر على قدر نكبتها بما تفقده من العزة والسمعة »(١).

ولقد برأها الله - سبحانه وتعالى - ، وأنزل عذرها على رسوله ﷺ ، وجبر قلبها الكسير، وأحسن عزاءها بما مر بها من ابتلاء وكرب في آيات تتلى إلى قيام الساعة، وذلك بعد معاناة شهر كامل، أثبتت فيه الصديقة ثبات شخصيتها، ورزانتها.

هذا ومن حادثة الإفك، وفي موقف العصبة المؤمنة في إشاعة قول السوء عن الصديقة وصفوان رضي الله عنهما مع المنافقين، نلمح بعدًا نفسيًا مهمًا، ذلك هو ما في طبيعة كثير من الناس من التعجل في الحكم على الآخرين دون التأني والتثبت، وهذا ما يقتضي ضرورة التحرز والتحوط من كلامهم باتقاء مواطن الشُّبه.

ولقد صور القرآن هذا الجانب من تلك العصبة التي تلقت القول وأشاعته دون تثبت، بقوله -تعالى-: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾(٢)، هذا مع أن القول لا يكون إلا من الأفواه؛ للإشارة إلى أن هذا القول لا حقيقة له ولا واقع، وكأن من قالوه لم يكونوا متيقنين منه، وفي هذا التعبير دلالة على أن هذا القول ملأ الأفواه جميعًا، وكأنها تشترك مع اللسان في القول، وفي هذا ما يدل على عظم الجرم الذي ارتكبوه.

---

(١) عباس محمود العقاد: الصديقة بنت الصديق، ص ٣٤، ٣٥، دار المعارف، القاهرة، ط ١٢.

(٢) سورة النور، جزء من الآية: [١٥] .

(هـ) نماذج المبالغة في العواطف والانفعالات

١- أنموذج المرأة العاشقة:

(امرأة العزيز):

واسمها - كما ورد في بعض التفاسير- زَلِيخاء أو راعيل بنت رعائِيل، واسم زوجها قطفير أو إِطفير، وهو العزيز وكان على خزائن مصر(١).

ولكن هذه الأسماء لم يدل عليها القرآن، ولم تثبت في خبر صحيح، فالأليق بالعاقل أن يحترز من ذكرها(٢).

وقد قصّ القرآن خبرها مع يوسف عليه السلام، وأبان شخصيتها، وجعل القارئ يعيش الأحداث كما وقعتْ في تصوير بديع.

يقول - تعالى -: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ﴾(٣).

فالآيات تحدثنا عن رجلٍ مصري اشترى يوسف من السيارة، بعد أن توسّم فيه النجابة والنبل؛ لحسن صورته، وروعة شكله، فرجا نفعه أو تبنيه، وأحبه حبًّا جعله لا يثق بأن يدفعه لغير زوجه، قيّمة بيته، موصيًا لها بأن تحسن

---

(١) ينظر: الطبري، مج١٢، ص ٢١٨، وينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٩، ص ١٥٨، وينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٣٧٨.

(٢) ينظر: الرازي: التفسير الكبير، ج ١٨، ص ١٠٩.

(٣) سورة يوسف، الآية: [٢١، ٢٢] وجزء من الآية: [٢٣] .

إليه خير إحسان، فتكرم مثواه، أي موضع إقامته ومحل ثوائه، ليتحقق إكرامه على أبلغ وجه وأتمه، لأنه أبلغ من الأمر بإكرامه نفسه مباشرة[١].

وينشأ يوسف عليه السلام - تحت رعاية الله وحفظه - شابًّا فتيًا، وترى فيه امرأة المصري جمالًا ليس لغيره، وحسنًا يتقاصر أمامه كُلُّ حسن، فلقد « **أوتي يوسف شطر الحسن** »[٢]، هذا فوق ما كان يجلله من مهابة تبهر الناظر وتأسره ! ؛ فيقع في قلبها حبه، ويكبر هذا الحب شيئًا فشيئًا حتى يأسرها، فلا تستطيع معه كبح جماح عاطفتها، فتتعرض له، وتتفنن في عرض محاسنها أمامه، وتبتذل حياءها؛ لتوقظ هاجس الشهوة في نفسه؛ فيستجيب لها مختارًا، وهيهات !

وقد عبّر القرآن الكريم عن محاولاتها المتكررة معه بقصد اغرائه بالفعل ﴿وَرَاوَدَتْهُ﴾ والذي يعني تكرار طلب الفعل بتمهل ورفق ومخادعة، مع كثرة الإقبال والإدبار والمجيء والذهاب، كما ترود الإبل في مرعاها [٣]، وفي هذا ما يدل على شدة حرصها على تحقيق بغيتها.

بيد أن الفتى غضّ بصره عن محاسنها، وأعرض عن تلويحها لما أوتيه من العلم والفهم، والحكمة والقدرة على كبح جماح نفسه، جزاء إحسانه مع ربه.

---

(١) ينظر: الألوسي: روح المعاني، جـ ١٢، ص ٥٤٦.

(٢) رواه أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا، وذكره الذهبي بزيادة لفظ (وأمه) فقال: « أوتي يوسف وأمه شطر الحسن »، ينظر: محمد الذهبي: ميزان الاعتدال في نقد الرجال، مجـ ٤، ص ١، تحقيق: علي وفتحية البجاوي، ط دار الفكر العربي. وقال الشيخ سليمان العلوان: إن لفظ (وأمه) ضعيف.

(٣) ينظر: الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن (مادة رود)، وينظر: ابن منظور: لسان العرب (مادة رود).

ولكن هذا الإعراض لم يزد عاطفة المرأة إلا التهابًا، ولم يزد مشاعرها إلا اضطرابًا، فدعته إلى مخدعها، وغلّقت الأبواب عليهما في ثورة وعنف وإحكام بابًا بعد باب لتؤكد له إصرارها على فعل الفاحشة ! !

ثم بالغت في امتهان حيائها، فعرضت نفسها عليه عرضًا حيوانيًا مكشوفًا في شدة اهتياج وغليان: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾[1].

ولم يبق وراء هذه الكلمة شيء تقوله أو تعرضه، فقد انتهت إلى نهايتها، وسقطت أمام رغبتها الجامحة، فلم تعد ملكة ولا امرأة، ونسيت الملك والمنصب والفضيحة والعار !

وماذا بعد؟ هل حظيت بما تريد من فتاها؟ هل استجاب وأذعن أمام هذه الإغراءات المتعددة، والمحاولات المضنية، والعروض المكشوفة ؟ !

حاشا وكلا، فقد تجلَّت عظمة رجولته وكمال خُلقه في أسمى معانيها، وتذكر ربّه – سبحانه وتعالى – في شدته، كما كان يتذكره في رخائه، فسارع للتعوذ به من هذا المنكر الهائل: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[2].

إنها دواعي عفافه الثلاث التي قابل بها دواعي غواية المرأة الثلاث، المتمثلة في المراودة، وتغليق الأبواب، ودعوته إلى نفسها[3].

فيوسف عليه السلام يستعيذ بالله من الاستجابة لطلب المرأة، فهو – سبحانه وتعالى –

---

(١) هيت لك: أقبل وتعال وهلّم. (ينظر: ابن منظور: لسان العرب « مادة هيت »)، والطبري: جامع البيان، جـ ١٢، ص ٢٢٢.

(٢) سورة يوسف، جزء من الآية: [٢٣] .

(٣) ينظر: محمد سيد طنطاوي: القصة في القرآن الكريم جـ ١، ص ٢٢٠، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط ١، ت ط ١٩٩٦م.

القادر على صرفه عن فتنتها، كما أنه كثير الألطاف والإنعام في حق عبده، وحقه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يمنع فعل الفاحشة التي هي كبيرة من كبائر الذنوب، فضلًا عن أن حق من آواه وكفله وأحسن مثواه يمنعه من خيانته في أهله وعرضه، وكذلك حق نفسه عليه أن يصونها عن الضرر، وفي فعل الفاحشة ظلم لها؛ لما يتبعها من خزي في الدنيا وعذاب في الآخرة[١].

ولقد حَقَّر السياق القرآني المرأة لسوء سلوكها وفعلها، وكَرَّم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين عبر عن المرأة بالاسم الموصول ﴿ٱلَّتِي﴾ بدلًا من التعبير بـ« سيدته ». كما أن في قوله - تعالى -: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ مدحًا ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ تأبى على الحرام رغم أنه كان في بيتها وقادر على الفعل، فامتنع منه لبالغ نزاهته وتقواه.

ومع كل ما بدر من يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من اعتصام وتعفف وتنبيه مترادف لضمير المرأة، فإن نزوتها لم تنكسر، وثورتها لم تهدأ، ولم يبق أمامها سوى الترامي عليه والتعلق به، عله يستجيب ولو مرغمًا، ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ﴾[٢]، عزمت عزمًا عمليًا مؤكدًا لا يلويها عنه شيء!، ووقع في نفس يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ همٌ لم يتجاوز الخطرة البشرية، وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم، ولكنه رأى من برهان ربه، وهو ما معه من العلم والإيمان والتقوى الموجب لترك كل ما حرم الله، ما أوجب له الانكفاف عن هذه المعصية الكبيرة[٣]: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾[٤] (*).

---

(١) ينظر: الإمام الفخر الرازي: التفسير الكبير، جـ ١٨، ص ١١٤.

(٢) سورة يوسف، جزء من الآية: [٢٤].

(٣) ينظر: الشيخ عبد الرحمن السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، جـ ٢، ص٤٠٨.

(٤) سورة يوسف، جزء من الآية: [٢٤].

(*) اختلف المفسرون في المراد بهم يوسف، فمنهم من اعتمد في تفسيره للهم على الإسرائيليات =

وما كانت هذه العصمة إلا لأن يوسف عليه السلام كان ممن أخلصهم الله

= المكذوبة، فذكر من الأخبار عن شروع يوسف في مخالطة المرأة ما يقشعر منه البدن، ويمجه الذوق، ويتنافى مع عصمته عليه السلام ومنهم: الطبري - عفا الله عنه - في (جامع البيان، ج١١، ص٢٢٨).

وقد رد عليه كثير من المفسرين، فنزّهوا يوسف، واستنكروا أن ينسب إليه ما لا يجوز نسبته إلى أحد الفساق، ومنهم: الزمخشري في (الكشاف، ج ٣، ص ٢٧٠)، والرازي في (التفسير الكبير، ج١٨، ص ١١٥)، وأبو حيان في: (البحر المحيط، ج ٥، ص ٢٩٠)، والثعالبي في: (الجواهر الحسان، ج٢، ص ١٥١)، وأبو السعود في: (إرشاد العقل السليم، ج ٣، ص ٩٦).

ومنهم من نفى وقوع الهم مطلقًا باعتبار أن في الآية تقديمًا وتأخيرًا، فتقدم جواب لولا الشرطية عليها، والتقدير: لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، أو على اعتبار أن في الكلام حذفًا، والمحذوف جواب لولا، وقد دل عليه ما سبقه، والتقدير: وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، فيكون قوله - تعالى -: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ دليل الجواب، والجواب محذوف. ومن ذهب إلى هذا الرأي من المفسرين: الرازي في: (التفسير الكبير، ج ١٨، ص ١١٧)، والزركشي في: (البرهان في علوم القرآن، ج ٤، ص ٣٧٧، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط ٣، ت ط ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م)، وابن عاشور في: (التحرير والتنوير، ج ٦، ص ٢٥٣).

ومن المفسرين من أثبت الهم ليوسف واعتبره مجرد خاطر نفسي من غير اختيار ولا عزم، صرفه عنه برهان ربه، ومن هؤلاء: القرطبي في: (الجامع لأحكام القرآن: ج ٩، ص ١٦٦)، والسعدي في: (تيسير الكريم الرحمن: ج ٢، ص ٤٠٨)، وسيد قطب في: (الظلال: ج ٤، ص ١٩٨١).

ومن المفسرين من ذهب إلى أن المراد بـ: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي همّ بضربها أو بدفعها عن نفسه، ومن هؤلاء: الماوردي في: (النكت والعيون، ج ٣، ص ٢٤، تعليق: السيد بن عبد المقصود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان)، وذكر هذا الرأي ابن كثير في: (تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٣٨١)، والشوكاني في: (فتح القدير، ج ٣، ص ١٧، دار إحياء التراث العربي، بيروت)، ومال إلى هذا الرأي محمد رشيد رضا في: (المنار، ج ١٢، ص ٢٢٩ - ٢٣١، ط دار المعرفة، بيروت، ت ط ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م). ولكن الشنقيطي في: (أضواء البيان، ج ٣، ص ٥٣)، فند هذا الرأي، وكذلك فعل سيد قطب في: (الظلال، ج٤، ص١٩٨١). =

لنفسه جزاء إخلاصه في توحيد ربه وعبادته[١]، فصرف الله عنه السوء، ونزهه عن فعل الفحشاء[٢]، ولم يجد عليه السلام بعد أن رأى برهان ربه، بدًّا من الفرار من أمام امرأة تتهالك لأجل إشباع شهوتها، وتندفع وراء إرواء غريزتها، ولا يجدي معها تمنع أو تذكير بالله ! فانطلق هاربًا يريد الباب ليخرج، وانطلقت تعدو خلفه؛ لترده إليها في هياج حيواني بغيض، واستبقا وتعاديا، بيد أن يدها لم تصل إلا إلى قميصه من الخلف فجذبته بقوة وعنف فانشق طولًا ! ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾، وفتح يوسف عليه السلام الباب والمرأة تسرع وراءه فكانت المفاجأة ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ ! !.

وهنا تتجلى شخصية المرأة وطبيعتها التي جبلت عليها من الكيد، فتحاول إبعاد التهمة عن نفسها وإلصاقها بالفتى البريء في إسقاط نفسي مكشوف: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣].

إن هذا الدفاع العاجل عن النفس، ومحاولة تبرئة الساحة ليعكس ذكاء

= **قلت**: (والذي ترتاح إليه نفس الباحثة من هذه الاتجاهات المتعددة في تفسير الهم، هو القول: بأن همّ يوسف لم يتجاوز حديث النفس من غير اختيار ولا عزم صرفه عنه برهان ربه. ولعل هذا القول أولى من نفي الهم عنه مطلقًا ؛ لأنه بشر، والعبد لا يؤاخذ بمجرد حديث النفس إذا لم يعزم على الفعل والله - تعالى - أعلم).

(١) ينظر: محمد الطبري: جامع البيان، ج ١٢، ص ٢٣٩.

(٢) اتفق المفسرون على أن المراد « بالفحشاء » هو الزنى، واختلفوا في المراد بـ « السوء »، فقيل: إنه خيانة السيد أو مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بشهوة، وقيل: إنه جناية اليد، وقيل: إنه الشهوة، وقيل: إنه الثناء القبيح، وقيل: إنه عقوبة العزيز. (ينظر: الزمخشري: الكشاف، ج ٣، ص ٢٧٠، والرازي: التفسير الكبير، ج ١٨، ص ١٢١، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٩، ص ١٧٠، وأبو السعود: إرشاد العقل السليم، مج ٣، ص ٩٦).

(٣) سورة يوسف، الآية: [٢٥] .

المرأة وفطانتها، وإن تماسكها أمام زوجها، واقتراحها إيقاع العقوبة عليه ليدل على قوة شخصيتها. ولكن ! بالإفك والادعاء الباطل على الأبرياء.

وعندما نتأمل في كلامها نجد أنها تخاطب زوجها بصيغة الجزم بمراودة الفتى لها، ولكنها لا تصرح بذكر اسمه بل تعرِّض به إجلالًا لتمنعه عنها، وصونًا له عن الذكر بالسوء، وخجلًا من موقفها المزري تجاهه، أو لعل ذلك رغبة منها في تهويل شأن الجزاء الذي تقترحه في كونه يصدق على كل من سولت له نفسه إرادة الفعل المحرم. وهي تطمئن قلب الزوج إلى سلامة عرضها فتقول: ﴿مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ لا (من فعل) ! ولكنها في الوقت نفسه تحاول تهييجه للانتقام من الفتى وإثارة غضبه وحميته بجعل إرادة السوء موجهة إلى أهله، فتقول: ﴿بِأَهْلِكَ﴾، وحتى تأمن من أن لا يبطش زوجها بمحبوبها بطشًا لا تريده تسارع فتقترح عليه عقابًا مأمونًا، هو السجن المؤقت أو العذاب الأليم.

ولهذا لم تقل: « من المسجونين »، حتى لا يفهم أنها تريد له سجنًا دائمًا، بل قالت: ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾ على سبيل التخفيف[١].

وكان كلامها كيدًا من جهة محاولتها « تبرئة ساحتها مما يلوح من ظاهر الحال، واستنزال يوسف عن رأيه في استعصائه عليها وعدم مواتاته على مرادها بإلقاء الرعب في قلبه من مكرها طمعًا في مواقعته لها كرهًا، عند يأسها عن ذلك اختيارًا »[٢]. ولم يكن في كلامها هذا ما يدل على الحنق والغيظ كما لو كانت صادقة، وليس فيه شيء من الغلظة والشدة التي يجب أن يعامل بها من حاول التعدي على عرضها وشرفها[٣].

---

(١) ينظر: الرازي: التفسير الكبير، جـ ١٨، ص ١٢٢.

(٢) ينظر: أبوالسعود، إرشاد العقل السليم مجـ ٣، ص ٩٧.

(٣) ينظر: عبد الله العلمي الغزي: مؤتمر تفسير سورة يوسف، جـ ١، ص ٥٥٥، دار الفكر، دمشق.

ويسمع الفتى هذا الاتهام الجائر، فيبادر إلى تفنيده وتكذيبه: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾.

هكذا في إيجاز بليغ، ودون تردد في الدفاع عن نفسه وعرضه، ودون تطويل في كشف محاولاتها المستكينة في إغرائه وجذبه. وكان كلامه واضحًا كوضوح الحق الذي يحمله دون لبس وخفاء ودون غموض وإبهام. بخلاف إطالتها الكلام نظرًا لأنها تدافع عن باطل، والباطل يحتاج إلى تزويق وتنميق، فضلًا عن أنها امرأة، والنساء - غالبًا - يرغبن الثرثرة والتوسع في الكلام.

وكان من تمام أدب يوسف عليه السلام، ومن إيمائه إلى الإعراض عنها أن عبر عنها بضمير الغيبة دون الخطاب واسم الإشارة[١]، ف: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾.

ويبدو أن المرأة تعجبت من رده عليها ودفاعه عن نفسه، ومواجهته لها أمام سيدها، وما ذاك إلا لأن الشيطان نفخ فيها نفخة غرور وكبر فظنت أنها بمنصبها وجاهها وسطوتها، قادرة على قهره وتطويعه لإرادتها. وهيهات! فقد أبى عليها وتمنّع، ثم أحرجها برده غير المتوقع.

واحتار الزوج بينهما، واحتاج إلى الاحتكام إلى حكم نزيه، فاستدعى رجلًا من أهل المرأة: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[٢].

---

(١) ينظر: أبو السعود: إرشاد العقل السليم: مج ٣، ص ٩٧.

(٢) سورة يوسف، الآية: [٢٦ -٢٨].

لقد كان في شق المرأة لقميص يوسف عليه السلام خيرٌ له، فها هو ذا الشاهد الحكيم يجعل شقه من دبر دليلًا على صدقه وبراءته. وشاء الله أن يكون هذا الشاهد من أهل المرأة ليكون كلامه أولى بالقبول في حقها، وأوثق لبراءة الفتى، وأنفى للتهمة(١). وكان شاهدًا حكيمًا بدليل أنه لم يحاب المرأة، ولم يتورع أن يصفها بالكذب. وحق له ذلك إزاء من استرخصت عرضها وجاهها وجمالها لأجل إشباع نزوة من نزواتها، قادتها للكذب والكيد.

وبذلك يتيقن الزوج غواية زوجه، وبراءة الفتى، فيقبل على امرأته قائلًا: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

إنه يتهمها بالتدبير والكيد(٢)، ولكنه يتحاشى الاتهام الصريح، ويجعل التهمة مشاعة في بنات جنسها؛ اصطناعًا منه للكياسة واللباقة التي هي صنعة الملوك ومن في صحبتهم(٣).

ثم يقبل على يوسف عليه السلام قائلًا له: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾، يخاطبه بلطف وتحبب وتقرب، ويأمره بكتم الأمر والإعراض عنه، ولذلك حذف أداة النداء للدلالة على قربه منه.

ثم يلتفت إلى امرأته مؤنبًا وزاجرًا، فيقول: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾(٤). يصفها بكثرة الخطأ وتعمده وعراقتها فيه، ولذا لم يقل: إنك قد أخطأت، وإنما قال: ﴿كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ دلالة على

---

(١) ينظر: الرازي: التفسير الكبير، جـ ١٨، ص ١٢٤، وينظر: أبي حيان: البحر المحيط، مجـ ٥، ص ٢٩٧.

(٢) الكيد: هو الخبث والمكر والاحتيال، (ابن منظور: لسان العرب « مادة كيد »).

(٣) ينظر: الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص ٤٣٣ وما بعدها.

(٤) سورة يوسف، الآية: [٢٩] .

أنها انتظمت في سلك الخاطئين حين راودت الفتى ثم كادته كذبًا وزورًا(*).

ويسدل الستار على هذا المشهد، دون أن نسمع الرجل يصدر عقوبة في حق زوجه، ودون أن يعالج الموقف بشدة وصرامة، ودون أن يأمر بالتفريق بينهما، برغم أن ما حدث قضية تتصل بالعرض، ومسائل العرض تحتاج إلى حسم وقوة حتى لا تعاد الكرّة، لأن المرأة إذا لم تر من قيمها حزمًا في مثل هذه المواقف، اغترت وعاودت الكرة.

ولكن الرجل اختار أن يعالج الأمر برفق وهدوء، فالمهم لديه ألا يشيع في القصر وخلف أستار القصر فتكون الفضيحة، وأما الزوجة التي ملكت منه القياد بمنصبها وجمالها وقوة شخصيتها فلعل فضيحتها أمامه كفيلة أن تثني من عزمها، وتردها عن محاولاتها مع الفتى ! !.

وينهي النص القرآني لحظات المراودة وما تلاها من محاولات وانفعالات بكلِّ نزاهة ونظافة، ودون أن ينشىء منها « معرضًا للنزوة الحيوانية الجاهرة، ولا مستنقعًا للوحل الجنسي المقبوح »(١).

ويشيع خبر المراودة خارج أسوار القصر، وتلوكه ألسنة نسوة في المدينة: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(٢).

والسياق القرآني يذكِّر الفعل ﴿قَالَ﴾ المسند إلى النسوة، مع أن الفاعل

(*) قلتُ: « اختلفت آراء المفسرين حول القائل: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾. فمن قائل: إنه الشاهد، ومن قائل: إنه الزوج. والذي يظهر للباحثة - والله تعالى أعلم - أنه من قول الزوج لأنه هو صاحب الحكم ».

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج٤، ص ١٩٨٣.

(٢) سورة يوسف، الآية: [٣٠].

مؤنث حقيقي، وذلك للدلالة على صواب رأيهن، فألحقهن بالذكور.

ويلحظ أنهن كشفن عن شخصية المرأة ومنصبها فقلن: ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾، وهو أمر لم يكشف عنه السياق من قبل حرصًا على الستر على المرأة، ولأنه لا مصلحة من الكشف عن شخصيتها فيما سبق من أحداث، أما وقد شاع الأمر، فليزح اللثام، وليكشف المستور.

كما أنهن يتفكهن في عرض المرأة فيصفنها بالاستمرار بمراودة الفتى، رغم فضيحتها أمام زوجها، فيقلن: ﴿تُرَٰوِدُ﴾ بصيغة المضارع الدال على الاستمرار، ولربما أنهن عبرن عن الماضي بالمضارع لحكاية الحال الماضية لغرابتها.

بل ويعجبن منها كيف تراود فتاها وهي ذات المنصب والجاه؟ ألم يكن الأولى بها - إن كانت ولابد فاعلة - أن تراود رجلًا آخر يليق بمكانتها ومنصبها!!، ثم كيف لا تحترم مقام زوجها وهو (عزيز)[١] مصر، ذو المكانة، والقوة، والمنعة.

لقد وصل حب الفتى إلى شغاف قلبها[٢]، فدخل تحته وغلب عليه، فهي عاشقة له كأشد ما يكون العشق، قد ملك عليها لبها وقلبها فهي لا تفتأ تراوده وهو ممتنع عنها، زاهد فيها؛ إن هذا لخطأ منها بين، وبعد عن الصواب ظاهر فكيف تُعفى من اللوم؟.

---

(١) العزيز: من العِزّ وهو القوة والشدة والغلبة. والعِزُّ والعِزّة: الرفعة والامتناع. ورجل عزيز: منيع لا يُغلب ولا يقهر. وتعزّز: تَشرَّف. والعَزَزُ والعَزازُ: المكان الصُّلْب السريع السيل. والعَزَازُ: ما صَلُبَ من الأرض واشتد وخَشُن. (ابن منظور: لسان العرب، «مادة عزز»).

(٢) ينظر: الطبري: جامع البيان عن تأويل القرآن، ج ١٢، ص ٢٤٧ - ٢٤٩، وقال: «الشغاف: جلدة على القلب يقال لها: لسان القلب، ومعنى: شغفها حبًّا: دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب».

ويسدل الستار على هؤلاء المتفكهات في عرض المرأة بعد أن صور لنا أخلاق كثير من النساء خير تصوير، من ولع بنقل الأخبار وتداولها، والتفنن في صياغتها، والإضافة عليها من الخيال، خاصة ما يتصل منها بالعرض والشرف، فكيف وقد أصبحن أمام حادثة وضح فيها الحق واليقين الذي لا يحتاج إلى توشيه وتزيين[1] !

وسمعت المرأة العاشقة ما يدور في مجالس النساء، ونما إلى سمعها بعض ما لاكته ألسنتهن، فعلمت أن ذلك مكر منهن[2] حين تحدثن في غيبتها ليفضحن ضلالها، ولينزلنها من كبريائها، وربما أردن أن يهيجنها لتريهن ذلك الذي سلب عقلها بحسنه.

فاختارت أن تبادلهن مكرًا بمكر، ودهاءً بدهاء، وكيف لا ؟ وهي التي لا تقبل الهزيمة ولا ترضى بها بحال، وإذا كان سلوكها قد فُضِح، فلن تعدم وسيلة لتبكيت هؤلاء النسوة، وأخرى لإرضاخ محبوبها لإرادتها ؟ ! !

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[3].

لقد أقامت لهنَّ مأدبة في قصرها، ودعتهن إليها، وأعتدت لهن متكئًا يتكئن عليه - كعادة المترفات - وآتتهن السكاكين ليعالجن بها ما يأكلن. وبينما هنَّ متكئات مشتغلات بتقطيع ما بين أيديهن من طعام إذ بها تضرب

---

(١) ينظر: د. محمد الطيب النجار: تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، ص ١٤٢، دار الاعتصام، القاهرة، ط ٣، ت ط ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٢) المكرُ: احتيال في خُفية، وأصل المكر الخِداع والاحتيال. (ابن منظور: لسان العرب « مادة مكر »).

(٣) سورة يوسف، الآية: [٣١] .

ضربتها التي أصابت منهن مقتلًا، فتأمر يوسف عليه السلام بالخروج عليهن في هذه اللحظة. وإذ بهن يرين الجمال والجلال والكمال والنور، فبهتن ولم يعدن يدرين ما يقطعن، فجرحن أيديهن، وسالت دماؤهن، ومع ذلك لم يبالين ولم يشعرن إلا بقولهن بصوت واحد: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ! إنه رجل فوق مستوى البشر، لا، بل ملك تخفى في صورة بشر ! !

ولما رأت امرأة العزيز نجاح خطتها، تنفست الصعداء، ووجدت الفرصة مناسبة لتبرير فعلتها، والتنفيس عن لواعج حبها ومعاناتها: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ .

فأشارت إليه باسم الإشارة للبعيد (ذا)، فقالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ بدلًا من: (فهذا الذي)؛ دلالة على بعد منزلته في قلبها، وتعظيمها له، فهو بعد مكانة لا بعد مكان، وبررت فعلتها بأنها لم تستطع مقاومة جماله الملائكي، كما لم تستطع النسوة كتم إعجابهن الشديد بصورته وهيبته ! .

وهي تعلم أن مراودتها له خطيئة ولكنها تلجأ إلى تبرير سلوكها غير المرضي أمامهن، وهو سلوك دفاعي لجأت إليه لوقاية نفسها من الشعور بالقلق، وما يصاحبه من شعور بالإثم، كما قصدت به التخفيف من حدة توترها الناتج عن إحباط مساعيها في اجتذاب يوسف عليه السلام إليها ومواقعتها[1] .

وكما لجأت إلى التبرير، فقد لجأت إلى التصريح بمراودتها له، ونفضت لهن جملة حالها، فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ .

(١) التبرير عند علماء النفس: هو عملية يلجأ إليها الفرد ليلتمس فيها الأعذار المنطقية المعقولة لتصرفاته، والتبرير ليس معناه أن تكون تصرفات الفرد معقولة، ولكن معناه أن يبرر سلوكه حتى يبدو في نظره معقولًا. (ينظر: د. مصطفى فهمي: الصحة النفسية، ص ٢١٧ وما بعدها).

فأي دعارة، وأي مجون، وأي تمرد وفجور، وأي ابتذال للعرض وقعت فيه ! !، لقد أنساها حبها كل القيم والأعراف، فلم تعد تبالي إلا بتحقيق أربها، والفوز بمطاوعة محبوبها الذي استعصم منها، وامتنع امتناعًا بليغًا، وتحفظ تحفظًا شديدًا، فهو لم يعتصم فقط بل بالغ في الاعتصام بدليل مجيء اللفظ مقرونًا بالسين والتاء.

وإذا كانت قد اعترفت بمراودتها له، وبرأته من كل إثم، فقد بالغت في المكابرة والمجون فلجأت إلى تهديده أمامهن: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[١].

لقد جرّبت معه التلميح، ثم ثنّت بالتصريح، ولم يبق في يدها سوى التهديد بعد أن أخفقت جميع وسائلها ومكائدها !.

فهل اعترافها بالمراودة وإظهار إصرارها على الفعل، يُصدِّق قول من يقول: إن المرأة لا تستحي من المرأة كما يستحي الرجل من الرجل، فقد تكشف المرأة للمرأة من نفسها ما لا يكشفه الرجل للرجل[٢] ! وحتى لو صحّ هذا، فإنَّ مما لا يجمل، أن تجاهر المرأة بمعصيتها، وتصرِّح بفجورها ! !.

ويتعجب يوسف عليه السلام ويندهش من تواطؤ النسوة من حوله مع امرأة العزيز على الفساد والمجون والمجاهرة والتبجح بذلك؛ فيسارع للاستنجاد بربه، ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٣].

---

(١) سورة يوسف، الآية: [٣٢].

(٢) ينظر: العقاد: المرأة في القرآن، ص ٢٨ , ٢٩.

(٣) سورة يوسف، الآية: [٣٣].

فالسجن - وإن كان ظاهره مكروهًا - لكنه أحب إلى يوسف عليه السلام من ارتكاب المعصية، التي يعقبها ذمٌّ في الدنيا، وعقوبة في الآخرة.

وإن يوسف لا يصرِّح في دعائه بما يدعونه إليه بل يكنِّي عنه؛ لأن الله يعلمه من جهة، ولأنه حييّ من جهة أخرى، كما يعبر بالمضارع ليدل على استمرارهن في مراودته[1]، ولاستحضار الصورة العجيبة، فيقول: ﴿يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾.

وهو يسأل ربه أن يقيه شرّ فتنة النساء وكيدهن، وألاّ يكله إلى نفسه؛ لأنه إن وكل إلى نفسه عجز وضعف فكان من الجاهلين الذين لا يعملون بما يعلمون، وحاشاه ذلك: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

لقد كان يواجه امرأة واحدة، فإذا به يواجه نسوة كثرًا، وكلهن يراودنه عن نفسه!، إنه أمر يفوق طاقة البشر إلا من عصم الله ورحم.

وما إن يتم دعاءه حتى يأتيه الغوث من ربه: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[2]. وكانت الاستجابة سريعة لهول الموقف، وصدق الدعاء، والاضطرار، ولذا اقترنت بالفاء، «وهذا الصرف قد يكون بإدخال اليأس في نفوسهن من استجابته لهن، بعد هذه التجربة؛ أو بزيادة انصرافه عن الإغراء حتى لا يحس في نفسه أثرًا منه. أو بهما جميعًا»[3].

---

(١) ينظر: أحمد ماهر البقري: يوسف في القرآن، ص ٣٢، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، ط بدون، ت ط ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

(٢) سورة يوسف، الآية: [٣٤] .

(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، مجـ ٤، ص ١٩٨٥.

وينجو يوسف عليه السلام من فتنة الإغراء والمراودة، ويمضي زمن على الحادثة. . . ولكن الشائعات لم تنقطع، فأخبار المرأة والنسوة مع يوسف عليه السلام ظلت تلوكها الألسن، وتتناقلها الأفواه! ولأجل ذلك رأى علية القوم ومن بينهم عزيز مصر أن يدخلوا يوسف عليه السلام السجن؛ علّ الشائعات تهدأ، وعلّ الألسن تكف. بل لعل المظلوم يُرى ظالمًا والظالم يُعد مظلومًا، ولعل نساءهم ييئسن منه، بعد أن فتن بصورته فتنة كادت تغيّب عقولهن، وتعمي أبصارهن إلا عن نور وجهه، وبهاء طلعته! ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ .

ويساق يوسف عليه السلام إلى السجن بريئًا مظلومًا، ويتحقق فيه وعيد المرأة العاشقة التي كانت من وراء سجنه لا محالة.

ويمكث في السجن ما شاء الله له أن يمكث، وتختفي خلال هذه السنوات التي قضاها أخبار المرأة العاشقة والنسوة المراودات.

بيد أن الرؤيا التي رآها ملك مصر، وفسرها يوسف عليه السلام له - بعد أن عجز ملأ الملك عن تأويلها - تسببت في فتح ملف قضية يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز والنسوة، بعد أن كادت تنسى.

وذلك أن الملك أعجب بتأويل يوسف لرؤياه، فطلب إحضاره، ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾ . ولكن يوسف - لتأنيه وحكمته ورزانته - امتنع عن المجيء حتى تعلن براءته(*)، فقال لرسول الملك: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ

---

(١) سورة يوسف، الآية: [٣٥] .

(*) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « يرحم الله لوطًا، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي لأجبته ». (البخاري: صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول- الله تعالى-: ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[١] .

إنه يذكر النسوة اللاتي قطّعن أيديهن، دون ذكر امرأة العزيز رغم أنها كانت السبب الرئيس في سجنه !، وهو أمر يدل - فضلًا عن حسن أدبه - على احترازه من مكر المرأة، « حيث ظنها مقيمة في عدوة العداوة »[٢]، وطمعه في أن يتوصل الملك من النسوة إلى خبر امرأة العزيز؛ لأنهن كن شواهد على إقرارها بالمراودة. « فلا جرم كان طلب الكشف عن أولئك النسوة منتهى الحكمة في البحث، وغاية الإيجاز في الخطاب »[٣].

ثم إن يوسف عليه السلام يستشهد بعلم الله - عز وجل - على براءته مما نسب إليه، ويتوعدهن بالجزاء من الله على كيدهن؛ ليوقظ فيهن الضمير، فيقول: ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾. كل ذلك في ثقة وطمأنينة إلى معونة ربه وتأييده.

وتصل الرسالة إلى الملك، فيجدّ في البحث والسؤال عن خبر النسوة، ثم يفتح ملف القضية بحضور النسوة وامرأة العزيز، فيسألهن الملك، ويستجوبهن: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ﴾.

إنه يوجه سؤاله إلى النسوة دون امرأة العزيز، لتصوره أن هؤلاء النسوة أقرب إلى مقالة الحق منها[٤].

كما أن سؤاله يتطلب إجابة لا تقبل التريث أو الإنكار، مما يدل على أن الملك عرف قصتهن قبل أن يستدعيهن، ويدل - أيضًا - على أن المراوَدة ليوسف لم تكن من جانب امرأة العزيز - فحسب - بل بمشاركة النسوة يوم

(١) سورة يوسف، جزء من الآية: [٥٠] .

(٢) أبو السعود: إرشاد العقل السليم، مج ٣، ص ١١٥.

(٣) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج ٦، ص ٢٨٩.

(٤) ينظر: د. تمام حسان: البيان في روائع القرآن، ص ٥٦٩، دار عالم الكتب، القاهرة، ط ١، ت ط ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

الوليمة، وربما أن مراودتهن له كانت من وراء إغرائها بالتبجح بفعلتها والتصريح بعقابها إن لم يفعل السوء.

وبهتت النسوة من معرفة الملك قصتهن، فلم يجدن مناصًا من الاعتراف بحقيقة براءة يوسف عليه السلام ونزاهته، فـ: ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾[١]. فنزهنه عن السوء باستخدام لفظ: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾، وهو اللفظ نفسه الذي استخدمنه في نفي بشريته عندما قلن: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[٢].

وينهي السياق اعتراف النسوة ليفاجئنا بموقف صريح لامرأة العزيز حين تقدمت معترفة على نفسها بالخطأ، ومقرة ببراءة يوسف، في بطولة أدبية صرفه، تنم عن قوة شخصية، وفي فصاحة وجرأة ليست بغريبة عليها، فلطالما نافحت عن باطلها بقوة، فلتعد إلى الحق اليوم، فالحق أحق أن يتبع: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[٣].

إنها المراودة له، وإنه الراسخ في الصدق، المنتظم في سلك الصادقين، حيث صدقت أعماله أقواله.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[٤]. فلم تخن يوسف عليه السلام بالكذب عليه في غيبته في السجن، وإن كانت قد خانته في حضوره سابقًا، كما لم تخن زوجها بفعل فاحشة الزنا، لأن يوسف عليه السلام لم يطاوعها.

---

(١) سورة يوسف، جزء من الآية: [٥١].

(٢) سورة يوسف، جزء من الآية: [٣١].

(٣) سورة يوسف، جزء من الآية: [٥١].

(٤) سورة يوسف، الآية: [٥٢].

ثم تختم كلامها بإعلانها توبة نصوحًا تتوسل فيها إلى الغفور الرحيم ترجوه الرحمة: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[١].

وهي مع اعترافها هذا لم تشأ أن تجعل نفسها بدعًا بين الناس، وإنما ذهبت تلتمس سبب خطيئتها لدى الطبيعة البشرية في جملتها وليس في ضعفها هي، ولهذا عدلت عن الإضافة إلى التعريف بأل؛ لتجعل السوء طبيعة جنس النفوس التي منها نفسها فيبدو ذنبها أخف مما لو أضافت النفس إلى ضميرها هي، فقالت: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، ولم تقل: (إن نفسي لأمارة بالسوء)، أي أن من طبيعة النفس البشرية بعامة أن تأمر بالسوء[٢].

ولكن اعترافها وتوبتها، يدلنا على ندمها على ما بدر منها، وترقيها نحو السمو والخير. وما أعجب أمرها حين « أقرت بالحق واعتذرت عن محبوبها، ثم اعتذرت عن نفسها، ثم ذكرت السبب الحامل لها على ما فعلت، ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته، وأنه إن لم يرحم عبده فهو عرضة للشر »[٣].

وبذلك أنهت المرأة فصول قصة حبها وعشقها وظلمها بالرجوع إلى الحق والتوبة من الفعل، متخذة من التوبة أسلوبًا من أساليب تكفير خطئها، وتطهير نفسها من الآثام والذنوب[٤].

على أن من المهم أن نذكر أن من المفسرين من قال: إن قوله تعالى:

---

(١) سورة يوسف، الآية: [٥٣] .

(٢) ينظر: د. تمام حسان: البيان في روائع القرآن، ص ١٣١، ٥٦٩.

(٣) ابن قيم الجوزية: روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ص ٣٢٨، تحقيق: د. السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ت ط ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(٤) ينظر: د. مصطفى فهمي: الصحة النفسية ص ٣٧٨ وما بعدها.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ۝٥٢ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، إنه من كلام يوسف لا من كلام امرأة العزيز[١].

ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية رد على هؤلاء، فقال بعد تفسيره للآيتين: «وهذا كله من كلام امرأة العزيز، ويوسف إذ ذاك في السجن، لم يحضر بعد إلى الملك، ولا سمع كلامه ولا رآه... وقد قال كثير من المفسرين: إن هذا من كلام يوسف، ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول، وهو قول في غاية الفساد، ولا دليل عليه، بل الأدلة تدل على نقيضه»[٢].

وقال ابن قيم الجوزية بعد أن عرض لتفسير الآيتين ونسب قولهما إلى المرأة: «فوازن بين هذا وبين تقدير كون هذا الكلام كلام يوسف عليه السلام لفظًا ومعنى، وتأمل ما بين التقديرين من التفاوت، ولا يستبعد أن تقول المرأة هذا وهي على دين الشرك فإن القوم كانوا يقرون بالرب - سبحانه وتعالى - وبحقه وإن أشركوا معه غيره، ولا تنس قول سيدها لها في أول الحال: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾»[٣].

ولقد مال إلى هذا الرأي وانتصر له كثير من العلماء المحققين عليهم رحمة الله[٤].

---

(١) منهم: ابن جرير الطبري في (جامع البيان، جـ ١٣، ص ٥)، والزمخشري في (الكشاف، جـ ٣، ص ٢٩٦)، والألوسي في (روح المعاني، جـ ١٢، ص ٦١٣).

(٢) مجموع الفتاوى، جـ ١٠، ص ٢٩٨، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ط ١، ت ط ١٣٩٨هـ.

(٣) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ص ٣٢٧.

(٤) منهم: ابن كثير في تفسير القرآن العظيم، جـ ٤، ص ٣٩٥، والقاسمي في: محاسن التأويل، جـ ٦، ص ١٨٦، تحقيق: محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ت ط ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م. والسعدي في: تيسير الكريم الرحمن، جـ ٢، ص ٤٢١، ط دار المدني، =

هذا، وإن رجوع امرأة العزيز للحق، واعترافها بالذنب، يدلنا على أن « شِرَّة الإنسان قد تتوهج لغرض خاص، وحين يهدأ الغرض ويذهب، يعود الإنسان إلى توازنه الكمالي في نفسه، وقد يجعل الزلة الأولى في خاطره وسيلة إلى الإحسان فيما ليس فيه ضعف، كي تستر الحسنة السيئة »[(١)].

ولعل تطور شخصيتها، ونزوعها إلى الاعتراف صراحة، كان بسبب عوامل عدة أثرت فيها.

ومن هذه العوامل، كبر سنها، حيث تقدم بها العمر فخفت نزوتها بعد سني السجن، وهدأت ثورة شهوتها، وذهب طيش شبابها.

ومنها، شعورها بالإخفاق والفشل في تحقيق مأربها، فلا ضير عليها من الاعتراف فالمطلوب ميئوس منه، والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.

ومنها، الشعور بالإثم الذي ارتكبته حين أوحت بسجن يوسف ظلمًا، فلبث في السجن بضع سنين.

ومنها، مواجهة الملك لها بالحقيقة، دون أن يدع لها فرصة للمراوغة والتهرب، فالجريمة ثابتة، وإنما السؤال عن دوافعها: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

ومنها، الشعور الإيماني الذي بدأ يتسرب إلى قلبها من كلام يوسف عليه السلام ودعوته.

= وابن عاشور في: التحرير والتنوير ج ٧، ص ٥٠. وقطب في: الظلال، جـ ٤، ص ١٩٩٥، و جـ ٥، ص ٢٠٠٤.

(١) الشعراوي: تفسير الشعراوي، مج ١١، ص ٦٩٩٠ وما بعدها، إدارة الكتب والمكتبات، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، ط وت ط بدون. والشِّرَّه هي: النشاط والرغبة، وشِرَّه الشباب: حرصه ونشاطه. (ابن منظور، لسان العرب، مادة شرر).

ولعل من العوامل المؤثرة، تقريعها الدائم ولومها، والهمسات التي لاحقتها من كل جانب، فجعلتها تواجه مرارة التشفي والنبذ الاجتماعي، فوق مرارة الفشل، مما ساعد في عودتها إلى رشدها[1].

ومن حكمة الله - سبحانه وتعالى - أن هذه العوامل تفاعلت إيجابيًا في نفس المرأة فأثمرت توبة وأوبة ورجوعًا إلى الحق واعترافًا بالذنب.

والاعتراف - كما يقول علماء النفس - علاج نفسي ناجح، يؤدي إلى احترام الإنسان لذاته، وتقبلها. كما يدعو إلى الراحة، إذ يتضمن نوعًا من التفريغ للطاقات الانفعالية الضاغطة على النفس البشرية، فيسكن مشاعر الإثم التي تهدد الإنسان المخطيء[2].



(١) ينظر: د. أحمد نوفل: سورة يوسف، دراسة تحليلية، ص ٢٠٧ وما بعدها، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط ١، ت ط ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩م.

(٢) ينظر: د. مصطفى فهمي: الصحة النفسية، ص ٣٧٨ وما بعدها.

٢- أنموذج المرأة الغيرى :

(عائشة وحفصة رضي الله عنهما) :

زوجا رسول الله ﷺ ، وبنتا أفضل الخلق بعده. أما عائشة رضي الله عنها فقد مر التعريف بشخصيتها[١].

وأما حفصة فهي بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، وأمها زينب بنت مظعون. وكانت حفصة رضي الله عنها زوج حصن بن حذافة السهمي، وكان ممن شهد بدرًا ومات في المدينة، وتزوجها رسول الله ﷺ بعد عائشة رضي الله عنها سنة اثنتين من الهجرة، أو سنة ثلاث وهو الراجح؛ لأن زوجها قتل بأُحد سنة ثلاث.

روت عن النبي ﷺ ، وعن عمر أبيها، وروى عنها أخوها عبد الله وابنه حمزة وآخرون من صحابة رسول الله ﷺ.

وكانت امرأة صوامة قوامة، حتى قيل: ماتت حفصة حتى ما تفطر، وتوفيت رضي الله عنها في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين، وقيل بل بقيت إلى سنة خمس وأربعين[٢].

ولقد حدث من عائشة وحفصة من التعاون على ما ساء النبي ﷺ بسبب الإفراط في الغيرة، ما اقتضى عتابهما، وتحذيرهما الشديد من الله تعالى، والذي أنزل بشأن ما حدث منهما قوله - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ، ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ

---

(١) ينظر: ص١٣٥ من البحث.

(٢) ينظر: ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ص ٢٧٣.

وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾[١].

وقصة التظاهر ترويها عائشة بنفسها، فتقول: «إن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب ابنة جحش ويشرب عندها عسلًا، فتواصيت أنا وحفصة: أن أيتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل: إني لأجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير[٢] »؟، فدخل على إحداهما فقالت له ذلك، فقال: « **لا بأس، شربت عسلًا عند زينب بنت جحش ولن أعود له** » فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لعائشة وحفصة[٣].

وفي رواية عن أنس: أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها[٤] فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها على نفسه فانزل الله - ﷻ -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى آخر الآية[٥].

« فهذان سببان صحيحان لنزول الآية، والجمع ممكن بوقوع القصتين:

---

(١) سورة التحريم، الآية: [١]، والآية: [٣ - ٥].

(٢) المغافير: جمع مغفور، وهو صمغ حلو له رائحة كريهة. (ينظر: ابن حجر: فتح الباري، ج ٩، ص ٣٧٧).

(٣) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب: «لم تحرم ما أحل الله لك» حديث رقم [٥٢٦٧]، وكتاب التفسير، سورة التحريم، حديث رقم [٤٩١٢]. ومسلم: صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق، حديث رقم [٣٦٧٨].

(٤) هي مارية القبطية التي أهداها المقوقس حاكم مصر إلى رسول الله ﷺ، فولدت له إبراهيم، ينظر: ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٣، ص ٣٣٥.

(٥) أبو عبدالرحمن النسائي: سنن النسائي الصغرى، كتاب عشرة النساء، باب الغيرة، حديث رقم: [٣٤١١].

قصة العسل، وقصة مارية»[1]، وإن كان حديث عائشة السابق أقوى سندًا ومتنًا[2].

ثم إن النبي ﷺ أسَرَّ حديث تحريمه العسل أو مارية إلى حفصة، فأفشته إلى عائشة، فأطلع الله - سبحانه وتعالى - نبيه محمدًا ﷺ على ما فعلته حفصة، فعرَّفها بعض ما أذاعته، وأعرض عن بعض تكرمًا وتسامحًا، فسألته حفصة: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ على سبيل التثبت -، قال: ﴿نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

ولقد حذر الله - عز وجل - عائشة وحفصة من التعاون على إيذاء النبي ﷺ فقال: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي مالت وزاغت عن الحق، حين أحبتا ما كره النبي ﷺ من اجتناب جاريته واجتناب العسل[3]، ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

ثم خوفهن الله - عز وجل - بأمر عظيم، وهو الطلاق الذي يشق على المرأة، فقال - تعالى -: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾. وإن كان التعبير القرآني في الآية قد آثر «إن» الشرطية على «إذا» الشرطية، ليدل على أن هذا التطليق في قوله - تعالى -: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ ليس أمرًا حتميًا، وإنما هو أمر ممكن استدعاه مقام التنبيه والتحذير.

وقد ورد في الصحيحين ما يؤكد على أن اللتين تظاهرتا على الرسول ﷺ هما عائشة وحفصة، فلقد سأل ابن عباس رضي الله عنهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومًا

(١) الشوكاني: فتح القدير، جـ ٥، ص ٢٥٢.

(٢) قال ذلك: فضيلة الشيخ المحدث: سليمان العلوان - حفظه الله -، إجابة عن سؤال الباحثة.

(٣) ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، جـ ١٨، ص ١٨٨.

فقال: « يا أمير المؤمنين، من اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ من أزواجه ؟ فقال: تلك حفصة وعائشة »[١].

ففي قصة التظاهر، يبرز بُعد نفسي مهم في شخصية المرأة، ذلك هو ما جبلت عليه من الغيرة.

والغيرة يراد بها الحمية والأنفة[٢]. وهي« مشتقة من تغير القلب وهيجان الغضب بسبب المشاركة فيما به الاختصاص، وأشد ما يكون بين الزوجين »[٣].

وهذه الصفة لا تذم في الحياة الزوجية إلا إذا تجاوزت الحدود، وأفرط فيها، ولم تلجم بلجام الشرع؛ لأنها تؤدي إلى حدوث مشاكل كثيرة، فلقد تدفع الغيرة الأزواج إلى أذية أزواجهن بسبب ما يقمن به من الاحتيال والكيد، وذلك كما حدث في هذه القصة من تآمر على زينب وعلى مارية، وما نتج عنه من أذية النبي ﷺ حين حرم على نفسه ما أحله الله له.

وفي القصة ما يوضح أن على المرأة أن تضبط غيرتها، فلا تكدر مشاعر زوجها وتؤذيه بالتصرفات الناتجة عن عدم ضبط غيرتها وانفعالاتها، فلربما أدى إكثارها من مضايقة زوجها إلى ملاله فكراهيته ففراقه لها[٤]؛ لأن الغيرة مفتاح الطلاق ! ! والعاقل خصم نفسه.

---

(١) البخاري: صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة التحريم، باب: (تبتغي مرضات أزواجك) و (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) حديث رقم [٤٩١٣] . ومسلم: صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن، وقوله – تعالى –: « وإن تظاهرا عليه » حديث رقم: [٣٦٩٢] ، [٣٦٩٤] ، [٣٦٩٥] .

(٢) ابن منظور: لسان العرب (مادة غير).

(٣) ابن حجر: فتح الباري، ج ٩، ص ٣٢٠.

(٤) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج ١٣، ص ٣٤٥.

كما قد يؤدي الإفراط في الغيرة، إلى أن يفعل الرجل تحت تأثير ضغط زوجه الغيرى ما لا يريد، أو يمتنع عن أمر له فيه سعة، وذلك كما حرم النبي ﷺ على نفسه العسل ومارية ابتغاء مرضاة أزواجه !.

وإذا كان الرسول ﷺ قد حرم على نفسه ما أحل الله له، فإن من الرجال من تدفعهم غيرة أزواجهم إلى فعل ما نهاهم الله عنه !!.

هذا ومن قصة إفشاء حفصة سر رسول الله ﷺ يظهر بُعد نفسي في شخصية بعض النساء - إن لم يكن في أكثرهن -، ذلك هو ضعفهن عن كتم الأسرار، والإفضاء إلى صديقاتهن بما ينبغي عليهن كتمانه.

فحفصة رضي الله عنها أفشت لعائشة سر رسول الله ﷺ الذي استكمتها إياه، وكره أن ينتشر في الناس، ولم تنتبه إلى أن ذلك «زلة خلقية عظيمة حجبها عن مراعاتها شدة الصفاء لعائشة وفرط إعجابها بتحريم مارية لأجلها»[١]، فاقتضى الأمر أن يخوفهما الله - سبحانه وتعالى - ويحذرهما من مغبة فعلهما، فالله - سبحانه وتعالى - علم دخيلة حفصة وما قصدته من إفشاء السر لعائشة، فهو - تعالى - ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

وكان على المذاع إليها وهي عائشة أن تنهاها، أو أن تخبر رسول الله ﷺ بما أذاعته عنه جارتها، ولكنها لم تفعل، فكان ما حدث منهما انحرافًا عن أدب المعاشرة الذي أمر الله به، وأن عليهما أن يتوبا إلى الله ليصلح ما فسد من قلبيهما.

ولهذا فالمرأة مأمورة بحفظ أسرار الزوج إذا استكتمها، أو إذا كان مثله مما يجب حفظه، فحق الزوج عظيم، وأواصر الزوجية أعظم من أواصر الخلة، فإن حفصة وعائشة وإن كانتا متصافيتين فإن واجب

---

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج ١٣، ص ٣٥٤.

الإخلاص لرسول الله ﷺ أعلى من فضيلة الإخلاص للخلائل[١].

وبرغم الخطأ العظيم الذي ارتكبته حفصة - رضى الله عنها- بإفشائها السر لكن الزوج المثالي ﷺ لم يعرّفها بكل ما أفشته، بل ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾، وهذا خلق عظيم في التعامل مع الأخطاء، فليس من كرم النفس استقصاء الخطأ، بل ينبغي غض الطرف عن بعض الزلات، والتغافل عما لا يضر التغافل عنه، وأن يكون المرء حليمًا.

هذا ومن خلال عرض القصة، تتضح صورة من صور الحياة في بيت النبوة، وما كان يجري فيها من انفعالات واستجابات بين بعض نساء رسول الله ﷺ وبعض، وبينهن وبينه ﷺ، وكيف كان تصرفه إزاءها، وكيف عالجها القرآن، فكانت حياة رسول الله ﷺ مشهدًا منظورًا قريبًا ممكن التطبيق، فلم تبق صغيرة ولا كبيرة في حياته ﷺ إلا وسجلها القرآن ونقلها، فكانت سجلًا باقيًا للبشرية إلى نهاية الحياة[٢].

ونساء النبي ﷺ على الرغم من تفضيلهن على نساء الأمة، لكنهن لسن بمعصومات من الخطأ، فلقد بدر منهن في حياته ﷺ ما لا بد أن يبدر، في قلوب النساء من الغيرة على الزوج والتنافس على نيل الحظوة لديه. وقد رأينا من خلال عرض الآيات صورة من صور هذا التنافس، فرضي الله عنهن وأرضاهن.



(١) ينظر: ابن عاشور: المصدر السابق، مج ١٣، ص ٣٥٤، ٣٥٦.

(٢) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٦، ص ٣٦١٠.

٣- أنمـوذج المرأة الحسـود :
(امرأة أبي لهب) :

أروى بنت حرب، العدوة اللدَّاء للرسول ﷺ كانت امرأة حقودًا حسودًا، متكبرة، عمياء القلب والبصيرة، نفست على رسول الله ﷺ ما اختصه الله به من شرف النبوة، والمكانة بين الناس، وتمنت لو كان هذا الشرف في بني عبد شمس بن عبد مناف لا في بني هاشم بن عبد مناف، ولم تفتأ تؤجج الحملة المسعورة التي كان يقودها أبو لهب زوجها ضد رسول الله ﷺ ، وكان ديدنها إثارة الفتنة، والمبالغة في حمل حطب البهت والنميمة « الذي تحمل به على معاداة النبي ﷺ وشدة أذاه، وإيقاد نار الحرب والخصومة عليه »[(١)].

وكانت سيئة الخلق، لم تحترم حق قرابتها من رسول الله ﷺ ، ولا حق جوارها له، فكانت تتعمد أذاه، ولم تبلغ امرأة من الأذى لرسول الله ﷺ والجرأة عليه بالقول والفعل ما بلغته هذه المرأة.

ولكم آلمت نفس رسول الله ﷺ بشدة أذاها وزوجها، فناسب أن يؤذي الله - عَزَّوَجَلَّ - نفسها بصورة عنيفة ساخرة، وذلك حين صورها بدابة عجماء وبحطابة تحمل على ظهرها الحطب، فقال - تعالى -: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾[(٢)].

وسيمر بنا في الفصل الثالث الحديث عن هذه الصورة العنيفة، وتحليلها تحليلًا مفصلًا.

---

(١) البقاعي: نظم الدرر، مج ٨، ص ٥٧٤.

(٢) سورة المسد، الآية: [٣، ٤].

على أن في حمل امرأة أبي لهب للحطب الذي يشعل النار، إشارة إلى الحقد والحسد اللذين يأكلان أحشاءها.

ولقد كان للصورة الساخرة التي صور بها القرآن أم جميل، وقع شديد على نفسها، إذ آلمتها أشد الإيلام. بدليل ما صنعته حين سمعت بما أنزل فيها وفي زوجها من قرآن. فقد انطلقت هائجة إلى رسول الله ﷺ ، وفي يدها فهر[١] ، وكان رسول الله ﷺ جالسًا عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسوله، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك، فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ! ![٢] .

وكما كان وقع الصورة شديدًا على نفس أم جميل، فقد كان فيها مواساة للنبي ﷺ ، وتقوية لإرادته وعزمه على تحمل الأذى والألم النفسي، ذلك أن فيها تطمينًا له إلى أن الله سيكبح جماحها وجماح الشرك كله[٣] .



(١) الفِهرُ: هو حجر يملأ الكف (ابن منظور: لسان العرب، مادة: فهر).

(٢) ينظر: ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٦.

(٣) ينظر: د. عبد الحليم حفني: التصوير السّاخر في القرآن، ص ١٩٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط بدون، ت ط ١٩٩٢م.

المبحث الثالث

البعد الاجتماعي ، ونماذجه

مما لا ريب فيه أن معرفة وضع الشخصية اجتماعيًا، يمكّن الباحث من تقويمها، ووضع تصرفاتها في إطارها الصحيح.

ولهذا كان لا بد من الكشف عن الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها الشخصية، وعن عمل الشخصية، ونوع ذلك العمل، ومناسبته لطبقتها التي تنتمي إليها، وكذلك البيئة بكلٍّ ظروفها المناخية والتعليمية والصحية والسياسية والاقتصادية وغيرها المؤثرة في تكوين الشخصية، ثم حياة الأسرة في داخلها، الحياة الزوجية والمالية والفكرية، في صلتها بالشخصية، ويتبع ذلك الدين والجنسيّة، والتيارات السياسية، والهوايات السّائدة، في إمكان تأثيرها في تكوين الشخصية[١].

وفي القصص القرآني نماذج عدة لنساء يظهر البعد الاجتماعي واضحًا في تكوين شخصياتهن، وفي إدارة مواقفهن، وعند اتخاذ قراراتهن، ومن أبرز تلك النماذج ما يلي:

---

(١) ينظر: د / غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص ٥٧٣.

(أ) نماذج المرأة والدور الأسري

١ - أنموذج المرأة المعدّة إلهيًا لصالح الذرية:

(حواء):

وهي أمُّ البشر، التي جعل الله ذريتها من نتاج سكن آدم إليها، فالله - تعالى - يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[١].

ويقول - تعالى -: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[٢].

ففي الآيات ما يدل على أن الزواج طريق إلى بناء الأسرة، وتكثير النسل، ودعم العلاقات الاجتماعية، وتقوية الأواصر والوشائج بين أفراد المجتمع، ومن ثمّ دفعهم إلى التعاون والتآزر فيما بينهم.

وفيها أن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض مالت نفسه إلى حواء، وغشيها، فحملت على عادة النساء، فلما كبر الحمل وصارت حواء ثقيلة بكبره وتحركه في بطنها دعت الله هي وآدم مقسمين: ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، أي جنس الولد الصالح في تمام الخلق بدنًا وقوة

---

(١) سورة النساء، الآية: [١].

(٢) سورة الأعراف، الآية: [١٨٩، ١٩٠].

وعقلًا، فآتاهما الله ذرية انتشروا في الأرض ذكورًا وإناثًا، ولكن هذين النوعين من الذكور والإناث جعلا لله شركاء فيما آتاهما من القوى بالعبادة والرزق بالنذور وغيرها(١).

ومعنى هذا أن الذرية التي انتشرت في الأرض كان منها من تسلط عليه الشيطان فطاوعه، فانتشر الفساد، وكثرت الفواحش والمعاصي، وتفككت تبعًا لذلك كثير من العلاقات الاجتماعية، التي كان ينبغي أن تؤسس على تقوى من الله.

هذا ومما قال الله - تعالى - لآدم عندما كان وزوجه في الجنة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾(٢).

فجمع له في هذا الخبر أصول كفاية الإنسان في معيشته وهي: الطعام واللباس والشراب والسكن؛ إشارة إلى أن الاستكفاء منها سيكون غاية سعي الإنسان في حياته المستقبلة(٣).

وفي هذا توجيه إلهي بشأن السِّياسة التي يجب أن ينتهجها المجتمع، وهي سياسة توفير المتطلبات الأساسية للفرد، وذلك حتى لا يتعرض أفراده إلى ما لا يليق بكرامة الإنسان من الجوع والعري والظمأ.

فعلى كل المجتمعات بلا استثناء أن تسعى لتوفير حد الكفاية لأفرادها من وسائل العيش، ويشمل احتياجات الإنسان المادية والثقافية والصحية ونحوها، وهذا الحدُّ لا يقف عند مستوى معلوم، بل يرتفع كلما زاد الإنتاج(٤).

---

(١) ينظر: البقاعي: نظم الدرر، مج ٣، ص ١٦٨، ١٦٩.

(٢) سورة طه، الآية: [١١٨، ١١٩].

(٣) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: مج ٨، ص ٣٢٢.

(٤) ينظر: د / راشد البراوي: القصص القرآني تفسير اجتماعي، ص ٢٣، دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، ت ط ١٩٧٨م.

ومن رحمة الله - ﷻ - بحواء وحكمته أن أعفاها من مشقة الخروج لكسب الرزق، والتعب في طلب المعاش، وجعل ذلك من وظيفة الرجل ومهمته في الحياة، وذلك مرتبط بالخلق.

فآدم عليه السلام خلق من تراب الأرض، وحواء خلقت من ضلع آدم، لأن كل واحد منهما سيعمل مع الشيء الذي خلق منه، فآدم سيعمل في الأرض محاربًا، ومزارعًا، ومتاجرًا. . . وحواء ستعمل مع الروح والقلب[١]، فإذا تمرد كل واحد منهما على وظيفته فسيحدث الخلل في الأرض.

كما أن الله - تعالى - قال لآدم: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾[٢]، ولم يقل: (فتشقيا)، فالإخراج واقع على الزوجين، والشقاوة على آدم وحده، وهي شقاوة البدن، فإذا خرجا من الجنة فسيشقى آدم تعبًا ونصبًا، فيجوع ويعرى ويظمأ وتصيبه الشمس؛ لأنه يرد إلى الأرض التي خلق منها. وفي تخصيصه بالشقاء إعلام بأن نفقة الزوجة واجبة على زوجها، وأن الأمور الأساسية التي تجب على الزوج هي الطعام والشراب والكسوة والمسكن؛ لأن فيها إقامة المهجة، فإن زاد في نفقته على حواء على هذه الأمور فهو متفضل ومشكور مأجور[٣].

فلزم الأزواج أن يحفظوا حقوق زوجاتهم، ويسعوا إلى توفير ما يجب عليهم من نفقاتهن، ويتحملوا مسئولياتهن.

وفي الآية حجة على دعاة التحرر الذين يساوون المرأة بالرجل في كلِّ شؤون الحياة؛ فيطالبونها بأن تعمل في وظائف لا يصلح لها إلا الرجال؛

---

(١) عمرو خالد: قصة آدم وحواء، (مادة سمعية).

(٢) سورة طه، جزء من الآية: [١١٧] .

(٣) ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، جـ ١١، ص ٢٥٣.

لتنفق على نفسها وأولادها، ويعدون قرارها في البيت تعطيلًا لنصف المجتمع،وطاعتها لزوجها ضعفًا ومهانة ! ! ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾(١).

وإذا كانت المرأة كالرجل في تحمل مسؤولية ما يصدر عنهما من أفعال خيرًا كانت أم شرًا، كان عليهما أن يرقبا تصرفاتهما، ويتجنبا الوقوع في الأخطاء التي يعاقبان عليها، وذلك حتى يصلح المجتمع، فالمجتمع يصلح بصلاح أفراده.

ومما يعين على صلاح الأفراد واستقامتهم، أن يعلموا بالعقوبات التي قررها الشارع لمرتكبي المعصية، فالله - عز وجل - حين حذّر آدم وحواء من الأكل من الشجرة، بيّن لهما ما سيترتب على مخالفتهما الأمر منْ عقوبة، تتمثل في الإخراج من الجنة والحرمان من نعيمها، ومن ثَمَّ الشقاء والكدّ في طلب المعاش !.

وهكذا فمعرفة العقوبة تؤدي إلى الحذر من الولوغ في المعصية.

وقد رافق التحذير الإلهي لحواء وآدم من القرب من الشجرة، التحذير لهما من عداوة إبليس وكيده، فقال - عز وجل -: ﴿إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾(٢). وبرغم ذلك استطاع إبليس من خلال محاولاته المتكررة إغراء حواء وآدم بالأكل من الشجرة حتى وقعا في المحذور فاغترا !

ومن هذا الموقف نتبين ضرورة أخذ الحيطة والحذر من الأعداء مهما حَسَّنوا الشرَّ وزينوه، فيُحذرُ منهم على المستويين الفردي والجماعي.

---

(١) سورة المنافقون، جزء من الآية [٤] .

(٢) سورة طه، جزء من الآية: [١١٧] .

كما ينبغي عدم الاستماع إلى مشورة غير الناصح[١]، لأن من الغبن استماع مشورة كل مشير، مع التغاضي عن شخصيته، وغايته، ونوع مشورته... وقد يكون في العمل بمشورته التلف والعطب ! !.

وفي تقبل الله - ﷻ - توبة آدم وحواء وعفوه عنهما بعد ندمهما واستغفارهما، إرشاد إلى ضرورة فتح باب المغفرة والعفو أمام المخطئين إذا اعترفوا بذنوبهم وأعلنوا توبتهم من الذنب الذي أدى إلى إنزال العقاب بهم[٢].

وإنَّ من الخطأ كل الخطأ أن يظل المجتمع ساخطًا على التائب من الذنب، فلا ينظر إليه إلا بنظرات الاستخفاف والاستحقار، مما قد يؤدي بالمذنب إلى الرجوع إلى الذنب، وبالمنحرف إلى العودة إلى الانحراف، وذلك عندما لا يجدان البيئة التي تحتويهما، وتغض الطرف عن سوابقهما ما داما قد استقاما ولزما الجادة.

بقي أن نقول: إن الإنسان إذا كان اجتماعيًا بطبعه، وجب عليه أن يتزود بالتجارب الكافية التي تقيه كثيرًا من المتاعب والمشاكل في التعامل مع الناس. فما أوقع الزوجين في فخ إبليس إلا انعدام تجربتهما !.

٢- أنموذج المرأة المعينة زوجها على إكرام ضيفه:

(سارة):

وهي المرأة التي ضربت الأنموذج الأمثل في الحرص على إكرام ضيف زوجها إبراهيم ﷺ، والقيام بخدمتهم، والترحيب بهم.

وكان بيتها بيت ضيافة وإكرام، وحشمة وأدب مع الضيوف، والقرآن

(١) ينظر: د. راشد البراوي: القصص القرآني، تفسير اجتماعي، ص ١٩.

(٢) ينظر: د. راشد البراوي: المرجع السابق، ص ٢٧.

الكريم يعبِّر عن الموقف الذي كانت فيه سارة قائمة على خدمة الضيف في الآيات التي سبق ذكرها من سورة هود[١]، وسورة الذاريات[٢].

وفي الآيات الكريمة، أن إبراهيم عليه السلام لما رأى ضيفه قد جاءوا؛ انطلق بسرعة وخفية إلى سارة، وتعاون وإياها على تجهيز القِرى من أجود ما لديه، ثم لم يلبث أن جاء بالعجل السَّمين مشويًا ناضجًا، فقربه إلى ضيفه، وعرض عليهم الأكل منه. وفي ذلك يقول - تعالى -: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾[٣].

وفي حرص إبراهيم عليه السلام على القرى، وإسراعه وزوجه في إعداد الطعام، دليل على مرؤتهما، وعلى أنهما قد اعتادا ورود الضيف عليهما، فاكتسبا خبرة ومهارة في خدمتهم، وأصبح ذلك لهما ديدنًا.

ولم تكتف سارة بمعاونة زوجها على إعداد الطعام بل قامت بنفسها على رؤوس الضيف تخدمهم برغم كبر سنها، كما قال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾[٤]. ذلك أن « عادتهم كعادة العرب من بعدهم، أن ربة المنزل تكون خادمة القوم »[٥].

ولكن ينبغي التنبيه هنا على أن الشريعة الإسلامية أمرت المرأة بالحجاب، وعليه، فإن على النساء ألا يبرزن للضيف من الرجال غير المحارم، بل يخدمنهم ويعنّ أزواجهن على ضيافتهم من وراء حجاب.

ومما لاشك فيه أن خلق إكرام الضيف من أعظم دلائل المروءة

---

(١) الآية: [٦٩-٧١].

(٢) الآية: [٢٤-٢٧].

(٣) سورة الذاريات، الآية: [٢٦، ٢٧].

(٤) سورة هود، جزء من الآية: [٧١].

(٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مج ٦، ص ١١٨.

والشهامة، ومن خير وسائل تقوية الأواصر بين أفراد المجتمع.

والرجل لا يستطيع أداء واجب الضيافة كاملًا ما لم يكن له معين من أهله، يؤازرونه ويساعدونه على فعل الواجب والمعروف.

٣- أنموذج المرأة المطواعة لزوجها:

(زوج موسى):

وهى ابنة شيخ مدين التي تزوجها موسى عليه السلام على أن يكون أجيرًا عند والدها مدةً معلومة.

وقد قصّ لنا القرآن الكريم طرفًا من أخبارها حين تحملت مسؤولية العمل خارج البيت هي وأختها برًّا بوالدها، وأثبتت حسن تربيتها بالتزامها الحياء والعفة وتخلقها بهما. كما ذكر خبر زواجها من موسى عليه السلام، وخبر اصطحاب موسى عليه السلام لها بعد انقضاء الأجل الذي بينه وبين والدها، وكأنَّ هذه المرأة قد بلغت من المكانة وعلوّ القدر ما جعلها جديرة بالذكر والثناء من المولى - سبحانه وتعالى - ، وجديرة بالزواج من نبى من أنبياء الله.

يقول - تعالى - : ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾[1].

ويقول -تعالى- : ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[2].

ويقول - تعالى - : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ

(١) سورة طه: الآيتان: [٩-١٠].

(٢) سورة النمل: الآية: [٧].

أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[١].

لقد استجابت هذه المرأة المطيعة لرغبة زوجها موسى عليه السلام في العودة إلى أهله وقومه في مصر ولم تمانع مِنْ الذهاب معه برغم مشقة السفر، ووحشة فراق الأهل والبعد عن الوطن، وبرغم ما في بلاد زوجها من ظلم وقهر يمارسه أعتى حاكم على وجه الأرض يومئذ على شعب مغلوب على أمره. ولكنها الطاعة والتسليم، فالقوامة بيد زوجها وهى له تبع.

ولم لا تسلمّ وهى المرأة المؤمنة العفيفة الحييّة التي نالت إعجاب موسى عليه السلام وكسبت ثقته وتقديره لحسن صفاتها، ورضيت به زوجًا لسجاحة خلقه، وعظيم مروءته.

وودعت المرأة أهلها، وسار بها موسى عليه السلام متوكلًا على ربه، مهتديًا بهداه. ولما كانت تلك الليلة التي أراد الله بها تكليم موسى عليه السلام وتكليفه بالرسالة، أخطأ موسى عليه السلام الطريق وتاه، ولم يدر أين يتوجه، وكانت تلك الليلة شاتية شديدة الريح مظلمة.

وبينا هم على هذه الحال الشديدة إذ لاح لموسى عليه السلام نار من جانب جبل الطور، فأمر أهله أن يمكثوا قليلًا في مكانهم، ويتريثوا لحين رجوعه إليهم، لعله يجيء إليهم بشهاب من تلك النار يستضيئون به من الظلام الدامس، ويستدفئون به من البرد القارس.

أو لعله يجد على تلك النار هاديًا يهديه الطريق. « ولم يقطع لئلا يعدُ ما ليس بمستيقن الوفاء به »[٢].

وأطاعتْ الزوجة، وربط الله على قلبها في تلك اللحظات العصيبة،

---

(١) سورة القصص: الآية: [٢٩].

(٢) الزمخشري: الكشاف، جـ ٤، ص ٦٩.

وبقيت حتى رجع إليها موسى وقد أتاها بخبر وأيّ خبر !.

لقد ذهب « يطلب النور الحسى والهداية الحسية، فوجد ثَمَّ النور المعنوي، نور الوحي، الذي تستنير به الأرواح والقلوب، والهداية الحقيقية؛ هداية الصراط المستقيم الموصلة إلى جنات النعيم »(١).

وما من شك في أن زوجه آمنت برسالته، وصدقت بها، ورافقته في دعوته، وكانت له خير معين على أداء رسالته العظيمة التي كلفّه الله بأدائها.

ولقد كانت هذه المرأة المؤمنة هبة من الله، ونعمة عظيمة من نعم الله على موسى، ذلك أن موسى عليه السلام حُمِّل رسالة من أشقّ الرسالات وأعظمها قاطبة، فلقد أرسل لدعوة طاغية ألدّ، من أعتى أهل الأرض يومئذ، وأجرئهم على الله، وكُلِّف بقيادة أمة من أصعب الأمم مراسًا وأكثرها عنادًا، أمة ران عليها الذل... واعتادت الهوان !!.

وإنَّ رسالة شاقة كهذه تحتاج إلى مؤازر ومساند بداية من أقرب الناس إليه، زوجه وأهله.

وفيما قصّة القرآن الكريم عن سيرة امرأته خُلُقيًا ما يدلنا على أنها كانت لموسى نعم المؤازر والمعين، ونعم الصّاحبة الموافقة.

ولقد انضمت هذه الفتاة المؤمنة إلى عصبة النساء اللاتى كان لهن أكبر الأثر في حياة موسى عليه السلام ودعوته، فأمّ موسى وأخته وامرأة فرعون أسهمن في إنقاذ حياته في طفولته، وأغدقن عليه من الحب والحماية ما يحتاجه كلُّ طفل لتمام نموه، وحسن نشأته.

وزوجه هذه سخرها الله له صاحبة، وودودًا، محبة، مطيعة، خلوقة، بعد أن بلغ أشدّه، وفرّ من مصر إلى مدين، ثم بعد أن عاد إلى مصر.

---

(١) السعدي: تيسير الكريم الرحمن، ج ٣، ص ٢٢٥ - ٢٢٦، ط دار المدني.

« إنها العناية الإلهية التي هيأت لموسى هذه العصبة المؤمنة من النساء حتى يصل إلى تحقيق ما أراده ربُّ العالمين »[١].

٤- أنموذج المرأة المحافظة على شمل أسرتها:

(خولة بنت ثعلبة):

وهى المجادلة، التي جاءت رسول الله ﷺ ترفع إليه أمر ظلامة زوجها أوس بن الصامت لها، وذلك حين ظاهر منها بعد طول عمر وعشرة ! !.

وتصرفها هذا في عدم قبول عنجهية زوجها يكشف لنا عن شخصيتها القوية في الحق، والتي ترفض الظلم وتأباه، كما تكشف مراجعتها رسول الله ﷺ ومجادلتها له في فعل زوجها لغرض أن تجد خلاصًا مما ضارّها به، عن شجاعتها النفسية، وجرأتها.

والظهار من الظلم الذي اعتاد فعله كثير من الأزواج منذ العصر الجاهلي حتى وقت نزول تحريمه في الإسلام؛ لأن فيه إجحافًا بحق المرأة وإضرارًا بها.

والإسلام جاء ليعلي قدر المرأة، ويعطيها حقها كاملًا، ويرفع عنها الظلم، فليست المرأة من سقط المتاع يظاهر منها الرجل متى ما غضب أو شاء ! بل هي إنسانة عزيزة مكرمة، لها كيان وشعور، تكره كل أمر يبدد شمل أسرتها ويفرقها، وهى أشد قوة في جمع كيان الأسرة، وهى الركن الركين الحافظ لها من التشرد والضياع.

وتكشف لنا قصة المجادلة عن شخصية المرأة الأمينة على ما استرعاها الله إياه من رعية، ففي قصتها أنها لما أتت تجادل رسول الله ﷺ في أمر ظهار زوجها منها قالت: « إن لي صبية صغارًا إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن

---

(١) مها الأبرش: الأمومة ومكانتها في الإسلام، جـ ٢، ص ٤٩٩.

ضممتهم إليّ جاعوا . . . »[١]، فهي لم ترض بالظهار الذي ينثر عقد أسرتها دون تبصّر وروية، بل سعت إلى رسول الله ﷺ مجادلة لتذود عن مصلحة أسرتها، حتى لا تتمزق وحدتها، ويتبدد شملها.

وفي تصرفها هذا تعليم لنساء الأمة الإسلامية ورجالها بأن عليهم واجب الذود عن مصلحة أسرهم[٢]، والنظر في المصلحة العامة للأسرة دون أثرة أو أنانية، والترفع عن المنفعة العاجلة، التى تعصف بكيان الخلية الأولى في المجتمع الإسلامي.

وإذا كان من أسباب صلاح الأسرة، الرجوع إلى المستشار الأمين، وإلى القاضي العادل عند حدوث ما يخشى منه تفرق الأسرة وتصدعها، فإن خولة الحكيمة لجأت إلى رسول الله ﷺ بحثًا عما يخلصها من ظهار زوجها الذي فيه الضرر عليها وعلى ذريتها.

ويا ليت أفراد المجتمعات يلجأون في الفصل في خصوماتهم، وفي حل مشكلاتهم إلى قاضٍ عادل، أو إلى مستشار أمين، يكون حكمه سببًا في القضاء على كثير من المشكلات التي تحدث بينهم، وتزعزع تماسكهم ووحدتهم.

ومن قصة خولة، ولجوئها إلى الله - سبحانه وتعالى - وتفويضها أمرها إليه، نرى صورة من حياة الجماعة الإسلامية الفريدة في عصر صدر الإسلام، تلك الجماعة التي تعمق في شعورها الإحساس بقرب الله - سبحانه وتعالى - ، فكانت تنتظر التوجيهات من السماء، وكانت السماء تستجيب لهذا الانتظار، في صورة عظيمة فريدة من صور مشاركة السماء في الحياة اليومية لأسرة صغيرة فقيرة

---

(١) الزمخشري: الكشاف، جـ ٦، ص ٥٧.

(٢) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، مجـ ١٣، ص ١٠.

مغمورة، لتقرر حكم الله في قضيتها، الأمر الذي يعطي صورة من صور الرعاية والعناية الإلهية بالجماعة المسلمة[١].

فيا ليت الأمة الإسلامية أفرادًا وجماعات، تفوض كل أمورها إلى الله، وتلجأ إليه، وتستلهم منه المدد في تفريج كربها وما تعانيه، حتى تسعد وتفوز في الدنيا والآخرة.



(١) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٦، ص ٣٥٠٣- ٣٥٠٦.

(ب) المرأة والتنشئة الفاضلة

- أنموذج المرأة التى أثرت تنشئتها في تكوين شخصيتها، وتوجيه سلوكها:

(مريم ابنة عمران):

وهى التي أسهمت أصولها الزاكية، وتنشئتها الاجتماعية الفاضلة في تكوين شخصيتها، فكانت فرعًا من أصل زاكٍ كريم.

ومن قصتها نلمس أثر الأم في بناء المجتمع وتكوينه، وذلك عندما تسهم في تقديم لبنات صالحة من ذريتها إلى مجتمعها، فامرأة عمران أسهمت في تقديم مريم الصديقة، ومريم بدورها أسهمت في تقديم عيسى عليه السلام رسول الله وكلمته. وصدق الله - تعالى- إذ يقول: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾[1].

وفي القصة ما يبين ما حدث لها حين ذهبت بها أمها إلى بيت المقدس، ذلك أنه اختصم نفر على كفالتها، وتنازعوا، ثم لجأوا إلى الاقتراع، فخرجت القرعة على نبي الله زكريا عليه السلام، فرضوا وأنهوا نزاعهم. وفي ذلك يقول - تعالى-: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[2].

وفي هذا تنبيه إلى ضرورة فضّ النزاعات التي تحدث - عادة - بين كثير من أفراد المجتمعات، وإرشاد إلى ضرورة الإصلاح بينهم؛ لأن المشادات

---

(١) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٣٤].

(٢) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٤٤].

والمنازعات إن لم تفضّ بالحسنى فغالبًا ما تتطور إلى عواقب وخيمة، تعود على المجتمع نفسه بالضرر.

ولما كان لبذل الجهد والسعي أثر في الحصول على الرزق، مع التوكل على الله - سبحانه وتعالى - أولًا، أمر الله مريم الصديقة أن تهز جذع النخلة ليتساقط عليها الرطب، برغم ضعف قوتها، ووهن بدنها، فقال - تعالى-: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[1].

هذا، ولأن مريم الصديقة نشأت على التقوى والفضيلة، من أم صالحة، وأصول فاضلة، وتحت رعاية وكفالة نبي الله زكريا عليه السلام، فقد عرف لها قومها هذا الفضل وتلك النشأة الممتازة، الأمر الذي جعلهم ينكرون عليها أيما إنكار أن تأتيهم بوليد تحمله: ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[2].

« أي أنت من بيت طيب طاهر، معروف بالصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك ؟ »[3].

« وفي هذا دليل على أن الفروع غالبًا تكون زاكية إذا زكت الأصول وينكر عليها إذا جاءت بضد ذلك »[4].

وهذا ما يبين أهمية التنشئة الاجتماعية، وأثرها في تكوين شخصية الطفل، وتوجيه سلوكه، وعلاقته بمن حوله.

ومن حكمة الله - سبحانه وتعالى - أن اختار مريم الصديقة، لتكون أمًّا لرسوله

---

(١) سورة مريم، الآية: [٢٥] .

(٢) سورة مريم، جزء من الآية: [٢٧] ، والآية: [٢٨] .

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٥، ص ٢٢٦ وما بعدها.

(٤) أبو حيان: البحر المحيط، مج ٦، ص ١٧٦.

وكلمته عيسى عليه السلام، ولو لم يكن لها تلك الشخصية الممتازة دينيًا وخلقيًا لما تحققت فيها تلك الآية العظيمة، ولكانت سيرتها مجالًا لخوض الخائضين، وتندر السفهاء والمغرضين. وحاشا لله - سبحانه وتعالى - أن يصطفي من عباده إلا من كان أهلًا للاصطفاء.

ولا ريب في أن الشخص إذا كانت سيرته حسنة، لم يدع مجالًا للألسنة لتلوك سمعته، أو تطعن في عرضه إلا ما يبدر من بعض السفهاء، والحساد، والمغرضين الذين يبغون الفساد في الأرض، وتشويه سمعة الأتقياء والأولياء، أو من بعض المتعجلين الذين يصدرون أحكامهم دون روية وأناة، فيكتفون بالحكم على الظواهر، كما تعجل قوم مريم حين رأوها تحمل وليدها بين يديها.

والتسرع في إطلاق الأحكام، وعدم التثبت يجرُّ المجتمع إلى هاوية سحيقة، ولذا كان التثبت غاية ومطلبًا.



(جـ) المرأة في مواجهة المجتمع

١- أنموذج المرأة النفّاعة في مجتمعها:

(أم موسى وأخته وامرأة فرعون) :

ومن النماذج الخيرة التي أسهمت في بناء الأجيال ونهضة الأمم، والرقي بالحضارات وإخراج جيل مؤمن يحكم بالعدل ويقيم شرع الله نساء كثيرات وعلى رأسهن أمهات الأنبياء والصالحين المؤمنات، وزوجاتهم الفضليات.

فها هي ذي أم موسى ﷺ تقف لتتحدى البغي والطغيان ممثلًا في شخص فرعون وقومه، فتلقي بابنها في اليم مستجيبة لأمر الله ومثبتة بصنيعها أن الإيمان بالله والتوكل عليه واليقين بنصره قوة لا تقهرها قوة على وجه الأرض.

وتقوم الأم بإرسال ابنتها لقصّ أثر أخيها، فتستجيب البنت، وتنجح في مهمتها فتسهم في عودة الصغير إلى أمه.

وتنضم امرأة فرعون إليهما بطريق غير مباشر حين يتعلق قلبها بالرضيع وتستوهبه من فرعون فيدعه لها، ويتربى بعد ذلك في قصر فرعون معززًا مكرمًا، ليكون هلاك فرعون، وارتفاع شأن بني إسرائيل بعد ذلك على يديه.

وبهذا الصنيع أسهم أولئك النسوة في الحفاظ على حياة طفل مبشر بالاصطفاء والتمكين، والنصر على عدوه، ومن ثم فقد أسهمن في نهوض بني إسرائيل وتمكينهم، والقضاء على عدو الله وعدوهم.

ولقد كانت السرية تظلُّ عمل أم موسى وأخته وتصرفاتهما، وظلت

السرية مرحلة أساسية في تاريخ الدعوات وتمكينها، فأم موسى تكتم ما فعلته بتابوت موسى لما ربط الله على قلبها، ويتهادى النيل بالتابوت حتى يلقي به في السّاحل، وتنقطع بذلك كل الخيوط التي قد يتوصل بها آل فرعون إلى معرفة المكان الذي جاء منه موسى وحقيقته.

وتقوم الأخت بعملية البحث السري عن أخيها، وتتوخى الحيطة والحذر. . . حتى إذا رأت اللحظة المناسبة للكلام مع آل فرعون كلمتهم في شأن المرضعة، فأجابوها، وأعيد الطفل إلى أمه محفوفًا بالحماية والأمان، « بعد عملية دقيقة قوية ثبتت دقتها وتأكدت قوتها من خلال قول الله : ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾، فقد بلغ الأمر أن يسلم موسى إلى آل فرعون ليتحقق له النجاة منهم »[١].

وإذا كانت سرية أم موسى وأخته في العمل والتخطيط قد أسهمت في حماية موسى من كيد فرعون، فإن امرأة أخرى أسهمت باتباعها لمبدأ السرية في حماية واقع الدعوة؛ فامرأة فرعون لما آمنت بدعوة موسى عليه السلام وصدقت برسالته، حرصت على إخفاء إيمانها وكتمانه عن فرعون برغم أنه زوجها وأقرب الناس إليها، وانضمت بذلك إلى فئة مؤمنة أخرى كانت تكتم إيمانها عن فرعون وقومه، منهم الرجل المؤمن الذي قال الله - تعالى - فيه : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾[٢]، ومنهم ماشطة ابنة فرعون.

وبرغم أن فرعون قتلهم جميعًا بعد أن اكتشف إيمانهم، لكن بقاء امرأته ومن معها على الإيمان دون علمه، يدل على دقة وقوة التنظيم السري

---

(١) رفاعي سرور: أصحاب الأخدود، ص ٢٧.

(٢) سورة غافر، جزء من الآية: [٢٨] .

الدعوي الذي كان في عهد موسى عليه السلام مما أسهم في حماية واقع دعوته، وكانت المرأة عاملًا أساسًا في نجاحه »[١].

وإذا كان للمرأة كل هذا التأثير في الأمم والحضارات كان من الحكمة إبراز دور الصالحات النفعيّات، وتبجيل أعمالهن وأقوالهن الخيّرة، وأخلاقهن الحميدة، ليكن قدوة لغيرهن في المجتمع[٢]. وحثًا على سلوك طريقهن.

والقرآن الكريم يهدف في تبجيله لهؤلاء النسوة، وثنائه عليهن، إلى أن يكنّ قدوات حسنة ونماذج صالحة لعباده المؤمنين.

٢- أنموذج المرأة العاملة:

(ابنتا شيخ مدين):

وهما المرأتان اللتان التقاهما موسى عليه السلام عند ماء مدين بعد خروجه من مصر، وتمثل كلتاهما الأنموذج الفاضل للمرأة الملتزمة بضوابط الخروج حين تضطرها الحاجة للعمل خارج المنزل.

وحين ننظر في نوع عملهما، وسبب خروجهما، وما التزمتاه من ضوابط أثناء مدة العمل، نجد أنهما كانتا تقومان برعي الماشية، فتذهبان بها إلى المرعى، ثم إلى المسقى، ثم تعودان بها بعد ذلك بعد مضي وقت طويل من النهار، وبعد جهد ومكابدة. ومثل هذا العمل يحتاج إلى رجل قوي شديد، وهما امرأتان ضعيفتان ! .

ولو لم تكن العفة والحياء سببًا في منعهما من مزاحمة الرجال، لكان ضعفهما كافيًا للابتعاد عنهم وترك مخاشنتهم.

(١) ينظر: رفاعي سرور: أصحاب الأخدود، ص ٢٥ - ٢٧.
(٢) ينظر: مشرح: الآفاق الفنية في القصة القرآنية، ص ٩٤.

ولقد وجدت الفتاتان نفسيهما مضطرتين للعمل، فليس لهما من الرجال سوى والدهما، وهو شيخ كبير ضعيف لا قوة فيه ولا جلد ! وربما عزَّ عليه العثور على ثقة أمين يستأجره.

ولبالغ عفة هاتين الفتاتين وحيائهما فقد التزمتا بآداب الخروج للعمل وضوابطه، ومن ذلك، بعدهما عن مزاحمة الرجال، وترك مخالطتهم والاحتكاك بهم، بدليل انتظارهما الطويل عند الماء لحين انتهاء الرعاة من السقي ورجوعهم.

ومنه، الاقتصار على المهم من الكلام عند مخاطبة الرجال الأجانب، وترك الاسترسال معهم لغير ضرورة، والبعد من التميع والخضوع بالقول، بدليل ردهما الوجيز على موسى عليه السلام حين سألهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾، وبدليل اقتصار من أرسلها أبوها منهما لاستدعاء موسى على نقل كلام أبيها بحرفه.

ومن أدبهما، التزامهما الوقار في المشية ذهابًا وإيابًا، كما تفعل المرأة الحرة العفيفة حين تكتفي بالنظر إلى طريقها دون أن تكثر التلفت وتقليب البصر فيمن حولها. ولقد وصف القرآن مشية إحداهن فقال - تعالى -: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾[1] فكان استحياؤها في حالتي المشي والمجيء معًا لا عند المجيء فقط[2].

وكم سُرِّي عنهما عندما ساعدهما موسى عليه السلام ووجدا فيه الشخصية التي يصح استئجار صاحبها، الأمر الذي جعل إحداهما تسارع بعرض استئجاره على والدها وتثني على قوته وأمانته، فتقول: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[3].

---

(١) سورة القصص، جزء من الآية: [٢٥].

(٢) ينظر: أبو السعود: إرشاد العقل السليم، ج ٧، ص ٩.

(٣) سورة القصص، جزء من الآية: [٢٦].

ونلمح من عرضها هذا كراهيتها الخروج، ورغبتها البقاء في البيت، وما دام هناك من سيقوم بالعمل من الأكفاء فلا ضرورة تستدعي خروجهما.

ونفهم من ذلك قضية اجتماعية مهمة تتصل بخروج المرأة إلى العمل، وهي أن الأصل في المرأة هو البقاء والقرار في البيت ورعاية شؤونه، وتربية أولادها، والأصل في الرجل أن يخرج للكسب لأسرته.

ولكن ! قد يحدث في الأسرة أو في المجتمع ما يستدعى خروج المرأة إلى العمل، ومن ذلك على سبيل المثال: أن يكون وليها عاجزًا أو متوفى، أو يكون في المجتمع أعمال لا يستطيع أن يديرها غير النساء؛ سدًّا للذريعة، وبعدًا عن استخدام الرجال في أماكن لا يصلح لها إلا النساء كالمستشفيات النسائية، ومدارس البنات، وجامعاتهن... فلا بأس على المرأة أن تخرج حينئذ لحاجتها الضرورية، ولأداء العمل النافع المباح، شريطة إذن وليها، وشريطة تحجبها واحتشامها، وبعدها عن نظر الرجال الأجانب ومخالطتهم، وشريطة ألا يخلّ خروجها بمهامها الأساسية من رعاية شؤون البيت والزوج والأولاد، وألاّ يؤدي بها الخروج إلى التقصير في الحقوق الواجبة عليها، فإن كان هناك تقصير وتفريط، وفتنة وتبرج، فلتتق المرأة ربها ولتلزم بيتها فإنَّ الله - عَجَّلَ - أمرها بالقرار فقال: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[1].

ولقد رأينا من ابنتي شيخ مدين أنهما لم يخرجا إلا للضرورة، وبإذن وليهما، ولأداء عمل مباح نافع، وأنهما التزمتا الحشمة والحياء والأدب، وتحاشتا الاقتراب من الرجال الأجانب، ونفرتا من مزاحمتهم ومخالطتهم.

بيد أن هاتين المرأتين لم يجدا حرجًا في تقبل مساعدة موسى عليه السلام لهما

(١) سورة الأحزاب، جزء من الآية [٣٣] .

على أداء ما شق عليهما من عمل، ذلك أن موسى عليه السلام حين رأى ما هما فيه من جهد وكرب ومكابدة ذود الماشية عن المسقى، رحمهما وسقى لهما، فهما ضعيفتان وهو رجل محسن كريم،« والرحمة والإحسان على الخلق. . . من أخلاق الأنبياء »[١].

وهكذا، فالمجتمع المسلم ينبغي أن يكون بين أبنائه تراحم وتعاطف ومساندة ومساعدة، خاصة مع الضعفاء، وهذه هي المهمة الإيمانية التي قام بها موسى[٢].

ولقد ساعد موسى عليه السلام المرأتين بكل حشمة وأدب، ولم يطلب منهما أجرًا رغم حاجته وغربته ! وعادت المرأتان وفي إحساسهما تقدير لنبل نفسه، وإعظام لشهامته ومروءته.

وكان فعله هذا مباينًا لفعل الرعاة الذين كانوا يتزاحمون حول الماء بأنعامهم، ولم يفكر أحد منهم أن يفسح للمرأتين أو يعينهما ! .

وإن المجتمع الذي لا يعين المرأة عندما تحتاج، ولا يساعدها إذا اضطرت للخروج لمجتمع ظالم آثم، ولا خير في مجتمع لا يُساعد فيه الضعيف، ولا يُغاث فيه المحتاج.

وفي بيت شيخ مدين، الكنف الأمين الذي تربت فيه الفتاتان، نلمح أسلوبًا راقيًا في تعامل الأبناء مع الآباء، والآباء مع الأبناء، وهو ما ينبغي أن يكون في كل أسرة في المجتمع ليسود التراحم والتآلف.

ففي بيته نلمح رفرفة الرفق والحب، والاحترام المتبادل، ومراعاة

---

(١) الشيخ عبد الرحمن السعدي: تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، ص ١٣٢.

(٢) ينظر: الشعراوي: المرأة في القرآن، ص ١٢٢ - ١٢٣، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، مكتبة الشعراوي الإسلامية.

المشاعر، وحرص كل فرد على مصلحة الآخر.

ومن مظاهر هذا التراحم - كما سبق ذكره في البعد النفسي -[(١)]: خروج المرأتين للعمل على الرغم من شدة حيائهما؛ رحمة بوالدهما لكبر سنه وعجزه، واحترامهما له وإجلاله، والسمع له على كل حال. واحترامه - هو أيضًا - لرأي بنتيه، وحرصه على مصلحتهما، وترك تفضيل إحداهما على الأخرى.

وفي هذا البيت درجت الفتاتان، ومنه خرجتا، فلله درُّهما ودرُّ والدهما.

ونلمح في قول الفتاة الحكيم: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾، نلمح ما يشير إلى أن الإجارة كانت عندهم مشروعة معلومة، وأنها من الضرورات لحصول المصلحة فيها بين الناس.

كما يشير قولها هذا إلى مبدأ اجتماعي مهم، ألا وهو ضرورة اتصاف العامل بصفتي القوة والأمانة لأنه بهما يكون تمام الأعمال كلها وزيادة إنتاجية العمل، وبنقصهما أو بنقص أحدهما يكون الخلل والضعف.

كما نتبين من قول شيخ مدين لموسى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾[(٢)]، نتبين أبعادًا اجتماعية في الزواج، منها عرض الولي ابنته على الرجل الصالح الكفء ليتزوجها، وهذا من الأمور الحسنة المستحبة، وقد عرض شيخ مدين ابنته على موسى عليه السلام.

ومنها، أن النكاح إلى الولي ولا حظ للمرأة في تزويج نفسها، فإنّ الشيخ تولى عرض ابنته على موسى وتزويجها بنفسه.

---

(١) ينظر: ص ١٧٣ - ١٧٩ من البحث.

(٢) سورة القصص، جزء من الآية: [٢٧].

ومنها، أن للمرأة حقًّا في اختيار شريك حياتها، وكذلك الرجل، فإن شيخ مدين ما عرض على موسى التزوج من إحدى ابنتيه إلا بعد أن شعر بإعجابهما بشخصيته وتقديرهما لكفاءته، فتولى عرضهما تاركًا لموسى حرية الاختيار.

ومن ذلك، اعتبار الكفاءة في النكاح، مع التركيز على أن التقوى أهم ما ينظر فيه ويؤبه له، فإن مما أطمع الشيخ في نسب موسى هو ما رآه من حسن خلقه، وما سمعه من قصصه فرغب فيه، غاضًا طرفه عن أن موسى جاء إلى مدين غريبًا، طريدًا شريدًا، لا مال معه ولا متاع ! وما كان موسى أن يقبل عرض الشيخ لولا ما رأى من حسن تربية الفتاتين، وحيائهما ما رغبه في نكاح إحداهما.

٣- أنموذج المرأة المتحملة للضغط الاجتماعي:

(عائشة بنت أبي بكر):

أم المؤمنين ﵂، التي تبوأت المكانة العليا في المجتمع المسلم بعد زواجها من رسول الله ﷺ، فارتفع قدرها، واشرأبت لعلمها وفقهها أعناق مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ.

ولقد كان المجتمع المسلم الذي عاشت فيه الصديقة حديث عهد بجاهلية، وكان الصراع على أشده بين المسلمين والمشركين، ولم تزل فئة من المنافقين تتدسس بين صفوف المسلمين لإثارة الغوغاء والشر، والتنفيس عن حقدها الدفين، حتى وجدت هذه الفئة فرصتها سانحة للطعن في رسول الله ﷺ وأهل بيته في حادثة الإفك.

وكان من تولى كبر الإفك، عبد الله بن أُبيّ ابن سلول، فأشاعه مريدًا بطعنه في عرض عائشة ﵂، الطعن في القيادة النبوية وخدش قداستها عند

الناس، كما أراد الخبيث أن يوقع بين النبي ﷺ وبين أقرب أصدقائه وأحبهم إليه، أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ورجا أن يفلح في تشكيك المسلمين في كرامة نبيهم ﷺ ، أو يقيم بين قومه الخزرج وسائر المسلمين شغبًا يقعون فيه عصبية له وأنفة من هوانه، فينقضُّ أمر الإسلام من أوس وخزرج ومهاجرين وأنصار[1] .

وتلقف هذا الإفك العظيم عصبة من المؤمنين، أخذوا يتحدثون به، ويتناقلونه، مستحلين به عرض الصديقة حبيبة رسولهم ﷺ ! وظنوا أن الطعن في العرض أو تناقل الأخبار، والغيبة أمر هيّن، خاصة وأنهم حديثو عهد بالإسلام، ولازالت في نفوسهم بعض رواسب من أخلاق الجاهلية ! وأغرت بواعث الفضول والوشاية ألسنتهم بالخوض في الإفك، وأكثروا من القيل والقال فيه. تمامًا كما هو دأب كثير من الناس قديمًا وحديثًا من حب الفضول والتطلع إلى الأسرار وتناقل الأخبار خاصة منها ما يتصل بالعظماء والكبار.

وفات هؤلاء الحذر من الفئة المنافقة المتدسسة بين صفوفهم، والرامية إلى الإيقاع بهم.

ولم يشفع للصديقة عندهم مكانتها من رسول الله ﷺ والمؤمنين، كما لم يشفع لها عندهم ما عرف عنها من طهر وشرف ونقاء، فوقعت رضي الله عنها ضحية لما بثه هؤلاء المنافقون ومن شايعهم وتابعهم من إشاعة وسوء ظن مدة شهر كامل ! ! .

ولقد كان الدرس الذي تلقته الجماعة المسلمة التي طعنت في عرض عائشة رضي الله عنها درسًا قاسيًا، لأن الإساءة إلى المسلمين عامَّة محرمة، فكيف إذا كانت هذه الإساءة طعنًا في سلوك شخصية عظيمة لها كرامتها عند الله، ومنزلتها عند رسوله ﷺ والمؤمنين ! ! .

---

(١) ينظر: عباس العقاد: الصديقة بنت الصديق، ص ٧٥.

وكان العذاب الشديد من الله لتلك الجماعة وشيكًا لولا أن تداركهم الله بفضله ورحمته، فما فعلوه يستحق العذاب الأليم، « العذاب الذي يتناسب مع العذاب الذي سببوه للرسول ﷺ وزوجه، وصديقه وصاحبه الذي لا يعلم عنه إلا خيرًا، والعذاب الذي يتناسب مع الشر الذي ذاع في الجماعة المسلمة وشاع؛ ومسّ كل المقدسات التي تقوم عليها حياة الجماعة. والعذاب الذي يناسب خبث الكيد الذي كادته عصبة المنافقين للعقيدة لتقتلعها من جذورها حين تزلزل ثقة المؤمنين بربهم ونبيهم وأنفسهم طوال شهر كامل، حافل بالقلق والقلقلة والحيرة بلا يقين ! ولكن فضل الله تدارك الجماعة الناشئة، ورحمته شملت المخطئين، بعد الدرس الأليم »[1].

فليس للجماعة المسلمة أن تتلقى كلّ خبر، وتندفع وراء كل ساعٍ وواش دون تثبت وتبصر في عواقب الأمور.

كما أن عليها أن تحذر من المنافقين الذين يرمون بشائعاتهم إلى الطعن في الشخصيات القيادية حتى يهتز المجتمع المسلم ويفقد ثقته في قادته ! !

والذي ينتظر منها، أن تتعاضد وتتعاون، وأن تعلم أن التفرق والتمزق والشتات وإساءة الظن، وإشاعة السوء ثغرات ينفذ منها الأعداء إلى الصَّف المسلم، ليمزقه ويشتت أفراده.

كما يلزم كل فرد في الجماعة المسلمة أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فالمؤمنون كنفسٍ واحدة، وفي ذلك يقول - تعالى -: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾[2]، مع أن المظنون به هو السَّيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ! وفي ذلك إشارة إلى أن المؤمنين جميعًا كنفس واحدة، وما يؤذي واحدًا أو واحدة منهم ينبغي أن يكون بمثابة إيذاء الجميع.

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٤، ص ٢٥٠٢.

(٢) سورة النور: جزء من الآية: [١٢].

(د) أنموذج المرأة في مكان الحكم والقيادة

(ملكة سبأ) :

وكانت ملكة عظيمة، ذات دولة وسلطان، وأبهة وملك، ولديها كلّ ما يحتاج إليه الملوك من المتع والأموال والرجال والعدة والعتاد. . .

وفوق ما كانت تملكه من أسباب مادية حسية، فقد كانت تمتلك شخصية قوية فذة، وكانت مسموعة الرأي في قومها، مرهوبة الجانب، بدليل قول مستشاريها لها حين استشارتهم في خطاب سليمان عليه السلام: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾[1] .

ومع كل ما أوتيته الملكة من أسباب مادية، وشخصية إدارية فذّة، لكن حضارتها كانت تفتقد إلى أهم مقوِّم لبقائها واستمرارها، ذلك هو الجانب الروحي، « فقد كانت عبادتها للشمس مما صدها عن حصول العلم النافع، إذ إنها بذلك الاعتقاد الباطل منصرفة عن الرشد الفكري، واستكمال الحضارة الصحيحة؛ لأن أعمال الناس تتكيّف بحسب ما يصدر عن معتقداتهم من أفكار وسلوك »[2] .

ومن المعلوم أن أعظم ما ينبغي أن يتوافر في الدول والحضارات لتستمر وتبقى، جانبان لا يستغني أحدهما عن الآخر، جانب العقيدة الصحيحة، وجانب الإعداد الحسي من قوة وعدد وعتاد.

---

(١) سورة النمل، جزء من الآية: [٣٣] .

(٢) د. التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٢٠، بتصرف من: محمد الطاهر بن عاشور: أصول النظام الاجتماعي والدولي في الإسلام، ص ٩ - ١٠.

ولما كانت حضارة مملكة سبأ تفتقد الجانب الروحي العقدي الصحيح، كانت مؤذنة بالانهيار والسقوط، ولم تستطع الملكة أن تقاوم قوة العقيدة التي يحملها سليمان ﷺ، ولهذا سارعت إلى تقديم صنوف الولاء والطاعة له، ثم أعلنت إسلامها، لتحفظ بذلك مملكتها من انهيار كان وشيكًا.

وكان لملكة سبأ أسلوبٌ فذ أمثل في التعامل مع المستجدات والحوادث التي تطرأ على الدولة، ويتمثل هذا الأسلوب في عدم استبدادها بآرائها التي تخص مصلحة شعبها، فكانت تعمل بمبدأ الشورى؛ فتجمع زعماء قومها ومستشاريها عندما يستدعي الأمر ذلك، فيشيرون عليها بما يرون، ثم تنظر فيما أجمعوا عليه وتحكّمه في عقلها الراجح؛ فإن رأت فيه الصواب فعلته، وإلا تركته بعد أن تقنعهم بعدم صلاحيته، وفعلت ما تراه الأنسب. وهذا هو ما فعلته حين ألقي إليها كتاب سليمان - كما مر بنا في البعد العقدي والنفسي -[١]، وكان ذلك ديدنها في كل مرة، ولهذا قالت: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾[٢].

ومما لا شك فيه أن هذا الأسلوب يعزّز ثقة المحكومين بحاكمهم، ويقوي علاقتهم به، وبالتالي يكون سببًا في توطيد دعائم حكمه وملكه، وفضلًا عن ذلك، فإنَّ رأي الجماعة مقدّم على رأي الفرد - غالبًا -، ولربما أدى استقلال الحاكم برأيه إلى إصدار أحكام يشوبها النقص والإضرار بمصلحة الأمة[٣].

وفي اطلاع الحاكم ملأه على المستجدات وأخذ رأيهم، ما يدل على

---

(١) ينظر: ص٨٢، وص١٦٧ من البحث.

(٢) سورة النمل، جزء من الآية: [٣٢] .

(٣) ينظر: عفيف طبارة: مع الأنبياء في القرآن الكريم، ص ٣٠٠.

أمانته وصراحته مع شعبه، فالمصلحة مشتركة، وليس من الصواب إخفاء ما يتضرر الشعب بإخفائه؛ فعلى الرغم من أن مضمون كتاب سليمان عليه السلام يخالف حياة الملكة وحياة مجتمعها العقديَّة، إلاّ أن الملكة قرأته كاملًا ولم تخفه عنهم[1].

ومن الأبعاد الاجتماعية التي نفيدها من ثبات ملكة سبأ في الموقفين العصيبين اللذين تعرضت لهما، حين تلقت كتاب سليمان عليه السلام، وحين ردّ سليمان عليه السلام هديتها، نفيد أن في ثبات الحاكم في الأزمات ثباتًا لشعبه، وفي اهتزازه وضعفه اهتزازًا لهم وضعفًا، فلو لم تثبت الملكة، ولو لم تعالج الأمور بحكمة وتعقل فتذعن للحق؛ لتحقق فيها وقومها وعيد سليمان عليه السلام، حين قال لرسولها: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[2].

وفي قصة الملكة - أيضًا - ما يشير إلى ضرورة إعداد العدة والقوة، وتدريب الرجال المحاربين على حمل السلاح واستعماله؛ ليكونوا على استعداد دائم للقاء العدو ومواجهته. وقد أجاب ملأ الملكة عليها حين استفتتهم في أمرها بقول: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾.

وإذا كانت الملكة تضرب أنموذجًا فاضلًا في حسن الشورى، فإن ملأها يضربون أنموذجًا فاضلًا في حسن السَّمع والطَّاعة لها؛ وذلك أنها حين استشارتهم، أبدوا كامل استعدادهم للتضحية بكلِّ شيء: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، وهذا يدل على إخلاصهم، ثم أبدوا كامل الطاعة فقالوا: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾، ثم طلبوا منها أن تتفكر وتنظر عند القرار الذي تتخذه من

---

(١) ينظر: د. عبد الحميد الهاشمي: لمحات نفسية في القرآن الكريم، ص ٢٠١.

(٢) سورة النمل، الآية: [٣٧] .

باب نصحهم لها، فقالوا: ﴿فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾[(١)]، أي فكري وتدبري[(٢)].

ومما لا شك فيه أن حسن طاعة المحكومين لولاتهم، واجتماعهم عليهم، ونبذهم الفرقة والشتات من صفوفهم، من أهم وسائل النصر على العدو، ودرء خطره. ولطالما كانت الفرقة واختلاف الآراء ثغرة ينفذ منها الأعداء إلى قلب الدولة.

وفي حوار الملكة مع ملئها، وما نتج عنه، تربية لكل من ولي من أمر الناس شيئًا أن يتقي الله فيمن تحت يده، ولا يخاطر بمصلحة الأمة، ويلتمس الحق والصواب.

كما أن فيه تربية للمحكومين أن يبصِّروا الحاكم بالصواب، ويعينوه عليه، وينصحوا له، ويتبعوا رأيه إن كان صوابًا.

وفي قول ملكة سبأ لملئها: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[(٣)]، ما ينبيء عن طبيعة الأعداء الغالبين، وأنَّ همهم الأكبر عند انتصارهم ودخولهم البلاد هو نشر الفساد فيها، والعبث بعقول الشعب، ونهب خيراتهم وممتلكاتهم، وملاحقة سلطانها وأعوانه وأهل مجلسه وأشراف قومه، وإذلالهم حتى لا يكون لهم بعد ذلك صولة أو جولة، ويسهل على الغالبين قيادة البلاد وتوجيه أمورها وفق مصالحهم[(٤)].

ولملكة سبأ منهج اجتماعي في التعامل مع خصومها وغيرهم، وهذا

---

(١) سورة النمل، الآية: [٣٣].

(٢) ينظر: د. عبد الحليم حفني: أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، ص ١٤٣، ١٤٤.

(٣) سورة النمل، جزء من الآية: [٣٤].

(٤) ينظر: د. محمد السيد الوكيل: نظرات في أحسن القصص، ج ٢، ص ٢٤٠.

المنهج يقضي باحترام شخصية الخصم وتقديره حين يكون أهلًا للتقدير.

كما يقضي بمصانعة الخصم القوي الذي تخافه على ملكها وشعبها، ومما يدل على ذلك: احترامها لشخصية سليمان عليه السلام، وتقديرها لكتابه ووصفه بال « كريم » وعدم تجاهله، أو تمزيقه تعصبًا لدينها.

ومن ذلك أيضًا: حرصها على مصانعة سليمان عليه السلام، واكتساب وده، درءًا لمفسدة هجومه على البلاد.

وكثير من الحكام - اليوم - يلجأون إلى المفاوضات، وعقد الصلح بينهم وبين الدولة الأقوى حين يشعرون بخطرها عليهم.

وفي رد سليمان عليه السلام لهدية ملكة سبأ، وموقفه الحازم منها، درس عظيم للحكام المسلمين في مواجهتم للأعداء، وهو ضرورة مواجهتهم بحزم وثبات، والتعامل مع الخطر بجدية وتجرّد، وعدم السماح لهم بتضييع الوقت بالمفاوضات عن الأمور السياسية المهمة، كما أنَّ عليهم أن يفطنوا لهدف الأعداء الخبيث، ويفوّتوا عليهم تحقيق أغراضهم[1].

ولقد كان حزم سليمان عليه السلام، وجديته في التعامل مع الموقف، ومسارعته في رد هدية الملكة سببًا رئيسًا في خضوعها واستسلامها وقدومها عليه.

وفي هذا ما يثبت ضعف المرأة في موقع القيادة والحكم! فالمرأة - عادة - تميل إلى طريق السِّلم، وتكره الحروب والتدمير، والقيادة تحتاج إلى استخدام القوة والمخاشنة عندما يستدعي الأمر ذلك. ومن الطريف أن هدهد سليمان عليه السلام تعجب من فعل سبأ حين رضوا بأن تحكمهم امرأة،

(١) ينظر: د. صلاح عبد الفتاح الخالدي: مع قصص السابقين في القرآن، جـ ٣، ص ١٩٧، دار القلم، دمشق ط ٢، ت ط ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

واستغرب من كون المرأة حاكمة، فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾[١]، ولم يقل: وجدت ملكة !.

ومما يدلنا على عدم صلاحية المرأة للحكم، ما روي من حديث أبي بكرة ﷺ أن النبي ﷺ لما بلغه أنَّ أهل فارس قد ملّكوا عليهم بنت كسرى قال: « **لن يُفْلَح قوم ولّوا أمرهم امرأةً** »[٢].

وفي قوله الله - تعالى - عن ملكة سبأ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾[٣]، ما يدل على خطورة التقليد الأعمى على الإنسان، حين يقوده إلى التنكُّر للعقل والمنطق[٤].

فالفرد حين يعيش بين أناس قد سيطرت عليهم عاطفة دينية خاصة، فإنه ينساق في تيارهم، ويدين بما يدينون به، ويقلدهم في كلِّ مظهر من مظاهره[٥]، كما فعلت ملكة سبأ حين انساقت في تيار الكفر والضلال وراء قومها.

وفي هذا ما يؤكد أهمية انتقال الإنسان من الأجواء الآسنة إلى الأجواء النظيفة الصالحة.



(١) سورة النمل، جزء من الآية: [٢٣] .

(٢) البخاري: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، حديث رقم: [٤٤٢٥] ، وكتاب الفتن، حديث رقم: [٧٠٩٩] .

(٣) سورة النمل، الآية: [٤٣] .

(٤) ينظر: أبو بكر جابر الجزائري: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مج ٣، ص ٣٥٨، ط١، ت ط ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(٥) ينظر: د. التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤٦٣ - ٤٦٤، بتصرف من: د. مصطفى فهمي: في علم النفس، ص ١٠٨.

(هـ) المرأة الوجيهة

١- أنموذج المرأة الوجيهة المترفة:

(امرأة العزيز) :

وقصتها مع يوسف عليه السلام سبق الحديث عنها في البعد النفسي ، وبقي أن نتعرف على الأبعاد الاجتماعية التي أثرت في تكوين شخصيتها، وفي سلوكها الذي بدر منها، هي ومن في طبقتها.

فهي زوج عزيز مصر، ذي المنصب الرفيع في الدولة، ومن الطبقة الحاكمة المسيطرة، حيث تعيش حياة مترفة في قصر عظيم فسيح، له أبواب كثيرة تغلق بالمفاتيح أو بالمزاليج، بدليل تغليقها الأبواب على يوسف عندما دعته إلى نفسها، ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾[(١)].

وهي مخدومة من الإماء والغلمان، تملك حرية الأمر والنهي، ولها الصولة والجولة، والجاه والمال.

ويتوافر في قصرها العظيم صنوف الطعام والشراب، والفاكهة، ولديها المتكأ والسكاكين وغيرها من رفاهيات المائدة، بدليل مأدبتها التي أعدتها للنسوة حين: ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾[(٢)].

فهي إذن من بيئة متحضرة، ومن طبقة راقية مسيطرة، فماذا كان تأثير هذا المنصب، والثراء والترف على أخلاقها، وأخلاق زوجها، ومن في طبقتها ؟

---

(١) سورة يوسف، جزء من الآية: [٢٣] .

(٢) سورة يوسف، جزء من الآية: [٣١] .

لقد جرَّ الترف على المرأة ومن في طبقتها فراغًا كبيرًا تزامن مع فساد العقيدة، فشاع اللهو والمجون، وكثرت مجالس البطالة التي تنشر فيها أسرار البيوت، ويكثر اللغو. ففراغ المرأة وترفها، وانشغال زوجها العزيز بتدبير أمور الدولة المالية، ووجود يوسف معها في القصر - وهو على ما هو عليه من شباب وجمال وبهاء -، كل ذلك أغراها بمراودة يوسف عن نفسه، فابتدأت بالتلميح، وثنت بالتصريح، وشجعها على معاودة الكرّة، أنها لم تجد من قيّمها حزمًا ولا قوة حين اكتشف أمر فضيحتها، شأن المترفين العاجزين عن صدِّ زوجاتهم.

وأما النسوة اللاتي تحدث عنهن القرآن، فالظاهر أنهن كن من الطبقة الاجتماعية المترفة، بدليل أنهن يسكن المدينة، ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾[1]، ونساء المدن - عادة - أكثر تفرغًا من نساء البادية، وأقل انشغالًا.

وبدليل أن امرأة العزيز دعتهن إلى قصرها، وأعدت لهن وليمة تليق بمكانتهن، ولو لم يكنَّ من ذوات الشأن لما عبأت بهن ولا بما دار بينهن من حديث، ولما اختارت أن تبكتهنَّ وتخرس ألسنتهن عن غيبتها.

وبدليل أنهن كن يجدن وقتًا للغو، والتحدث بأسرار البيوت، ونقل الأخبار، كما حدث منهن حين تفكّهن في عرض امرأة العزيز.

كما أن الطريقة التي تحدثن بها عن امرأة العزيز، وما حدث منهن يوم الوليمة من مراودة يوسف، كل ذلك يعكس فسادهن الخلقي؛ « فهن لا يأخذن على امرأة العزيز خيانتها زوجها، فهذا مقبول عندهن، وإنما يأخذن عليها أنها تخونه مع مملوكها الذي اشتراه لها زوجها. . . حتى إذا رأينه في

---

(١) سورة يوسف، جزء من الآية: [٣٠] .

الحفل الذي دبرّته لهن امرأة العزيز تأسفن على ما بدر منهن وانضممن إليها يعزونها في موقفها ويشجعنها على تهديده بالسجن حتى يستجيب لها »[١]، ثم تحولن إلى مراودات له عن نفسه معها !.

ومن حادثة تسرب خبر امرأة العزيز ويوسف عليه السلام خارج أسوار القصر وانتشاره في المدينة، نفيد قضية اجتماعية خطيرة تتكرر في كل زمان ومكان، تلك هي سرعة تسرب الأخبار بين فئات المجتمع، وبخاصة عندما يكون صاحب الحدث ذا شأن خطير، ومكانة مرموقة.

فالسياق القرآني لم يكشف عن شخصية المرأة، ولا عن شخصية زوجها قبل تسرب خبر المراودة، فلما تسرب خبرها، وتحدثت به النسوة عرفنا من تكون، ومن هو زوجها !.

وهكذا « فالحديث يكبر أو يصغر، وتتسع دائرته أو تضيق، تبعًا لمن تعلّق به الحدث، من حيث وضعه الاجتماعي، ومكانته في المجتمع... فعيون الناس وآذانهم متعلقة بأصحاب السلطان والسيادة فيهم، يتسمعون إلى أخبارهم، ويرقبون أحوالهم، ويشغلون بالحديث عنهم، في كل ما يتصل بهم من صغير أمورهم وكبيرها »[٢].

ولم تخجل امرأة العزيز من التصريح أمام النسوة بمراودتها ليوسف، وبإصرارها على إجباره على الرضوخ لطلبها، ولم ينكرن عليها ذلك؛ تواطؤًا منهن معها على الفساد، ومجاهرة بالباطل.

وفي هذه البيئة المنحلة المليئة بالفجور والاستهتار، والتي أفسد الترف

---

(١) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ٩٤، دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، الرياض، ط ٢، ت ط ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

(٢) الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص ٤٣٧.

أخلاقها، وفي قصر المرأة المجاهرة بباطلها، عاش يوسف عليه السلام زمانًا منذ صباه إلى أن بلغ أشده، متعرضًا لمراودتها، وإغرائها، فكانت هذه هي محنته الحقيقية[١].

ونلحظ في القصة استبداد المرأة ومن في طبقتها، بدليل أنها هددت يوسف عليه السلام وأوعدته بالسجن وبالإذلال والصغار أمام النسوة، على الرغم من افتضاح أمرها وانكشاف خبر مراودتها، وما ذاك إلا ليقينها بأن زوجها ورجال حاشيته سيبرئونها أمام الناس، وسيجرِّمون الفتى. فذلك منطق الأقوياء وأصحاب السلطة والجاه، إلا من هدى الله.

ولقد بدا لنا حرص الطبقة الحاكمة على تحسين سمعتها أمام الناس، وترقيع أخطاء ذويها - ولو على حساب الأبرياء والمستضعفين - من أنهم قادوا يوسف إلى السِّجن بعد أن ظهرت لهم آيات براءته؛ ليغطُّوا فضيحة بيت العزيز، ويسدلوا عليها الستار: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾[٢].

فسجنه جاء مؤكدًا بصيغة التوكيد، وهو يوحي بالزجّ به في السجن في غير رحمة، وفي إهمال لشأنه، ويزيد ذلك وضوحًا قوله - تعالى -: ﴿حَتَّىٰ حِينٖ﴾، فلم يحددوا عدد سنوات سجنه، الأمر الذي يؤكد لنا أن تصرفهم هذا لم يكن قائمًا على منطق يحترم[٣].

وهذا الذي فعلوه كثيرًا ما يتكرر في عصور الظلام السياسي والاجتماعي؛ فقد يرتكب خطأ ضد مواطن، وتقدم الأدلة على براءته،

---

(١) ينظر: محمد شديد: منهج القصة في القرآن، ص ٥٦ وما بعدها.

(٢) سورة يوسف، الآية: [٣٥] .

(٣) ينظر: أحمد البقري، يوسف في القرآن، ص ٣٣.

ولكن الحاكم المستبد الذي لا يريد أن ينسب إلى حكمه أو تصرفه أدنى شطط أو خطأ، يعاقب البريء؛ لأنه بشكواه إنما أزاح الستار عن أسلوب فاسد في الحكم أو في الإدارة[١].

بيد أن من العدالة أن نشير - قبل أن نسدل الستار على البعد الاجتماعي لامرأة العزيز ومن في طبقتها - إلى أن هذه البيئة المترفة المنحلّة، التي كانت امرأة العزيز أبرز نماذجها، هذه البيئة لم تخلُ من أصوات عادلة، ومن شخصيات حازمة، بدليل وجود الشاهد الحكيم الذي جعل من قد قميص يوسف عليه السلام مِن دُبُر أمارة على صدقه وبراءته، وبدليل وجود ملك مصر الذي كان حازمًا مع النسوة حين سألهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾[٢]، وكان حريصًا على اصطفاء الأكفاء واختيارهم قادة لمملكته؛ كما استخلص يوسف لنفسه، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾[٣].

٢-أنموذج المرأة التي استغلت جاهها في إثارة العداوة على الإسلام: (امرأة أبي لهب):

وهي امرأة وجيهة نسيبة حسيبة، ذات شرف وسؤدد، نال والدها وأخوها وزوجها الشرف والسيادة.

فوالدها حرب بن أمية، سيد من سادات قريش، وأخوها أبو سفيان بن حرب سيد من سادات العرب المشهورين، وزوجها عبد العزى بن عبد المطلب، من وجهاء قريش، وشرفائهم، وأثريائهم، وساداتهم.

ولكن هذه المرأة استغلت وجاهتها وشرفها في السعي في تأجيج نيران

(١) ينظر: د. راشد البراوي: القصص القرآني (تفسير اجتماعي)، ص ١٠٤.

(٢) سورة يوسف، جزء من الآية: [٥١] .

(٣) سورة يوسف، جزء من الآية: [٥٤] .

العداوة على النبي ﷺ وأصحابه، فكانت تسعى في النميمة للتنفير منهم.

ومما لاشك فيه أن النميمة آفة اجتماعية خطيرة، تؤدي إلى الإفساد والقطيعة وإثارة الخلافات بين أفراد المجتمع، وتغيير قلوب بعضهم على بعض، والتفرقة بينهم، وهذا ما كانت تسعى إليه أم جميل، وفي ظنها أنها ستتمكن من زعزعة مكانة رسول الله ﷺ من قلوب الناس، وتغييرهم عليه.

وكان إحساسها بعلو حسبها ونسبها دافعًا لها للتكبر على دعوة رسول الله ﷺ والنفاسة عليه أمر اختصاصه بالنبوة، وارتفاع شأنه، الأمر الذي قادها إلى الكفر والجحود والطغيان، وكانت وجاهتها الاجتماعية عاملًا في فسادها وسفاهتها.

وهكذا تفعل الوجاهة، وعلو المنصب، والشرف في نفوس كثير من الناس، إذ تقودهم إلى التكبر والتعالي والغطرسة حين لا يضبطون أنفسهم وتصرفاتهم وفق منهج الله، فيتعالون، ويظلمون أنفسهم وغيرهم. فيجحدون بذلك نعمة الله عليهم.

وما فتئت امرأة أبي لهب توغر قلب زوجها - فوق ما فيه من غل - على رسول الله ﷺ وصحابته، فتؤزه على الشر. فكان كل منهما مشجعًا للآخر على أفعاله الخسيسة، وأقواله البذيئة.

ومما لاشك فيه أن التعاون على الفساد عامل في نشر السوء بين الناس، وإيقاد جذوة الشر.

ولو أن امرأة أبي لهب استغلت وجاهتها وشرفها في المدافعة عن رسول الله ﷺ والمنافحة عن دعوته، ولو أنها بذلت مالها في سبيل خدمة الدعوة، لسعدت في الدنيا والآخرة. ولكنها كانت ممن كتب عليهم الشقاء فشقيت وخابت وخسرت، وخلدت في نار جهنم مع زوجها، ولم تغن عنها وجاهتها

الاجتماعية، وسؤددها، وشرفها، وكل دنياها، من عذاب الله.

فيا ليت أصحاب الوجاهة والسؤدد يستغلون نفوذهم ووجاهتهم في دعم دعاة الخير، ونشر الدعوة الإسلامية، وقضاء حوائج الناس، والتأليف بين متخاصميهم، وتفريج كربهم... حتى يسعدوا وتسعد المجتمعات من ورائهم وتصلح.

٣- أنموذج المرأة المعتدة بحسبها وشرفها:

(زينب بنت جحش):

وكانت امرأة نسيبة، معتدة بنسبها القرشي الهاشمي، وبقرابتها من رسول الله ﷺ ولم يكن يدور في خلدها إلا أن تتزوج من رجل يكافئها حسبًا ونسبًا، ومن طبقتها الاجتماعية نفسها.

وهذا الأمر هو ما جعلها تستنكف من التزوج بزيد بن حارثة رضي الله عنه بعد أن خطبها رسول الله ﷺ له، فكيف يكون ذلك وهي من تشرئب إليها أعناق خيرة شباب قريش!!.

وقد تقدم أن زينب لم توافق على الزواج من زيد إلا بعد أن نزل قوله - تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[١].

كما تقدم أن زواجها منه لم يكن ليطامن ما في نفسها من اعتداد بالحسب والنسب، بدليل أنها كانت تؤذيه بلسانها، وتترفع عليه بشرفها، حتى كره البقاء معها، وطلقها.

وشخصيتها هذه تعكس ما كان عليه المجتمع العربي من تعصب قبلي،

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: [٣٦].

فالمجتمع في عصر صدر الإسلام كان قريبًا من المجتمع الجاهلي الذي كانت تحكمه العصبية القبلية، والتفاخر بالأحساب والأنساب، ولم يكن شرفاؤهم يتزوجون إلا بمن يكافئهم نسبًا وصهرًا.

ولقد جاء الإسلام ليحطم نزعة العصبية القبلية البغيضة، وكان من وسائل تحقيق ذلك، أن يرى الناس عمليًا من يطبق هذا الأمر، وحدث ما أراده رسول الله ﷺ حين تزوجت زينب بزيد.

ولما كانت كراهية زينب البقاء مع زيد، سببًا في تفكير زيد في طلاقها، كان رسول الله ﷺ يوصي زيدًا أن يصبر عليها، وألا يطلقها، وكان هذا منه ﷺ سعيًا في الإصلاح بينهما، برغم علمه أن زينب ستبين من زيد.

ومما لاشك فيه أن لبقاء الخلاف بين الزوجين تأثيرًا على الاستقرار الأسري، وفي الطلاق تفكيك للأسرة التي هي لبنة من لبنات المجتمع.

والإسلام يأمر بالسعي إلى الإصلاح بين الزوجين عند اختلافهما، وذلك حتى لا يكون خلافهما مدخلًا ينفذ منه الشيطان إلى التفرقة بينهما، ومن ثم تصدع بنيان أسرتهما، الأمر الذي يؤدي فيما بعد إلى تصدع بنيان المجتمع، وإضعاف تماسكه.

وإذا كان من الصعب تغيير عادات الناس التي اعتادوها وألفوها، كان لزامًا على الدعاة والمصلحين أن يبدأوا بأنفسهم، وأن يكونوا للناس قدوات في فعل ما يأمرونهم به، والانتهاء عما ينهونهم عنه، لأن التطبيق العملي أقوى نفعًا، وأجدى أثرًا. وهذا ما فعله رسول الله ﷺ حيث تزوج زينب بنت جحش بأمر من الله - ﷻ - بعد أن انقضت عدتها من زيد، ولم يبق له فيها حاجة.

وفي قوله - تعالى - بشأن تزويج رسوله ﷺ بزينب : ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾[1] . ما يدلنا صراحة على ثبوت الولي في النكاح ، فليس لامرأة أن تزوج نفسها بدون ولي ، ووليها الصالح أعرف بمصلحتها ، وأقدر على معرفة الرجال وخبرهم . وفي هذا الأمر رد على تلك الموجة الداعية إلى ترك البنت تختار دون مشورة أحد ، كما في الموجة العالمية من واقع المؤتمرات الموجهة إلى المسلمين والتي يردد قراءتها المنافقون .



(١) سورة الأحزاب ، جزء من الآية : [٣٧] .

الفصل الثاني

دور الشخصية النسوية في القصص القرآني

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: شخصية المرأة والحدث القصصي.

المبحث الثاني: شخصية المرأة والبيئة.

المبحث الثالث: الدور الوظيفي وتفاوته بين الشخصية الرئيسة والشخصية الثانوية.

المبحث الأول

شخصية المرأة والحدث القصصي

إن التفرقة بين الشخصية والحدث في القصة الأدبية من الصعوبة بمكان؛ وذلك أنه ما من حدث يقع إلا كان وقوعه نتيجة شخص أو أشخاص معينين، فالحدث هو الفعل، والشخصية هي الفاعل.

وتعرفنا على الشخص أو الأشخاص الذين فعلوا الحدث يعيننا على معرفة الدافع أو الدوافع التي أدتْ إلى وقوع الحدث بالكيفية التي وقع بها[١].

ومن الملاحظ أن الشخصية في القصة إما أن تغلب على الحدث، فتكون محور الحركة في القصة، فتحرك الأحداث، وتدور الأحداث حولها، وكل ما يحدث في القصة من أحداث لا بد من أن يمسها من قريب أو من بعيد ويلقي أضواءً كاشفة عليها. وإما أن يغلب عليها الحدث، فتكون الأحداث هي المركز الذي تدور في دائرته الشخصيات فتحركها، ولا يُهتم بالشخصيات في ذاتها، وإنما يهتم بما سيحدث لها في القصة. وإما أن تتساوق الشخصية والحدث ويتوازنا فلا يطغى أحدهما على الآخر، فصفات الشخصيات تؤثر في سير العمل القصصي، كما أن الحوادث تساعد على تطور الشخصيات وترك آثارها عليها.

والقصص القرآني يمزج بين الشخصية والحدث، فيلتقيان، ويتخلق من

---

(١) ينظر: د/ رشاد رشدي، فن القصة القصيرة، ص ٢٩، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ت ط ١٩٦٤م.

اجتماعهما مضمون، هو الذي يصبح بطل الموقف، فالشخصية تجلو الأبعاد الحقيقية للحدث، بينما يجلو الحدث الأعماق الداخلية للشخصية، ويحدد سلوكها الخارجي أمام القارىء، فكل من العنصرين يكمل أحدهما الآخر.

ففي قصة أم موسى عليه السلام في سورة القصص نجد أن الحدث والشخصية متساويان في الأهمية فكل منهما يكمل الآخر ويتناوب على مركز الاهتمام(١).

وفي قصة سليمان عليه السلام وملكة سبأ، نستطيع أن نرى الأحداث وأبعادها، كما نرى الأشخاص يعرضون بالقدر الذي يلائم الغاية من القصة(٢).

وفي قصة مريم نجد أن الحدث المعجزة وهو الولادة من غير بعل يتلاءم مع شخصيتها الممتازة على النساء بالنذر، والاصطفاء، والرزق في المحراب دون سعي.

على أن الشخصية في القصص القرآني قد تبرز أكثر من الحادثة، وقد يحدث العكس، وذلك راجع إلى المقام وإلى الهدف المتوخّى من القصة، فإن كان للشخصية دور في تحريك الأحداث والتأثير في القصة فإن القرآن يسلط عليها الأضواء ويبرزها، كما في قصة مريم الصِّديقة. وإلا تصدَّرت الأحداث وبرزت وسلطت عليها الأضواء؛ ليكون التركيز كله في إدراك مغزى القصة والتأثر بإيحاءات حدثها، كما في بقية قصص النساء في القرآن سوى مريم. الأمر الذي يدلنا على أن اهتمام القرآن بالحدث أوضح من اهتمامه بالشخصية، فالشخصية في القرآن تكون العناية بما سيحدث لها،

---

(١) ينظر: د / التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٩٦.

(٢) ينظر: د/ إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن، ص ١٣٠.

وبمواقفها وأفعالها، فهي إذن ليست مقصودة لذاتها، وإنما يعرضها القرآن لتكون شاهدًا من شواهد الإنسانية في مختلف حالاتها، من قوة وضعف، ومن خير وشر، ومن إيمان وكفر، ومن حكمة وسفاهة. . . تقدمه القصة من الواقع الصادق ليفيد منه الإنسان، فيرى كيف يتحمل المسؤولية، وينهض بالتكاليف.

ومن ثمّ فالأحداث التي تقدمها القصة ليست إلا مخبارًا يختبر به النموذج الإنساني الذي تقدمه القصة، ويكشف عن انفعالاته، ودخائله، وأفكاره[١].

والأحداث في قصص النساء تسير متتابعة مرتبة - كما هي عليه في بقية القصص القرآني - ضمن سياق فني متماسك، يعتمد اللاحق منها على السابق، وتخضع لصراع ما، وتعمل على تشويق القارىء وشده إليها، وتؤدي الشخصية النسوية دورها في تطوير الأحداث للوصول بها إلى لحظة التنوير[٢].

وإذا كان الصراع في القصص القرآني يدور غالبًا ما بين الصّراع الذاتي النفسي، والصراع الفكري الذي يرتب للصراع المادي غالبًا ويقود إليه، والصراع المادي الذي يقدم فيه كل طرف ما لديه من قوة لينصر فكرته[٣]. إذ كان ذلك كذلك فإننا نجد ألوانًا من هذا الصِّراع في قصص النساء في القرآن، كما سيتضح في هذا المبحث.

---

(١) ينظر: عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص ٤٠ - ٤١.

(٢) ينظر: د/ عبد القادر أبو شريفة: مدخل إلى تحليل النص الأدبي، ص ١٢٨، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان، الأردن، ط ٣، ت ط ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(٣) ينظر: عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه. ص ٢٠٩، وما بعدها، وينظر: طول محمد: البنية السردية ص ٩٠ وما بعدها.

على أن هذا الصراع الموجود في حقيقته صراع بين الإيمان والكفر، أو بين الحق والباطل، أو بين الخير والشر، أو بين قوة الإنسان وضعفه، أو بين الفضيلة والرذيلة.

وغالبًا ما يكون الصراع منسجمًا مع المغزى العام للقصة وهو الهداية والدعوة إلى الإيمان.

وتمثل الشخصية الدور الأول في هذا الصراع الذي من خلاله تتكشف لنا طبيعة النفس البشرية وما لديها من طباع ونزعات، ورغبات وآمال، كما يتمثل لنا ما في الأحداث من عظات وعبر.

ويتضح أثر هذا الصِّراع في أنه يربط بين الأحداث من جهة، والشخصية من جهة أخرى، والحوار من جهة ثالثة، من جميع جهاتها، ويستولي عليها ثم يمضي بها إلى غايتها المرسومة[١]، فهو إذن يدفع الأحداث وينميها.

والنهاية التي يؤول إليها الصراع في القصص القرآني دائمًا هي انتصار الخير على الشر. ويتخذ الصراع في القصص القرآني الشكل المتدرج معتمدًا على أفكار سابقة عن الشخصيات بأبعادها المختلفة العقدية والنفسية والاجتماعية ومقدماتها المنطقية[٢].

وإذا كان الصِّراع يؤدي إلى دفع الأحداث وتنميتها، فإن التشويق - كذلك - يؤدي إلى تطوير الأحداث بل ويضفي حيوية على العمل القصصي ويجعل المتلقي متلهفًا كلما تسلسلت الحوادث، ومترقبًا لما سيحصل في المستقبل.

كما يبرز دور المشكلة في القصص القرآني في توجيه الأحداث، ودفعها نحو التطور والاستمرار في خلق مواقف جديدة.

---

(١) ينظر: د/ بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن الكريم، ص ٢٣٢.

(٢) ينظر: طول محمد: البنية السردية، ص ١١٥.

وأما المفاجأة فإنها تظهر في القصة في الوقت المناسب، وتنسجم مع ظروف القصة، وتسهم في النهاية في تحريك القصة إلى حل عقدتها الرئيسة[١]. وسيرى القارىء أثناء عرض البحث لنماذج من قصص النِّساء كيف أنَّ هذه العناصر تبرز في كثير من هذه القصص ضمن سياق فني متماسك، وكيف تؤدي الشخصية إلى تطوير الأحداث وتصعيدها.

ففي قصة الزوجين آدم وحواء، نجد أن حسد إبليس لهما يقوده إلى التخطيط لطردهما من الجنَّة، وكانت الوسيلة التي اتخذها لأجل ذلك هي الوسوسة لهما بالاقتراب من الشجرة التي نهيا عن الاقتراب منها، ومحاولة إغرائهما بذلك.

وحين كان إبليس يتدرج في محاولاته وإغرائه، كان يدور في نفس كلا الزوجين صراع بين الإقدام على المعصية، والإحجام عنها.

حتى إذا وصل إلى أعلى درجات الإغراء وهي المقاسمة على نصحه لهما؛ أقدما على الفعل، فأكلا من الشجرة.

ولكن المفاجأة المثيرة التي حدثت لهما مباشرة وهي بدو السوءة، جعلتهما يذهلان لهولها، ولا يجدان أفضل من اللجوء إلى ورق الجنة لستر عورتيهما: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾[٢]، وتصرفهما هذا ناتج عن مشكلة بدو السوءة التي سببها العصيان.

وبعد أن يدرك الزوجان فداحة الذنب، ويسمعا عتاب الرب، يسارعان إلى إعلان التوبة، وطلب المغفرة منه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -؛ فيغفر لهما، ولكنه يهبطهما إلى الأرض مع إبليس، ويحذرهما من اتباعه؛ لأن صراعهما وذريتهما معه

---

(١) ينظر: د/ إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٣٦.
(٢) سورة الأعراف، جزء من الآية: [٢٢].

باقٍ إلى قيام الساعة، فهو صراع بين الخير والشر، وبين الحق والباطل.

وبذلك تختم القصة بانتصار آدم وحواء بقبول الله توبتهما، ووعده لهما بالعودة إلى الجنة إن اتبعا هداه، كما تختم بخيبة إبليس واندحاره.

وفي قصة امرأة نوح وامرأة لوط، نجد أن كل واحدة منهما كانت طرفًا فاعلًا في الشر والكفر مع قومها ضد الخير والإيمان الذي يحمله زوجها !.

كما أسهمت كل منهما في الإفساد وإيذاء الزوج... حتى إذا ما اشتد الصراع بين الإيمان والكفر، أذن الله - عز وجل - بإهلاك قوم نوح وقوم لوط، فهلكت كل امرأة مع قومها، وآل أمراهما إلى الخسارة والبوار، وآل أمر الإيمان والحق إلى الانتصار على الكفر والباطل.

وإذا ما أتينا إلى قصة سارة زوج إبراهيم عليه السلام وجدنا أن الحدث المفاجىء لها، وهو البشارة بغلام، يشوّقنا إلى معرفة موقفها منه، وتصرفها إزاءه، فنجد أنها تكشف عن ذهولها منه بصك وجهها، وإظهار شدة تعجبها، كما جاء في سورة الذاريات في قوله - تعالى-: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾[1]، وفي سورة هود في قوله - تعالى -: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾[2].

وتصرفها هذا يتناسب مع غرابة المفاجأة، إذ إنها تخالف الأسباب التي اعتاد عليها البشر.

هذا ومن الملاحظ، تعدد مظاهر العجب عند سارة في سورة هود، والمتمثلة في قولها: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ وقولها: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ مع ذكر المسند

---

(١) الآية: [٢٩].

(٢) الآية: [٧٢].

إليه، وقولها: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ ثم التصريح بالعجب بعد ذلك: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾.

وأما في سورة الذاريات فمظاهر العجب عندها أقل، حيث تمثلت في: ﴿صَرَّةٍ﴾ وفي: ﴿فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾ وفي قولها: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ مع حذف المسند إليه، إذ التقدير: أنا عجوز عقيم.

ولعل السبب يعود والله - تعالى - أعلم إلى أن البشرى في سورة هود كانت مباشرة لسارة من الملائكة، وأما في سورة الذاريات فكان التبشير بالواسطة، حيث كان لإبراهيم أولًا ولها بالواسطة.

ولقد رد الملائكة على تصرفها بقولهم: ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾(1)، فأثنوا عليها وعلى بعلها خيرًا، ودعوا لهما.

وفي قصة امرأة العزيز مع يوسف الصديق عليه السلام - نجد أن المرأة تظل مدة طويلة ترقب نمو يوسف عليه السلام وتتأمل محاسنه، وكمال أدبه... حتى إذا أدرك وبلغ، ثارت فيها ثائرة الشهوة، وفتنت بصورته أيما فتنة، فانطلقت تتدرج في إغرائه، وتعرض نفسها عليه... ولكن الصديق بما آتاه الله من علم وفهم يتأبى عليها، ويستعصم بالله من شر فتنتها... ويقوم الصراع النفسي بينهما، صراع المراودة والإصرار عليها من جانب، وصراع الفضيلة والإصرار عليها من الجانب الآخر، وتندفع الأحداث وتتطور كل يريد أن ينتصر لغايته وهدفه... ولا يلبث الصراع إلا أن يتحول إلى صراع مادي حين استخدمت المرأة كل قواها لغرض إرغام يوسف عليه السلام على مواقعتها، بينما استخدم يوسف عليه السلام كل قواه لغرض الفرار منها والنجاة بنفسه من فتنتها،

---

(1) سورة هود، جزء من الآية: [٧٣].

ليتأزم الموقف بذلك، ويحتدم الصراع ! ويتضح ذلك من قوله - تعالى -: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾. استبقا وتعاديا حتى وصلا الباب الرئيسي، وهنا في هذا التوقيت تحدث المفاجأة غير المتوقعة ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾(١).

وشرعت المرأة تدافع عن نفسها وتتهم يوسف عليه السلام تخلصًا من حرج الموقف، وشرع يوسف عليه السلام يدافع عن نفسه بكل وقار واتزان. . . ويقف العزيز حائرًا أمام هذه المشكلة. فيطلب لها حلًا، يتمثل في إحضار شاهد من أهل المرأة، والذي بدوره يقضي ليوسف عليه السلام على المرأة، لتنفرج أزمة هذا الموقف ببراءة ساحة يوسف عليه السلام.

بيد أنَّ حلقات الصراع لم تنته عند هذا الحد، بل تطورت ليدخل فيه أشخاص آخرون أسهموا بدورهم في دفع الأحداث، وتنميتها. ومن هؤلاء: النسوة اللاتي أسهمن في مراودة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز، وتشجيعها على فعلتها، حتى اجترأت أمامهن، فكاشفتهن بمراودتها له، وهددته بالسجن إن لم يحقق لها رغبتها، فاختار السجن.

ومن الشخوص الذين أسهموا في دفع الأحداث: الساقي الذي دل الملك على يوسف، والملك الذي حسم الأمر ووضع حدًّا لمحنة يوسف عليه السلام التي نالته بسبب صراعه مع المرأة؛ ليكشف هذا الصراع أخيرًا عن انتصار الخير والفضيلة على الشرّ والرذيلة، واعتراف النسوة وامرأة العزيز بخطئهن في حق يوسف عليه السلام ورجوعهن إلى الحق، بعد أن فاجأنهن الملك بسؤاله: ﴿مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾(٢)؟ وليخرج يوسف عليه السلام

---

(١) سورة يوسف، جزء من الآية: [٢٥].

(٢) سورة يوسف، جزء من الآية: [٥١].

ظافرًا عزيزًا منتصرًا بعد صراع طال مداه وكشف عن طبيعة الشخصيات التي واجهتنا في القصة، ونوازعها وأفكارها، ومن خلال أحداث تطورت وتنامت، وكان نشوؤها بسبب المشكلة الأولى والتي لم تكن سوى عشق امرأة العزيز ليوسف عليه السلام !

وهكذا، فالأحداث في القصة تتساوق ويتبع بعضها بعضًا، وكل حدث يوجد في الوقت المناسب، فضلًا عن أن هذه الأحداث مشحونة بالمواقف الشائقة، والمفاجآت المتنوعة، حتى تصل بنا إلى النهاية السعيدة في آخر القصة.

وفي قصص النساء المؤمنات مع موسى عليه السلام، يتبين لنا ألوان من الصراع، كما يشترك في القصص شخصيات أخرى تسهم في دفع الأحداث وتطورها.

فقصة أم موسى عليه السلام يمهد لها بذكر الصراع المادي غير المتكافيء القوى، الذي دار بين فرعون وملئه وبين بني إسرائيل، وذلك حين يتسلط فرعون عليهم؛ فيذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، وهم مستسلمون لا حول لهم ولا قوة.

ويواجه جميع بني إسرائيل هذه الأزمة، ومن ضمنهم أم موسى التي يصطفيها الله لولادة نبيه موسى عليه السلام، فيوحي إليها بفعل ما هو حل لمشكلتها، وتنفيس لكربتها، ذلك هو إرضاع موسى عليه السلام، ومن ثم إلقاؤه في اليم عند الخوف عليه، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾[1].

ويدور في نفس أم موسى صراع بين عاطفة الأمومة، وبين عاطفة الإيمان بالله والثقة بموعوده، وذلك بعد تلقيها الإيحاء الإلهي بإلقاء صغيرها

---

(١) سورة القصص، جزء من الآية: [٧] .

في اليم، ولكن الله يثبتها، فتنتصر فيها عاطفة الإيمان، وتستجيب لأمر الله، فتلقيه، كما سبق ذكره في البعد العقدي[(١)].

ثم إنَّ القدر يدفع بتابوت موسى عليه السلام إلى قصر فرعون، فيلتقطه آله، ويفتحونه، فإذا ما فتحوه ووجدوا الطفل، تعجبوا وذهلوا لمفاجأة وجوده التي تنطوي على غموض بالنسبة لهم، وإن كانت ليست مفاجئة لنا بوصفنا متابعين للأحداث، وهذا ما يجعلنا نسخر من فرعون وآله حين التقطوا عدوهم.

وتسهم بعض الشخصيات في دفع الأحداث وتطورها، ومن أبرز تلك الشخصيات أخت موسى، التي تستجيب لأمر والدتها لها بقص أثر أخيها، وتغتنم فرصة وقوع آل فرعون في مشكلة رفض الصبي للمراضع، فتدلهم على ﴿أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ﴾[(٢)]، وهم أهلها.

ومن الشخصيات كذلك امرأة فرعون، التي سخّرها الله لموسى عليه السلام تحامي، وتدافع عنه لدى فرعون وملئه؛ خوفًا منها على حياته.

وتنتهي الأزمة التي واجهت أم موسى بعودة موسى عليه السلام إلى حضنها، ترضعه وتربيه ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾[(٣)].

ولكن الأحداث تتصاعد، لنرى موسى عليه السلام يواجه مشكلة عظيمة بعد أن بلغ أشده واستوى[(٤)]، وهذه المشكلة تكون سببًا في فراقه لأمه وأهله بعد خروجه من مصر إلى مدين.

---

(١) ينظر ص١١١ من البحث.

(٢) سورة القصص، جزء من الآية: [١٢].

(٣) سورة القصص، جزء من الآية: [١٣].

(٤) إذا قرن بلوغ الأشد بالاستواء، كان معناه أن يجتمع أمره وقوته ويكتمل وينتهي شبابه (ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة شدد).

وتتلخص المشكلة في قتله - دون عمد - للقبطي الذي اقتتل مع المصري، فاستغاثه المصري عليه[١]، ومن ثم خروجه من مصر خائفًا يترقب بعد أن علم بأن فرعون يبحث عنه ليقتله.

فإذا ما خرج من مصر، ظللنا نتابعه بلهفة وبشوق لمعرفة ما سيحدث له في طريقه، حتى ندركه عند ماء مدين، فنشهد قصة لقائه بفتاتي شيخ مدين، وكيف أنه ساعدهما على سقي ماشيتهما بعد أن علم أنهما يعانيان مشكلة التأخر في السقي كل يوم، وأن خروجهما يسبب لهما صراعًا نفسيًا بين الحياء والواجب، وقد قالتا له: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[٢]، فحياؤهما يمنعهما من الخروج للعمل الذي لا يناسبهما، ويفضي بهما إلى تعنِّي البعد عن مخالطة الرجال الأجانب، والواجب يحتِّم عليهما مساعدة والدهما الشيخ الكبير العاجز عن إعالة نفسه وإياهما، وقد أفضى بهما هذا الصراع إلى اختيار أداء الواجب شريطة أن يحافظا على حيائهما وعفتهما وينأيا ما استطاعتا عن مزاحمة الرجال.

وكان تفريج موسى عليه السلام لأزمتهما ومشكلتهما ذلك اليوم، سببًا في تطوير الأحداث، ودفعها نحو النمو، فلقد عادت المرأتان إلى والدهما مبكرًا، وأخبرتاه بخبر موسى عليه السلام، فدعاه، ثم عرض عليه الزواج من إحدى ابنتيه مقابل أن يأجره مدة معلومة، فوافق موسى عليه السلام، وأقام عند الشيخ أجيرًا مدة الأجل المضروب بينهما، ثم أخذ أهله وسار بهم إلى مصر، وتلقى عند جبل الطور تكليم الله له وتكليفه بالرسالة.

حتى إذا ما رجع إلى مصر، ودعا الناس إلى الإسلام، آمنت به آسية امرأة فرعون، وكان إيمانها هذا سببًا في دخولها في صراع فكري عقدي مع

---

(١) ينظر: سورة القصص، الآية: [١٤ - ٢١].

(٢) سورة القصص، الآية: [٢٣].

فرعون وملئه، وتطور هذا الصراع الفكري إلى صراع مادي، حين واجهت آسية التنكيل والتعذيب من فرعون، فقابلته بالصبر، والتحمل، ولكن العذاب اشتد عليها، وتأزم، فطلبت النجاة من الله - ﷻ - قائله: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١)، فقبضها الله إليه، ونجاها، وكان موتها نصرًا مؤزرًا، وإن لم يكن في ظاهره كذلك.

إن كلّ هذه الأحداث تطورت وتنامت بسبب قتل موسى عليه السلام للقبطي خطأ، وخروجه بعد ذلك من مصر... ولولاها لما تعرفنا على ابنتي شيخ مدين، ولما شهدنا موقف امرأة فرعون الصّامد حين تحدت الكفر والبغي واختارتْ الله والدار الآخرة.

إنها بحقٍّ أحداث مثيرة، ومحكمة، ومرتبة، سارت سيرًا طبيعيًا، بل قهريًا حين تدخل القضاء والقدر في حل كل مشكلة منها.

وإذا ما أتينا إلى قصة ملكة سبأ مع سليمان عليه السلام، نجد أنها تبدأ بإثارة اهتمامنا عن سر غياب الهدهد، وهو الأمر الذي أهم نبي الله سليمان عليه السلام بعدما تفقده فلم يجده.

حتى إذا ما أتى الهدهد وقدم تقريرًا موجزًا دقيقًا عن ملكة سبأ ومملكتها، نظل نرقب بشوق موقف نبي الله من الخبر، فنراه يحمِّل الهدهد كتابًا إلى ملكة سبأ، يدعوها فيه وقومها إلى الدخول في الإسلام بلا تريث، وبلهجة القادر المتمكن، الواثق من قدراته وقوته: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾(٢) فلا تفاهم بخصوص ما يأمرهم به.

---

(١) سورة التحريم، جزء من الآية: [١١].

(٢) سورة النمل، الآية: [٣١].

وتدرك الملكة بحنكتها ودهائها السياسي - بعد أن ألقي إليها الكتاب - أن الكتاب يتضمن أمرًا ليس بالهين، وأنها وقعت في مشكلة عظيمة، لابد لها من حل حكيم وعاجل، حتى تتخلص منها، وتنقذ مملكتها وقومها من الخطر المحدق بها.

فتقوم بتلمس الحل عند ملئها : ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾[١]. فيشير عليها ملؤها بالقوة، فلا يعجبها ذلك؛ لأن سليمان - كما يبدو من كتابه - رجل يتمتع بقوة غير عادية، ومن الخطورة بمكان تعجل مواجهته بالقوة، فالصراع المادي معه لن يكون متكافيء القوى، والأسلم لها أن تصانعه بهدية لعله يكف عما عزم عليه.

بيد أنها تدرك بعد أن رد سليمان عليه السلام هديتها بكلام قوي وبتهديد عنيف : ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[٢]. تدرك أنه لا حل أمامها أفضل من التسليم، والمسير إلى سليمان عليه السلام بنفسها.

ويُعد نبي الله سليمان عليه السلام للملكة مفاجأتين عُظْمَيَيْن، لا يمكن أن تُجريا إلا على يد نبي مؤيد من السماء، وهما: مفاجأة العرش، ومفاجأة الصرح الممرد من قوارير. وكان هذا التصرف من نبي الله أسلوبًا من الأساليب التي لجأ إليها لإقناع الملكة بالدخول في الإسلام طواعية.

وتختم القصة بإعلان الملكة إسلامها بعد اعترافها بخطئها، وتوبتها إلى الله : ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣].

---

(١) سورة النمل، جزء من الآية: [٣٢] .

(٢) سورة النمل، جزء من الآية: [٣٧] .

(٣) سورة النمل، جزء من الآية: [٤٤] .

وقد أسهم مجموعة من الشخوص في الصراع الذي حدث بين سليمان عليه السلام وملكه سبأ، وكل منهم أدى دورًا في دفع الحدث وتنميته، ومن هؤلاء، الهدهد، ومستشارو الملكة، ورسلها، والذي عنده علم من الكتاب.

وآل الصراع في النهاية إلى انتصار الإيمان على الكفر، وعلو الحق على الباطل، لتبقى العظة والعبرة الإيمانية ماثلة للعيان، بعد أن تكشفت من خلال الصراع أبعاد شخصيات القصة المختلفة.

وأما مريم الصديقة فإنها لما جاءها الملك، وبيّن لها مهمته من نفخ الروح فيها، ارتاعت وأدركت أنها تواجه موقفًا حرجًا للغاية، إذ كيف تحمل من غير بعل، ولهذا حاولت مراجعة الملك في أمر لم تطقه: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾[1]، ولكن الله إذا قضى شيئًا كان.

وما إن نفخ الملك فيها فحملت بعيسى عليه السلام حتى اشتد قلقها، ونشب في نفسها صراع عظيم منشؤه خشية كلام أهلها وقومها وطعنهم في عرضها، وحتى تتخلص من حرج الموقف، التمست حلًا مؤقتًا لمشكلتها هذه، بالانتباذ بحملها مكانًا قصيًا.

ولكن الصراع اشتد في نفسها، وبلغت الأزمة ذروتها حين ألجأها المخاض إلى جذع النخلة. وحينها تمنّت الموت قبل الحمل ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[2]! ولكن الحمل قد وقع، فلا حول لها ولا قوة إلا بالله.

وما إن تضع حملها حتى تنفرج أزمتها، وذلك حينما كلمها عيسى،

---

(١) سورة مريم، الآية: [٢٠].

(٢) سورة مريم، الآية: [٢٣].

وأمرها ألا تحزن، ونبهها إلى المعجزات التي سخرها الله لها فاطمأن بذلك قلبها بعد صراع نفسي عظيم، كشف عن ورعها وتقواها، كما كشف عن حيائها العذري، وضعفها الأنثوي.

وتبدو قوة الشخصية وقوة الحدث، حين تأتي مريم بوليدها إلى قومها تحمله بكل شجاعة وثقة بربها. حتى إذا أذهلتهم المفاجأة، عاجلوها بالنقد والإساءة والطعن في عرضها، ولكن الحق ينتصر في النهاية على الباطل، إذ يتكلم عيسى عليه السلام في مهده، ويكون كلامه أعظم رد عليهم، وأقوى تبكيت لهم.

وهكذا، فأحداث قصة مريم ملأى بالمفاجآت التي تثير التطلع إلى ما سيحدث، والمعجزات التي تلهب النشاط لمتابعة القصة، والصراع الذي يكشف عن شخصيتها. وهي أحداث حية متتابعة، تتصاعد معها اللهفة، وتشحن بالتشويق الذي يجعل العواطف تمتزج مع عواطف مريم، والأحاسيس تأتلف مع أحاسيسها.

إنها بحق أحداث تتماسك وتتعاضد ويسلم كل حدث منها إلى الآخر. وتؤدي شخصية مريم دورها في تطوير الأحداث وتنميتها، كما رأينا من خلال عرض القصة.

بقي أن يقال: إن الأحداث التي تواجه شخصية المرأة في القصص القرآني تجيء على أنواع عدة، وكل نوع منها له طبيعته الخاصة، ولعل أبرز هذه الأنواع ما يلي:

(أ) الأحداث المألوفة العادية:

وهي التي تقع للشخصيات في صورة طبيعية، ويحتشد القصص القرآني بقدر كبير منها، وحسب الباحثة الإشارة إلى بعض تلك الأحداث:

فمن الأحداث المألوفة في قصة امرأة العزيز مع يوسف ﷺ، فتنتها بصورته، ومراودتها له، وتماديها في المنكر على الرغم من فضيحتها، كما هو شأن كثير من ربّات القصور اللائي أفسدت طباعهن الحرية والترف والفراغ وضياع الوازع الديني والخلقي.

ومنها في قصص النساء مع موسى ﷺ، ما فعلته أم موسى حين ألقت بموسى ﷺ في اليم، من إرسال ابنتها لقص أثره، من باب بذل السبب لأجل الاطمئنان على حياته، ومنها، إسلام امرأة فرعون وتحملها الأذى في سبيل الله، ومنها، خروج ابنتي شيخ مدين إلى العمل تحت ضغط الحاجة، وعجز المعيل، ولقاء موسى ﷺ بهما، وتحدثه إليهما. . . ثم زواجه بعد ذلك بإحداهما على الشرط الذي تم الاتفاق بينه وبين والدها.

ومن الأحداث المألوفة كذلك في قصة زينب بنت جحش رضي الله عنها، اختلافها مع زوجها زيد بن حارثة رضي الله عنه وكراهيتها البقاء معه، وفراقه لها بعد ذلك، إلى غير ذلك من الأحداث المألوفة التي قد تقع لأي شخص.

(ب) الأحداث غير المألوفة:

وهي التي تحدث بقدرة الله - عز وجل -، مما يخالف سنن الحياة التي اعتاد عليها البشر، فهي من قبيل الخوارق والمعجزات والكرامات.

ومن أبرز المعجزات في قصص النساء، خلق حواء من ضِلَعِ آدم بدون أب ولا أم ! !.

ومنها، هبة الله لسارة بغلام، وكذلك لامرأة زكريا، على الرغم من أن كل واحدة منهما عجوز عقيم، وبعلها شيخ كبير.

ومنها، ما أُرِيَته ملكة سبأ من معجزات سليمان ﷺ، وكانت سبب إسلامها، وهذه المعجزات هي، حمل الهدهد لكتاب سليمان ﷺ وإلقاؤه

إليها، وحمل جندي من جنود سليمان عرشها إلى بلاط سليمان في أقل من طرفة عين، والصرح الممرد من قوارير.

ومن الكرامات العظيمة، ما حدث لمريم الصديقة، من إجراء الرزق لها في محرابها دون سعي منها، وخطاب الملائكة لها، ومحاورتها لهم مشافهة، وحملها من غير بعل، وإجراء النهر من تحتها في مكان قفر، وتساقط الرطب الجني عليها من جذع نخلة يابسة.

(جـ) الأحداث التي من قبيل القضاء والقدر:

وهي التي تتدخل فيها قدرة الله - عز وجل - لحكمة يريدها، فتحدث للأشخاص على خلاف ما قدروه وحسبوه، فلا يملكون إزاءها سوى الاستسلام والتسليم إذ لا حيلة في دفع المقدور بعد وقوعه.

والقدر قوة خفية لا يشارك في صنع الأحداث مشاركة مباشرة يراها الناس، وإنما تسير الأحداث سيرًا عاديًا مألوفًا، ولا يعرف الناس من أمر تلك القوة شيئًا إلا بعد تكشف نتائج الأحداث.

فالله - سبحانه وتعالى - بتقديره يرعى عباده المؤمنين، ويحوطهم بعنايته، ولذا نرى الأحداث تتمخض عن نتائج هي في صالح المؤمنين، الأمر الذي يزيدنا يقينًا وإيمانًا بأن الله - سبحانه وتعالى - يتولى صالحي عباده.

فآدم عليه السلام خلقه الله - سبحانه وتعالى - ليكون خليفة له في الأرض، ولذا كتب عليه المعصية هو وزوجه حواء لتكون تلك المعصية سببًا في إهباطهما إلى الأرض التي خلقا لأجل عمارتها.

وموسى عليه السلام يوحي الله إلى أمه بأن تلقيه في اليم، ومن ثم يلقيه اليم بالساحل ليأخذه ويربيه العدو الذي سيكون هلاكه فيما بعد على يديه، وهو الذي قتل كثيرًا من أبناء بني إسرائيل وبطش بهم فرارًا وخوفًا من هذا المولود

الذي ساقه القدر إليه ليربيه ويحميه حتى يشب، ويسوقه إلى الموت غرقًا ! ! .

وتدور الأحداث المقدرة لنرى الصغير يرجع إلى أمه بعد أن نال حماية عدو الله وعدوه.

ويوسف عليه السلام لما كان مقدرًا له أن يمكَّن في الأرض، ويرفع شأنه، ذلل الله من أمامه جميع العقبات التي اعترضته، وحماه من الابتلاء العظيم الذي واجهه، وهو فتنة امرأة العزيز بصورته، والتي رمي بسببها في السجن ! .

هذا والقصص القرآني يجلي مواقف شخصيات النساء المؤمنات من نتائج الأحداث، من رضى بقضاء الله، وثبات في الابتلاء. ولقد مر في فصل الأبعاد نماذج عدة لنساء فوضن أمورهن إلى الله، ورضين بقضائه، واطمأنن إلى حكمته.

ومن هؤلاء، أم موسى، حين ألقت بصغيرها في اليم استجابة لأمر الله لها، واطمئنانها بعد ذلك، حين ربط الله على قلبها. وامرأة عمران حين مضت في الوفاء بنذرها، وسلمت أمرها إلى الله، وقد ولدت أنثى وكانت ترجو ذكرًا. ومريم الصديقة حين استسلمت لقضاء الله، فنفخ جبريل فيها من روح الله برغم صعوبة الأمر عليها، وشدة وقعه على نفسها.

ومنهن في العهد النبوي، عائشة الصديقة رضي الله عنها حين ثبتت في حادثة الإفك حتى أنزل الله براءتها. وزينب بنت جحش رضي الله عنها حين امتثلت أمر الله - عز وجل - ورسوله صلى الله عليه وسلم بالزواج من زيد بن حارثة رضي الله عنه برغم كراهيتها للزواج منه. والمجادلة، خولة بنت حكيم رضي الله عنها حين كانت ترفع شكواها إلى الله - عز وجل - في أمر زوجها الذي ظاهر منها، في الوقت الذي كانت تجادل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأنه.

المبحث الثاني

شخصية المرأة والبيئة

إذا كانت الأحداث تقع بفعل الشخصيات، كان لابد للشخصيات والأحداث من بيئة زمانية ومكانية تمارس وجودها، وذلك يضفي جوًّا من الواقعية على العمل القصصي(١). وفيما يلي الحديث عن البيئة وعلاقتها بالشخصية:

أ - شخصية المرأة والبيئة الزمانية:

إن للعنصر الزمني أثرًا فاعلًا في تغيير الشخصيات والأماكن من خلال حركته داخل القصة، كما أن له أثرًا فاعلًا في تشخيص الأحداث من خلال معرفة ظروف البيئة وأجوائها التي جرت فيها الأحداث ومدى تأثيرها في أخلاق الأشخاص وأفعالهم، إضافة إلى تأثيره الكبير في سير الأحداث القصصية وفي تنميتها، وإنضاجها، وفي توضيح السببية التي تحرك الأحداث وتدفع بها.

والمتأمل في القصص القرآني يلحظ أن تأثير الزمن في الشخصيات والأحداث أوضح من تأثير المكان عليهما، على أن أبرز ما يمتاز به العنصر الزمني في القصص القرآني ما يلي:

١ - يُعبَّر عن الزمان في القصص القرآني بألفاظ تدل عليه دلالة مباشرة، كالصبح والسحر، وبضع سنين؛ لأن ذكرها يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالأحداث، وقد لا تأتي هذه الألفاظ، وإنما يعبر عن الزمن بطريق غير مباشر، بصورة

---

(١) ينظر: د/ عبد القادر أبو شريفة: مدخل إلى تحليل النص الأدبي، ص ١٣٨.

نلمحها من الأحداث نفسها، وهذا ما يسمى بالزمن الداخلي الذي يدل على المدة التي استغرقها وقوع الحدث[١]. وهذا كله خاضع لما يستدعيه الحال، ويتطلبه المقام.

فلقد ورد في قصة امرأة لوط عليه السلام تحديد مباشر لوقت نزول العذاب عليها وعلى قومها، وهو الصبح، وفي ذلك يقول - تعالى -: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾[٢]، ويقول - تعالى -: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[٣]. ويقول - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾[٤]، ويقول - تعالى -: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾[٥]. أي أخذتهم صيحة عظيمة مع شروق الشمس في ساعة الصباح، ولهذا أمرَ لوط أن يسري بأهله آخر الليل في وقت السحر إلا امرأته فلقد نهى أن يسري بها، وفي ذلك يقول - تعالى-: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾[٦]، ويقول - تعالى -: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾[٧].

ولربما كان هناك تناسب بين تحديد زمن العذاب في وقت الصباح وبين بروز فواحش قوم لوط، وظهور طغيانهم ومجاهرتهم بفعل الخبائث، كما قد يكون تحديد زمن خروج لوط في ساعة السحر لأجل الستر عليه، حتى لا ينكشف أمره فيؤذى أو يرد، والله - تعالى - أعلم.

---

(١) ينظر: د/ مأمون جرار: خصائص القصة الإسلامية، ص ٨٦.

(٢) سورة الحجر، الآية: [٦٦].

(٣) سورة هود، جزء من الآية: [٨١].

(٤) سورة القمر، الآية: [٣٨].

(٥) سورة الحجر، الآية: [٧٣].

(٦) سورة القمر، جزء من الآية: [٣٤].

(٧) سورة هود، جزء من الآية: [٨١].

كذلك ورد في قصة امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام تحديد للوقت الذي راودت فيه المرأة يوسف عليه السلام ذلك هو بلوغ الأشد، ويؤخذ هذا من قوله - تعالى -: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾[1]، والمقصود ببلوغ الأشد في الآية الإدراك والبلوغ[2].

كما يرد تحديد مباشر للمدة الزمانية التي قضاها يوسف عليه السلام في السجن بعد أن ابتلي بافتتان امرأة العزيز والنسوة به. وذلك في قوله - تعالى -: ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[3]. والبضع هو ما بين الثلاث إلى العشرة أو إلى ما دون العشرة[4].

ومعنى هذا أن المدة الزمانية التي قضاها يوسف عليه السلام في ابتلاء فتنة امرأة العزيز بصورته وما ترتب عليها من نتائج سلبية تتمثل في دخوله السجن، وإهمال شأنه، هذه المدة كانت طويلة، وكان لها أثر واضح في سير الأحداث، وتطور شخصية المرأة بعد ذلك، ونزوعها إلى الاعتراف بذنبها، والندم على ما بدر منها، تحت تأثير عوامل عدة سبق الحديث عنها في البعد النفسي[5]، كما كان لهذه المدة دور في الكشف عن معدن يوسف، وثباته، وقوة صبره، الأمر الذي استحق فيه أن يولى منصب عزيز مصر.

هذا ومما يلقانا في قصة أم موسى عليه السلام تحديد للوقت الذي أمرت بإلقائه، فالله - تعالى - يقول: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ

---

(١) سورة يوسف، الآية: [٢٢]، وجزء من الآية: [٢٣].

(٢) ابن منظور: لسان العرب، مادة شدد.

(٣) سورة يوسف، جزء من الآية: [٤٢].

(٤) ابن منظور: لسان العرب، مادة بضع، والأصفهاني: المفردات، مادة بضع.

(٥) ينظر ص٢١١ من البحث.

عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾[١]، فلقد أمرت أن ترضعه، ثم تلقيه في اليم أول ما تشعر بالخطر عليه، ولربما أن عمر موسى عليه السلام ذلك الوقت لم يتجاوز أيامًا معدودة - والله - تعالى - أعلم -، وإن كان السياق القرآني لم يحدد ذلك، ولكن هذا ما نلمحه من خلال الأحداث التي تدل على أن الوضع الاجتماعي في مصر ذلك الوقت لم يكن يسمح لأم موسى عليه السلام بإبقاء صغيرها لديها مدة طويلة، فهي وإن كانت تستطيع إخفاءه عن الأعين، فإنها لا تستطيع التحكم في صوته عندما يبكي ويصرخ !.

كما أنه من خلال الأحداث نستطيع أن نتبين أمرًا مهمًا يتصل بالمدة الزمانية التي افترق فيها موسى عليه السلام عن أمه منذ أن ألقته في اليم وحتى عاد إليها، ذلك أن الأحداث التي جرت في قصر فرعون بعد أن التقط ملؤه التابوت، دلت على أن المدة كانت قصيرة، ويحتمل أن موسى عليه السلام رجع إلى أمه في اليوم نفسه الذي ألقته فيه، والله - تعالى - أعلم.

والدليل على ذلك أن آل فرعون بعد أن التقطوه، ووهبه فرعون لزوجه، كانوا مهتمين جدا لأمر رضاعته، لكونه يرفض جميع المراضع اللاتي عرضن عليه، ومن غير المعقول أن يتريثوا في البحث له عن مرضع؛ لخوفهم على حياته أولًا، ولقدرتهم على إحضار أي مرضع في أسرع وقت، ومن أي مكان في مصر ثانيًا. ولقد كانت أخته تتابع حركة تابوته، بعد أن أمرتها أمها بقص أثره، فشهدت حدث اهتمام آل فرعون بالبحث عن مرضعة للصبي، وتقدمت إليهم بعد أن استنفدوا وسعهم في البحث فقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾[٢]؟ فوافقوها ونادوا

---

(١) سورة القصص، جزء من الآية: [٧].

(٢) سورة القصص، جزء من الآية: [١٢].

أم موسى أو ذهبوا بأنفسهم إليها، ورد الله موسى عليه السلام إلى أمه ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾(١).

وإذا كانت المدة الزمانية التي افترق فيها عن أمه بعد إلقائه قصيرة، فإن مدة بقائه في مصر حول أمه وأهله كانت طويلة، ويدلنا على ذلك أن القرآن الكريم لم يذكر عن موسى عليه السلام أنه خرج من مصر ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾(٢)، إلا بعد قتله للقبطي خطأ، وخوفه على حياته، وذلك بعد أن ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾(٣)، فهي مدة زمانية طويلة عاش فيها موسى عليه السلام في مصر، وهو محفوف برعاية فرعون وزوجه وآله، وخرج بعدها إلى مدين، وقضى فيها مدة الأجل الذي تم الاتفاق عليه بينه وبين شيخ مدين، وهو زمن معلوم مقداره ثمان أو عشر سنوات، كما جاء في قوله - تعالى -: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ﴾(٤)، وقوله - تعالى- ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾(٥).

وتحديد الزمن بثمان أو عشر في الآية له أهمية كبرى في القصة، ذلك أن هذه المدة بما فيها من شظف عيش وغربة، كانت كافية لإعداد موسى عليه السلام إعدادًا جسديًا ونفسيًا، وتهيئته لتلقي الرسالة. فهو الشخصية الرئيسة في القصة، وكل الأحداث تركز عليه وتخدمه، كما كانت كافية لأن تخف حدة التوتر التي حدثت في مصر نتيجة قتله للقبطي حتى أوان عودته إليها

(١) سورة القصص، جزء من الآية: [١٣] .
(٢) سورة القصص، جزء من الآية: [٢١] .
(٣) سورة القصص، جزء من الآية: [١٤] .
(٤) سورة القصص، جزء من الآية: [٢٧] .
(٥) سورة طه، جزء من الآية: [٤٠] .

بزوجه، هذا فوق ما يدل عليه قوله - تعالى -: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾(١)، من حسن عهد موسى، ووفائه، وهما تتمة لما بدر منه من قوة وأمانة أعجبتا ابنتي شيخ مدين، ووالدهما، وتلك أخلاق الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، والله - تعالى - أعلم.

بقي أن يقال: إن هناك زمنًا داخليًا نلمحه من حادثة لقاء موسى عليه السلام بابنتي شيخ مدين، وهذا الزمن يتصل بالمدة التي كانت تقضيها المرأتان في السقي كل مرة، فالله - تعالى - يقول: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾(٢)، فتلك المدة طويلة، وذلك أنهما يخرجان من الصباح لرعي الماشية، فإذا جاء وقت السقي، انتظرتا وقتًا طويلًا هما وماشيتهما، حتى يفرغ الرعاء ويرجعوا؛ ليتهيأ لهما السّقي بعيدًا عن الاختلاط بهم ومزاحمتهم، وفي هذا ما يكشف عن طول صبرهما، وقوة عفتهما، برغم مشقة العمل وصعوبته ومعاناة التأخر عن البيت كل يوم، وهو ما دعا موسى عليه السلام إلى مساعدتهما وتفريج كربتهما ذلك اليوم، وكانت مساعدته لهما سببًا في تفريج كربته، ذلك أنه لما سقى لهما، تولى إلى الظل، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾(٣). أي جاءته مباشرة، فلم يكن هناك زمن طويل بين دعائه عليه السلام، وبين مجيء المرأة، بل حدث مجيئها عقب انتهائه من الدعاء.

وهكذا، فالزمن يتضامن مع الأحداث، فيزيد في تأثير القصة بما يوحيه من قصر المدة أو طولها(٤).

---

(١) سورة القصص، جزء من الآية: [٢٩].

(٢) سورة القصص، جزء من الآية: [٢٣].

(٣) سورة القصص، جزء من الآية: [٢٤، ٢٥].

(٤) ينظر: د/مأمون جرار: خصائص القصة الإسلامية، ص ٨٧.

وفي قصة ملكة سبأ مع سليمان عليه السلام، أكبر دليل على تأثير الزمن في الأحداث ذلك أن المدة الزمانية القصيرة جدًا التي استغرقها حدث نقل جندي سليمان لعرش ملكة سبأ، كان لها تأثير عظيم في حدث إسلام الملكة.

ذلك أن الذي عنده علم من الكتاب قال لسليمان عليه السلام: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[١]. يريد عرش الملكة، فارتداد طرف سليمان عليه السلام كان لمدة قصيرة جدًا، قد لا تتعدى الثانية من الوقت! وهذا ما جعل الملكة تبهت وتدهش عندما رأت عرشها في بلاط سليمان عليه السلام، وكانت قد خلفته في بلاطها في مملكة سبأ في اليمن!، ومن ثم توقن بعد أن أراها معجزة الصرح أنه نبي مرسل مؤيد بالمعجزات من رب عظيم - سبحانه وتعالى -.

وفي قصة مريم الصديقة نلمح تأثيرًا غير مباشر للزمن، وإن كان يؤدي دورًا عظيمًا في حركة الأحداث والسَّير بها إلى مراحل. فمريم في القصة تترقى في أطوار النمو، من جنين في بطن أمها، ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾[٢]، إلى طفلة مولودة: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾[٣]، ثم إلى شابة مكتملة النمو قابلة للحمل والولادة: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[٤]، ثم إلى أم: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾[٥].

٢ - قد يأتي الزمن فيكون إطارًا للحالة النفسية التي تعتري

---

(١) سورة النمل، جزء من الآية: [٤٠] .

(٢) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٣٥] .

(٣) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٣٦] .

(٤) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٤٥] .

(٥) سورة مريم، جزء من الآية: [٢٧] .

الشخصية[١]، فالله - تعالى - يقول عن مريم: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[٢]، فتمنيها الموت كان في الوقت الذي ركبتها فيه آلام المخاض وألجأتها إلى جذع النخلة، وهذا يوحي بأنها عند المخاض وصلت إلى ذروة المعاناة حين تزامن الألم الجسدي مع الألم النفسي.

وهكذا، فالعنصر الزمني لا يظهر إلا حين يستدعيه الموقف، فيسهم في حركة الأحداث، وإلقاء الضوء عليها؛ ليزيد في تأثير القصة، كما أنه قد يكون إطارًا للحالة النفسية التي تعتري شخصيات القصة.

٣- قد يستعيض القصص القرآني عن الظرف الدال على الزمن، بذكر أعلام اقترنت بعصور بعينها، وعلى سبيل المثال، أسماء الأنبياء تحمل دلالة الزمن ويؤرخ بها لأسماء أخرى[٣].

فامرأة لوط عاشت وهلكت مع قومها في زمن إبراهيم عليه السلام، وذلك أن لوطًا عليه السلام عاش في زمن إبراهيم عليه السلام، وآمن به، ورافقه في هجرته إلى الله، بدليل قوله - تعالى-: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾[٤]، والملائكة لما جاءت إبراهيم عليه السلام بالبشرى قالوا: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾[٥].

وأم موسى عاشت في زمن فرعون في مصر، ولهذا جرت أحداث ولادة موسى عليه السلام وإلقائه في اليم، ونشأته هناك، فالله - تعالى - يقول: ﴿إِنَّ

(١) ينظر: د/ جرار: خصائص القصة الإسلامية، ص ٨٩.

(٢) سورة مريم، الآية: [٢٣] .

(٣) ينظر: طول محمد: البنية السردية في القصص القرآني، ص ٤٠ - ٤١.

(٤) سورة العنكبوت، جزء من الآية: [٢٦] .

(٥) سورة هود، جزء من الآية: [٧٠] .

فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾(١). ثم يقول - تعالى -: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾(٢).

ووجود أم موسى في زمن فرعون يكشف عن مدى معاناتها، وعمق ابتلائها وقت حملها بموسى عليه السلام ووضعها له، وذلك لأنها شهدت أحداث تقتيل فرعون للأبناء واستحيائه للنساء، فهو زمن عصيب!.

كما أن ابنتي شيخ مدين، عاشتا في الزمن الذي كان فيه فرعون مسيطرًا على مصر، ولعل الله - سبحانه وتعالى - أراد ذلك؛ ليكون زواج موسى عليه السلام؛ من إحداهما - بعد خروجه من مصر - سببًا في بقائه في مدين مدة الأجل المعلوم بينه وبين الشيخ، فيتهيأ له فيها التربية والإعداد لحمل الرسالة.

وأما مريم الصديقة فقد عاشت في زمن نبي الله زكريا عليه السلام لأنه هو الذي كفلها واهتم بشأنها بعد أن نذرتها أمها محررة لله.

ولعل الله - سبحانه وتعالى - قدر لمريم أن تولد في زمن زكريا عليه السلام؛ ليكون زكريا عليه السلام هو من يعتني بها ويكفلها، فتعد بذلك إعدادا خاصًا يناسب مقام اصطفائها وتطهيرها وهبتها عيسى عليه السلام.

وقد يكون من الحكمة كذلك، أن يشهد زكريا عليه السلام كرامة مريم على الله برزقها في محرابها دون سعي منها، فتنبعث نفسه بسؤال الله الولد، كما تشهد مريم ولادة يحيى عليه السلام من زكريا عليه السلام وزوجه، فتتعرف على قدرة الله - سبحانه وتعالى - التي لا يحدها شيء، ولا ترتبط بالأسباب التي اعتاد عليها البشر فيكون ذلك تمهيدًا لهبتها عيسى عليه السلام دون بعل.

---

(١) سورة القصص، جزء من الآية: [٤].

(٢) سورة القصص، جزء من الآية: [٧].

٤- أن الأحداث في قصص النساء - كما هي عليه في بقية القصص القرآني - لا نجدها إلا مرتبة ترتيبًا طبعيًا حسب الزمان حدثًا بعد آخر، مهما عرضت أجزاء الحدث مستقلًا بعضها عن بعض، فالحادثة تبدأ من نقطة انطلاق محددة من الزمن، ثم تمضي متحركة إلى الأمام[1]، وكل حدث منها يسلم إلى الآخر حتى نصل إلى نهاية القصة.

فامرأة العزيز تبدأ في مراودة يوسف عليه السلام في زمن بلوغه الأشد، ثم تتوالى الأحداث وتتتابع، حتى يتسبب حدث المراودة في دخول يوسف عليه السلام السجن، ولبثه فيه بضع سنين، ثم خروجه منه في نهاية القصة بعد ثبوت براءته واعتراف امرأة العزيز والنسوة بخطئهن.

وفي قصة موسى عليه السلام تبدو ملامح الزمن قوية مؤثرة، وتؤدي النساء دورًا كبيرًا في دفع أحداثها، والسير بها.

فأم موسى تلقي بابنها في اليم في زمن الرضاعة وذلك حين خافت عليه، كما أمرها الله - سبحانه وتعالى -، ثم تتوالى الأحداث، حدثًا بعد آخر، حتى نهاية القصة. فالتابوت يلقي بموسى عليه السلام في اليم، واليم يلقيه في الساحل، وأعداؤه من آل فرعون يأخذونه، وامرأة فرعون تتعلق به وتستوهبه من فرعون، ويقوم آل فرعون بالبحث الجاد له عن مرضع حتى تتقدم أخته فتدلهم على من يكفله، فيعود إلى أمه.

وينشأ موسى عليه السلام في مصر، حتى يبلغ أشده ويستوي، ثم يقتل القبطي، ويخرج إلى مدين، ويلتقي هناك بابنتي شيخ مدين، ويتزوج إحداهما مقابل أن يأجر نفسه لدى الشيخ ثماني أو عشر حجج، ثم يخرج عائدًا إلى مصر، ويوحى الله إليه عند جبل الطور...

---

(١) ينظر: الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص ٨٦.

وأما مريم الصديقة، فتذكر قصتها في سلسلة من الحلقات، المتدرجة مع الزمن إلى الأمام، بداية بذكر اصطفاء الله لآل عمران، ثم بقصة أمها حين حملت بها، وكيف نذرتها لله، ثم بأحداث ولادتها، وكفالتها ونشأتها الحسنة الممتازة في كنف نبي الله زكريا عليه السلام، ثم ببشارتها بغلام، ثم بأحداث حملها، وولادتها عيسى عليه السلام، والمعجزات التي رافقت مولده. فالزمن يتحرك بالأحداث، ويسيرها إلى الأمام حتى نهاية القصة.

٥ - الزمن في القصص القرآني مطلق من كل قيد إلا قيد الماضي، فليس له حدود تحده بالنسبة للزمن الذي يظلنا بحيث نعرف كم بيننا وبين أحداث قصص النساء من الأمم السابقة من السنين أو القرون؛ ذلك لأن قرب الحدث منا أو بعده لا يؤثر فيما يحمل الحدث من مواقع العظة والاعتبار[١].

٦- السياق القرآني يطوي من أحداث قصصه المراحل الزمانية التي لا تكمن الفائدة في ذكرها[٢]. وذلك كما طوى المرحلة الزمانية بين مجيء يوسف عليه السلام إلى بيت العزيز وبين بلوغه الأشد، وكما طوى المرحلة الزمانية بين ولادة موسى - عليه السلام وبين بلوغه الأشد واستوائه، وطوى كذلك المدة الزمانية التي استغرقها رسل ملكة سبأ في المسير إلى بلاط سليمان عليه السلام، وسيمر بنا في الفصل الثالث نماذج عدة لقصص طويت من أحداثها مراحل زمانية، لنرى كيف أن السياق القرآني لا يذكر إلا ما تكمن في ذكره العظة والعبرة.

---

(١) ينظر: الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص ٩١.

(٢) ينظر: د/ جرار: خصائص القصة الإسلامية، ص ٨٨.

(ب) شخصية المرأة والبيئة المكانية:

تجيء أهمية المكان في القصة بعد الزمان، على الرغم من أنه عامل مهم في تشكيل الأحداث، وإبراز معالمها، ذلك أن الزمن يؤثر في الحدث تأثيرًا مباشرًا عن طريق انتقاله بالأحداث من حال إلى حال.

أما المكان فليس له هذا الأثر البعيد في صنع الحدث وفي تطوره؛ لأن الحدث قد يوجد ويتطور في مكان معين لا يتحول عنه، وقد لا يكون للمكان الذي يوجد فيه الحدث أي أثر إلا إذا كان ذا طبيعة خاصة تؤثر بالحدث[١].

كما أن المكان في القصص القرآني يذكر - غالبًا - دون حدود ولا قيود، فهو مجرد مكان، باستثناء بعض الأماكن المحددة في بعض القصص كمصر في قصتي يوسف وموسى - عليهما السلام -، ومدين في قصة موسى عليه السلام حين سار بأهله بعد انقضاء الأجل، وسبأ في قصة ملكة سبأ وسليمان عليه السلام.

على أن ذكر المكان من عدمه يخضع لتأثير ذلك في نمو الحدث، وتحول الشخصية وحركتها، وفي إقامة شواهد العظة والعبرة منه، فالمقصد من القصص القرآني ليس التأريخ وإنما العظة والعبرة، ولذا كان الاتجاه في غالب القصص القرآني إلى عدم التحديد الجغرافي للمكان. والشواهد على ذلك من قصص النساء في القرآن كثيرة، وحسب الباحثة الاقتصار على عرض بعض منها:

ففي قصة آدم وحواء يرد تحديد المكان الذي أسكنهما الله فيه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾[٢]. فالجنة هي المكان

---

(١) ينظر: عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص: ٩١، ٩٢.

(٢) سورة: الأعراف، جزء من الآية: [١٩] .

الذي أسكنهما الله فيه، وأباح لهما الأكل منها رغدًا حيث شاءا، وهذا يدل على تكريم الله لهما، ورفعه لشأنهما.

أما من حيث المكان الذي أهبطهما الله فيه بعد أن عصيا، فلم يحدد لنا السياق مكانًا معينا من الأرض، ذلك لأن ذكره ليس له تأثير في سير الأحداث القصصية.

وفي قصة بشارة الملائكة لإبراهيم عليه السلام وامرأته بالولد نلمح المكانية العامة في قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾[1]، أي المكان الموجود فيه أهله، وهو كما يبدو من السياق مكان معزول عن مكان الضيف، وقد تعود إبراهيم عليه السلام أن يروغ إليهم ليساعدوه في إعداد قرى الضيف.

وفي قصة يوسف عليه السلام وامرأة العزيز يرد تحديد للمكان الذي بيع فيه يوسف عليه السلام حيث يقول - تعالى -: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾[2]. ، ولذكر « مصر » في القصة، أثر كبير في تلوين الحدث، ذلك أن يوسف عليه السلام سيتعرض فيها لفتنة امرأة العزيز والنسوة بصورته، وسيكون هذا الابتلاء سببًا في ابتلاء آخر، وهو دخوله السجن ظلمًا، وسيلبث فيه بضع سنين، ثم تثبت براءته، ويخرج منه، ويمكن له في الأرض فيكون على خزائنها، وسيأتي إليه أهله من فلسطين ليقيموا معه في مصر، وبالتالي ستكون مصر مكانًا لتجمع بني إسرائيل، ثم يؤول أمرهم إلى استضعاف فرعون لهم، وإذلالهم، ثم يظهر موسى عليه السلام وينقذهم الله على يده.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: [٢٦] .

(٢) سورة يوسف، جزء من الآية: [٢١] .

كما نجد في القصة وصفًا للبيت الذي عاش فيه يوسف عليه السلام بعد بيعه حتى دخوله السجن، فهو بيت واسع له أبواب عديدة تؤدي إلى باب رئيس، ويتوافر فيه مختلف سبل الراحة والرفاهية، كما تقدم ذكره في البعد الاجتماعي(١).

وفي هذا البيت حدثت المراودة، وتطورت إلى محاولات عدة، تارة بالتلميح، وأخرى بالتصريح. فلقد دعته امرأة العزيز إلى مكان آمن في البيت، وهو مخدعها، وغلقت عليه الأبواب، وعرضت عليه نفسها فقالت: ﴿هَيْتَ لَكَۚ﴾(٢). فلما أبى، حاولت إجباره على الفعل: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ﴾(٣). فلما رأى يوسف عليه السلام ذلك وخشي على نفسه بادر بالفرار من المكان الذي حصرته فيه، فاستبق هو وإياها باب القصر الرئيس، متنقلًا من باب إلى آخر، وعند وصولهما الباب الرئيس تأزم الحدث، فلقد ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾(٤). وجرى اتهام المرأة ليوسف عليه السلام ، ورد يوسف عليه السلام عليها، ثم انفرجت عقدة المشكلة حين استدعى الشاهد فحكم ليوسف عليه السلام على المرأة. وفي حركة يوسف عليه السلام السريعة حين فر من مكان إلى مكان، ولحاق المرأة به، ما ينمّي الأحداث، ويكشف عن معدن كل منهما.

وفي قصر العزيز، دعت امرأة العزيز النسوة اللاتي تحدثن في عرضها إلى مأدبة، وجعلتهن في مكان، ويوسف عليه السلام في مكان آخر، بحيث يقتضي خروجه من مكانه أن يمرَّ من أمام النسوة، فيكون لذلك أثر في قوة المفاجأة، وشدة الانبهار.

---

(١) ينظر: ص٢٥٣ من البحث.

(٢) سورة يوسف، جزء من الآية: [٢٣] .

(٣) سورة يوسف، جزء من الآية: [٢٤] .

(٤) سورة يوسف، جزء من الآية: [٢٥] .

والسجن هو الموئل والمكان الذي اختاره يوسف عليه السلام لينجو من كيد النسوة، فهو أبعد عن نظرهن، وأقطع لطمعهن.

وهكذا، أسهم المكان في القصة في تنمية الأحداث، وفي إلقاء ظلال عليها.

وفي قصة موسى عليه السلام، نجد المكان يلوح من الأحداث، وكل مكان يحدد في القصة نجد له تأثيرًا في تطور الحدث.

فالله - سبحانه وتعالى - يوحي إلى أم موسى بقوله: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾[1].

فأم موسى تؤمر أن تضع صغيرها في تابوت، ثم تلقيه في اليم، واليم يلقيه بالساحل، ثم يلتقطه فرعون وآله.

فهذه الأمكنة أسهمت في نمو الحدث، حيث إن كل مكان منها أسلم موسى عليه السلام إلى المكان الآخر، حتى وصل إلى فرعون.

ولا تتوقف المكانية في القصة عند هذا الحد، إذ نجد أخت موسى تخرج من بيتها لترقب تابوت أخيها عن بعد حتى لا يشعر بها أحد، وفي ذلك يقول - تعالى -: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[2]. وهذا التصرف منها، له دور كبير في إنقاذ موسى والستر عليه. وتكتمل تفاصيل الحدث حين يعود الصغير من قصر فرعون إلى بيت أمه محفوفًا بالعناية والتكريم: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾[3].

ولقد أضفى تنقل موسى عليه السلام من مكان إلى مكان، أضفى على

---

(١) سورة طه، جزء من الآية: [٣٩].

(٢) سورة القصص، جزء من الآية: [١١].

(٣) سورة القصص، جزء من الآية: [١٣].

الأحداث لونًا خاصًا، حيث نماها وطوّرها بحيث تتحقق العظة والعبرة.

وتستمر المكانية وتأثيرها في نمو الأحداث في قصة موسى ﷺ، إذ نجده بعد أن بلغ أشده واستوى، يخرج من مصر إلى مدين، بعد حادثة مقتله القبطي.

ولذكر « مدين » في القصة أهمية كبرى، لكونها المكان الذي سيعيش فيه موسى ﷺ مدة عشر سنوات كاملة فيعد لتحمل الرسالة والنبوة.

وعند ماء مدين، وهو المكان الذي التقى موسى ﷺ فيه بالمرأتين، نجد تصويرًا للمعيشة التي كان يعيشها أهل مدين، فبيئتهم بيئة رعي، بدليل ازدحام الرعاء على الماء لسقي ماشيتهم. ويبدو أن مدين لم تأخذ من ركب الحضارة والتقدم ما أخذته مصر. وقد عاش موسى ﷺ فيها مع زوجه مدة الأجل الذي اتفق عليه مع شيخ مدين راعيًا للماشية، بعد حياة الرفاهية التي عاشها في قصر فرعون.

ولعل في ازدحام الرعاء حول البئر، ووقوف المرأتين دونهم، ما يكشف عن بعض خصال القوم، وما فيها من لؤم وقلة مرؤة، حيث إنهم لم يرحموا ضعف المرأتين فيقدموهما عليهم !، بل لم يوجد رجل يتطوع لخدمتهما فيساعدهما ! وقد يكون هذا الأمر سبب عدم استئجار الشيخ رجلًا منهم لرعي ماشيته !.

كما يكشف وجود المرأتين في مكان أسفل من مكان القوم، عن عفتهما وحيائهما. بل إن الحياء يبرز على أشده حين يصور القرآن مشية إحداهما، وهي خارجة من بيتها، ومتجهة إلى موسى في المكان الظليل الذي أوى إليه، فيقول - تعالى -: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[1].

---

(١) سورة القصص، جزء من الآية: [٢٥] .

وفي بيت الشيخ يدور حوار بين موسى عليه السلام وبين الشيخ، وفي أثناء ذلك، تتدخل إحدى الفتاتين بعرض فكرة استئجار موسى عليه السلام على أبيها، ويختتم اللقاء بالاتفاق المعلوم بين الرجلين.

إن هذه الأماكن لتلقي ظلالًا على الأحداث، بل إن كل مكان في القصة قد أثر في الحدث من حيث تطوره، وصبغه بلون خاص، ومن حيث أخذ العبرة والعظة منه.

وفي قصة مسير موسى عليه السلام بأهله بعد أن قضى الأجل، نجد أن المكان الذي طلب موسى عليه السلام من أهله أن يمكثوا فيه غير محدد، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾(١). ولكن! من الواضح أنه ليس ببعيد عن الجبل الذي آنس من جانبه نارًا، إذ ليس من المناسب أن يترك نبي الله أهله وحدهم في مكان بعيد عن الجبل.

وحين نقرأ قصة سليمان عليه السلام وملكة سبأ، نجد تحديدًا للمكان الذي عاشت فيه الملكة، ذلك هو «سبأ» في اليمن، وسبأ بلدة يعبد أهلها الشمس من دون الله، وهذا أمر خطير لارتباطه بالعقيدة، فكان لابد من تحديده وتعيينه تمهيدًا لدعوة أهله إلى الإسلام.

وسليمان عليه السلام في ذلك الوقت كان يقطن القدس في فلسطين، والمسافة بين سبأ والقدس بعيدة جدًا، وهذه الفسحة المكانية بين الموضعين، تكشف عن عظمة ملك سليمان عليه السلام، وما أوتيه من معجزات؛ فالهدهد يقطع المسافة بين المكانين في وقت وجيز، ثم يعود إلى سبأ سريعًا ليلقي إليهم كتاب سليمان عليه السلام! والعفريت المسخّر لخدمة نبي الله يعرض

---

(١) سورة القصص، جزء من الآية: [٢٩].

قدرته على الإتيان بعرش الملكة من سبأ قبل أن يقوم سليمان عليه السلام من مكانه ! والذي عنده علم من الكتاب يحضر عرش الملكة في أقل من طرفة عين ! .

إنها معجزات عظيمة أبرزتها المكانية في القصة، وجعلت الملكة تبهر وتدهش بعد أن رأت ما يفوق قدرة البشر ! .

كما يجيء وصف للمكان الذي أمر سليمان عليه السلام الملكة بالدخول إليه وهو الصّرح الممرد من قوارير: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ .

فالمكان بهذا الشكل، وبهذه الصفة أمر لم تر الملكة له مثيلًا، ولهذا سارعت بإعلان إسلامها: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

وفي قصة مريم الصديقة، نجد أن للمكان تأثيرًا كبيرًا في نمو الأحداث، وفي إقامة شواهد العظة والعبرة منه؛ فمريم يأتيها الرزق في محرابها ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾(٢).

والسبب - والله أعلم - يعود إلى أن الصلاة مفتاح الرزق، ومريم كانت متبتلة في محرابها، تتعبد فيه ليلًا ونهارًا، فرزقت في مكان تبتلها وعبادتها.

كما أن دعاء زكريا عليه السلام بهبة الولد كان في محراب مريم، وقت تنزل الرزق، فهو مكان فاضل وزمن فاضل، وقد استجاب الله له في الحال وهو قائم يصلي: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً

---

(١) سورة النمل، الآية: [٤٤] .

(٢) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٣٧] .

إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾[١].

وفي القصة أن مريم ﴿ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[٢].

وذكر المكان الشرقي في القصة مهم، إذ إنه الموضع الذي ستتلقى فيه مريم النفخة من روح الله، وأمر عظيم كهذا يناسب أن يحدث لمريم في مكان لا يراها فيه أحد، حتى أهلها أقرب الناس إليها.

وفي مجيء الملك إليها في صورة بشر سوي في ذلك المكان البعيد عن أهلها، سبرٌ لعفتها، وإثبات لطهارتها ونزاهتها، فلقد سارعت بالتعوذ بالله منه برغم صباحته وجماله !.

وتستمر المكانية في القصة، لنشهد مريم بعد أن حملت بعيسى - عليه السلام - تنتبذ به مكانًا قصيًا، أي شديد البعد. ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾[٣]. وإن كان ذلك المكان غير محدد في القصة، ولكنه شديد البعد، ومما لا ريب فيه أن اختيار مريم لمكان قصي يوحي بشدة القلق والضيق الذي كانت تعانيه من جراء خشيتها قالة الناس، وهذا الضيق فجره قولها حين المخاض: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[٤].

وتلد مريم في ذلك المكان القصي عند جذع النخلة التي ألجأها المخاض إليها، وهذا الموضع له أهمية كبرى في القصة، إذ إنه سيشهد

---

(١) سورة آل عمران، الآية: [٣٨] ، وجزء من الآية: [٣٩] .

(٢) سورة مريم، جزء من الآية: [١٦] ، والآية: [١٧] .

(٣) سورة مريم، الآية: [٢٢] .

(٤) سورة مريم، جزء من الآية: [٢٣] .

الكرامات التي تحققت لمريم، فالجذع اليابس سيجري فيه ماء الحياة، فيعود جذعًا حيًا لنخلة مثمرة تساقط رطبًا جنيًا على مريم، وسيجري عند هذا الجذع، ومن تحت مريم نهر سري، لتأكل مريم وتشرب، وتقر عينها بما سخره الله لها.

بقي أن نقول: إن الله - ﷻ - وصف المكان الذي آوت إليه مريم وابنها عيسى، بعد أن فرت به من ظلم ملكهم في ذلك الوقت[١]. فقال - تعالى -: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[٢].

فالله - ﷻ - يذكر أنه ضم مريم وابنها وصيرهما إلى ربوة، والربوة هي المكان المرتفع من الأرض على من حوله.

واختلف في هذه الربوة، فقيل: إنها الرملة من فلسطين، وقيل: هي دمشق، وقيل: هي ربوة من ربا مصر، وقيل: هي بيت المقدس، ولكن السياق القرآني لا يحدد أي الأماكن هي، والأولى أن يُكتفى بوصفها كما جاء في القرآن دون تحديد مكانها.

فهي مكان مرتفع ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي يستقر عليها ساكنوها؛ لانبساطها وسهولتها أو لأنها ذات ثمار وزروع، ﴿وَمَعِينٍ﴾ أي وذات ماء ظاهر جار على وجه الأرض[٣].

وفي وصف هذا المكان الذي ضمهما الله - سبحانه وتعالى - إليه ما ينبيء عن كرامة مريم وابنها على الله - سبحانه وتعالى - ، ورفعة شأنهما، حيث اعتنى بهما، وضمهما إلى أطيب الأمكنة وأهنئها للعيش.

---

(١) ينظر: الرازي: التفسير الكبير ج٢٣، ص١٠٣.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: [٥٠].

(٣) ينظر: الطبري: جامع البيان مج ١٠، ص ٣٣ - ٣٦.

المبحث الثالث

الدور الوظيفي وتفاوته بين الشخصية الرئيسة والشخصية الثانوية

إن من الملاحظ في القصص القرآني أن المرأة تأخذ مكانها فيه باعتبارها إنسانًا لها وجودها الإنساني وما يخضع له هذا الوجود من ضرورات الحياة، وما يتسلط عليه من مؤثرات الخير والشر. ولها شخصيتها التي تعبِّر عنها بالإرادة المتحررة والفكر المستقل.

ثم إنها امرأة لها وجودها الأنثوي وما يخضع له هذا الوجود بحكم غرائزها، وعواطفها، وميولها.

ولقد مرّ بنا في فصل الأبعاد نماذج كثيرة لأبعاد شخصية المرأة عقديّا ونفسيًا واجتماعيًا.

هذا وعلى الرغم من أن شخصية المرأة في القصص القرآني تبرز عنصرًا أصيلًا من عناصر العمل القصصي لكننا لا نجدها إلا حين يستدعي الحدث وجودها، ذلك أن القرآن الكريم لا يستجلبها لإثارة الغرائز الوضيعة، ولا لتهييج الشهوات - كما يفعل أرباب الفن الساقط والفكر الوضيع -، وإنما يجيء بها حين تدعو إليها دواعي الحال، ويقتضيها المقام، غير منظور إليها نظرًا خاصًا كلون من الألوان المضيئة في القصة.

وإذا كان القرآن الكريم لا ينقل إلا أحداثًا واقعة، وحقائق ثابتة، فإنه ينظر في الأحداث التي يسوقها مساق القصة للعبرة والعظة، فإن كان للمرأة مكان في هذا الحدث جاء بها لتأخذ مكانها في تلك الحادثة على نحو ما

وقعت عليه، وإن لم يكن لها مكان في هذا الحدث فلا يرى لها وجه، ولا يجرى لها ذكر.

على أن روعة القصص القرآني الذي لم تذكر فيه المرأة ليست بأقل من روعة القصص الذي ذكرت فيه، وذلك شأن القرآن الكريم في قصصه الحق الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[١].

فليست المرأة في القصص القرآني مقصودة لذاتها، وليست من العناصر التي يمكن إغفالها، بل تأتي حين يكون لها دور ومكان في الحدث الذي تخير القرآن عرضه أيًّا كان هذا الدور أو هذا المكان[٢].

وإذا كانت شخصية المرأة في القصص القرآني لا تبرز إلا حيث تحقق هدفًا معينًا، كان لابد من تصنيف الشخصيات النسوية في القصص القرآني حسب الوظيفة الفنية التي تؤديها إلى قسمين، وهذان القسمان هما:

أ - **شخصيات رئيسة**: وهي التي تسهم في صنع الأحداث، أو هي التي تدور حولها أو بها الأحداث، فتكون محور القصة، والرابطة بين مختلف أشخاصها الآخرين، فتظهر أكثر من الشخصيات الأخرى، ويكون حديث الشخصيات الأخرى حولها[٣].

ب - **شخصيات ثانوية**: وأهميتها تكمن في علاقتها مع الشخصيات الرئيسة، إذ إنها تلقي ضوءًا كاشفًا عليها، وتؤدي دورًا مهمًا في توضيح القصة، وتوجيه الحبكة والأحداث[٤].

---

(١) سورة فصلت، الآية: [٤٢].

(٢) ينظر: عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص ١١٢ - ١١٦.

(٣) ينظر: د/ محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص ٥٣٣. وينظر: د/ عبد القادر أبو شريفة: مدخل إلى تحليل النص الأدبي، ص ١٣٥.

(٤) ينظر: د/ محمد نجم: فن القصة، ص ٣٨.

ومن جهة أخرى فإن شخصيات القصص سواء كانت رئيسة أم ثانوية تصنف إلى نوعين ممتازين حسب الثبات أو التفاعل مع أحداث القصص، وذلك على النحو التالي:

أ - **أن تكون الشخصية ذات جانب واحد،** بمعنى أن تبقى ثابتة الصفات أو الأفكار من مبدأ القصة حتى نهايتها، فلا تؤثر فيها الحوادث، ولا تغير من جوهرها[(١)].

ب - **أن تكون الشخصية ذات جوانب عديدة،** بمعنى أن تأخذ بالنمو والتطور إيجابًا أو سلبًا بصراعها وتفاعلها المستمر مع أحداث القصة أو مع المجتمع، فتؤثر، وتتأثر، وتتغير من موقف إلى موقف، وتتكشف للقاريء كلما تقدمت في القصة، وينتهي تفاعلها بنتيجة ما[(٢)].

على أن اللافت للنظر هو أن شخصية المرأة في القصص القرآني ذات دور ثانوي - بشكل عام -، باستثناء شخصيتين مثلتا دورًا رئيسًا في القصة، هما: ملكة سبأ، ومريم ابنة عمران.

وهذا ما يؤكد لنا أن شخصية المرأة في القصص القرآني ليست مقصودة لذاتها، وإنما تأتي متى ما كان لها دور ومكان في الحدث.

كما أن شخصيتها تتفاوت بين جانبي الثبات والتطور، كما سيرى القاريء أثناء عرض نماذج لذلك كله.

ولعل الباحثة تبدأ بعرض نماذج الشخصيات الرئيسة، ثم تتبعها بعرض بعض نماذج الشخصيات الثانوية، مع بيان ما تتصف به كل شخصية من ثبات أو نمو.

(١) ينظر: د/ محمد هلال: النقد الأدبي الحديث، ص ٥٢٩، وينظر: د/ محمد نجم: فن القصة، ص ٨٥، وينظر: د/ عبد القادر أبو شريفة: مدخل إلى تحليل النص الأدبي، ص ١٣٤.

(٢) ينظر: د/ محمد هلال: المرجع السابق، ص ٥٣٠، وينظر: د/ محمد نجم: المرجع السابق، ص ٨٥، وينظر: د/ عبد القادر أبو شريفة: المرجع السابق، ص ١٣٥.

(أ) الشخصيات الرئيسة:

١- ملكة سبأ:

وشخصيتها الرئيسة تأتي في المقام الثاني بعد شخصية نبي الله سليمان عليه السلام، وقد ركزت القصة في الآيات الواردة في سورة النمل على ما بذله سليمان عليه السلام من مساع حميدة في دعوتها إلى الله - عز وجل - ، وموقفها من دعوته، والأحداث التي دارت حولهما وبهما، حتى انتهاء القصة بانتصار الحق على الباطل، وإعلان الملكة إسلامها لله رب العالمين.

وتتعاضد مجموعة من الشخصيات الثانوية مع الشخصيتين الرئيستين؛ فتسهم في تطوير الأحداث، وفي إلقاء أضواء كاشفة على شخصية كل منهما، وسرعان ما تختفي تلك الشخصيات بانتهاء دورها. والشخصيات الثانوية التي وردت في القصة هي:

أ- **الهدهد**: ويقوم بدور المستكشف لخبر الملكة وعقيدتها، ثم بدور رسول سليمان - عليه السلام إلى الملكة، ويختفي بعد ذلك، بعد أن أدى دوره، وبعد أن أسهم في تجلية بعض المعالم عن شخصية الملكة من حيث ثراؤها، وصفة عرشها، وضعف تمييزها حين كفرت بالله.

ب - **ملأ الملكة**: وينحصر دورهم في المشورة على الملكة في أمر كتاب سليمان - عليه السلام بعد أن قرأته عليهم، وطلبت مشورتهم. ويلاحظ أنهم يتركون لها حرية التصرف بعد أن أبدوا رأيهم، فيقولون: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾[١]، كما أن حوارها معهم يكشف عن كثير من صفاتها العقلية، وحنكتها السياسية. وقد تقدم الحديث عن هذه الصفات التي أسهم ملؤها في الكشف عنها في فصل الأبعاد، فليرجع إليه[٢].

---

(١) سورة النمل، جزء من الآية: [٣٣].

(٢) ينظر ص١٦٧ وما بعدها من البحث.

ج- رسل الملكة: ودورهم في القصة هو حمل هدية الملكة إلى سليمان عليه السلام وقد أدى مجيؤهم إلى سليمان عليه السلام، إلى تحريك الأحداث وتطورها، وذلك حين غضب سليمان عليه السلام من مصانعة الملكة له، فهددها وقومها بالحرب، وأذعنت هي للمسير إليه.

د- جند سليمان: وأبرزهم، العفريت من الجن الذي عرض خدمته على سليمان عليه السلام، بإحضار عرش الملكة قبل أن يقوم سليمان عليه السلام من مقامه، والذي عنده علم من الكتاب، وهو من استطاع إحضار العرش قبل أن يرتد إلى سليمان عليه السلام طرفه.

وفي ذكر خبر هذين الجنديين في القصة دلالة على ما سخر لسليمان عليه السلام من جنود ذوي قدرات هائلة، وهو ما سيكون سببًا في دخول الملكة في دين الإسلام عن اقتناع تام.

وإذا كانت شخصية ملكة سبأ تعد رئيسة في القصة، فإنها - مع ذلك - تتسم بسمة التطور، والنمو الإيجابي، والسبب في ذلك يعود إلى أنها تأثرت بالمعجزات الباهرات التي أوتيها نبي الله سليمان عليه السلام، كما تأثرت بالأسلوب الدعوي الفذّ الذي اتبعه في دعوتها إلى دين الله - عز وجل -، وقادها هذا التأثر إلى تغيير عقيدتها من المجوسية إلى الإسلام، فهي شخصية مرنة، قابلة للتغير الإيجابي، كما أن صفاتها العقلية والقيادية التي امتازت بها شخصيتها، تكشفت لنا من جراء نمو الأحداث، وتفاعلها المستمر معها.

٢- مريم ابنة عمران:

وهي شخصية رئيسة بارزة، دارت حولها وبها أحداث كثيرة، فكانت محور القصة في سورتي آل عمران ومريم، والرابط بينها وبين الشخصيات الأخرى، كما أن لها دورًا بارزًا في تطور الحوادث، ودفعها نحو النمو.

فقصتها تأتي مفصلة لأهم الأحداث التي مرت بها، منذ أن كانت جنينًا وحتى كبرت وأصبحت أمّا لعيسى ﷺ، وواجهت به قومها.

وتشترك في قصتها بعض الشخصيات الثانوية التي أسهمت في دفع الأحداث، وفي إلقاء ضوء كاشف على شخصيتها، وقد تقف القصة هنيهة لتلقي ضوءًا على بعض هذه الشخصيات التي أسهمت في نمو الأحداث، حسب الحاجة لذلك، وحسب الدور الذي قامت به، والهدف المتوخى من القصة. والشخصيات الثانوية البارزة في القصة هي:

أ- **امرأة عمران**: وهي أم مريم الصالحة، التي نذرت ما في بطنها لله، ثم سمت مولودتها مريم، وعوذتها وذريتها من الشيطان الرجيم. ولقد أثر صلاح هذه الأم في صلاح ابنتها، كما أثر في شخصية مريم اسمها الذي اختارته لها أمها ليتطابق مع ما كانت تؤمله منها من عبادة وتبتل.

ب - **زكريا** ﷺ: ويقوم في القصة بدور الكافل لمريم، ويؤدي هذه المهمة خير أداء، توجيهًا واهتمامًا وحسن تربية. ومن خلال سؤاله لمريم عن مصدر الرزق الذي يأتيها في محرابها، وردها عليه بأنه من عند الله[1]، يتكشف لنا كثير من الصفات التي امتازت بها مريم، من تقوى، وطمأنينة، وسكينة. كما أن شخصيته تتأثر بشخصية مريم بعد ما رأى من صلاحها وكرامتها على ربها - عز وجل - فتتوق نفسه للذرية الطيبة، فيسألها الله - سبحانه وتعالى - فيستجيب الله له، ويهبه يحيى، ثم تختفي شخصيته من القصة.

جـ - **الملائكة**: وهم رسل الله - عز وجل - المنفذون لأمره - سبحانه وتعالى - . ويقومون في القصة بالتردد على مريم في محرابها، وبشارتها، ومحاورتها في أثناء ذلك.

---

(١) ينظر: سورة آل عمران، الآية: [٣٧] .

فلقد بشروها في المرة الأولى بالاصطفاء والتطهير(١)، وفي المرة الثانية، بشروها بعيسى، وردوا على تساؤلها عن كيفية ذلك(٢)، وفي المرة الثالثة جاءها جبريل في صورة بشر سوي؛ ليهب لها - بأمر الله - غلامًا زكيًا(٣)، وجرى لها معه ما سبق الحديث عنه بالتفصيل في فصل الأبعاد(٤).

ولم يكن تردد الملائكة على مريم في المرتين الأوليين إلا لأجل تثبيتها، وتطمين قلبها، وتقوية إيمانها، والتمهيد لتحقيق أمر الله - سبحانه وتعالى - بالنفخ فيها.

ولقد أثبت وجود الملائكة في القصة، فضل مريم، وعلو شأنها، وارتفاع مكانتها عند الله - سبحانه وتعالى -، كما تطورت أحداث القصة، وتنامت، وتصاعدت بعد أن نفخ جبريل عليه السلام فيها من روح الله.

د- قوم مريم: وتظهر شخصياتهم آخر القصة، وذلك حين يرون مريم متجهة إليهم وهي تحمل وليدًا بين ذراعيها، فيتهمونها، ويطعنون في عرضها، ولا تشفع لها عندهم سيرتها الحسنة، ولا مكانة أهلها العظيمة! ولكنهم يلوذون بالصمت بعد أن ينطق وليدها في مهده!.

ومما لا ريب فيه، أن لوجودهم في القصة أثرًا في الكشف عما امتازت به مريم من شجاعة وسكينة وثبات، وذلك حين واجهتهم بعيسى عليه السلام ، وتحملت نقدهم اللاذع؛ فالتزمت الصمت حتى برأها الله - عز وجل - على لسان عيسى عليه السلام.

---

(١) ينظر: سورة آل عمران، الآية: [٤٢].

(٢) ينظر: سورة آل عمران، الآية: [٤٥].

(٣) ينظر: سورة مريم، الآية: [١٦ - ١٩].

(٤) ينظر: ص١٢٥ وما بعدها، وص١٨١ وما بعدها من البحث.

وفي تكلم عيسى عليه السلام في مهده، آية من آيات الله الذي لا يعجزه شيء، كما قال - تعالى -: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾[١]، ولولا اتهام قوم مريم لها لما نطق عيسى.

وهكذا، فالشخصيات الثانوية في القصة، جاءت تدعم شخصيَّة مريم، وتلقي أضواء كاشفة عليها، وتسهم في توجيه أحداث القصة وحبكتها.

على أن شخصية مريم الرئيسة تبدو في القصة ثابتة الصفات من جهة، ومتطورة إيجابًا من جهة أخرى.

ذلك أن السمات العقدية والسلوكية العبادية والخلقية والتربوية كانت ثابتة في شخصيتها من مبدأ القصة حتى نهايتها، وفي كل موقف من مواقفها في القصة يظهر ما يؤكد ثبات هذه السمات. وحتى الأحداث العظيمة التي واجهتها من النفخ فيها، وخشية القالة في عرضها، واتهام قومها لها بعد ذلك، كل هذه الأحداث لم تغير من جوهرها، فبقيت على ثبات مبدئها وقوة يقينها من أول القصة وحتى نهايتها.

بيد أن صراع مريم مع الأحداث، وتأثرها بما حدث لها، وتأثير شخصيتها على من حولها، وتكشف شخصيتها للقاريء بعد كل موقف من مواقفها، كل هذا يستدعي القول: إن شخصية مريم كانت متطورة إيجابًا.



(١) سورة المؤمنون، جزء من الآية: [٥٠].

(ب) الشخصيات الثانوية:

١- حواء:

وتعد شخصيتها ثانوية، لأنها تسهم في القصة في تعضيد الشخصية الرئيسة فيها وهي شخصية آدم عليه السلام زوجها. ولهذا نجد التركيز منذ بداية القصة على شخصية آدم عليه السلام من حيث خلقه، وأمر الملائكة بالسجود له، وخلق حواء منه، وإسكانهما الجنة.

فشخصية آدم عليه السلام هي الأوضح باعتبارها الأصل ومحور القصة، وأما حواء فشخصيتها مساندة له.

ويشترك في قصة الزوجين، الشيطان، وهو شخصية ثانوية، حيث يقوم بالوسوسة لكلا الزوجين، وإغرائهما بالأكل من الشجرة المحرمة. ولا يزال بهما حتى يقعا في المحظور، فإذا وقعا فيه، انتهى دوره من القصة.

وقد أدى إغراؤه لآدم وحواء بالأكل من الشجرة إلى تطور الأحداث، ودفعها إلى الأمام، فلولا إغراؤه لما اقتربا من الشجرة، وأكلا منها، ولولا أكلهما منها لما أهبطا إلى الأرض !وكل ذلك جرى بتقدير الله - عز وجل - .

وتعد شخصية حواء شخصية نامية إيجابًا، وذلك لأن ما حدث لها ولآدم من انكشاف السَّوءة، وعتاب الله لهما بعد المعصية، كان سبب توبتهما وإنابتهما، فلم يصرا على المعصية، ولم يكابرا كما فعل إبليس. بل إن شخصيتها وآدم يتكشف لنا منهما أكثر من جانب من خلال عرضهما النامي، ومن ذلك جانب الضعف البشري، وجانب حب الخلود والنعيم، وجانب الشعور بالندم. . . وكل هذه الأمور سبق للباحثة عرضها في فصل الأبعاد[١].

---

(١) ينظر: ص٩٧ وما بعدها من البحث.

٢ - سارة :

زوج إبراهيم الخليل عليه السلام ، والتي أسهمت في مناصرته في هجراته إلى الله، ومؤازرته في دعوته، ومعاونته على أداء حق ضيوفه.

وفي قصتها تظهر شخصيات ثانوية أخرى، وهم الملائكة ضيف إبراهيم عليه السلام، الذين يؤدون دور بشارتها وزوجها بغلام، ويحاورونها في شأنه بعد أن رأوا تعجبها من البشارة.

وتعد شخصيتها في القصة شخصية ثابتة؛ لأن القصة تركزّ على جانب طاعتها لزوجها، ومعجزة الولد التي أكرمها الله بها، وموقفها من ذلك، والثناء عليها.

٣-امرأة لوط :

ودورها الثانوي في القصة هو خيانة زوجها لوط عليه السلام ، ومعاونة قومها على وضع العقبات في طريق دعوته، والاستهزاء به، وتأييدهم على الفجور والطغيان، ودلالتهم على ضيفه.

وتظهر معها في القصة شخصيات ثانوية أخرى، وهم؛ الملائكة الذين يرسلهم الله - عز وجل - لإهلاك قوم لوط. ويلقي السياق القرآني عليهم بعض الأضواء، حين قدموا إلى بيت لوط في صورة شباب حسان، من أجل إقامة الحجة على قومه، وما جرى لهم معه ومع قومه بهذا الشأن.

وآل لوط، وقد ذكر المفسرون أنهما ابنتاه - والله أعلم -، وقد استثنى الله - سبحانه وتعالى - هؤلاء الآل من العذاب، بدليل قوله - تعالى -: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾[1].

(١) سورة هود، جزء من الآية: [٨١] .

وتعد شخصية امرأة لوط ثابتة، وذلك لأن الأحداث لم تغير من معدنها الفاسد، ودعوة زوجها لم تؤثر فيها، بل ظلت على كفرها وطغيانها حتى أصابها ما أصاب قومها من العذاب. ومثلها في ثبات صفات الكفر والطغيان، امرأة نوح، وقد جمعهما الله - ﷻ - في آية واحدة لتشابه صفاتهما، وتوافق موقف كل واحدة منهما من زوجها النبي، فقال - تعالى - : ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾[1].

٤- امرأة العزيز:

ويسهم وجودها في قصة يوسف عليه السلام في تطور الأحداث وتحريكها، فلقد أمسكت بزمام القصة من أول ما دخل يوسف عليه السلام بيتها غلامًا مشترى إلى أن أُدخل السجن بسببها ثم كان اعترافها بذنبها بعد ذلك سببًا في خروجه من السجن وتمكينه في الأرض.

وشخصيتها والشخصيات الأخرى التي وردت في القصة، كانت عونًا في نسبة الأحداث إلى يوسف عليه السلام ثم على تطور هذه الأحداث لتصبح قصة مترابطة[2].

وتعد شخصية امرأة العزيز من الشخصيات النامية إيجابًا، وذلك لأن صراعها وتفاعلها المستمر مع الأحداث ومع المجتمع، جعل شخصيتها تتطور وتنمو نحو الأفضل.

ففي المدة التي راودت فيها يوسف عليه السلام وما تلتها من أحداث نتج عنها

---

(١) سورة التحريم، الآية: [١٠] .

(٢) ينظر: د / تمام حسان: البيان في روائع القرآن، ص ٥٥٨.

الزج بيوسف عليه السلام في السجن، في هذه المدة تظهر المرأة بجانبها الشرير.

ولكنها تُرى بعد ذلك مع النسوة أمام ملك مصر في صورة أخرى، وقد تطورت شخصيتها تطورًا فرديًّا سريعًا متجهًا حيث الخير والنهاية السعيدة[1]. ويتجلى هذا التطور باعترافها بذنبها صراحة، وإعلان ندمها وتوبتها من الذنب. كما تطورت معها شخصيات النسوة، فطغى جانب الخير والحق في نفوسهن على جانب الشر والظلم الذي دعاهن إلى التواطؤ مع امرأة العزيز على مراودة يوسف عليه السلام وموافقتها على مجونها، ويتضح تطور شخصياتهن الجماعي من اعترافهن أمام الملك ببراءة يوسف عليه السلام ونزاهته.

٥- النسوة في قصة موسى عليه السلام:

وهن أمة وأخته وامرأة فرعون. وشخصياتهن ثانوية؛ لأنهن تضافرن في مساندة شخصية موسى عليه السلام الرئيسة، وتحقيق مسارها في القصة نحو النمو والاكتمال. وقد مرّ في فصل الأبعاد، ما فعلته كل امرأة منهن في سبيل حماية موسى عليه السلام والستر عليه.

وأما ابنتا شيخ مدين، فوظيفتهما الثانوية تكمن في دلالة أبيهما على موسى عليه السلام والتسبب في إبقاء موسى في مدين مدة الأجل المعلوم الذي اتفق عليه مع والدهما، كما أسهمتا في الكشف عن بعض ما يتمتع به موسى عليه السلام من صفات خَلْقِية وخُلُقية، أبرزها؛ القوة والأمانة، وهما مناسبتان تمامًا لمهمة استئجاره. وقد تزوج موسى عليه السلام بإحداهما فكانت له عضدًا ومعينًا.

---

(١) ينظر: د/ حسن محمد باجودة: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف، ص ١٠٥، مطبوعات تهامة، جدة، المملكة العربية السعودية، ط ٢، ت ط ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

وهكذا، فكل امرأة من هؤلاء النسوة أسهمت في دفع الأحداث وتطورها. وقد وقف السياق القرآني هنيهة عند كل امرأة منهن ليلقي بعض الأضواء على شخصيتها وما امتازت به، مما فيه العظة والعبرة، ثم يدع الحديث عنها بعد أن ينتهي دورها؛ فتختفي من القصة.

بقي أن يقال: إن كل واحدة من هؤلاء تختلف شخصيتها حسب الثبات والنمو؛ فشخصية أم موسى تبدو ثابتة، وذلك لأن صفاتها الإيمانية من تقوى الله، وتوكل عليه، لم تهتز، ولم تتغير برغم ما واجهته من أحداث عظام، ومواقف جسام، أثناء ولادة موسى ﷺ. ولم تغلبها عواطف الضعف فتجعلها تخالف ما أوحى الله إليها من إلقاء صغيرها في اليم، ولم ترهبها قوة فرعون وجبروته فتجعلها تحجم عن بذل السبب في متابعة سير تابوت وليدها.

ومثلها في ثبات الصفات، ابنتا شيخ مدين، فهما ممتازتان بحسن الخلق، وأعظمه الحياء والعفة، وهاتان الصفتان هما نتاج قوة إيمانهما، وحسن تربيتهما. وقد ظلتا على هذا الامتياز الخلقي أول ما التقا بهما موسى، وحتى سار بإحداهما إلى مصر.

بيد أن امرأة فرعون، تبدو شخصية نامية إيجابًا، وذلك لأن كراهيتها لطغيان فرعون، ومقتها لتصرفاته الرعناء، وتأثرها بشخصية نبي الله موسى ﷺ، وما أُيِّد به من معجزات، كل هذا جعلها تعتنق الإسلام، فتتبدل شخصيتها تبعًا لذلك من الكفر إلى الإيمان، ومن التعلق بالدنيا وزخرفها وبهرجها إلى الزهد فيها والرغبة فيما عند الله - عز وجل - ، وقد ظلت بعد إسلامها على ثباتها على الدين الإسلامي على الرغم مما واجهته من أذى ومحاولات لصدها عنه.

٦- امرأة أبي لهب :

ودورها الثانوي الذي كانت تقوم به هو إيذاء النبي ﷺ ومساعدة زوجها أبي لهب على النيل منه، وإيذائه، والسخرية من دعوته. وكانت هي وزوجها من أشد العقبات التي واجهها النبي ﷺ في طريق دعوته إلى الله، وظلا كذلك حتى أهلكهما الله - عز وجل -.

وشخصيتها من الشخصيات الثابتة الصفات؛ لأنها بقيت على حسدها وطغيانها وإيذائها لرسول الله ﷺ حتى ماتت.

ومما سبق نجد أن شخصيات النساء في القرآن، شخصيات ثانوية، ماعدا المرأتين اللتين ذكرتا في بداية هذا المبحث.

على أن هناك ملاحظة مهمة يجدر بالباحثة الإشارة إليها، وبيان سببها في ختام هذا الفصل. ألا وهي: أن القرآن الكريم أغفل جميع أسماء شخصيات النساء في قصصه، الرئيسة منها والثانوية، ما عدا مريم ابنة عمران !

فهو يعبر عن المرأة دائمًا بلفظة « **امرأة** » مضافة إلى زوجها سواء كان اسمًا ظاهرًا أم ضميرًا، إن كانت متزوجة، فيقول حين يريد إضافتها إلى اسم الزوج الصريح: « امرأة نوح وامرأة لوط »، « امرأة فرعون »، « امرأة العزيز »، « امرأة عمران ».

ويقول حين يريد إضافتها إلى ضمير يعود على زوجها: « **امرأته** »، كما في زوج إبراهيم: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾[1]، وامرأة أبي لهب: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾[2]، أو: « **امرأتي** » باستخدام ضمير المتكلم، كما في زوج زكريا: ﴿وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾[3].

(١) سورة الذاريات، جزء من الآية: [٢٩].

(٢) سورة المسد، الآية: [٤].

(٣) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٤٠].

وقد يؤتى بلفظ : « زوج » كما في زوج آدم : ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾[١]، وزوج زكريا : ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ﴾[٢]. أو بلفظ : ﴿بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ﴾ كما جاء في قصة حفصة رضي الله عنها : ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾[٣].

كما يعبر بلفظ : « الأهل »، كما في زوج إبراهيم : ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾[٤]، زوج موسى : ﴿فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾[٥].

وأما إن كانت المرأة غير متزوجة، فيجيء لفظ « امرأة » مرسلًا، كما في ابنتي شيخ مدين : ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾[٦]، وملكة سبأ : ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾[٧].

وأما إن كانت أمًا، فتذكر مضافة إلى ابنها ظاهرًا كان أم ضميرًا، كما في أم موسى : ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾[٨]، ومريم : ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ﴾[٩].

وكذلك الأخت، تذكر مضافة إلى أخيها، كما في أخت موسى : ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ﴾[١٠].

---

(١) سورة الأعراف جزء من الآية: [١٩] .

(٢) سورة الأنبياء، جزء من الآية: [٩٠] .

(٣) سورة التحريم، جزء من الآية: [٣] .

(٤) سورة الذاريات، جزء من الآية: [٢٦] .

(٥) سورة طه، جزء من الآية: [١٠] .

(٦) سورة القصص، جزء من الآية:[٢٣] .

(٧) سورة النمل، جزء من الآية: [٢٣] .

(٨) سورة القصص، جزء من الآية: [٧] .

(٩) سورة المائدة، جزء من الآية: [٧٥] .

(١٠) سورة طه، جزء من الآية: [٤٠] .

وقد يجاء بالوصف الدال على امرأة بعينها كالمجادلة: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾[1].

والسبب في إغفال اسم المرأة في القرآن يعود إلى أمور. منها:

١- أن أمر النساء مبني في الأصل على السّتر، وحتى لو كان ذلك في الأمور الشكلية؛ ليواكب الستر اللفظي الستر الشرعي إلا إذا اقتضى المقام غير ذلك، كما في شخصية مريم.

٢- أنه لم يتعلق باسم المرأة غرض خاص، إذ إن ذكر الاسم أو حذفه خاضع لمقتضى الحال، ومناسبة المقام.

٣- لأن المرأة المذكورة في القرآن دالة على جنسها كله، وحكمها يصدق على كل امرأة في كل زمان أو مكان، تمر بالظروف نفسها، أو بما يشبه الأحداث التي مرت بها إحدى نساء القصص القرآني.

وعلى سبيل المثال؛ « امرأة فرعون »، وقفت تتحدى الطغيان والكفر برغم منصبها الكبير، ورغم المغريات الدنيوية التي كانت متوافرة لها في قصرها العظيم، وتحملت من زوجها أعظم صنوف الأذى لصدها عن دينها، فثبتت، واستعانت بالله عليه، فنجاها الله - ﷻ -، وبنى لها عنده قصرًا في الجنة. وموقفها هذا يصدق على كل امرأة مؤمنة ابتليت في إيمانها فثبتت رغم كل ما تواجهه من محاولات لصدها عن دينها، وتغيير مبادئها وثوابتها.

وابنتا شيخ مدين العفيفتان الحييتان يصدق خلقهما هذا على كل امرأة مؤمنة تبتعد عن مخالطة الرجال الأجانب، ومخاشنتهم، والخضوع لهم بالقول، حين تعوزها الحاجة للخروج للعمل، ومحادثة الأجانب.

وامرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة أبي لهب، يصدق موقفهن على كل

---

(١) سورة المجادلة، جزء من الآية: [١].

امرأة كفرت بالله، ووقفت موقف العداء للدعوة ولعباد الله الصالحين.

٤- ومن أسباب إغفال اسم المرأة في القصص القرآني، أن الحدث في قصصهن هو العنصر الأساس، والشخصية من العناصر المساعدة.

وأما مريم ابنة عمران، فالأمر مختلف، فلقد ذكر اسمها صراحة في القرآن، وسبب ذلك يعود إلى أمرين:

أحدهما: بيان أن عيسى عليه السلام ابنها، وليس ابن الله - كما يدعي النصارى - ، وأنه عبد الله، وليس إلهًا يعبد مع الله أو من دون الله. وأن وجوده كان بنفخة من روح الله، لمعجزة إلهية من غير أب. ولهذا اقتضى الأمر التركيز عليها، وتسليط الأضواء على شخصيتها. فوجود اسمها عامل مهم من عوامل التأثير في القصة باعتبارها الشخصية الرئيسة فيها، والأحداث تبع لها.

وثانيهما: بيان امتيازها على جميع النساء بولادة عيسى عليه السلام من غير بعل، فقد جعلها الله - عز وجل - آية للعالمين باختصاصها بهذا الفضل العظيم[1]. فالأمر لها خاصة وليس لكل امرأة.

وهكذا، فذكر اسم المرأة يخضع للهدف المتوخى من القصة، ولهذا أغفل القرآن الكريم جميع النساء خلا مريم؛ لأنه لم يتعلق بذكر أسمائهن أدنى فائدة.



(١) ينظر: عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص ١١٦ وما بعدها.

الفصل الثالث

المنهج القرآني في تناول شخصية المرأة

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: المنهج ولغة السَّرد في الكشف عن ملامح الشخصية.

المبحث الثاني: المنهج وأهمية الحوار في المشهد القصصي.

المبحث الثالث: المنهج وطرائق البناء الفني في عرض الشخصية وتصويرها.

المبحث الأول

المنهج ولغة السرد في الكشف عن ملامح الشخصية[1]

للقرآن الكريم أسلوب ممتاز في الكشف عن ملامح شخصياته، والتعبير عن أفكارها ...، فهو يعبر عن المعنى المراد بأوضح سبيل وأحسنه وأجمله، مما لا يستطيع أي بشر مهما أوتي من فنون البلاغة والفصاحة أن يأتي به ! ولعل الأساليب التالية هي أبرز ما تمتاز به لغة السّرد في القصص القرآني. فإلى الحديث عنها بالتفصيل ما أمكن:

---

(١) السَّرْدُ في اللغة: تَقْدِمَةُ شيء إلى شيء تأتي به متسقًا بعضُه في أَثَر بعض متتابعًا. وسَرَدَ الحديثَ يسردُهُ سردًا إذا تابعه، وفلان يسردُ الحديث سردًا إذا كان جيِّد السياق له، والسَّرد: المتتابع. (ابن منظور: لسان العرب، مادة سرد).

(أ) التوكيد في أسلوب السَّرد القصصي

تبرز أهمية أسلوب التوكيد فيما يقوم به من تثبيت المعنى، وإقراره، وتظهر أهميته في القصة في الدور الذي يؤديه في الملاءمة بين مواقف الشخصيات المذكورة، وبين الأساليب التي عبّرت بها عن مواقفها، حتى لكأن هذه الأساليب قد اشتقت من أجل هذه المواقف وألوان الصِّراع، بحيث إن المتلقي لا يجد عنتًا أو حرجًا في إدراك مواقف الشخصيات المتحاورة إذا فحص الأدوات المستعملة للإفصاح عن حسها ومواقفها[1].

كما أنَّ لهذا الأسلوب دورًا في الكشف عن مشاعر الشخصيات وأحاسيسها تجاه المواقف المختلفة.

وتتنوع أدوات التوكيد التي وظّفها السياق في القصص القرآني حسب ما يتطلبه المقام، ويقتضيه الحال؛ ونجد منها في قصص النساء، إنَّ، ولام الابتداء، ولام القسم وقد، وضمير الشأن، وضمير الفصل، ونون التوكيد، ومن الاستغراقية، والباء، والسين، والتاء، وكلّ، فضلًا عن الجمل الاعتراضية، وأسلوب التكرار.

وإذا ما أردنا أن نعرض للمواقف التي وظفت فيها هذه الأدوات للتعبير عن مواقف الشخصيات، وكشف انفعالاتها، فإننا نجدها متعددة كثيرة، وحسبنا عرض بعضٍ منها.

ففي قصة إغواء إبليس لآدم وزوجه، يأتي التوكيد ليترجم عن الأحداث، ويبين عن موقف إبليس من الزوجين، وموقفهما منه. والسياق القرآني يذكر هذه المحاولات التي بذل فيها إبليس جهودًا مضنية في سبيل

---

(١) ينظر: طول محمد: البنية السَّردية في القصص القرآني. ص ١٨٦.

إغواء الزوجين حتى دلاهما بغرور، يقول - تعالى -: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[1].

فلقد وسوس لهما، وحاول محاولات عدة، ولما لم يصدقاه لجأ إلى القسم مع التأكيد، كما في قوله - تعالى -: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، فأكد كلامه بأنواع من التأكيدات، هي: القسم، وإن، والجملة الاسمية المصدرة بأداة التوكيد (إن)، والإتيان بلام التأكيد في الخبر ﴿لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، والإتيان به اسم فاعل لا فعلًا دالًا على الحدث، هذا فضلًا عن تأكيد هذا النصح بدخوله في زمرة الناصحين للدلالة على عراقته في هذا النصح، ولذلك آثر التعبير القرآني: ﴿لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ على: (**إني لكما لناصح**).

وهذه التأكيدات المكثفة التي روعي فيها حال المتكلم المبالغ في الخداع دلت على أنّ آدم وحواء كانا على يقين من كذب إبليس، وعدم نصحه لهما؛ لأنه أمرهما بما يخالف أمر الله، ولأنهما طُبِعا على النفرة من المعصية؛ فترددا في إجابته، وحصل بينه وبينهما مراوغات ومحاولات دل عليها مجيء فعل ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ على صيغة المفاعلة[2]، حتى لجأ إلى تأكيد ما أقسم عليه، ولم يظنا أن أحدًا يحلف بالله كذبًا، ولم يعلما أنهما سيعاقبان بالخروج من الجنة، وطمعًا في الخلود فيها، فأكلا[3].

ولما عاتبهما ربهما بعد أن طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وقد بدت سوءاتهما، قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ

---

(١) سورة الأعراف: الآية: [٢٠ - ٢١].

(٢) ينظر: البقاعي: نظم الدرر، مج ٣، ص ١٧.

(٣) ينظر: محمد القاسمي: محاسن التأويل، جا، ص ٢٩٤.

﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[١]. فأكدّا جملة جواب الشَّرط بلام القسم، ونون التوكيد الثقيلة، والتعبير بالجمع »؛ إظهارًا لتحقيق الخسران استرحامًا واستغفارًا من الله تعالى »[٢]، مما يدل على صدق توبتهما، وشدة ندمهما.

وكان رد الله - تعالى - عليهما أن قال: ﴿ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[٣]. وقال - تعالى -: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾[٤]. الآية.

فقوله: ﴿جَمِيعًا﴾، حال في اللفظ وتأكيد في المعنى، كأنه قيل: اهبطوا أنتم أجمعون، وجاء هذا التأكيد للإيذان بتحتم مقتضاه، وتحققه لا محالة، كما جاء لتصوير شؤم المعصية وتبشيعها[٥].

وفي قصة سارة لما بشرت بإسحاق ومن ورائه يعقوب؛ ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾[٦].

فلقد تعجبت بعدما سمعت البشرى وعلمت أنها من خوارق العادات[٧]، ثم زادت تقرير التعجب بجملة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾، فهي جملة مؤكدة للاستفهام التعجبي فلذلك فصلت عن التي قبلها لكمال الاتصال، وكأنها ترددت في التصديق بأنهم ملائكة فلم تطمئن لتحقيق ما جاءوا به من بشرى[٨].

---

(١) سورة الأعراف: الآية: [٢٣].

(٢) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج ٥، ص ٦٧.

(٣) سورة الأعراف: جزء من الآية: [٢٤].

(٤) سورة البقرة: جزء من الآية: [٣٨].

(٥) ينظر: البقاعي: نظم الدرر، مج١، ص ١٠٨، وينظر: محمد القاسمي: محاسن التأويل، مج١، ص ٢٩٦.

(٦) سورة هود: الآية: [٧٢].

(٧) ينظر: البقاعي: نظم الدرر، مج ٣، ص ٥٥٤.

(٨) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج ٦، ج ١٢، ص ١٢١.

وتوكيدها هذا يبين حالة الدهش والروع التي أصابتها بعدما سمعت ما سمعت.

ولقد جاءها الجواب من الملائكة مجردًا من التوكيد: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾. ثم أكدوا بإنَّ، فقالوا: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾[(١)]، وهذه الجملة تعليل لتوجه رحمته وبركاته إليهم، بأن الله - تعالى - يحمد من يطيعه ويكرمه، ويثني عليه، وبأنه مجيد، أي عظيم الشأن لا حدَّ لنعمه، فهو قادر على أن يرزقها ما شاء، وفي هذا دليل على فضل سارة، إذ أن في اختيار صفة ﴿حَمِيدٞ﴾ من بين الصفات كناية عن رضى الله عنها وعن أهل بيت إبراهيم - عليه السلام - جميعًا[(٢)].

وأما امرأة العزيز، فإنها لما راودت يوسف عليه السلام، ودعته إلى نفسها بعد أن غلّقت عليه الأبواب وعزمت عزمًا جازمًا لا يلويها عنه شيء؛ أُكِّد هذا العزم بلام التوكيد، وقد المفيدة للتحقيق، في قوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ﴾[(٣)]، وذلك لدفع ما عسى أن يتوهم من احتمال إقلاعها عمّا كانت عليه بما في مقالته عليه السلام من الزواجر[(٤)] حين قال لها: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[(٥)].

ولما انتشر أمرها في المدينة قالت نسوة: ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[(٦)]. فلُمنها أولًا على

---

(١) سورة هود: الآية: [٧٣].

(٢) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج٦، ص١٢٢.

(٣) سورة يوسف، جزء من الآية: [٢٤].

(٤) ينظر: أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج٣، ص٩٤.

(٥) سورة يوسف، جزء من الآية: [٢٣].

(٦) سورة يوسف، جزء من الآية: [٣٠].

مراودتها ليوسف عليه السلام بقول: ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ﴾، ثم كررن لومها وأكدن عذلها «ببيان اختلال أحوالها القلبية والقالبية، وجعلها تعليلًا لدوام المراودة»[1] بقول: ﴿قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾، فهي جملة مكررة للوم، ومؤكِدة له، ومُؤَكدة في الوقت نفسه بـ«قد»، وذلك لغرابة الخبر.

ثم قوي إنكارهن، وأظهرن موقفًا صلبًا لا يقبل الجدال والمراجعة، حين استأنفن كلامهن بقول: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، بالتأكيد بإن واللام؛ لتحقيق اعتقادهن ذلك، وإبعادًا لما قد يتهمن به بأنهن يحسدنها على فتاها[2].

ولقد أتبعن أدوات التأكيد هذه بالفعل ﴿لَنَرَىٰهَا﴾ إيحاء بأنَّ هذا الحكم مستمر ومتجدد، ولا تراجع عنه. ومرادهن أنهن يعلمنها علمًا متاخمًا للعيان والمشاهدة فيما صنعتْ من أمر المراودة والمحبة المفرطة[3].

ولعلّ هذا الأسلوب المؤكد الموحي بمكر النسوة وقوة إنكارهن عليها، هو ما أوجع المرأة، وجعلها تخطط لرد مكرهن، فدعتهن، وأمرت يوسف عليه السلام بالخروج عليهن بعد أن آتت كل واحدة منهن سكينًا. ولما خرج وبهتن قالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[4]. فلامتهن وبكتتهن على ما صدر منهن من كلام، ثم اعترفت لهن بمراودتها له، وأكدته بالقسم وقد؛ استلذاذًا

---

(١) أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج٣، ص١٠٠.

(٢) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج٦، ص ٢٦١.

(٣) ينظر: أبو السعود: إرشاد العقل السليم، ج٣، ص١٠٠.

(٤) سورة يوسف، الآية: [٣٢].

بالتهتك في حبه فقالت : ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ، أي والحال أني والله لقد تحقق أني راودته . .

ثم أضافت إلى ذلك أنه أعرض عنها على أبلغ ما يكون، وأنه لم يمل إليها قط فقالت : ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ .

ثم أضافت إليه أنها مستمرة على ما كانت عليه غير معرضة عنه . وهددته وأوعدته، إيعادًا منطويًا على فنون التوكيد بمحضر من النسوة، فقالت مقسمة : ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ .

فأكدت السجن بلام التوكيد، ونونه الثقيلة، بينما أكدت الصغار بلام التوكيد ونونه الخفيفة؛ وذلك لأن عزمها على السجن أقوى من عزمها على إيقاع الصغار به، أو أن الزيادة في تأكيد السجن لأنه يلزم منه إبعاده، وإبعاد الحبيب أولى بالإنكار من إهانته[١] . ولقد أرادت من تحقيق تهديده بمحضر من النسوة أن يعلم « أنها ليست في أمرها على خفية ولا خيفة من أحد فتضيق عليه الحيل، وتعيا به العلل، وينصحن له ويرشدنه إلى موافقتها »[٢] .

وفي آخر القصة، عندما قرر الملك النسوة بذنبهن، ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾[٣] . فبالغن في نفي جنس السُّوء عنه بالتنكير وزيادة مِن الاستغراقية التي يؤتي بها لتأكيد النفي وتأكيد عمومه . أي ليس عليه ذرة سوء[٤] .

وأما امرأة العزيز فقالت : ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[٥] .

---

(١) ينظر : البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور مج٤، ص٣٥.

(٢) أبو السعود: إرشاد العقل السليم، جـ٣، ص١٠٢ - ١٠٣.

(٣) سورة يوسف، جزء من الآية: [٥١] .

(٤) ينظر : د/ فضل عباس: قصص القرآن الكريم، ص ٤١٨.

(٥) سورة يوسف، جزء من الآية: [٥١] .

وهي لم تقل عبارة: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾ لأول مرة، بل قالتها أول مرة في حضرة النسوة عندما اعترفت لهن بالمراودة فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾[١].

والفرق بين القولين؛ أن قولها: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾ جاء مؤكدًا بمؤكد واحد هو ذكر الضمير مرتين (**أنا والتاء**)، بينما القول الآخر: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾ جاء مؤكدًا بمؤكدين، هما، اللام الواقعة في جواب قسم، وقد.

ويبدو أن السَّبب في ذلك هو أن العبارة التي قالتها بمجمع النسوة كانت نابعة من عواطفها وأحاسيسها، وإلحاح رغبتها، ولهذا هددته إن لم يستجب لتلك الرغبة بقولها: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾[٢].

وأما العبارة الثانية التي قالتها في حضرة الملك فكانت في معرض الاعتراف بالذنب والإقرار بالحقيقة، ولذا أكدت صدق يوسف عليه السلام بعد اعترافها[٣]. بقول: ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾، فأكدت بإن واللام، ولم تقل: إنه لصادق، بل ﴿لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي المنتظمين في سلك الصادقين، وهذا آكد في الدلالة على صدقه.

ثم إنها أكملت فقالت: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٤].

---

(١) سورة يوسف، جزء من الآية: [٣٢].

(٢) سورة يوسف، جزء من الآية: [٣٢].

(٣) ينظر: فضل عباس: قصص القرآن الكريم، ص ٤١٨.

(٤) سورة يوسف، الآية: [٥٢ - ٥٣].

فلقد أكدت عدم خيانتها لزوجها، وإيمانها بأنَّ الله لا يهدي كيد الخائنين بأداة التوكيد « أن ».

كما أكدت السبب الحامل لها على ما فعلت بأدوات التوكيد إنَّ واللام واسمية الجملة، فقالت: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، وقد استدعى موقف الإقرار بما فعلت هذا التوكيد؛ لإيحائه بأنها معذورة فيما فعلت.

وأخيرًا، أكدت سعة رحمة الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - طمعًا منها بأن تدركها مغفرته ورحمته بأداة التوكيد (إنَّ)، فقالت: ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وتأكيدها الجملة الأسمية هنا بإنَّ وحدها؛ لارتباط المغفرة والرحمة بموقف واحد في هذا المقام.

وكل هذه المؤكدات تدل على تبدل شخصية المرأة ونزوعها إلى الندم والتوبة بعد الاعتراف بالخطأ.

وفي قصة ملكة سبأ، يجيء السياق القرآني بالمؤكدات ليكشف عن شخصيتها، ويبين عن انفعالاتها.

ومن ذلك أنها لما ألقي إليها كتاب سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، أولته اهتمامًا كبيرًا، ولم تتجاهله، بل عظمت شأنه، و﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[1].

فالتأكيد بإنَّ يوحي باهتمامها بمرسل الكتاب، وبما تضمنه الكتاب، وهذا بدوره يكشف عن شخصيتها الملوكية من ناحية حرصها على مصلحة شعبها، واحترامها لمكانة الأطراف الأخرى من الملوك المهوبين، وعدم تجاهلها لرسائلهم وكتبهم.

وعندما أبدى ملؤها رأيهم، ورجّحوا الحرب، وكانت قد أزمعت على

---

(١) سورة النمل، الآية: [٢٩ - ٣٠].

المسالمة، ردَّت عليهم مؤكدة للخبر الذي تريد ذكره ومحققة له: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[1]، فافتتحت الجملة بإن المؤكدة اهتمامًا بتحقيق الخبر فقالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ﴾ وختمتها بقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تأكيدًا للمعنى الذي أرادته، وتقريرًا له بأنَّ ذلك من عادتهم المستمرة[2].

ثمَّ اتبعت ذلك بما عزمت عليه من المسالمة فقالت: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾، فأتت بالجملة الاسمية الدالة على الثبات المصدّرة بحرف التحقيق «إني» للإيذان بأنها مزمعة على رأيها لا يلويها عنه صارف[3].

وفي هذا ما يدل على حزمها ورجاحة عقلها، إذ لو لم تكن حازمة لما أكدت ما أزمعت عليه، ولأظهرت التردد، والتبعية لرأي قومها دون تمحيص.

كما نلحظ أثر الأسلوب المؤكد على شخصية الملكة حين جاء رسولها سليمان عليه السلام بالهدية فردها وقال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[4].

فاللام في ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم﴾ لام القسم، أي فوالله لنأتينهم بجنود لا طاقة لهم بمقاومتها، وعطف على جواب القسم فقال: ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم﴾ أي: ووالله لنخرجنهم منها. ﴿أَذِلَّةً﴾ أي: حال كونهم أذلة بعد

---

(١) سورة النمل الآية: [٣٤ - ٣٥].

(٢) ينظر: أبو السعود: إرشاد العقل السليم، جـ٦، ص٢٨٤، وينظر: محمد القرطبي: الجامع لأحكام القرآن جـ١٣، ص١٩٥.

(٣) ينظر: أبو السعود: المصدر السابق، الجزء نفسه والصفحة نفسها.

(٤) سورة النمل، الآية: [٣٧].

عزهـم وتمكينهم. وفي جمـع القلـة تأكيـد لـذلتهـم[1].

وكان هذا الأسلوب المؤكد في التهديد، والذي لجأ إليه نبي الله سليمان عليه السلام سببًا في إرهاب الملكة، ومجيئها إليه مع قومها مستسلمة مسلمة.

ولما كان السبب الذي صد الملكة عن عبادة الله؛ تمكنها من عبادة الشمس، وكان هذا التمكن بسبب الانحدار من سلالة قوم مشركين، لما كان كذلك أكد السياق القرآني هذا المعنى بمجيء فعل الكون مرتين في قوله - تعالى -: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ﴾[2]. فالكفر قد أحاط بها بتغلغله في نفسها، وبنشأتها عليه، وبكونها من قوم كافرين، فمن أين يخلص لها الهدى والإيمان![3].

وفي قصة امرأة عمران أنها لما نذرت ما في بطنها محررًا، ودعت الله - سبحانه وتعالى - أن يتقبل منها، قالت بعد أن وضعتها أنثى: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[4].

فلقد كانت تترقب أن يكون ما في بطنها غلامًا، فلما وضعتها أنثى؛ ارتاعت، وحاولت مغالطة نفسها في الإذعان لهذا الحكم، ثم أكدت الخبر بإنَّ لغرابة الخبر عليها؛ تحقيقًا لكون المولود أنثى، وتطمينًا لنفسها بذلك، لأنه لم يكن متوقعًا.

ثم انتقلت إلى التحسر على ذلك؛ فقالت: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾،

---

(١) ينظر: أبو السعود: إرشاد العقل السليم، جـ٦، ص٢٨٧.

(٢) سورة النمل، الآية: [٤٣].

(٣) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، مجـ ٩، ص ٢٧٤.

(٤) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٣٦].

ولكنها عادت لتؤكد بإنَّ فقالت : ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ، وذلك لأن حال كراهيتها يؤذن بأنها ستعرض عنها فلا تنشغل بها، فأكدت هذا الخبر إظهارًا لرضاها بقضاء الله، وإعلامًا بشدة رغبتها في مضمون كلامها، وانتقلت منه للدعاء لها الدال على الرضا والمحبّة فقالت: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[١].

وكان من نتيجة صدقها مع الله في نذرها قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾[٢].

فأكد الفعل بالمصدر وهو (القبول) بحذف الباء الزائدة، أي تقبلها قبولًا حسنًا، وإنما عدل عن الظاهر للإيذان بمقارنة التقبل لكمال الرضا وموافقته للعناية الإلهية، وكأنه قيل: فقبلها ربها أبلغ قبول حسن. وزاد - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - على ذلك القبول الحسن، أن ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ ، فالنبات الحسن مصدر مؤكد للفعل بحذف الزوائد، أو أنه مصدر مؤكد لفعل مضمر موافق له تقديره: فنبتت نباتًا حسنًا[٣].

فالتأكيد في حكاية قول امرأة عمران يبين عن مشاعرها، ويحلل خواطرها، ويظهر صدقها مع الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وصلاح نيتها، ولهذا أكد - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - تقبله وإنباته الحسن لنذيرتها. ويواكب هذا العدول عن المصدر الدال على الحدث (إنباتًا) إلى اسم المصدر (نباتًا) الدال على نتيجة الحدث وهو النبات؛ لإبراز مدى استجابة الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لما نذرت.

وفي قصة مريم ابنة عمران أنها قالت لما اقتحم الملك عليها محرابها

(١) ينظر: البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مج ٢، ص ٧٢، وينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج ٣، ص ٣٢.

(٢) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٣٧] .

(٣) ينظر: أبو السعود: إرشاد العقل السليم، ج٢، ص٢٩ - ٣٠.

في صورة بشرٍ سوي: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾[١].

فأكدت بـ (إن)؛ لأنه كان على منتهى الجمال والحسن بحيث يستبعد غاية الاستبعاد أن تتعوذ منه، وفي هذا دليل على عفتها وحصانتها.

ولما سمع الملك منها ما سمع، ورأى فزعها، قال مؤكدًا بـ (إنما) المفيدة للقصر لأجل استعاذتها[٢]: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾[٣].

وحملت مريم، وعانت في وقت حملها ووضعها ما عانت، ولكنها لما وضعت مولودها تكلّم: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي﴾، وكأنها قالت: لم لا أحزن؟ فجاء التوكيد بقد؛ تسلية لها، وتطمينًا لقلبها، فقال: ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾[٤]، ثم التوكيد بالباء ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾[٥]، فالباء صلة لتوكيد لصوق الفعل بمفعوله[٦].

وأرشدها أن تقول إذا رأت من ينكر عليها: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾[٧]، وفي الجواب المؤكد تنبيه للمنكر على براءتها؛ لأن البريء يكون ساكنًا لاطمئنانه، والمرتاب يكثر كلامه وحلفه»[٨].

ولما أتت مريم قومها بعيسى عليه السلام تحمله، قالوا مؤكدين استغرابهم

---

(١) سورة مريم، جزء من الآية: [١٨].

(٢) ينظر: البقاعي: نظم الدرر، مجـ٤، ص٥٢٧ ,

(٣) سورة مريم، جزء من الآية: [١٩].

(٤) سورة مريم، الآية: [٢٤].

(٥) سورة مريم، الآية: [٢٥].

(٦) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، مجـ١٨، ص٨٨.

(٧) سورة مريم، جزء من الآية: [٢٦].

(٨) ينظر: البقاعي، نظم الدرر، مجـ٤، ص٥٣٠.

بالقسم، وقد: ﴿يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾[١]؛ لأن مجيئها بهذه الصورة يقتضي أن تنكر كلامهم، كما أن هذا الفعل لا يليق بها لشرفها وعفتها.

وقالوا: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾[٢]، فكرروا فعل الكون مرتين؛ تقريرًا لكون ما جاءت به فريًّا منكرًا، وأن مجيئه من أولاد الصالحين أشد فحشًا[٣].

ولما أشارت إليه، زادوا في تعجبهم وإنكارهم، ﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾[٤].

فـ (كان) تشير إلى تمكنه من تحقق وصفه بالصِّبا في المهد، فهي زائدة للتوكيد.

ولما أنطق الله عيسى عليه السلام؛ ليرد عليهم، كان أول ما نطق به تأكيد عبوديته لله وذلك بسبب إنكارهم أمره، فقال: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ الآية[٥].



(١) سورة مريم، جزء من الآية: [٢٧].
(٢) سورة مريم، جزء من الآية: [٢٨].
(٣) ينظر: أبو السعود: إرشاد العقل السليم، ج٥، ص٢٦٣.
(٤) سورة مريم، الآية: [٢٩].
(٥) سورة مريم، جزء من الآية: [٣٠].

(ب) الروابط العقلية واللفظية في أسلوب السَّرد القصصي

يقوم السَّرد القصصي في القرآن الكريم بربط أجزاء نصه بروابط عقلية، تتولى ربط الجمل والآيات وفق علاقة معنوية يدركها المتلقي من خلال التأمل لطبيعة العلاقات التي تربط الجزء بالكل. وبروابط لفظية تتمثل في الوسائط النحوية التي تتولى الجمع بين الجمل والآيات التي تتناسب مضامينها[١]، فيقوى بذلك التآلف بين الأجزاء، ويصير حال النص حال البناء المحكم الذي تتناسق دلالات ألفاظه، وتتلاقى معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل[٢]، وهذا ما يعرف بالوصل.

وإذا كان القرآن الكريم لا ينقل من الأحداث التي تعرض لشخصيات قصصه إلا ما يخدم الغرض المتوخى، فإنه يستعين بالوصل على تصوير تلك الأحداث، وعلى الربط بين عناصر قصصه بعد تحويلها إلى مشاهد قصيرة لتتحول إلى قصة طويلة متعددة الأجزاء.

كما يستعين بالوصل في الحوار الذي يجري بين الشخصيات، ليكون موصولًا مصورًا دقائق الموقف[٣].

والأمثلة على الروابط العقلية، والروابط اللفظية من قصص النساء في القرآن الكريم كثيرة ومتنوعة، وحسب الباحثة عرض بعض منها:

---

(١) ينظر: طول محمد: البنية السردية في القصص القرآني، ص ١٦٦.

(٢) ينظر: عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص ٥٨، تصحيح: الشيخ محمد عبده، محمد التركزي الشنقيطي، مكتبة العلم، جدة، ت ط ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

(٣) ينظر: د / منير سلطان: الفصل والوصل في القرآن الكريم، ص ١٣٥، منشأة المعارف بالاسكندرية، ط٢، ت ط ١٩٩٧م.

١- الروابط العقلية:

ومن أمثلتها، ما جاء في سورة هود، عن قصة سارة زوج إبراهيم عليه السلام، إذ يقول - تعالى -: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ﴾[١].

فالرابط في هذا النص هو السؤال المقدر بعد كل قول، لأن التقدير أن يقع في نفس السامع - كما جرتْ به العادة حين سماع الأخبار - أن يقول: فما موقف سارة من البشارة؟، فيأتي الجواب: ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ﴾ الآية، ثم لعل السامع يقع في نفسه من السؤال عن رد الملائكة عليها، فيأتي الجواب: ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ الآية. ومن هنا كان الفصل بين الجمل لشبه كمال الاتصال.

فالنفس تستشرف عادة لسماع الجواب وتسأل عنه، كالذي جرت به العادة بين المخلوقين، وهكذا التقدير والتفسير أبدًا في كل ما جاء في لفظ (قال) هذا المجيء[٢].

ومن أمثلة الربط المعنوي بين الجمل ما جاء في قصة ملكة سبأ: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾[٣].

فلقد أجملت الملكة كلامها في الآية الأولى حين ذكرت ما ألقي إليها،

---

(١) سورة هود: الآية: [٧١ - ٧٣].

(٢) ينظر: عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ١٩٧.

(٣) سورة النمل: الآية: [٢٩ - ٣١].

ثم فصّلت بالكشف عن شخصية مرسل الكتاب، وبالتعريف بمضمون الكتاب.

وإيضاحها بهذا الشكل المتضمن للتفصيل بعد الإجمال هو لون من ألوان الربط المعنوي بين الآيات.

على أن أبرز رباط معنوي يربط بين جمل قصص القرآن، هو وحدة الموضوع الذي تدور حوله القصة، فلا يكاد يمر موقف منها ولا يعرض حدث إلا وفيه ما يتصل بالمحور الذي تدور فيه، وعلى سبيل المثال، قصة ملكة سبأ مع سليمان عليه السلام تدور حول محور العلم والإسلام، ولهذا جاءت الشخصيات والأحداث والمواقف التي عرضت في القصة مرتبطة بهذا المحور؛ فالهدهد، بعد أن يذهب إلى سبأ، ويستكشف... يعود إلى سليمان عليه السلام، فيقول: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾[1]. فلقد علم ما لم يعلمه سليمان عليه السلام، وهو حريص على إسلام الملكة وقومها، ولهذا أنكر عليهم كفرهم، فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾[2].

والذي عنده علم من الكتاب، يتفوق على العفريت بالعلم، فيحضر عرش الملكة قبل أن يرتد إلى سليمان عليه السلام طرفه: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[3].

وسليمان عليه السلام، يسخِّر ما آتاه الله - عز وجل - من معجزات للتأثير على الملكة فتسلم، ويقول عندما يكتشف قوة تمييز الملكة لما سُئلت

---

(١) سورة النمل، جزء من الآية: [٢٢].

(٢) سورة النمل، الآية: [٢٤].

(٣) سورة النمل، جزء من الآية: [٤٠].

عن عرشها: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾[(١)].

والملكة، لم يصدها عن عبادة الله - سبحانه وتعالى - إلا أنها كانت من سلالة قوم كافرين، ولكنها بعد أن أيقنت بصدق سليمان عليه السلام، سارعت إلى إعلان توبتها وإسلامها: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(٢)].

وقد يعمد القرآن الكريم إلى الفكرة الرئيسة لموضوع القصة؛ فيضعها في شكل جمل قصيرة أو طويلة، ثم يقسِّمها إلى أجزاء موصولة مختلفة القرب والبعد من الفكرة العامة[(٣)].

وعلى سبيل المثال، قصة آدم وحواء في سورة الأعراف، تبدأ بذكر مقدمة للفكرة الرئيسة ثم تتبع بالاستطراد.

فمقدمة القصة، هي قوله - تعالى -: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ثم يأتي الاستطراد مدعومًا بالحوار:

- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾.
- ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾.
- ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.
- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾.
- ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾.

---

(١) سورة النمل، جزء من الآية: [٤٢].

(٢) سورة النمل، جزء من الآية: [٤٤].

(٣) ينظر: د/ منير سلطان: الفصل والوصل في القرآن الكريم، ص ٢٠٠.

- ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ .
- ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ .
- ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ .
- ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾(١) .

وهكذا، فالقرآن لم يفجأ المخاطب بلب القصة ويتركه، بل عرض عليه الصور الجزئية ليعيها ذهنه، ويستثار بها خياله، وظل ينتقل به من جزء إلى جزء حتى وصل إلى قمة الحدث الذي عرض لشخصية آدم وحواء، وحين وصل إليه كان المخاطب قد زُوِّد به على مراحل(٢) .

٢- الروابط اللفظية:

وتأتي في القصة؛ لتؤدي المواقف القصصية أداءً دقيقًا، فتربط كلًّا بما يناسبه، وتكشف عما كان يتفاعل في نفس الشخصية.

ففي قصة آدم عليه السلام وحواء في سورة الأعراف، نجد أن السياق القرآني، بعد أن ذكر ما حدث من وسوسة الشيطان للزوجين بالأكل من الشَّجرة، عطف جملة: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ على جملة: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ ليدل على أن الشيطان وسوس لهما وسوسة غير قوله: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾، ثم ثنّى وسوسته بقول: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا﴾. وفي هذا العطف إشعار بأن آدم وحواء ترددا في الأخذ بوسوسة الشيطان مما جعل الشيطان يراودهما.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: [١٩ - ٢٥] .

(٢) ينظر: د / منير سلطان: الفصل والوصل في القرآن الكريم، ص ٢٠٥.

وكذلك عطف السياق القرآني جملة: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ على ما قبلها. وفي هذا دليل على ما حصل بين الزوجين وبين إبليس من مراوغات ومحاولات بذل فيها الشيطان جهده.

فلما نسيا العهد وأقدما على المعصية، بدت لهما سوءاتهما. والسياق القرآني يشير إلى الإسراع في الجزاء باستخدام الفاء العاطفة المفيدة للتعقيب والترتيب من غير تراخ، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾. فلقد حصل بدو سوءاتهما عند أول إدراك طعم الشجرة، دلالة على سرعة ترتب الأمر المحذور عند أول المخالفة.

كما أنَّ نداء ربهما لهما تأخر إلى أن ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾، بدليل مجيء الواو لا الفاء في قوله - تعالى -: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ الآية، «وهذا ليكون للتوبيخ وقع مكين من نفوسهما، حين يقع بعد أن تظهر لهما مفاسد عصيانهما، فيعلما أن الخير في طاعة الله، وأن في عصيانه ضرًّا»[1].

وفي قصة مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام يجيء السياق القرآني بثلاثة أفعال يربط بينها بأداة العطف (الواو) التي تعني « الإشراك في الحكم الذي يقتضيه الإعراب الذي أتبعت فيه الثاني الأول »[2]، وذلك حين يُعبِّر عن المحاولات المتتالية التي بذلتها امرأة العزيز لأجل إغراء يوسف عليه السلام، فيقول - تعالى -: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾[3].

---

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج ٥، ص ٦٥.

(٢) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ١٨٣.

(٣) سورة يوسف، جزء من الآية: [٢٣].

فلقد رتبت هذه الأفعال ترتيبًا منطقيًا حسب حدوثها، فالحدث الأول هو المراودة، والثاني: تهيئة الأجواء بتغليق الأبواب، والثالث: دعوتها له الصريحة إلى نفسها.

وهذه الأحداث يتبع بعضها بعضًا، وترتبط بتطور انفعالات شخصية امرأة العزيز، وترقيها في الحب من درجة إلى درجة أعلى منها، إلى أن وصلت إلى الحد الذي لم تستطع به كبت انفعالاتها، فصارحت يوسف - عليه السلام وهمت به.

وفي موقفٍ تالٍ من القصة، نجد أن السِّياق القرآني يوظف حرف العطف (الواو)؛ ليرتب الأحداث ويجمع بينها، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾[١]. فحدث الاستباق تلاه قد القميص، وقد القميص تلاه إلفاء الزوج لدى الباب، وكل هذه الأحداث رتبت ترتيبًا زمانيًا ومكانيًا، وتولّى هذا الترتيب حرف العطف الواو الذي حقق التوافق بين الترتيب المعنوي والترتيب اللغوي[٢].

ويأتي السياق القرآني في موقف آخر ليكشف عما تمتاز به امرأة العزيز من كيد عظيم، وذلك حين يستخدم الواو بدلًا من الفاء ليدلل على أن أمرها ليوسف عليه السلام بالخروج على النسوة لم يكن عقيب ترتيب أمورهن، ليتم غرضها من استغفالهن[٣].

وفي ذلك يقول - تعالى -: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾.

وخرج يوسف عليه السلام على النسوة، ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ

(١) سورة يوسف، جزء من الآية: [٢٥].

(٢) ينظر: طول محمد: البنية السردية، ص ١٦٣.

(٣) ينظر: أبو السعود: إرشاد العقل السليم، ج ٣، ص ١٠١.

وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[١].

فالأفعال: ﴿أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾، كلها تمت بترتيب بعد رؤيتهن له مباشرة، بدليل استخدام القرآن لحرف العطف الفاء في قوله - تعالى -: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ﴾، والفاء يوجب الترتيب من غير تراخ[٢]. وفي هذا ما يدل على شدة جمال يوسف عليه السلام، وافتتان النِّساء بصورته.

وفي قصة ملكة سبأ مع سليمان عليه السلام تجيء (الفاء) في بعض المواطن لتعبِّر عن دلالات معينة مرتبطة بشخصية الملكة.

فالملكة بعد أن اختارت مصانعة سليمان عليه السلام بهدية، سارعت إلى تنفيذ ما عزمت عليه، فبعثت رسولًا يحمل هديتها بسرعة، بدليل قوله - تعالى -: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾[٣]، فلقد أشار بالفاء إلى سرعة الإرسال، وفي هذا دليل على حزمها وعدم ترددها في تنفيذ ما تراه صوابًا.

وحين ردَّ سليمان عليه السلام هديتها وهدد مملكتها بالحرب، سارعت إلى المجيء إليه خاضعة، وقد أشار السِّياق القرآني إلى سرعة مجيئها، ليدلل على خضوعها، بالفاء[٤]، فقال - تعالى -: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ﴾[٥].

وفي هذا ما يدل على وفرة عقلها، حيث لم تأخذها العزة بالإثم بعدما تبين لها الصواب، ولم تتردد في المجيء إلى سليمان عليه السلام، فتتسبب في زوال ملكها وسقوط دولتها.

وفي قصة امرأة عمران، أنها لما نذرت ما في بطنها لله - سبحانه وتعالى - فقالت:

---

(١) سورة يوسف، جزء من الآية: [٣١].

(٢) ينظر: الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ١٨٣.

(٣) سورة النمل، جزء من الآية: [٣٦].

(٤) ينظر: البقاعي: نظم الدرر، مج٥، ص٤٢٨.

(٥) سورة النمل، جزء من الآية: [٤٢].

﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾(١)، جاء التعقيب المباشر بالفاء، بعد دعائها وتضرعها، فقال - تعالى -: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾(٢)، وفي هذا دليل على أن صدق امرأة عمران وإخلاصها كان سببًا في سرعة استجابة الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لها.

كما نجد في القرآن الكريم حديثًا عما فعلته مريم قبل أن يرسل إليها الملك، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾(٣).

فالأفعال الماضية: «انتَبَذَتْ»، «اتَّخَذَتْ»، «أَرْسَلْنَا»، «تَمَثَّلَ»، معطوف بعضها على بعض بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب الفوري، وهي تدل على أن هذه الأمور جرى بعضها عقب بعض من غير تراخ، وهي مقدمات نستشف منها ما كان يتفاعل في نفس مريم من أمور.

وفي موقف تالٍ يحدثنا السياق القرآني عما جرى لمريم بعد مراجعتها لجبريل في مهمته التي جاء لأجلها، وذلك بأفعال ثلاثة متتالية زمانيًا يربط بينها بحرف العطف (الفاء)، فيقول - تعالى -: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾(٤) الآية.

فمريم حملت بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فور انتهاء مراجعتها لجبريل بدليل مجيء قوله - تعالى -: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ بعد قوله - تعالى -: ﴿وَكَانَ أَمْرًا

---

(١) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٣٥].

(٢) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٣٧].

(٣) سورة مريم، الآية: [١٦، ١٧].

(٤) سورة مريم، الآية: [٢٢]، وجزء من الآية: [٢٣].

﴿مَقْضِيًّا﴾[1]، وفي هذا ما يدل على تصديقها واستسلامها لقضاء الله.

كما أن فعل ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ المعطوف على ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾، يفيد أنها فعلت ذلك فور حصول الحمل، وفي هذا ما يدل على شدة حيائها، وخشيتها قالة الناس لعظيم عفتها وطهارة أردانها.

أما الفعل ﴿فَأَجَآءَهَا﴾، فالفاء فيه للتعقيب العرفي، أي جاءها المخاض بعد تمام مدة الحمل[2]. والله - تعالى - أعلم.

هذا، فضلًا عن أن الفَرَج جاءها مباشرة بعد أن وصلت إلى أقصى حالات الألم النفسي والجسدي فتمنت الموت، وحينئذٍ أنطق الله صغيرها، فقال - تعالى -: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[3]، فأفادت الفاء أن الصغير كلمها مباشرة بمجرد أن أنهت قولها: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾[4].

ومما يدلنا على الحالة النفسية العالية التي نقل الله - عز وجل - إليها مريم بعد أن ناداها ابنها، وقرّت نفسها بكرامات ربها؛ أنها جاءت أهلها عقب انتهاء الكلام الذي كلمها ابنها[5]، بدليل مجيء فعل الإتيان مقرونًا بالفاء، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾[6]. وبهذا تآزر المبنى والمعنى ليكشف عما كان يتفاعل في نفس مريم.

---

(١) سورة مريم، الآية: [٢١].

(٢) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج ٨، ص ٨٥.

(٣) سورة مريم، الآية: [٢٤].

(٤) سورة مريم، جزء من الآية: [٢٣].

(٥) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج٨، ص٩٤.

(٦) سورة مريم، جزء من الآية: [٢٧].

(جـ) التوافق الصوتي للشخصية في أسلوب السرد القصصي[١]

مما لا ريب فيه أن الأسلوب الذي يستخدمه الإنسان في التعبير يعكس ما تنطوي عليه نفسه من شعور وعاطفة؛ فإن كان مرتاعًا دهشًا، أو حزينًا محبطًا، أو مُهددًا متوعدًا، أو مرتبكًا قلقًا، أو مطمئنًا خاشعًا. . . نهضتْ ألفاظه لتعبِّر عما يجول في خاطره ويعتمل في نفسه.

« وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت، بما يخرجه فيه مدًّا أو غنَّة أو لينًا أو شدة، وبما يهيء له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها؛ ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع؛ أو الإطناب والبسط، بمقدار ما يكسب من الحدوة[٢] والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوها، مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى »[٣].

ولقد نبه العلماء قديمًا على أنَّ العرب كانت تناسب في كلامها بين

---

(١) « الصوت: مصدر صاتَ الشيءُ يصوت صَوْتًا فهو صائت، وصوَّت تصويتًا فهو مُصَوِّت. . . وهو عَرَض يخرج مع النفس مستطيلًا متصلًا، حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفًا. وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها ». (أبو الفتح بن جني: سر صناعة الإعراب، ص ٦، ٩، ١٠، تحقيق: د/ حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط ٢، ت ط ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م).

(٢) الحَدْو: الغناء للإبل وسوقها، يقال: رجل حادٍ وحَدَّاء، وبينهم أحْدِيَّة وأُحْدُوَّة أي نوع من الحداء يحدون به. (ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة حدا).

(٣) مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ٢١٥ - ٢١٦، دار الكتاب العربي، ط ٨، ت ط ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

الألفاظ ومعانيها «فجعلت الحرف الأضعف فيها، والألين والأخفى والأسهل والأهمس، لما هو أدنى وأقل وأخف عملًا أو صوتًا، وجعلت الحرف الأقوى والأشد، والأظهر والأجهر، لما هو أقوى عملًا وأعظم حسًّا»[١].

فالألفاظ تدل على المعاني، وفي ذلك يقول ابن قيم الجوزية: «مكثت برهة إذا ورد علي لفظ آخذ معناه من نفس حروفه وصفاته وجرسه وكيفية تركيبه ثم اكشفه فإذا هو كما ظننته أو قريبًا منه»[٢].

وحين ننظر في أسلوب السّرد القصصي في القرآن، فإننا نجده ينهض بموسيقاه اللفظية في تصوير خلجات نفوس شخصيات قصصه، ونزعاتها، وعواطفها، فالأصوات والكلمات تدل بجرسها ومعناها على ما تحمله الشخصية من نزعات لحظة إثارة عاطفتها، والزمن الذي تستغرقه الشخصية للنطق بالصوت اللغوي يختلف سرعة وإبطاءً حسب تقلبات أحوالها ومزاجها، وأداؤها للصوت تختلف درجاته صعودًا وهبوطًا حسب حالتها النفسية، والإيقاع يتلون ويتنوع حسب الموقف الذي يعرض لها... وباختصار فإن الأصوات تتلاءم في أسلوب السّرد القرآني مع المعاني، والأسلوب فيه يتماشى مع حركة العاطفة حتى ليكاد المتلقي يفقه المعاني بمجرد سماعه للأصوات.

ومن أبرز الأساليب التي ألقت فيها الكلمات والحروف ظلالها على نفسية الشخصية وتلاءمت فيها الأصوات مع العاطفة، هذه المناجاة العظيمة

---

(١) جلال الدين السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، مجـ ١، ص ٥٣، شرح: محمد جاد المولى وآخرون، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط ٣، ت ط بدون.

(٢) بدائع الفوائد، مجـ ١، ص ٩٥، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، عني بتصحيحه والتعليق عليه: إدارة الطباعة المنيريّة.

لآدم وحواء لربهما - سبحانه وتعالى - في مشهد من مشاهد الندم والتوبة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[١].

فأسلوب الدعاء الذي استخدماه يعكس ما كانا عليه وقتها من ندم، وحزن، وانكسار، وخوف، ورجاء بسبب ما بدر منهما من معصية لله ومخالفة لأمره، ولقد تناسبت نغمة[٢] صوتهما الهابطة مع موقف مناجاتهما لله، وما صاحب تلك المناجاة من خوف ورجاء.

كما أسهمت الألف المديّة[٣] التي جاءت بعد النون في قولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أسهمت في إطالة زمن النطق بالصوت[٤]، وهذه الإطالة تناسب حالة الداعي لله المبتهل إليه،

---

(١) سورة الأعراف، الآية: [٢٣].

(٢) النغمة: جَرْسُ الكلمة، وحسن الصوت في القراءة وغيرها، والجمع: نَغْمٌ، ونَغَم. (ابن منظور: اللسان، مادة نغم).

والتنغيم في علم الأصوات يعني: أداء الصوت واختلاف درجاته صعودًا أو هبوطًا، وهو يتبع حالة المتكلم النفسية، فالهادىء المستقر يتجه تنغيمه نحو الهبوط، والغاضب الثائر يتجه تنغيمه نحو الصعود. (ينظر: د/ عيد الطيب: الأصوات اللغوية والأداء القرآني، ص ١٧٧، دار أصداء المجتمع، بريدة، المملكة العربية السعودية، ط ٤، ت ط ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م).

(٣) الألف المدية: هي ألف ساكنة قبلها فتحة (ينظر: خالد الجريسي: معلم التجويد، ص ٥٦، مؤسسة الجريسي للتوزيع، الرياض، ط ١، ت ط ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م).

(٤) إطالة زمن النطق بالصوت وقصره، يسمى في علم الأصوات: (التزمين). وتعد الألف المدية من الصوائت الطوال (المدات) أي أن النطق فيها يستغرق زمنًا أطول من الصوائت القصار (الحركات). (ينظر: د/ عيد الطيب: الأصوات اللغوية، ص ١٦٠، ١٧١).

وفي ذلك يقول ابن جني: « إن الحركات أبعاض حروف المد واللين، وهي الألف والياء والواو... فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو... ألا ترى أن الألف والياء والواو اللواتي هن حروف توامّ كوامل، قد تجدهن في بعض الأحوال أطول وأتم منهن في بعض، وذلك قولك: يخاف... يسير... يقوم، فتجد فيهن امتدادًا واستطالة ما..» (سر صناعة الإعراب، ج ١، ص ١٧).

وكأنا بالصوت يخرج من أعماق نفسيهما، مما يدل على شدة الحاجة والرغبة، وعمق الندم والأسف. كما أن الإيقاع الذي أحدثه صوت النون الممدودة المكرر في الدعاء، أوحى بتصاعد تأوهاتهما في نغم أسيف كسيف وكأنهما يبكيان وهما يدعوان الله.

وفضلًا عن ذلك فلقد ساعدت غنة[١] الإخفاء[٢] في: ﴿أَنفُسِنَا﴾، وغنة النون المشددة في: ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ على إبراز ألمهما وكشف حسرتهما.

وحين نريد أن نتعرف على صفات صوت النون، ومخرجه، لنبين سبب تكراره في الدعاء، فإننا نجده صوتًا مجهورًا[٣]، الأمر الذي ساعد على إبراز قوة الشعور بإحساس الزوجين بالذنب.

كما أنه صوت متوسط[٤]، وهذا ما يتناسب مع حال الداعي، الذي ينبغي له التأدب مع الله - سبحانه وتعالى - في دعائه، ولكونه يتأرجح بين الخوف والرجاء.

ومخرج النون من طرف اللسان مع ما يليه من لثة الثنايا العليا[٥]، فهو

---

(١) الغنة: صوت لذيذ مركب في جسم النون والميم لا عمل للسان فيه، ومخرجها الخيشوم وهو أعلى الأنف وأقصاه من الداخل. (ينظر: عطية نصر: غاية المريد في علم التجويد، ص ٧١، ٧٢، مكتبة كنوز المعرفة، جدة، المملكة العربية السعودية، ط ٧، ت ط ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م).

(٢) الإخفاء: هو النطق بالحرف بصفة بين الإظهار والإدغام عاريًا عن التشديد مع بقاء الغنة، وحروفه خمسة عشر مجموعة في أوائل هذا البيت: صف ذا ثناكم جاد شخص قد سما: دم طيبًا زد في تقى ضع ظالمًا. (عطية نصر: السابق، ص ٦٦).

(٣) الجهر: انحباس جري النفس عند النطق بالحرف لقوة الاعتماد على مخرجه، وحروفه: كل ما عدا حروف الهمس. وحروف الهمس مجموعة في قوله: (فحثه شخص سكت). (ينظر: عطيه نصر: السابق، ص ١٣٩).

(٤) التوسط: اعتدال الصوت عند النطق بالحرف، وحروفه مجموعة في قوله: (لن عمر). (ينظر: نصر: السابق، ص ١٤٠).

(٥) ينظر: نصر: السابق، ص ١٢٩، وينظر: محمد الغول: بغية عباد الرحمن لتحقيق تجويد =

مخرج قريب، يتواءم مع إحساس الداعي بقربه من ربه، وقرب ربه منه، كما يتواءم مع موقف المذنب الذي يشعر بقرب عقاب الله منه إن لم تتداركه رحمة الله.

كما نلحظ في دعائهما تكرار صوت الراء، في: « رَبَّنَا... تَغْفِرْ... وَتَرْحَمْنَا... الْخَاسِرِينَ »، أي عند طلب المغفرة والرحمة، والخوف من الخسارة. ولأنَّ الراء صوت ترددي[1]، فإنها توحي بتكرار الطلب والإلحاح في الرجاء.

والملاحظ أن جميع الأصوات الواردة في ابتهال الزوجين أصوات مستفلة[2] منفتحة[3]، وهما صفتا ضعف، تتناسب مع مقام التائب من الخطيئة لكونه ضعيفًا مستكينًا. ولم يشذ عن هاتين الصفتين إلا بعض الأصوات، وهي: الظاء في ﴿ظَلَمْنَآ﴾، والغين في ﴿تَغْفِرْ لَنَا﴾، والخاء في ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وهي أصوات مستعلية[4]، منفتحة، باستثناء الظاء فإنها تجمع مع الاستعلاء صفة الإطباق[5].

= القرآن، ص ١٥٥، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، دار ابن القيم للنشر، الدمام، المملكة العربية السعودية، ط ٨، ت ط ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

(١) أي يتردد على طرف اللسان. (ينظر: د / عيد الطيب: الأصوات اللغوية، ص ٦٩).

(٢) الاستفال: انخفاض اللسان إلى قاع الفم عند النطق بأغلب حروفه. وحروفه جميع حروف الهجاء ما عدا الحروف المستعلية. (ينظر: نصر: غاية المريد، ص ١٤٢).

(٣) الانفتاح: تجافي اللسان عن الحنك الأعلى عند النطق بالحرف فلا ينحصر الصوت بينهما. وحروفه كل ما عدا حروف الإطباق، وكل حروف الاستفال منفتحة (ينظر: محمد الغول: بغية عباد الرحمن، ص ١٨١).

(٤) الاستعلاء: ارتفاع جزء كبير من اللسان عند النطق بأغلب حروفه إلى الحنك الأعلى، فيرتفع الصوت معه، وحروفه سبعة، مجموعة في قول: (خص ضغط قظ). (ينظر: الغول: السابق، ص ١٧٩، نصر: غاية المريد، ص ١٤١).

(٥) الإطباق: التصاق طائفة من اللسان في الحنك الأعلى عند النطق بالحرف وانحصار الصوت =

الصفيري(١) الرخو المرقق(٢) مع حالة العجز وما يصحبه من ضعف ووهن، فضلًا عما توحيه اللفظة بكاملها من شعور بالوهن والضعف.

كما نلحظ قصر الحركة في كلمتي ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠﴾ بسبب النبر(٣) الذي هو من عوامل تقصير الصوت باختصار زمنه، وهذه السرعة بسبب الهزّة التي حدثت لها.

ثم إنها عبّرت عن ضعف زوجها بأصوات تدل على ذلك فقالت: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾، فالباء والعين واللام والياء في ﴿بَعْلِي﴾ حروف مجهورة فيها قوة تصويت، ولكن الشين والخاء في ﴿شَيْخًا﴾ حروف مهموسة رخوة.

ومن صفات الشين أنه حرف تفشٍّ(٤)، يشعر بتفشي الشيخوخة والضعف في بدن بعلها، وأما الياء؛ فحرف لين ضعيف(٥)، وأما الخاء فهي صوت رخو

---

(١) الصفير: صوت زائد يخرج من بين الثنايا وطرف اللسان عند النطق بأحد حروفه الثلاثة: الصاد، والزاي، والسين. (ينظر: نصر: غاية المريد، ص ١٤٤).

(٢) الترقيق: عبارة عن نحول يدخل على صوت الحرف عند النطق به فلا يمتلىء الفم بصداه. (نصر: السابق، ص ١٥٧).

(٣) النبر في اللغة يعني: ارتفاع الصوت، يقال: نبر الرجل نَبْرَةً: إذا تكلم بكلمة فيها علو. (ابن منظور: اللسان، مادة نبر).

وهو في علم الأصوات: الضغط على مقطع خاص من الكلمة؛ ليكون بارزًا أوضح في السَّمع من غيره من مقاطع الكلمة. وموضع النبر في الكثرة الغالبة من الكلمات العربية هو المقطع الذي قبل الأخير، مثل: استفهم أو ينادي أو قاتل. (ينظر: د / إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ص ١٧٠، ١٧٢، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٦، ت ط ١٩٨٤م.

(٤) التفشي: انتشار خروج الهواء بين اللسان والحنك الأعلى عند النطق بالحرف. وحرف التفشي هو الشين. (نصر: غاية المريد، ص ١٤٦).

(٥) اللين: إخراج الحرف من مخرجه بسهولة وعدم كلفة على اللسان. وحرفاه: اثنان وهما: الواو والياء الساكنتان المفتوح ما قبلهما، مثل (خَوْف، بَيْت). (نصر: السابق، ص ١٤٦).

مهموس يخرج صوتها باستعلاء فيتولد عنه احتكاك النفس والصوت فيحدث من جراء ذلك صوت الشخير، وهذا الصوت يتناسب مع ضعف الشيخوخة، ووهن القوى.

ثم إنها ختمت تعجبها بصوت الباء، فقالت: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ والباء فيه صفة القلقلة[١] التي تعطي طولًا للصوت، ولقد اجتمعت الباء بما سبقها من ياء مد فأعطت طولًا آخر للصوت، وفي هذا من الدلالة على شدة الذهول ما فيه!

كما أنَّ النون المغُنّة في قولها: ﴿إِنَّ﴾ ملائمة لإبراز الشعور بقوة الحدث، وأما المد في اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ فمناسب لجلالة الحدث. كما أن توقف صوت سارة عند الباء المجهورة الشديدة ذات النبرة القوية في لفظة ﴿عَجِيبٌ﴾ أسهم في إبراز جو الحدث وقوة وقعه على نفسها.

وفي سورة الذاريات، وفي الحدث نفسه، تنهض الأصوات لتعبر عن مشاعر سارة. يقول - تعالى -: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾[٢].

إن الإيقاع الذي تحدثه كلمتا: ﴿صَرَّةٍ﴾ و ﴿فَصَكَّتْ﴾ إيقاع قوي عنيف، فلفظة ﴿صَرَّةٍ﴾ تعني «شدة الصِّياح»، والصَّر هو صوت الجندب[٣]، والراء الترددية فيها توحي بتكرار الصياح والضجيج.

---

(١) القلقلة: اضطراب الصوت عند النطق بالحرف حتى يسمع له نبرة قوية، وحروفها مجموعة في قول: (قطب جد). (نصر: السابق، ص ١٤٥).

(٢) الآية: [٢٨، ٢٩] .

(٣) ينظر: أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة. مج ٣، ص ٢٨٤، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ت ط ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

أن تكرير اللام في غلّقت، يدل على تكرير الفعل[١]، مما يدلنا على أن امرأة العزيز أصبحتْ من شدة حرصها تغلق الباب الواحد مرة بعد أخرى.

كما أن لفظة ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ توحي لنا بأمور؛ منها أن هذه اللفظة تتكون من أصوات ترقيق، وهذا ما يدلنا على أن دعوتها لنفسها كانت محفوفة بشيء غير قليل من الغُنْج[٢] والدلال وخفض الصوت وترقيقه في محاولة منها لجذب يوسف عليه السلام وإغرائه. ولقد أكسب صوت اللين «الياء» صوتها زيادة في الترقيق، كما أشعرنا لقصره بعجلة المرأة عند عرضها لنفسها عليه، كما أنَّ صوت الهاء المتصف بالهمس والخفاء والرخاوة ناسب حرصها على إخفاء أمر مراودتها ليوسف عليه السلام، والأمر نفسه أداه صوت التاء المستفل الخافي في اللفظة نفسها.

كما أنَّ الميم في لفظة ﴿هَمَّت﴾ اكتسبت طولًا في زمن النطق بها بسبب وجود الغنّة، وهذا ما يوحي بطول فترة الحدث وهي محاولتها إرغام يوسف عليه السلام على ما تريد، هذا بالإضافة إلى أن صوت الغنة ساعد على إبراز رغبة المرأة الجامحة في تحقيق يوسف عليه السلام لبغيتها.

ثمَّ إن الحدث تصاعد وتطور فازدحمت الأصوات والكلمات لتعبر عن الموقف، وتدل على الشخصية. يقول - تعالى -: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣].

فلفظة ﴿وَٱسْتَبَقَا﴾ افتعال من السّبق، وهي تبدأ بحرفين مهموسين هما

(١) ينظر: ابن جني: الخصائص، ج٢، ص١٥٥.

(٢) الغُنْج: التكسُّر والتدلل، يقال: امرأة غَنِجة: حسنة الدَّلّ. (ابن منظور: اللسان، مادة غنج).

(٣) سورة يوسف، الآية: [٢٥].

(السين) و (التاء) وتنتهي بحرفين مجهورين الثاني منهما وهو (القاف) أقوى من الأول (الباء) وفي هذا ما يدل على شدتهما في الاستباق إلى درجة بذل كل واحدٍ منهما أقصى ما يمكن من جهد؛ يوسف ﷺ يريد الهرب، وهي تطلب اللحاق به، وإمساكه.

ومن اللافت أن السياق القرآني اختار لفظة ﴿وَقَدَّتْ﴾ التي تعني الشق طولًا على القَطّ المراد بها الشق عرضًا، وذلك لأن الطاء أحصر للصوت وأسرع قطعًا من الدال. فجعلت الطاء المناجِزة لقطع العرض؛ لقربه وسرعته، والدال المماطِلة لما طال من الأثر، وهو قطعه طولًا[1]. وفي هذا ما يدل على أن امرأة العزيز لم تصل إلى قميص يوسف ﷺ بسهولة، بل حاولت وحاولت، وأخيرًا وبعد طول استباق ومماطلة استطاعت يدها الوصول إلى قميصه فقدته.

كما أننا نلحظ في قولها لزوجها حين ألفته ويوسف ﷺ لدى الباب: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ نلحظ فيه أمورًا:

منها، أنها كررت الهمزات حتى لتكاد تأتي همزة القطع في كل كلمة من كلماتها. ومعلوم أن الهمزة صوت قوي شديد يخرج من الحنجرة[2]، فناسبت قوته مع حرصها على إلصاق التهمة بالفتى وتخويفه، وإثارة زوجها، وتبرئة نفسها، فالنبر واضح في كلامها.

ومنها: أنها أطالت زمن النطق بالصوت عن طريق استخدام المدود في ﴿مَا جَزَآءُ ... أَرَادَ ... سُوٓءًا إِلَّآ... عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وفي هذا إيحاء بتصنعها الانفعال، فلو كانت صادقة لما احتاجت إلى إطالة زمن النطق بالصوت،

---

(١) ينظر: ابن جني: الخصائص، ج٢، ص١٥٨.

(٢) ينظر: عطية نصر: غاية المريد، ص ١٢٨.

كما يبدو أنها تحاول تثبيت التهمة على يوسف عليه السلام لبالغ كيدها.

ومما يلحظ كذلك، أن نغمة صوتها صاعدة وسببها: توتر حالتها النفسية إذ كانت في حالة غضب وقلق؛ لعدم نجاحها في تحقيق مرادها، وتأبي يوسف عليه السلام عليها برغم جميع المحاولات التي بذلتها معه، فهي نغمة امرأة تريد الانتصار لكرامتها.

والعجيب أن كلامها اشتمل على أصوات انفتاح واستفال وترقيق، وهي صفات ضعف، وهذا إمعان منها في المكر، وكأنها هي المستضعفة المغلوبة على أمرها.

وتأمل في أصوات كلمة ﴿بِأَهْلِكَ﴾ وما تتميز به من ترقيق وانفتاح واستفال وكأن غرضها إثارة غيرة زوجها، واستجداء عطفه عليها باعتبارها مغلوبة على أمرها ! !

ولكنها تستخدم الأصوات الانفجارية[1] الشديدة في كل كلمة تريد التأكيد عليها، ولفت انتباه زوجها إليها، وهذه الأصوات هي: الهمزة والدال في ﴿مَنْ أَرَادَ﴾، والكاف في ﴿بِأَهْلِكَ﴾، والجيم في ﴿مَا جَزَآءُ﴾ وفي ﴿يُسْجَنَ﴾، والباء في ﴿عَذَابٌ﴾، فيوسف هو من أراد السوء ولكن بمن ! ! بأهل العزيز، وهذه كبيرة لا تغتفر له، والسجن أو العذاب الأليم هو أقصى جزاء تريد من زوجها إيقاعه بالفتى.

كما أن أصوات الصفير، الزاء والسين في قولها: ﴿مَا جَزَآءُ ... سُوٓءًا ...

---

(١) «الأصوات الانفجارية تتكون بحبس الهواء الخارج من الرئتين حبسًا تامًا في موضع نطقها واحتجازه لحظة التقاء عضوي النطق، حتى إذا ما انفصلا فجأة أطلق سراحه مندفعًا إلى الخارج محدثًا الانفجار الذي يصحبه نطق الصوت... وهي مجموعة في عبارة (تأكد قطبت)».

(د عبد الطيب: الأصوات اللغوية، ص ٦٢، ٦٣).

يُسْجَنَ﴾، توحي بأنين امرأة العزيز، وكأنها استخدمتها لمكرها لتصنع الأنين وإبراز شعورها بمرارة ظلم يوسف عليه السلام وتعديه !.

كما يظهر حرص المرأة على تخويف يوسف عليه السلام في قولها: ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فصوت المد في الكلمتين، الألف في ﴿عَذَابٌ﴾، والياء في ﴿أَلِيمٌ﴾، يوحي بإطالة زمن العذاب على يوسف وما يتبعه من ألم يمتد حتى يطبق على نفسه كما تنطبق الشفتان عند نطق الميم في ﴿أَلِيمٌ﴾.

ولما دعت امرأة العزيز النسوة اللائي تحدثن بأمرها إلى قصرها... أمرت يوسف عليه السلام بالخروج عليهن في اللحظة المناسبة، وهن متكئات والسكاكين في أيديهن: ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾[1].

هكذا، بنغمة صوت صاعدة، لكونها من الأعلى إلى الأدنى، فهي السيدة، وهو الفتى، ولكنْ زمن أدائها للصوت قصير؛ نظرًا لحرصها على سرعة خروجه في الوقت المناسب الذي حددته لغاية في نفسها !.

وبعد أن خرج عليهن.. وقطّعن أيديهن... وبهتن ودهشن وقلن ما قلن، قالت هي: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾.

بإطالة زمن النطق بالصوت عند المد في اسم الإشارة: «ذا»؛ تعظيمًا لقدره، كما أنها لجأت إلى النون المُغَنّة في قولها: ﴿لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ لتناسب موقف العتاب واللوم الذي وجهته إلى النسوة، وما يحتاجه من إطالة في زمن النطق بالصوت زيادة في تقريعهنّ وتأنيبهن.. هذا فضلًا عن إطالتها زمن صوتها عند ياء المد في لفظة ﴿فِيهِ﴾.

ثم إن إيقاع صوتها يأخذ في الصعود أكثر لكونها ثائرة منتقمة لكبريائها

---

(١) سورة يوسف، جزء من الآية: [٣١].

فتقول: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

فهي تؤكد لهن مراودتها، وتبين لهن مبالغته في الاعتصام. وهي مع ذلك تعطي زمن صوتها إطالة عند الاعتراف بذلك لبالغ جرأتها وقلة حشمتها، وكأنها لم تعد ترى أمام عينيها سوى تحقيق شهوتها، وقضاء وطرها، فألف المد في قولها: ﴿رَٰوَدتُّهُۥ﴾ توحي بطول فترة مراودتها، وحركة الضم آخر الكلمة توحي باستعلائها فهي السيدة التي ينبغي أن تطاع، بينما تعكس حركة الكسر في قولها: ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ نظرتها إلى يوسف عليه السلام، فهو فتاها الذي لا ينبغي له إلا أن يكون أسيرًا مأمورًا، ولكن ما فجأها أن تصرف يوسف عليه السلام جاء على عكس ما تريد ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي بالغ في الاعتصام، وبناء اللفظ يدل على تطور مقامات يوسف؛ فالسين والتاء صوتان مهموسان ضعيفان، والعين متوسطة مستعلية، والصاد صوت إطباق وتفخيم واستعلاء ناسبت هي والعين مقام تأبي يوسف عليه السلام على الفعل واستعلائه عليه.

وأما الميم فصوت شفوي تنطبق معه الشفتان، فكأن يوسف عليه السلام اعتصم، واعتصم، حتى بالغ في الاعتصام فحبس نفسه عن الشهوة، ومنعها عن الحرام. ومما يؤيد هذا القول أن لفظة ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ جاءت على صيغة (استفعل)، والهمزة والسين والتاء فيها زوائد، والأصول هي العين والصاد والميم، وهذا من اللفظ قد وافق المعنى الموجود، ذلك أن يوسف طلب العصمة والتمسها وسعى فيها، ثم وقعت الإجابة إليه، فتبع الفعل التسبب لوقوعه[1].

وهذا يدلنا على تنوّع محاولات المرأة معه، وأنه كان يقابلها بالعفة،

---

(١) ينظر: ابن جني: الخصائص، ج٢، ص ١٥٤.

وكلّما زادت محاولة وتماديًا، زاد عفة وتأبيًّا، الأمر الذي جعلها تهدده وتتوعده أمام النسوة، وتظهر أنها غير راجعة عن عزمها بنبرة صوت مرتفعة صاعدة فتقول: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[١]. فأطالت زمن نطقها بالصوت عند المد وعند حركة الضم في قولها: ﴿مَآ ءَامُرُهُۥ﴾، ولعلها أرادت من ذلك تذكير يوسف عليه السلام بوجوب طاعته لأمرها على كل حال لكونها سيدته، وتنبيه النسوة على حريتها في التصرف مع فتاها!!

كما أن مجيء فعل ﴿مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ على صيغة المضارع أفاد استمرارها في الأمر، وتكرارها الطلب، وأما الهمزة الشديدة في قولها: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ﴾ فتدل على قوة عزمها، وشدة تصميمها على تنفيذ تهديدها ليوسف عليه السلام، والأمر نفسه أوحت به لفظة ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ المؤكدة باللام والنون.

وفضلًا عن ذلك فصوتا الصفير؛ السين والصاد في قولها: ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ و ﴿ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ يوحيان بالألم الذي سيلقاه يوسف عليه السلام في سجنه، وفي هذا تخويف له وترهيب، كما يوحي صوت الجيم الانفجاري الشديد، في لفظة ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾. بمشقة السجن وشدته.

وفي اعتراف امرأة العزيز بالذنب آخر القصة نجد أن الأصوات تتلاءم مع عاطفتها خير ملاءمة، يقول - تعالى -: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

فالإيقاع في الصوت يتجه نحو الهبوط ولعل السّبب في ذلك هو تبدّل

---

(١) سورة يوسف، جزء من الآية: [٣٢].

(٢) سورة يوسف، جزء من الآية: [٥١]، والآية: [٥٢ - ٥٣].

شخصيتها من التهور والاندفاع إلى التعقل والرزانة، ولأن المقام مقام اعتراف واعتذار لا مقام اندفاع ودفاع فهو أشبه بموقف الذليل.

والملاحظ على أسلوبها بروز أصوات الصفير « السين والصاد »، وغنن الميم والنون المشددتين، وكثرة المدود، ولكلٍّ ذلك معنى من المعاني التي يجمل الإشارة إليها.

فأما أصوات الصفير، وصوت النون المعروف بغنته فمما يوحي بأنين المرأة وتوجعها مما بدر منها..

وأما أصوات المد فمما يوحي بهدوء نفسها، وبرود عاطفتها، وميلها إلى التعقل بعد حالة السَّفة والطَّيش التي كانت عليها، فضلًا عما تدل عليه من ندم وأسف. كما أن في استخدامها لأداة التوكيد (إنّ) أكثر من مرة إيحاء بشدة حرصها على تبرئة ساحة يوسف عليه السلام، وإثبات خطئها، وفي هذا دلالة على تبدل شخصيتها ونزوعها إلى الحق بعد الضلال.

ومن النكت البديعة أن صوتي الحاء والصاد في قولها: ﴿حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ تلاءما مع معنى الوضوح ودلا عليه، ذلك أن الحاء حرف حلقي، يتصف بصفات ضعف من همس ورخاوة واستفال وانفتاح، وأما الصاد فمن الحروف الأسلية[1] التي تخرج من طرف اللسان المستدق مع ما بين الثنايا العليا والسفلى[2]، وهي تشارك الحاء في الهمس والرخاوة ولكنها تفترق عنها بصفتي القوة؛ الاستعلاء والاطباق، وفي هذا ما يوحي بأن الحق كان خافيًا فظهر، ومستفلًا فاستعلى، ومستترًا فانكشف.

---

(١) الحروف الأسلية: هي (ص، ز، س)، ولقبت بذلك لخروجها من أَسَلة اللسان، أي طرفه. (ينظر: نصر: غاية المريد، ص ١٣٢).

(٢) ينظر: نصر: السابق، ص ١٢٩.

كما أن في تنوع أصوات الحروف التي استخدمتها المرأة في الاعتراف : ما بين الطويلة والقصيرة[١] كقولها : ﴿ٱلْـَٔـٰنَ ... أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ... ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ... أَخُنْهُ... إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ...﴾ تلاؤمًا مع الحالة الشعورية التي كانت عليها المرأة، من إحساس بالندم والأسف إلى شعور بالذنب ورغبة في التوبة.

وفي قصة أم موسى في سورة القصص، نجد أن الأم تقول لابنتها حين قلقت على ابنها بعد أن ألقته في اليم : ﴿قُصِّيهِ﴾[٢].

وهذه اللفظة التي تعني تتبع الأثر توحي بالشدة والمشقة التي ستواجهها الأخت في قص أثر أخيها، وبالتالي توحي بتردي الأوضاع الاجتماعية لبني إسرائيل في عهد فرعون.

وإذا نظرنا في الأصوات التي تتألف منها الكلمة، فإننا نجد أن (القاف) حرف مجهور شديد مستعل، فهي صلبة تناسب مشقة قص الأثر وما يتطلبه من شجاعة وقوة، و (الصاد) حرف مهموس رخو، وصوت إطباق واستعلاء وتفخيم، وهذه الصفات تناسب أيضًا القص، وما يحتاجه من إسرار وخفاء وحذر وحَيْطة من فرعون وزبانيته.

كما أن الياء المدية في اللفظة توحي بامتداد القصّ، ومعنى هذا أن على الأخت أن تظل تتبع تابوت أخيها حتى تعرف أين يذهب.

وحين قصّت الأخت أثر أخيها، وعلمت أين توقف به التابوت، ورأت حاجة آل فرعـون إلى مرضعة، أقبلت عليهم قائلـة : ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ

(١) سبق ذكر: أن الصوائت الطوال هي(المدات)، والصوائت القصار هي(الحركات)، ينظر: هامش ص٣٤٧.

(٢) جزء من الآية: [١١] .

بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾[١]. فكررت المقطع الصوتي « كم » في قولها: ﴿أَدُلُّكُمْ... وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ وفي هذا المقطع قصر حركة، وسرعة متلاحقة تتناسب مع رغبتهم في إيجاد مرضعة للصغير في أسرع وقت.

كما أنَّ مخرج الكاف من أقصى اللِّسان مع ما فوقه من الحنك الأعلى[٢] يوحي بأن الأخت بذلت لهم أقصى النُّصح وأشده.

وفي ختم المقطع الصوتي بالميم الشفوية تناسب مع رغبتهم في إنهاء مشوار البحث عن مرضع للصغير.

ومما يلحظ على أسلوب الأخت تكرارها لصوتي الكاف والهاء، وهما صوتان ضعيفان مهموسان مرققان، وفي هذا إيحاء بأن الأخت كانت متلطفة في خطابها معهم حتى تصل إلى بغيتها بذكاء.

وعندما رأى فرعون وآله موسى في التابوت وأرادوا قتله، شرعت آسية تدافع عنه قائلة: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[٣].

وكأنها تدرجت في التوسل إلى فرعون للإبقاء على حياة الصغير فقالت أولًا: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ ترغيبًا لهم فيه، واختصرت زمن النطق بالصوت بسبب النبر على الجملة، لكون الموقف حرجًا للغاية يحتاج منها إلى مسارعة في الدفاع عن الصغير قبل أن يُقتل.

وابتدأت هذا الدفاع بصوت القاف المجهور الشديد المستعلي، وكأنها

---

(١) سورة القصص، جزء من الآية: [١٢].

(٢) ينظر: نصر: غاية المريد، ص ١٢٨.

(٣) سورة القصص، جزء من الآية: [٩].

اندفعت بكلِّ قواها للدفاع عنه، وتجاوبت معها حواسها لشدة لهفتها عليه، وحبها له. ثم ثنّت بصوت الراء الترددي المناسب للقرَّة لإيحائه بدوام السرور وتكراره. ثم إنها نَهَتْهم عن قتله فقالت: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ بنبرة صوت قوية صاعدة، وبإطالة زمن النطق عند الألف والواو المديتين، وكأنها انتزعت هذا الصوت من كل جزء منها. فالنهي في اللام والواو ممتد لامتداد الصوت بهما، ولكنه نَهْيٌ جاء على سبيل الرجاء لكونه من الأدنى إلى الأعلى.

ثم إنها عادت للترغيب قائلة: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾ بإطالة زمن النطق بالألف المدية في: ﴿عَسَىٰٓ﴾ وفي ﴿يَنفَعَنَآ﴾ وفي هذا إيحاء برجائها النفع الممتد الحاصل من الإبقاء على حياته.

ولقد جاء إيقاع صوتها مع حروف المد وعند الترغيب هادئًا متماشيًا مع محاولتها التأثير على فرعون وآله لترك قتل موسى عليه السلام.

ومما يلحظ على أسلوبها؛ ورود صوتي القاف في كلمتي ﴿قُرَّتُ﴾ و﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾، والقاف من الحروف الشديدة الصلبة، فناسب مجيئها في ابتداء الكلام حرج الموقف ومجيئها مع القتل شدته وهوله.

ولما دخلت امرأة فرعون في دين الإسلام واتبعت موسى عليه السلام ولاقت الأمَرَّيْن، قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١).

ودعاؤها هذا ذو إيقاع قوي شديد الوقع مشبع بروح الألم، واليأس من صلاح فرعون وآله، وكراهية العيش في الدنيا معهم.

ونحن حين نقرأ قولها: ﴿رَبِّ﴾ نشعر بضغط قوي فيها، ناتج عن

(١) سورة التحريم، جزء من الآية: [١١].

انحصار الباء المشددة بين الشفتين[١]، وفي هذا ما يوحي بما تشعر به من ضغط نفسي، وكأنها تريد أن تفرغ حمولة في نفسها ! !

وأما النون المغنّة في قولها: ﴿عِندَكَ... ٱلْجَنَّةِ﴾، فتشعرنا بأنينها، كما أن في تكرارها لكلمة ﴿نَجِّنِي﴾ ما يوحي بالمشقة والنصب الذي تعرضت له، كما يوحي بالحالة النفسية السيئة التي وصلت إليها، إذ أن اللفظة تحمل جرسًا قويًا ولها إيقاع صاخب؛ فالجيم المجهورة الشديدة مع النون، تشعرنا وكأن المرأة تنفض عنها حمولة نفس طالما عانت منها، وآلامًا شديدة طالما تكبدتها من زوج وآل، امتد ظلمهم واستعلى وجاوز الحد كما يوحي بذلك صوت الياء المديّة في ﴿ٱلظَّالِمِينَ﴾ وما تتصف به الظاء من استعلاء وتفخيم.

ومما نلحظه كذلك على قولها: ﴿ٱبْنِ لِي﴾، ﴿وَنَجِّنِي﴾ أنها مختومة بالمقاطع الصوتية: « لي، ني »، وفي هذا ما يدل على شدة حزنها، ويشعر بأنينها، فرحمها الله ورضى عنها وأرضاها.

وفي حوار ابنتي شيخ مدين مع موسى عليه السلام نرى كيف أن الأصوات والكلمات جاءت موحية معبرة تدل بجرسها على ما تحمله الشخصية من عواطف ونزعات، ذلك أن موسى عليه السلام لما سألهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ ؟ قالتا: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[٢].

فنفتا قيامهما بالسقي حتى يصدر الرعاء، والنفي هنا ممتد لامتداد الصوت بـ (لا)، فهو يشعر بتطاول زمن النفي، وفي ذلك يقول ابن قيم الجوزية: « وتأمل حرف لا كيف تجدها لامًا بعدها ألف يمتد بها الصوت ما لم يقطعه ضيق النفس فآذن امتداد لفظها بامتداد معناها »[١]. كما أن دخولها

---

(١) ينظر: نصر: غاية المريد، ص ١٣٠.

(٢) سورة القصص: جزء من الآية: [٢٣].

على المضارع جعلها صالحة ليعم النفي بها جميع الأزمنة، فوصف المرأتين الذي لا ينفك عنهما في هذه المهمة هو أنهما لا يسقيان أبدًا حتى يصدر الرعاء، وذلك لبالغ حيائهما، وعظيم عفتهما.

كما نلحظ امتداد معاناتهما من إطالتهما زمن النطق بالصوت عند حروف المد، فألف المد في قولهما: ﴿ٱلرِّعَآءُ﴾ والتي زادها طولًا مجيء الهمزة بعدها توحي بامتداد المعاناة، وقد توحي بطول الوقت الذي يقضيه الرعاء في سقي مواشيهم، الأمر الذي يترتب عليه طول فترة انتظارهما.

كما أن الياء المدية في قولهما في وصف أبيهما: ﴿كَبِيرٌ﴾ تدل على بلوغه مرحلة متقدمة جدًّا من العمر، وهذا ما يوحي بشدة عجزه وعدم قدرته على العمل، وفي هذا إعذار لهما بالخروج وتجشم مشاق العمل ! !.

وحين يرسل الشيخ إحدى ابنتيه لدعوة موسى عليه السلام، فإنها تجيئه بهدوء ورزانة، وتكلمه بكلام يدل على بالغ عفافها وشدة حيائها، كما قال - تعالى -: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[٢].

فقد عبر السياق القرآني بالمجيء دون الإتيان، لأن الإتيان مجيء بسهولة وعلى هذا فيكون المجيء فيه صعوبة[٣]. كما عبر بالمشي دون الانطلاق، لأن الانطلاق فيه زيادة انزعاج، وأما المشي ففيه ثبات[٤].

كما أن الألف المدية في حدث ﴿فَجَآءَتْهُ﴾ توحي بطول الزمن الذي

(١) بدائع الفوائد، مجا، ص٩٥ - ٩٦.

(٢) سورة القصص، جزء من الآية: [٢٥].

(٣) ينظر: الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن. مادة (أتى).

(٤) ينظر: أبو سليمان الخطابي: بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، =

قضته المرأة في المجيء إلى موسى عليه السلام لشدة عفافها، واستعظامها المجيء إلى رجل أجنبي. والأمر نفسه أدته الألف المدية في قوله - تعالى - ﴿ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾، فحياؤها ممتد. ومما زاد ألف المد طولًا مجيء الهمزة بعدها في اللفظتين. هذا فضلًا عن أن لفظة: ﴿ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ لفظة مزيدة من الألف والسين والتاء، والأصل (حياء)، ولكن البنت لما بالغت في طلب الحياء والتمسته وسعت فيه، أجيبت إليه. فالحياء واتاها مواتاة لأنها سعت لالتماسه وطلبه.

ثم إن مجيء المدود في الألفاظ التي استخدمتها البنت في كلامها في قولها: ﴿يَدۡعُوكَ ... لِيَجۡزِيَكَ ... سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾، يوحي بالشكر والامتنان الممتد لموسى عليه السلام.

ولما جاء موسى عليه السلام وقص على الأب القصص، وطمأنه الأب ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾[1].

فامتداد صوتها بأداة النداء الياء، يوحي بأن البنت كانت في مكان بعيد عن مكان جلوس والدها والضيف، مما يؤكد التزامها وحشمتها وحسن تربيتها.

كما نلحظ قصر زمن النطق بالصوت في قول البنت: ﴿ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾، فهو عرض لا يقبل التريث بحال، ويتطلب سرعة المبادرة، وكأنها تقول له: عجل باسئجاره فهو أفضل من يقوم بالعمل الذي نرغب الفكاك منه.

ومما يلحظ على قولها: ﴿ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ . . . ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ﴾ الضغط القوي على

= ص٣٩ - ٤٠، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر.

(١) سورة القصص، الآية: [٢٦].

صوتي الهمزة والجيم، وهذا ما ينم عن معاناة ورغبة في التخلص من عمل لا يصلح لهما.

وفي قصة ملكة سبأ مع سليمان عليه السلام نجد أن الملكة بعد أن ألقى إليها كتاب سليمان عليه السلام وقرأته، تأثرت كثيرًا، وأهمها أمره، لما يحمله من إيقاع قوي عنيف، وأدركت أنها أمام شخصية قوية لاينبغي التساهل في التشاور بأمرها مع الملأ. وبالفعل، جمعت ملأها وقالت لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، (١).

والذي يلحظ على أسلوب خطابها أن التنغيم فيه يتجه نحو الصعود؛ لأنها في موقف يناسبه رفع الصوت، وقد يبدو أن ملأها كانوا من الكثرة بحيث احتاجت إلى مد صوتها ورفعه وإطالته.

كما يلاحظ كثرة المدود والتي اقتضت إطالة زمن النطق بالصوت، وهذا ما يعكس تأنيها في خطابها مع ملئها، ويدل على ما تمتاز به من تعقل وترو وحكمة، ولو لم تكن فيها هذه الصفات لما خاطبتهم بهذا الهدوء بل لما استشارتهم.

ومما يلحظ أيضًا تكرارها لأداة التوكيد «إن» في قولها: ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ﴾... ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾... ﴿وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾... ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ﴾... ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ﴾،: «وإن الإيقاع الذي تحدثه داخل العبارة يستمد تغلغله داخل النفس، من قوة تأكيدها للمعنى ونوع الموضوع أيضًا،

---

(١) سورة النمل، جزء من الآية: [٣٢] ، والآية [٣٣- ٣٥] .

بحيث تشعرنا بضغط قوي من الفك الأعلى لشدقي الفم، مشوب بنغمة إيقاعية، تحمل أنينًا»[١] . ، مصـدره رهبة الموقف والشعور بالخطر. كما أن في تنوع الأفعال في كلامها ما بين الماضي والمضارع والأمر ما يجعل الإيقاع موزعًا خير توزيـع، إذ إن كل فعـل جـاء في مكانه، وأدى دوره خير أداء.

ولأن القاف حرف فيه شدة وقوة، جاءت به الملكة في قولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً﴾ ذلك أن قطع الأمر يحتاج إلى قوة لصعوبته، فاحتاجت أن تستعين برأي قومها ولا تستبد برأيها لما تمتاز به من حنكة وعقل.

وحين قدمت الملكة إلى بلاط سليمان عليه السلام ورأت العرش، وسئلت عنه قالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ بتقصير زمن النطق بالصوت، والسبب في ذلك: أنها كانت في موطن الدهش والمفاجأة، فناسب ذلك الموطن تقصير زمن الصوت.

ولما دخلت الصرح الممرد من قوارير؛ ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢] . بتنغيم يتجه إلى الهبوط، لأنها في مقام توبة وإنابة واعتراف بظلم النفس.

كما يلحظ أن الفاصلة ختمت بصوت النون الذي يوحي بالأنين وانكسار النفس في جوهرها وهي لا تشعر[٣] .

وأما امرأة عمران، المرأة التقية فإنها لما حملت بمولودها توجهت

---

(١) عمر السلامي: الإعجاز الفني في القرآن، ص ٢٣٢، نشر: مؤسسات عبد الكريم عبد الله، تونس ت ط ١٩٨٠م.

(٢) سورة النمل، جزء من الآية: [٤٤] .

(٣) عمر السلامي: الإعجاز الفني في القرآن. ص ٢٤٥.

إلى الله – عز وجل – قائلة : ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(١).

هكذا بإيقاع هادىء رتيب يعكس طمأنينة قلبها، وثبات جنانها، وهدوء نفسها وهي تناجي ربها.

كما أن النبر الكلمي في قولها: ﴿فَتَقَبَّلْ﴾ يوحي بقوة رجائها، وشدة لهفتها على أن يتقبل الله منها، ولقد جاءت إجابتها من الله – تعالى – بقوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾. بصيغة التفعل، مطابقة لقولها: ﴿فَتَقَبَّلْ﴾، وفي هذا إشعار بتدرج وتطور وتكثّر، وبأن مريم مزيد لها في كل طور تتطور إليه، ولو أنها قالت: « فاقبل مني »، وكانت الإجابة: « فقبلها ربها »، لكان إعطاء مريم إعطاء واحدًا منقطعًا عن التواصل والتتابع(٢).

فما الذي حدث بعد أن اكتشفت أن مولودها أنثى ؟ قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ ! ووقع النبر على هذه الجملة من جراء دهشها لما حدث، فجاءت نغمتها أسيفة كسيفه.

وفي قصة مريم في السورة المسماه باسمها نجد أن الكلمات تنهض بالتعبير عن مشاعر الشخصية، وتصويرها..

فالسياق القرآني يصور مشاعر مريم حين اقتحم عليها جبريل خلوتها فيقول: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾(٣).

فمريم فزعت فزعًا شديدًا، وأظهرت بالغ الانفعال والتوتر، فأطلقت

---

(١) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٣٥].

(٢) ينظر: البقاعي: نظم الدرر، مج ٢، ص ٧٣.

(٣) سورة مريم، الآية: [١٧ – ١٨].

تلك العبارة المنبورة، بنغمة صاعدة توحي بشدة انفعالها، فهي نغمة فتاة مهددة في عرضها.

ولقد أكدت تعوذها بحرف التوكيد. «إن» - كما مر في مبحث التوكيد - ، وأطالت زمن النطق بالصائت «واو المد»، مستخدمة المضارع الدال على الاستمرار، وتوالت على الفعل ضمتان أوحتا باستعلائها على الحرام، وتأبيها على الفعل، وذلك في قولها: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ﴾.

وكذلك أطالت زمن النطق بألف المد عند ﴿بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، وكأنها تستمطر الرحمة من علو وتطلبها.

والملاحظ أن الحروف التي استخدمتها في التعوذ تتنوع بين الجهر والهمس وبين الشدة والتوسط والرخاوة، وهذا ما يوحي بحرج الموقف الذي حصل لها، ويعكس حالة التوتر والقلق التي اعترتها من جراء تلك المفاجأة.

وفي ختم الفاصلة بالياء المشددة التي تخرج من جوانب وسط اللسان مع ما يقابله من الحنك الأعلى[1]. ما يحدث إيقاعًا داخل العبارة؛ فالياء المشددة يقع عليها الضغط فتحدث نغمة إيقاعية قوية تهز النفس وتجلِّي أحاسيس مريم، وتبين عن مشاعرها، هذا فوق أن مجيء القاف الصلبة الشديدة مع الياء المجهورة المشددة في قولها: ﴿تَقِيّٗا﴾ تتناسب وما تريده منه مريم من استعلاء على الحرام بالتقوى.

وحين كشف لها المَلَكُ عن شخصيته، وأخبرها بمهمته، زادت انفعالًا وقالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾[2].

فأظهرت التعجب في اسم الاستفهام ﴿أَنَّىٰ﴾، وشددت بالنون زيادة في

---

(١) ينظر: نصر: غاية المريد، ص ١٢٩.

(٢) سورة مريم، الآية: [١٩].

تعجبها، وقصّرت زمن النطق بالصائت في الفعل المجزوم بـ(لم) في قولها: ﴿ وَلَمْ أَكُ﴾، وذلك لأن الموقف مفاجيء وخطير، ولا يحتمل إطالة زمن النطق بالصوت.

كما يظهر استعلاؤها على الحرام، واستعظامها أن يكون لها ولد من غير بعل من إتيانها بالياء المشددة بعد الغين التي تتصف بالجهر والاستعلاء والتفخيم، كما أن نغمة صوتها مشوبة بالقوة.

وفوق ذلك فالأصوات الانفجارية الشديدة كالكاف في ﴿يَكُونُ﴾ و﴿أَكُ﴾، والباء في ﴿بَشَرٌ﴾ و ﴿بَغِيًّا﴾ تتلاءم مع قوة دفاعها عن نفسها، ويبدو أن نغمة التعجب كانت شديدة التصعيد، وذلك بسبب اضطرابها وفزعها.

ومما زاد في المعنى المراد، تكرارها السين في قول: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾، فهي تبالغ في نفي مس البشر لها وهذه الكلمة سبقها حرف النفي ﴿لَمْ﴾ المختوم بالميم الشفوية التي تنطبق معها الشفتان، والنفي بها منقطع لانحباس الصوت، ومرادها أنه لم يمسها بشر على الإطلاق.

بيد أن الأمر لمَّا كان مقضيًا من عند الله، فقد استسلمت له. والسياق القرآني يبدع في تصوير مشاعرها آنذاك، فيقول - تعالى -: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾[1].

وانتباذها بحملها دال على شدة قلقها، وحرج موقفها من أهلها وقومها. ولفظة ﴿قَصِيًّا﴾ تدل على تجشم مزيد عناء، ذلك أن الصاد صوت قوي جعلته العرب لقوته (مع ما يشاهد من الأفعال المعالجة المتجشمة)[2].

---

(١) سورة مريم، الآية: [٢٢].

(٢) عثمان بن جني: الخصائص، ج٢، ص ١٦١.

ثم إننا نشهد تصويرًا بديعًا لحال مريم في قوله - تعالى -: ﴿فَأَجَاءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾.

فلقد اشتدت آلام المخاض على مريم، وكأنا به إنسان جبار شديد يدفع مريم دفعًا، ويلجئها إلجاء، ويضطرها اضطرارًا إلى المشي إلى جذع النخلة، والاستناد عليها، وعندها: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[1]. فأطالت زمن النطق بألف المد ويائه في قولها: ﴿يَٰلَيْتَنِى﴾ وذلك لأن تمنيها الموت نابع من معاناة عميقه وأنين.

كما أن النبر الكلمي في قولها: ﴿مِتُّ﴾ وما نتج عنه من تقصير زمن النطق بالصوت، يوحي بصدقها في تمني الموت قبل أن يحدث لها ما حدث.

وأما ألف المد في ﴿هَٰذَا﴾ وقلقلة الباء المجهورة الشديدة في: ﴿قَبْلَ﴾ وغنة نون الإخفاء في: ﴿وَكُنتَ﴾ و ﴿مَّنسِيًّا﴾، ونون الإدغام[2] في: ﴿نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾، كل هذا أعطى طولًا في زمن النطق بالصوت لأنها في حالة تعب، وصراع مع الألم.

والذي يلحظ على أسلوبها هذا، أن جميع الحروف التي وردت فيه هي حروف استفال وانفتاح وهي صفات ضعف، ولم يشذ عن ذلك إلا القاف في ﴿قَبْلَ﴾ فإنها مستعلية.

وبرغم تنوع الصفات الأخرى لتلك الحروف ما بين الجهر والهمس، وبين الشدة والتوسط والرخاوة، برغم ذلك إلا أن وجود صفتي الاستفال

---

(١) سورة مريم، الآية: [٢٣].

(٢) الإدغام: إدخال حرف ساكن في حرف متحرك بحيث يصيران حرفًا واحدًا مشددًا، وحروفه ستة مجموعة في كلمة (يرملون). (ينظر: نصر: غاية المريد، ص ٥٧).

والانفتاح فيها يوحي بالحالة النفسية التي آلت إليها مريم ذلك الوقت.

كما أن في تكرار صوتي التاء في: ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾... ﴿مِتُّ﴾... ﴿وَكُنتُ﴾، والسين في: ﴿نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾، وهما صوتا ترقيق وهمس، ما يوحي بضعف مريم، ذلك أن الترقيق والهمس صفتان أقرب إلى الخفاء منها إلى الظهور، ومريم كانت في خفاء عن أعين الناس، وكانت محتاجة للعون والتطمين، وكانت مجهدة متعبة، وكانت وحيدة فريدة ! !، وقد كشفت صفة الصفير في السين عن أنينها، ومرارة حزنها.

ومن الحروف التي كررتها مريم، النون، وذلك في قولها: ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾... ﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾، ومما لا ريب فيه أن صوت النون المرقق ساعد على إبراز مشاعر الضعف والحزن التي انتابت مريم آنذاك.



أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١].

فهذا المشهد ينقلنا إلى بيت العزيز فنرى يوسف عليه السلام في صحبته، وهو يطلب من امرأته أن تكرم مثواه، ثم نجد يوسف - في قفزة للسياق القرآني - قد بلغ أشده، دون تعرض لما بين مرحلة الصبا ومرحلة النضج من أحداث، يقول -تعالى -: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

والقرآن الكريم يركز على مدة بلوغ يوسف عليه السلام الأشد لأنها هي المدة التي سيتعرض فيها للابتلاء من قبل امرأة العزيز، وأما ما دونها فلا يخدم القصة شيئًا، ولا يمدها فنيًا بأسباب التطور والنماء، بل إن في ذكر ذلك هنا ما يحول الأنظار، ويشغل التفكير عن الحدث القصصي المراد تقديمه لتحقيق الغاية المقصودة.

والحدث هو قوله - تعالى -: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٣].

وهذا الحدث يحكي موقف المرأة من يوسف عليه السلام، وموقف يوسف منها، ولاشك أن هناك مواقف كثيرة كانت بينهما، ولكن السياق لم يوردها لأنه لا علاقة لها بمسار القصة[٤].

---

(١) سورة يوسف، الآية: [٢١].
(٢) سورة يوسف، الآية: [٢٢].
(٣) سورة يوسف، الآية: [٢٣].
(٤) ينظر: د / إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ٩٧.

كما أن دعوة المرأة السافرة بلفظة ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ التي تختزن كل تفاصيل الحادثة، لم تكن هي الدعوة الأولى، بل إن المحتمل أنه سبقها إغراءات شتى، ومحاولات عدة، ولما لم يستجب لها اضطرت أن تدعوه إلى نفسها بهذه اللفظة.

ولما كان غرض السياق القرآني أن يحفظ لجو القصة نظافته، وأن لا يجعل من لحظات الضعف البشري معرضًا يستغرق أكثر من مساحته؛ اكتفي بذلك الموقف، واستغنى عن ذكر مواقف الإغراء الكثيرة التي تعرض لها يوسف عليه السلام[١].

وفي المشهد التالي يقول - تعالى -: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾[٢].

فحدث التسابق بين الشخصيتين كان سريعًا، وحتى يعبر السياق القرآني عن سرعة الحدث، حذف حرف الجر (إلى) من قوله ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ بدلًا من: واستبقا إلى الباب. فلقد أسرع يوسف عليه السلام يريد الباب ليخرج، وأسرعت هي وراءه لتمنعه من الخروج[٣]. كما أن هذا الحذف يشير إلى سرعة استجابته عليه السلام لبرهان ربه.

وفضلًا عن ذلك فإن مفاجأة وجود السيد لدى الباب لم تكن متوقعة، ونجد السياق القرآني يحذف متعلق الظرف ﴿لَدَا﴾؛ ليركز على تلك المفاجأة التي لم تكن بالحسبان فيقول - تعالى -: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا

---

(١) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج ٤، ص ١٩٨٠.
(٢) سورة يوسف، الآية: [٢٥] ، وجزء من الآية: [٢٦] .
(٣) ينظر: الزمخشري: الكشاف، جـ٣، ص٢٧١.

ٱلْبَابِۚ﴾ فظرف ﴿لَدَا﴾ في محل نصب متعلق بمحذوف مفعول به ثان، أي موجودًا لدى الباب(١).

ويأتي بعد ذلك الاستئناف البياني المبني على سؤال سائل يقول: فماذا حدث حين ألفيا سيدها لدى الباب ؟، فقيل: قالت المرأة: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

واستئناف آخر عما يقال: فماذا كان موقف يوسف عليه السلام حينئذ ؟

فيقال: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾(٢)، ومن أجل هذا كان الفصل بين الجملتين لشبه كمال الاتصال.

ويحكم الشاهد من أهل المرأة فيقول: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(٣).

فلقد حذف حرف التحقيق (قد) بعد الفاء الواقعة في جواب (إن الشرطية) والأصل (فقد صدقت)، ومن المعلوم أن (قد) تقرب الماضي إلى الحال، والأمر نفسه في قوله: ﴿فَكَذَبَتۡ﴾ أي (فقد كذبت)(٤). ولعل السر في حذف (قد) المقدرة هو مراعاة السياق المصدر بحرف الشرط (إن) التي هي للشك.

وفي قول الشاهد - أيضًا - حذف للفاعل، وذلك في قوله: ﴿قُدَّ مِن

---

(١) ينظر: محمود صافي: الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، مج ٦، ص ٤٠٨، دار الرشيد، دمشق، مؤسسة الإيمان، بيروت، لبنان، ط ٤، ت ط ١٤١٨ هـ، ١٩٩٨ م.

(٢) ينظر: أبو السعود: إرشاد العقل السليم، مج٣، ص٩٨.

(٣) سورة يوسف، جزء من الآية: [٢٦].

(٤) ينظر: أبو السعود: إرشاد العقل السليم، مج٣، ص٩٨.

قُبُلٍ﴾، وقوله: ﴿قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾، والسبب يعود إلى أن الفاعل غير معلوم لديهم، فالأمر في الخفاء ولم يكن على مرأى من الناس. وأمر آخر، وهو أن السياق يسكت عن طريقة استدعاء الشاهد وكيف عرض عليه الأمر قبل أن يشهد، وهل كان موجودًا مع زوج المرأة وشهد الواقعة أم أن زوجها استدعاه؟[1]... وكل هذه الأمور لا تغير من القصة شيئًا ولا تفيدها من قريب ولا من بعيد، ولهذا نجد السياق القرآني يسكت عنها.

ويتصاعد الحدث، وفي قفزة للسياق، نرى النسوة في المدينة يتحدثن فيه: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2].

فلقد طويت جمل كثيرة، تقديرها؛ وانتشر الخبر خارج أسوار القصر، وشاع في مصر، ولاكته الألسنة، واجتمعت نسوة في المدينة ليتحدثن فيه فقلن: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ﴾ الآية.

ولكن السياق القرآني يسكت عن كل ذلك؛ لأن هذه التفاصيل لا تضيف للقصة جديدًا، بل إنها تعترض تحركها في مسارها الطبيعي، ولأن في السكوت عنها إيذانًا بسرعة انتشار الخبر، وإعطاء العقول فسحة لتتخيَّل كيف انتشر الخبر، ومن سعى في نشره...، والمهم في الأمر هو نتائج تسرب الخبر وماذا ترتب عليه؟ وهذا ما يركز عليه السياق القرآني.

يقول - تعالى -: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[3].

---

(١) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج٤، ص١٩٨٢.

(٢) سورة يوسف، الآية: [٣٠].

(٣) سورة يوسف، الآية: [٣١].

فاستخدمت الفاء في قوله - تعالى -: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥ﴾ بعد أمر المرأة ليوسف عليه السلام بالخروج، ومما لاشك فيه أن هناك جملًا حذفت تقديرها: فخرج عليهن يوسف عليه السلام ببهائه وجماله وزينته. . . ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾، وإنما حذف ذلك « تحقيقًا لمفاجأة رؤيتهن كأنها تفوت عند ذكر خروجه عليهن »[1]. فماذا كان موقف المرأة: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[2].

ففي قولها: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ﴾ حذف دل على أصله العقل، وذلك أن يوسف عليه السلام ليس ظرفًا للومهن، فتعين أن يكون غيره.

ويجوز أن يكون الظرف حبه، بدليل: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ﴾، أو مراودته، بدليل: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ ولكن العقل لا يعين أيًا منهما، والعادة تدل على أن المحذوف هو الثاني، أي المراودة. وذلك؛ لأن الحب يقهر صاحبه ويغلبه، فلا اختيار فيه للنفس، وأما المراودة فالنفس تقدر على دفعها، ولها فيها اختيار[3].

ثم إن المرأة أقسمت، فقالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ أي والله إن لم يفعل، ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾، فحذف الجار من قولها: ﴿مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ والتقدير: ما آمره به.

ولما كان هذا الإرعاد والإبراق منها مظنة لسؤال سائل: فماذا كان موقف يوسف عليه السلام حينئذ، فيقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ

---

(١) أبو السعود: إرشاد العقل السليم، مج ٣، ص ١٠١.

(٢) سورة يوسف، الآية: [٣٢].

(٣) ينظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، مج ٣، ص ١٠٩، ١١٠.

إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾[١] .

وكان هذا الفصل في: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ عما قبله؛ لشبه كمال الاتصال المسمى بالاستئناف البياني[٢] .

وفي قفزة أخرى للسياق نرى يوسف عليه السلام داخل السجن ومعه فتيان ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾[٣] . وهاهنا محذوف تقديره: لما أرادوا حبسه حبسوه... وحذف لدلالة قوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ عليه[٤] . وفي هذا الحذف إشارة إلى السرعة في سجنه، والمترتبة على السرعة في انتشار الخبر.

ويطوي السياق من أخبار امرأة العزيز والنسوة مدة حديثه عن يوسف عليه السلام ودعوته في السجن، ورؤيا الملك التي تتسبب في فتح ملف قضيته بعدما كادت تنسى !.

يقول - تعالى -: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[٥] .

وفي قفزة أخرى تقديرها؛ فرجع الرسول إلى الملك وأخبره بمقولة يوسف عليه السلام فتحرى الملك عن الخبر، ثم جمع النسوة وقال: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾. وفصل هذا السؤال عما قبله؛ لشبه كمال الاتصال المسمى بالاستئناف البياني، فكأنه قيل: فماذا قالت النسوة؟

---

(١) سورة يوسف: الآية: [٣٣] .

(٢) ينظر: أبو السعود: إرشاد العقل السليم، مج ٣، ص ١٠٣.

(٣) سورة يوسف: جزء من الآية: [٣٦] .

(٤) ينظر: الرازي: التفسير الكبير، ج ١٨، ص ١٣٣.

(٥) سورة يوسف، الآية: [٥٠] .

فيقال: ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ﴾(١). ولم تزد النسوة في الشهادة على ما يتعلق بسؤال الملك، فلم يتعرضن لإقرار امرأة العزيز أمامهن بمراودتها ليوسف ﷺ، واستعصامه، وتهديدها له ...، وهذا يدل على كلام محذوف، وهو أن امرأة العزيز كانت من جملة النسوة اللاتي أحضرهن الملك، وأن قول يوسف ﷺ: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ﴾ لم يشملها لأنها لم تقطع يدها معهن، ولكن قول الملك: ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ﴾ شملها، فهي من راودته، ففي الكلام إيجاز حذف(٢).

ثم إن امرأة العزيز اعترفت قائلة: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٢ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣). ففصل قولها: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ عمَّا قبله، لشبه كمال الاتصال المسمى بالاستئناف البياني؛ لأنه بمثابة جواب لسؤال تضمنته الجملة السابقة، وكأن سائلًا يقول: هل النفس أمارة بالسوء؟، فيقال على سبيل التأكيد: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾.

وبهذا رأينا أن السرد القصصي اختزل أحداث تلك القصة الطويلة في مجموعة من المشاهد التي تفصل بينها فجوات تدعو المتلقي إلى النظر والتفكر والمشاركة.

كما أن الألفاظ شحنت بالتوقيع الموسيقي الموجز، إلى جانب ما احتوته من كثافة في الدلالة.

---

(١) سورة يوسف، جزء من الآية: [٥١].

(٢) ينظر ك ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج ٦، ج ١٢، ص ٢٩١.

(٣) سورة يوسف، جزء من الآية: [٥١]، والآية: [٥٢ - ٥٣].

فالسياق القرآني لم يشتت الذهن بذكر ما لا يخدم الهدف، ولا يضيف للقصة جديدًا، وهذا ما جعل المتلقي يخرج بالفوائد العظيمة التي شحنت بها القصة.

وفي قصة امرأة إبراهيم عليه السلام نجد أن السياق القرآني ينهض بالتعبير عن مشاعرها لما بشرت الملائكة زوجها بغلام عليم، فيقول - تعالى -: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾(١). وفي الكلام حذف تقديره: (أنا عجوز عقيم)، فحذف الضمير المنفصل، طلبًا للإيجاز والاختصار، لأن الموقف كان موقف دهش وانفعال، يناسبه السرعة في القول، ولأن تركيز الاهتمام منصب على الخبر، وهو الوصف بأنها عجوز عقيم، وقد يكون سبب عدم تصريحها بالمسند إليه (أنا) هو أنها لم تشأ أن تنسب هاتين الصفتين صراحة إليها، لنفورها منهما.

وإذا ما أتينا إلى قصة أم موسى في سورة القصص، نجد أنها تبتديء بقوله - تعالى -: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(٢).

وفي هذه الآية من إيجاز القصر الشيء العجيب، ذلك أنه جمع فيها - برغم أنها آية واحدة - خبران، وأمران، ونهيان وبشارتان.

فأما الخبران فهما: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾، وقوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾؛ لأنه مشعر بأنها ستخاف عليه.

وأما الأمران فهما: ﴿أَرْضِعِيهِ ۖ﴾، وقوله: ﴿فَأَلْقِيهِ﴾.

وأما النهيان فهما: ﴿وَلَا تَخَافِى﴾ و: ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ﴾.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: [٢٩].

(٢) سورة القصص، الآية: [٧].

وأما البشارتان فهما: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ و ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

ولقد كانت هذه الآية مثالًا من أمثلة دقائق الإعجاز القرآني، فقد حكي عن الأصمعي أنه سمع جارية أعرابية تنشد شعرًا أعجبه. فقال لها: قاتلك الله، ما أفصحك! فقالت: أو يعدّ هذا فصاحة مع قوله - تعالى -: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية، فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين[(١)].

واللافت في هذه الآية - أيضًا - أنه برغم إيجازها، لكنها تحوي إطنابًا يعد من أجمل أقسام الإطناب وأندره، وهو أن يذكر الشيء فيؤتي فيه بمعان متداخلة، بيد أن لكل معنى خصيصة ليست للآخر[(٢)]. وهذا الإطناب هو ورود النهيين ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ بعد قوله - تعالى - ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾؛ لأن ذلك يعني اطمئنانًا لها، وهذا يعني أن قوله - تعالى - بعد ذلك: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ إطناب لتأكيد الاطمئنان المفهوم من: ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾، وقد احتوى هذا الإطناب على إيجاز يفهم من قلة العبارة مع كثرة المعنى، وذلك أن « الخوف، غم يلحق الإنسان لمتوقع، والحزن غم يلحقه لواقع، وهو فراقه والإخطار به، فنهيت عنهما جميعًا، وأومنت بالوحي إليها، ووعدت بما يسليها، ويطامن قلبها، ويملؤها غبطة وسرورًا »[(٣)].

وبعد هذا الإيحاء الرباني الذي نزل على قلب أم موسى بردًا وسلامًا، نجدها تفعل ما أمرت به، فتلقيه، ولكن السياق القرآني يحذف جملًا كثيرة،

---

(١) ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ١٣، ص ٢٥٢، وينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج ١٠، ج٢٠، ص ٧٤ - ٧٥.

(٢) ينظر: محمود صافي: الجدول في إعراب القرآن، مج ١٠، ص ٢٢٩.

(٣) الزمخشري: الكشاف، ج٤، ص ٤٨٣.

لنرى تابوت موسى بين يدي آل فرعون، ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾(١). وتقدير هذا الحذف: ففعلت ما أمرت به من إرضاعه وإلقائه في اليم.

وهذه الفجوة مقصودة؛ لأن ذكر ما لا يفيد يشتت الذهن عن التركيز على الحدث، ويعترض تحرك مساره الطبيعي، كما أن فيها إعطاء العقول فسحة لتتخيل كيف تلقت أم موسى الأمر الإلهي، وكيف ألقته ...

وبعد أن يذكر السياق القرآني الالتقاط نجد أن الله - تعالى - يقول: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾(٢)، فحذفت جمل عدة، تقدر بأن جواري امرأة فرعون التقطن التابوت، وأحضرنه إليها، ففتحته، ورأت موسى عليه السلام، فأحبته ... وعلم الذباحون بأمره، فجاءوا ليذبحوه، فشرعت تدافع عنه لدى فرعون وملئه قائلة: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ الآية.

وفي قفزة أخرى ينقلنا السياق إلى أم موسى، وقد آلمها فراق ابنها: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

فحذف من هذه الآية جواب لولا، لأن السياق يدل عليه، ولا حاجة لذكره، وتقديره: لولا أن ربطنا على قلبها لأبدته(٤).

كما حذفت عبارات بعد قوله - تعالى -: ﴿فَٰرِغًا﴾، وتقديرها، فارغًا من كل شيء في الدنيا إلا من ذكر موسى(٥).

---

(١) سورة القصص، جزء من الآية: [٨].

(٢) سورة القصص، جزء من الآية: [٩].

(٣) سورة القصص، الآية: [١٠].

(٤) ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مج ٣، ص ١٨٧.

(٥) ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٣، ص ٢٥٥.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾، وكان هذا بعد تفكير من أم موسى وتقدير، ولكن السياق القرآني، لم يذكر ذلك إيجازًا، كما أنه لم يذكر تفاصيل حدث بحث الأخت عن تابوت أخيها، وإنما اكتفى بقوله - تعالى -: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾[١].

ومعنى هذا أنه حذف عبارات كثيرة تقديرها: ففعلت الأخت ما أمرتها به أمها، ومشت وهي حذرة، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، ورأت آل فرعون وهم في حيرة من أمر الصبي الذي رفض الرضاعة من كل امرأة عرضت عليه، وهم مهتمون بأمره، قلقون بشأن رضاعته، فجاءتهم وقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾؟ فأجابوها لحسن عرضها، «ومرت بهم إلى أمه، فكلموها في إرضاعه، أو فجاءت بأمه إليهم فكلموها في شأنه، فأرضعته، فالتقم ثديها»[٢].

ويسدل الستار على كل هذه الحلقات؛ لأنه لا يتعلق بها أيٌّ من العظة والعبرة ويكتفي بقوله - تعالى -: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

وتطوى بعد ذلك حلقات كثيرة، تتضمن السنوات الطوال التي قضاها موسى عليه السلام في مصر بين أهله وبين قصر فرعون، ونحن لا نعلم ما الذي حدث له بعد أن رد إلى أمه، ولا كيف تربى في قصر فرعون، ولا كيف كانت

---

(١) سورة القصص، جزء من الآية: [١١] ، والآية: [١٢] .

(٢) ينظر: أبو حيان: البحر المحيط، مج ٧، ص ١٠٣.

(٣) سورة القصص، الآية: [١٣] .

صلته بأمه بعد زمن الإرضاع، كل هذه الأمور وغيرها يطويها السياق في فجوة مقصودة، ليحدثنا عنه بعد أن بلغ أشده، وهي الحلقة الأهم، إذ يقول - تعالى -: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]. وفي هذه الحلقة يحدث أمر قتله للقبطي، وخروجه من مصر بعد ذلك.

ثم تأتي قصة ابنتي شيخ مدين مع موسى عليه السلام بعد أن توجه موسى عليه السلام تلقاء مدين، وورد ماءها. وفي ذلك يقول - تعالى -: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[2].

فعبر السياق القرآني عن الحدث بجمل محذوفة المفعول في عدة مواضع، إذ المعنى: ﴿يَسْقُونَ﴾ أغنامهم أو مواشيهم، و ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ غنمهما، وقالتا: ﴿لَا نَسْقِى﴾ غنمنا ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ مواشيهم، فسقى لهما غنمهما.

وإنما ترك ذكر المفعول؛ لأن الغرض هو الفعل لا المفعول، فموسى عليه السلام إنما رحمهما؛ لأنهما كانتا على الذياد والرعاء على السقي، ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم أو إبل[3].

ولربما لو ذكر المفعول لتبادر إلى الذهن معنى غير ما أراده السياق من أن موسى عليه السلام إنما رحمهما لأن مذودهما غنم أو إبل.

كما أن السياق القرآني لخص حركتهما في محاولة حبس أغنامهما، وما

---

(١) سورة القصص، الآية: [١٤].

(٢) سورة القصص، جزء من الآية: [٢٣].

(٣) ينظر: الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ١٣٧ - ١٣٨، وينظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، مج ٣، ص ١٧٦، ١٧٧.

كانتا تجدانه من مشقة، وما تنطوي عليه تلك الحركة من دوافع نفسية، لخص كل ذلك في كلمة واحدة هي ﴿تَذُودَانِۖ﴾[١]. واستغنى بهذا اللفظ الموحي المكثف عن جمل كثيرة.

وفي فجوة أخرى نجد أن السياق القرآني ينقلنا إلى مشهد مجيء إحدى المرأتين إلى موسى عليه السلام: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾[٢].

وفي الكلام حذف لجمل كثيرة لا يتعلق بذكرها غرض، وتقدير تلك الجمل: فذهبت المرأتان إلى أبيهما من غير إبطاء، وقصتا عليه أمر الرجل الذي سقى لهما، فأمر إحداهما أن تدعوه له.

كما أن في الكلام استئنافًا مبنيًا على سؤال نشأ من حكاية مجيئها إياه، وكأنه قيل: فماذا قالت له بعد أن جاءته: فقيل: ﴿قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾[٣]. فالفصل بين الجملتين لشبه كمال الاتصال. وجاء موسى إلى الشيخ، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فحذف ما لقيه موسى عليه السلام من إطعام وإضافة، وانتقل من ذلك إلى عرض إحدى البنتين على أبيها أن يستأجره: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾[٤]. وقولها هذا حكيم جامع لا يزاد عليه؛ لأنه إذا اجتمعت خصلتا الكفاية والأمانة في القائم بالأمر فقد تم المراد[٥].

---

(١) ينظر: المحامي: القرآن والقصة الحديثة، ص ٥١.

(٢) سورة القصص، جزء من الآية: [٢٥].

(٣) ينظر: أبو السعود: إرشاد العقل السليم، ج ٧، ص ٩.

(٤) سورة القصص، الآية: [٢٦].

(٥) ينظر: الزمخشري: الكشاف، ج ٤، ص ٤٩٣.

وفي قصة ملكة سبأ مع سليمان عليه السلام تقابلنا فجوات كثيرة، يضعها السياق القرآني بين كل مشهد وآخر - على عادته في جميع القصص القرآني - ولا نجد في القصة إلا المشاهد الضرورية التي يقتضيها الغرض المسوق لأجله القصة. ولعله يكتفى بالتعليق على بعض المشاهد، وما فيها من حذف وإيجاز.

فهدهد سليمان عليه السلام لما ذهب إلى سبأ، وعاد مخبرًا سليمان عليه السلام عن حالهم، قال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾[1].

وفي قوله: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ حذف، والمعنى: وأوتيت من كل شيء في زمانها شيئًا، فحذف المفعول لدلالة الكلام عليه[2].

وأراد سليمان عليه السلام أن يختبر صدق الهدهد، فبعث معه كتابًا إلى الملكة وقال: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾[3].

وفي قفزة للسياق القرآني، نجد الكتاب بين يدي الملكة وهي تقول لملئها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾ الآية[4].

فلقد طويت رحلة الهدهد إلى سبأ، وخبر إلقائه الكتاب، وتلقف الملكة له،وتأملها فيه، وطلبها من ملئها الاجتماع في بلاطها، وتولي الهدهد عنهم؛ لينظر ماذا يرجعون.

كما أن السياق يكرر قول الملكة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ﴾ مرتين، وهذا التكرار ليس على سبيل التطويل، وإنما للفائدة، وذلك أنه لو لم يتكرر؛ لأوهم أن

---

(١) سورة النمل، جزء من الآية: [٢٣] .

(٢) ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، جـ ١٣، ص ١٨٤.

(٣) سورة النمل، الآية: [٢٨] .

(٤) سورة النمل، الآية: [٢٩] .

قولها: ﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾[١]. متصل بكلام سليمان عليه السلام[٢].

وفي قول الملأ: ﴿نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾[٣]، إيجاز عجيب، زاده الاختصار بسطًا لتمكنه ووقوعه موقعه[٤]، ولعل القارئ يرجع إلى فصل الأبعاد ليرى تحليل الآية وما فيها من حكم عظيمة على الرغم من قصرها[٥].

وحين اختارت الملكة مصانعة سليمان عليه السلام فقالت: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾[٦]، يترك السياق فجوة كبيرة، يملؤها الملأ بهمساتهم ومحاوراتهم في شأن ما رأته الملكة. ولما لم تجد الملكة أي معارضة، أرسلت بالهدية مع رسلها.

والسياق القرآني يطوي مرحلة سفر الرسل، وحملهم الهدية، لنراهم في بلاط سليمان عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾[٧]. فحذف الفاعل من: ﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾، أي فلما جاءه الرسل، وذلك لدلالة الكلام عليه.

وتطوى مرة أخرى حركة الرسل بعد إعلان سليمان عليه السلام رد هدية ملكتهم، وتهديده لهم، ثم عودتهم للملكة بالهدية والخبر ... واستعداد

---

(١) سورة النمل، جزء من الآية: [٣٢] .

(٢) ينظر: د / تمام حسان: البيان في روائع القرآن، ص ١١٦.

(٣) سورة النمل، الآية: [٣٣] .

(٤) ينظر: محمود صافي: الجدول في إعراب القرآن، مج ١٠، ص ١٦٢، بتصرف من: الباقلاني: إعجاز القرآن.

(٥) ينظر ص٢٤٩ وما بعدها من البحث.

(٦) سورة النمل، جزء من الآية: [٣٤] ، والآية: [٣٥] .

(٧) سورة النمل، جزء من الآية: [٣٦] .

الملكة للسفر إلى سليمان عليه السلام، في الوقت الذي نرى فيه سليمان عليه السلام يخاطب ملأه فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾[١].

ويصف السياق القرآني شعور سليمان لما رأى العرش بين يديه في أقل من طرفة عين، فيقول - تعالى -: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾[٢]. فورود عبارة ﴿مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ ليس على سبيل التطويل، وإنما لأن الرؤية قد تكون عن بعد، وكذلك العندية، فبين أنها حقيقة بإظهار العامل في الظرف، ومن حقه الحذف في غير هذا السياق، فقال: ﴿مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي ثابتًا ثباتًا لا مرية فيه، ما هو بسحر ولا منام ولا مثال[٣].

وفي قصة مريم ابنة عمران، تلقانا فجوات عدة بين كل مشهد وآخر، ومن ذلك - على سبيل المثال - ما ورد في سورة آل عمران، من قوله - تعالى - بعدما أورد دعاء امرأة عمران: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾[٤].

فدل قوله - تعالى -: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ على كلام محذوف، تقديره فكانت مريم ملازمة لخدمة بيت المقدس، وكانت تعبد الله في محرابها، وكان زكريا عليه السلام يتعهدها، فيرى عندها ثمارًا في غير وقت وجودها[٥].

---

(١) سورة النمل، جزء من الآية: [٣٨].

(٢) سورة النمل، جزء من الآية: [٤٠].

(٣) ينظر: البقاعي: نظم الدرر، مجـ ٥، ص ٤٢٧.

(٤) الآية: [٣٧].

(٥) ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، مجـ ٣، جـ ٣، ص ٢٣٦.

وفي سورة مريم، نجد أن الملك الذي اقتحم على مريم خلوتها، يبين لها مهمته التي جاء لأجلها، فيقول: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾[١].

فتسأله: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ ؟ ![٢].

فيجيبها: ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّاۚ﴾[٣]. وفي قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾: « تعليل مُعَلَّلة محذوف، أي وإنما فعلنا ذلك لنجعله آية للناس، فذكر السبب الذي صدر الفعل من أجله، وهو جعله آية للناس، ودل به على المسبب الذي هو الفعل »[٤].

ثم إن السياق القرآني يدع لنا فجوة، تجعل الخيال يتصورها كما يشاء، فيقدر الجمل المحذوفة بأنها: واستسلمت مريم للنفخ؛ فنفخ فيها جبريل كما أمره الله - تعالى - ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾[٥].

وحين حانت لحظة الوضع، وتمنت مريم الموت، فوجئت بمن يناديها من تحتها: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًاۖ﴾[٦].

ونحسبها قد بهتت طويلًا ودهشت قبل أن تفعل ما أمرت به، ويدع لنا السياق فجوة لنتملى مريم وهي تمد يدها لتهز جذع النخلة، فيتساقط عليها الرطب الجني، ثم تشرب من النهر العذب، ثم ترتاح وتنام بعد أن قرت

---

(١) جزء من الآية: [١٩].

(٢) جزء من الآية: [٢٠].

(٣) جزء من الآية: [٢١].

(٤) ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج ٢، ص ٨٠.

(٥) سورة مريم، الآية: [٢٢].

(٦) سورة مريم، جزء من الآية: [٢٤]، والآية: [٢٥]، وجزء من الآية: [٢٦].

عينها، واطمأن قلبها بالمعجزات العظيمة التي سخرها الله لها.

ومن كل ما سبق، نجد أن السياق القرآني يلجأ إلى التوفيق بين المبنى والمعنى في أسلوبه، فلا يذكر إلا ما يتعلق به الغرض من القصة وما يقتضيه السياق، كما أنه يلجأ إلى حذف كل ما يشتت الذهن، ويعترض تحرك مسار الأحداث.

وقد يستغني بلفظ موحٍ مبرق عن جمل كثيرة، كما يضع فجوات بين كل مشهد وآخر من القصة، فيعطي الأذهان فرصة لتتحرك لملء تلك الفجوات بالصورة التي تجدها مناسبة، وبهذا تتيقظ مشاعر المتلقي، ويعيش مع الأحداث والشخصيات، وتتكشف له مواطن العظة والعبرة.



المبحث الثاني

المنهج وأهمية الحوار في المشهد القصصي

إن الحديث عن الحوار، ودوره، وأهميته في المشهد القصصي، وتأثيره على الشخصية أمر في غاية الأهمية، ولكن ما يلزم قبل الحديث عن هذا الدور، والتطرق لتلك الأهمية؛ هو التعرف على ماهية الحوار، وتحديد مدلوله، ومن خلال ذلك يتم تبيين أهميته، والتعريف بدوره.

(أ) تعريف الحوار:

حين ننظر في المعاجم اللغوية، نجد تحت مادة « حور » تعريفات عدة للحوار:

ففي لسان العرب: أن الحَوْرُ هو الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، يقال: كلمته فما رَجَعَ إليّ حوارًا، وحِوارًا، ومُحَاوَرَةً، وحَوِيرًا، ومَحُورة _ أي جوابًا -.

والمُحَاوَرَة: المجاوبة.

والتّحاوُرُ: التجاوب.

واستحاره: أي استنطقه.

وهم يَتَحاوَرُون أي يتراجعون الكلام.

والمُحَاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة[1].

وفي أساس البلاغة: أن حاورتهُ: أي راجعته الكلام، وهو حسن

(١) ابن منظور، مادة (حور).

الحِوَار، وكلمته فما رد عليّ مَحُورَةً، وما أحارَ جَوَابًا أي ما رجع[١].

وفي المفردات في غريب القرآن: أن المحاورة والحَوَارُ المرَادّةُ في الكلام، ومنه التَّحَاور[٢].

ومن خلال ما سبق نخرج إلى أن الحوار يقصد منه مراجعة الكلام في المخاطبة، والمرادّة فيه.

(ب) أهمية الحوار في القصة:

يعد الحوار عنصرًا مهمًا من عناصر القصة، فهو من أبرز أساليب بناء الشخصيات ورسمها، والتدرج بها، وتكوين سماتها النفسية والجسمية والاجتماعية، وله وظيفة فنية تتصل بالتنبؤ الفني، والتكهن بلحظة التنوير، بما يقدمه من رموز وتفسير وتعليل وربط وتحليل في بناء فني متماسك[٣].

وقوة الحوار تكمن في الحركة، ذلك أن الحركة الملونة المنوعة هي الروح الذي يسري في كيان العمل القصصي، ويبعث فيه الحياة، وبغيرها يتعرض العمل القصصي للركود ويفقد حيويته[٤].

ويأتي الحوار في القصص القرآني ليؤدي دورًا مهمًا وبارزًا في خلق الحركة، وتنويعها، فعن طريقه تتبادل الشخصيات المواقف،ويحتدم الصراع، وتتطور الأحداث.

---

(١) جار الله الزمخشري، مادة (حور)، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ت ط ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩ م.

(٢) الراغب الأصفهاني، مادة (حور).

(٣) ينظر: د/ عبد المرضي زكريا: الحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني، ص ٣٦، مكتبة زهراء الشرق للنشر، القاهرة، ت ط ١٩٩٧م، بتصرف من: د/ يوسف نوفل: تطور لغة الحوار في المسرح المصري المعاصر، ص ٤٣ - ٤٧.

(٤) ينظر: د/ غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص ٦١٣، وينظر: عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص ١١٩.

وللحوار القرآني سمات خاصة يمتاز بها، وله طابع فريد، وأدوار ووظائف، على نحو ما سنرى في النماذج التي سيتم عرضها من واقع قصص النساء اللاتي أسهم الحوار في إبراز شخصياتهن، ودفع أحداث قصصهن. ذلك أن المشاهد القصصية التي كان للمرأة فيها دور، لا يكاد يختلف الحوار فيها بأسلوبه ونمطه عن الحوار الوارد في قصص القرآن بعامة.

والنماذج الحوارية التي تم استقراؤها بعد اختيارها شواهد على مبحث الحوار في قصص النساء هي:

١-حوار آدم عليه السلام وحواء مع إبليس قبل وقوعهما في المعصية، ومع الله - سبحانه وتعالى - بعد وقوعهما في المعصية[١].

٢-حوار سارة زوج إبراهيم عليه السلام مع الملائكة حين بشروها بغلام[٢].

٣-المقاطع الحوارية في قصة يوسف عليه السلام وامرأة العزيز[٣].

٤-حوار امرأة فرعون مع زوجها وملئه[٤].

٥-حوار أخت موسى مع ملأ فرعون[٥].

٦-الحوار بين موسى عليه السلام وابنتي شيخ مدين[٦].

٧-المقاطع الحوارية في قصة سليمان عليه السلام وملكة سبأ[٧].

---

(١) من سورة الأعراف، الآية: [٢٠ - ٢٧] .

(٢) من سورة هود، الآية: [٧١ - ٧٣] ، ومن سورة الذاريات، الآية: [٢٩ - ٣٠] .

(٣) من سورة يوسف، الآية: [٢٣ - ٣٥] ، والآية: [٥٠ - ٥٣] .

(٤) من سورة القصص، الآية: [٩] .

(٥) من سورة القصص، الآية: [١٢] ، وسورة طه، الآية: [٤٠] .

(٦) من سورة القصص، الآية: [٢٣] .

(٧) من سورة النمل، الآية: [٢٩ - ٣٥] ، والآية: [٤٢ - ٤٤] .

٨- المقاطع الحوارية في قصة الصديقة مريم بنت عمران[١].

٩- حوار رسول الله ﷺ مع زوجه حفصة[٢].

١٠- حوار المجادلة مع رسول الله ﷺ[٣].

١١- مناجاة امرأة فرعون ربها - سبحانه وتعالى -[٤].

١٢- مناجاة امرأة عمران ربها - سبحانه وتعالى -[٥].

ومن خلال تلك الشواهد يتم الحديث عن أبرز ما في الحوار مما من شأنه الكشف عن الشخصية واستبطانها. وإن كان موضوع الحوار واسعًا شاسعًا، ولكن حسب الباحثة الاقتصار على دراسة ما يلي:

أ - ألوان الحوار في مشاهد القصة.

ب- مميزات الحوار.

ج- وظائف الحوار في المشهد القصصي.



(١) من سورة آل عمران، الآية: [٣٧] ، الآية: [٤٥ - ٤٧] .

(٢) من سورة التحريم، الآية: [٣] .

(٣) من سورة المجادلة، الآية: [١] .

(٤) من سورة التحريم، الآية: [١١] .

(٥) من سورة آل عمران، الآية: [٣٥ - ٣٦] .

(أ) ألوان الحوار في المشهد القصصي

يأتي الحوار في مشاهد القصة على لونين:

أحدهما: الحوار الخارجي:

وهو ما يجري بين الشخصية وغيرها من أطراف الحوار الأخرى. وأطراف الحوار في قصص النساء تتنوع عددًا وماهية، كما هي عليه في بقية القصص القرآني، وذلك على النحو التالي:

١- التنوع من حيث العدد:

(أ) الحوار بين امرأة وشخصية واحدة، ومن أمثلته:

- حوار امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام في مشهد المراودة.

- حوار مريم مع زكريا عليه السلام حين كان يسألها عن مصدر الرزق، وحوارها مع الملك الذي اقتحم عليها خلوتها لينفخ فيها.

- حوار المجادلة مع رسول الله ﷺ.

- حوار حفصة - رضي الله عنها - مع رسول الله ﷺ لما نبأها بالسر الذي أفشته.

(ب) الحوار بين امرأة ومجموعة من الشخصيات، ومن أمثلته:

- حوار سارة مع الملائكة لما بشروها بإسحاق ومن ورائه يعقوب.

- حوار امرأة العزيز مع النسوة،حين دعتهن وأمرت يوسف عليه السلام بالخروج عليهن.

- حوار آسية مع فرعون وملئه حين نهتهم عن قتل موسى عليه السلام.

- حوار ملكة سبأ مع ملئها حين طلبت منهم أن يفتوها في أمر كتاب سليمان عليه السلام.

- حوار مريم مع الملائكة الذين بشروها بغلام.

(ج) الحوار بين امرأتين وشخصية واحدة، ومن أمثلته:

- حوار ابنتي شيخ مدين مع موسى عليه السلام.

(د) الحوار بين زوجين وأطراف أخرى، ومن أمثلته:

- حوار آدم عليه السلام وحواء مع ابليس حين وسوس لهما بالأكل من الشجرة.
- وحوارهما مع ربهما - سبحانه وتعالى - لما عاتبهما على الأكل من الشجرة.

٢- التنوع من حيث ماهية الطرف الآخر المشترك في الحوار:

(أ) قد يكون الطرف الآخر بشرًا.

(ب) وقد يكون من غير البشر، وهذا ما يضفي امتيازًا على واقعية الحوار التي سيأتي الحديث عنها. ومن أمثلة العناصر غير البشرية التي شاركت في المشاهد الحوارية في قصص النساء، وأمسكت بميزان الحوار:

- الله - سبحانه وتعالى - في حواره مع آدم وحواء.
- الملائكة في حوارها مع سارة، ومع مريم.
- الطير والجن في حوارهم مع نبي الله سليمان عليه السلام في قصته مع ملكة سبأ.

الثاني من لوني الحوار: الحوار الداخلي:

وهو الذي تظهر فيه الشخصية في حوار مع نفسها، أو في مناجاة لربها - سبحانه وتعالى - ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

١- من أمثلة حديث النفس: قول مريم الصديقة حين ألجأها المخاض إلى جذع النخلة، وعانت ما عانت: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾[1].

---

(١) سورة مريم، جزء من الآية: [٢٣].

٢- ومن أمثلة المناجاة: قول آسية امرأة فرعون لما اشتد بها الكرب: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١]، وقول امرأة عمران لما حملت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٢].



(١) سورة التحريم، جزء من الآية: [١١].

(٢) سورة آل عمران، جزء من الآية: [٣٥].

(ب) مميزات الحوار في القصص القرآني

يمتاز الحوار في القصص القرآني بميزات عدة، من أهمها:

١ - اعتماده في أسلوب عرضه على الحكاية، فهو يعرض الحوار مسبوقًا بقال أو قالت أو قالوا أو قلن أو قالا أو قالتا، حسب الأطراف المشتركة في الحوار.

ولكن هذا الأسلوب لا يكتفي بمجرد النقل الجامد، بل إننا نرى الشخصيات تتحرك، والمشهد حاضرًا ناطقًا، فنشعر وكأننا نعيش فيه، بكل خطرة أو خلجة وقعت فيه. وذلك أن القرآن الكريم لا ينقل كل ما ورد من حوار بين الشخصيات في المواقف التي يعرضها، وإنما يختار من الحوار ما يخدم الهدف المتوخى، ويدع للقاريء فرصة لكي يملأ تلك الفجوات بما يمليه عليه عقله، ويقوده إليه خياله، فيشعر وكأنه يعيش في المشهد بروحه وكيانه.

ويترتب على ذلك تنوع منهج القرآن الكريم في إقامة البناء الحواري، حيث يرد الحوار على أشكال عدة، وذلك على النحو التالي:

(أ) أن يكون مفصلًا في مشاهد قصصية متوسطة الطول وذلك كالمحاورات التي جرت في قصة سليمان عليه السلام وملكة سبأ.

أو مفصلًا في مشاهد قصصية قصيرة، وذلك كالحوار الذي جرى بين موسى وابنتي شيخ مدين عند ماء مدين، وكحوار امرأة فرعون مع فرعون وقومه عندما كانت تدافع عن موسى عليه السلام وهو في مهده.

(ب) أن يكون الحوار موجزًا في مشاهد قصصية طويلة، ومن أمثلته، الحوار الذي جرى بين امرأة العزيز ويوسف عليه السلام في مشهد المراودة،

والمحاورات التي جرت في قصة مريم، كمحاورتها للملائكة حين بشروها بغلام، ومحاورتها لجبريل حين اقتحم عليها خلوتها في صورة بشر سوي.

أو يكون الحوار موجزًا في مشاهد قصصية قصيرة، ومن أمثلته، حوار سارة مع الملائكة لما بشروها بغلام، وحوار أخت موسى عليه السلام مع آل فرعون حين كانوا يبحثون له عن مرضع، وحوار رسول الله ﷺ مع حفصة رضي الله عنها حين أفشت سره، فأنبأها به.

على أن هذا التنوع الذي نجده في إقامة البناء الحواري، يخضع لما يستدعيه الحال، ويتطلبه المقام، فإن تطلب المقام التفصيل لجأ إليه السياق القرآني، والأمر نفسه حين يتطلب المقام الإيجاز[1].

ففي مشهد حوار موسى عليه السلام مع ابنتي شيخ مدين يظهر التفصيل في الحوار، على الرغم من قصر ذلك المشهد، فموسى عليه السلام لما سأل المرأتين: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾.

- ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[2].

فلقد كان بإمكانهما أن يكتفيا بقول: ننتظر صدور الرعاء، ولكنهما لم يكتفيا بذلك وبينتا أن ذلك ديدنهما في كل مرة، بدليل استخدامها صيغة المضارع في: ﴿لَا نَسْقِي﴾، كما بينتا له سبب اضطرارهما للخروج، فقالتا: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، فبسبب هذا التفصيل عرف موسى عليه السلام حقيقة حالهما، فعجل بمساعدتها، وتطورت الأحداث بعد ذلك لنرى موسى عليه السلام في بيت شيخ مدين، ليعود إلى مصر بعد تمام مدة العقد وبصحبته إحدى ابنتي الشيخ وقد أصبحت له زوجة.

---

(١) ينظر: عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص ١٢٣، ١٢٥.

(٢) سورة القصص، جزء من الآية: [٢٣].

فهل كان موسى عليه السلام سيعرف حقيقة حال البنتين فيما لو امتنعتا عن الإجابة عن سؤاله ؟ وهل كان سيجيب دعوة والدهما بعد ذلك لو لم تفصّلا في الخطاب ؟

وهناك مشهد قصير آخر، يُرى فيه التفصيل في الحوار، ذلك هو: مشهد دفاع امرأة فرعون عن موسى عليه السلام حين وجدوه في التابوت، فهي لم تكتف بقول: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾[(١)]. بل لجأت إلى أسلوب التفصيل والتعليل لغرض ترغيب فرعون وملئه بترك قتل موسى - كما تقدم ذكره في البعد النفسي[(٢)]- . ولو أن امرأة فرعون اكتفت بالنهي عن قتله ولم تلجأ إلى التفصيل، لما نجحت في ذلك.

ومن المشاهد القصصية الطويلة التي يظهر فيها الحوار موجزًا، مشهد مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام. فلقد راودته، وقالت له: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[(٣)]. وتمنّع يوسف عليه السلام، واستعصم ... وتصاعدت الأحداث ... وانتشر الخبر خارج أسوار القصر ... ولكن السياق القرآني لم يسجل كل ما دار من حوار، وإن كنا نشعر أن هناك حوارًا صامتًا من جهة، وحوارًا طويلًا متنوعًا تدل عليه التجارب الفاشلة المريرة التي حاولتها المرأة، بما في ذلك المؤتمر النسائي الذي عقد في بيتها، والذي يشعرنا بأن هناك حوارًا كثيرًا جرى بينها وبين النسوة، وبين النسوة ويوسف عليه السلام، وأنهن بذلن محاولات جادة في سبيل إقناعه بإجابة طلب سيدتهن، ولربما أنهن أغرينه بمراودتهن وهذا ما جعل يوسف عليه السلام يدعو الله - عز وجل - أن يخلصه من كيدهن[(٤)].

(١) سورة القصص، جزء من الآية: [٩] .

(٢) ينظر: ص١٦٤ من البحث.

(٣) سورة يوسف، جزء من الآية: [٢٣] .

(٤) ينظر: محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٣١٥، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط ٣، ت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٢- ومما يمتاز به الحوار: التناسب بين الجمل الحوارية وبين المواقف المختلفة التي ترد فيها، والتناسب بينها - كذلك - وبين شخصيات المتحاورين، وهذا ما يعطي الحوار امتيازًا خاصًا وواقعية، وذلك على النحو التالي:

(أ) التناسب بين الجمل الحوارية وبين المواقف المختلفة.

قد يجيء الحوار هادئًا رزينًا حينًا، ومنطلقًا سريعًا حينًا آخر، كما قد يجيء مزمجرًا شديدًا حينًا ثالثًا، حسب الموقف القصصي في تأزمه، أو عدم ذلك. ومعنى هذا أن الحركة الحوارية تتقلب بين اللين والشدة، وبين الضعف والقوة، وبين الإبطاء والإسراع[١]. ولعل الباحثة تأتي ببعض الأمثلة على ذلك من واقع قصص النساء.

١ - من أمثلة الحوار شديد اللهجة: حوار الله - عز وجل - مع الزوجين، آدم وحواء عندما عصياه بقوله - تعالى -: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٢]. وقوله - تعالى -: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[٣].

وهذا الأسلوب الحواري يتناسب مع موقف الزوجين من مخالفة أمر الله - عز وجل -.

ومنه حوار امرأة العزيز مع زوجها حين ألفته ويوسف عليه السلام لدى الباب: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٤]. وهو ما يتناسب والموقف المحرج الذي وجدت نفسها فيه،

---

(١) ينظر: الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص ١٣٩، ١٤٠.

(٢) سورة الأعراف، جزء من الآية: [٢٢].

(٣) سورة الأعراف، الآية: [٢٤].

(٤) سورة يوسف، جزء من الآية: [٢٥].

ويتناسب وغضبها من يوسف عليه السلام حيث تسبب لها في ذلك.

ومنه حوار امرأة العزيز مع النسوة، لما دعتهن وأمرت يوسف عليه السلام بالخروج عليهن، وقالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[1]. وهو ما يتناسب وموقف التشفي والانتقام ومحاولة الانتصار للنفس، والضغط على يوسف عليه السلام عن طريق تهديده على الملأ.

٢-ومن أمثلة الحوار المنطلق السريع: حوار سارة مع الملائكة حين بشروها بغلام: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾[2]. وهو ما يتناسب مع قوة وقع المفاجأة لغرابتها، ولكن الرد يأتيها على لسان الملائكة هادئًا مطمئنًا مهدهدًا، ملائمًا لنفسها الرقيقة التي اهتز كيانها بالبشرى[3]: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[4].

ومن أمثلته كذلك، حوار مريم مع قومها لما أتت إليهم بعيسى تحمله: ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾[5].

ثم صعدوا هذا التقريع بجمل مكثفة تحملها المسئولية عما حدث بسخط وتهكم: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[6].

---

(١) سورة يوسف، جزء من الآية: [٣٢].

(٢) سورة هود، الآية: [٧٢].

(٣) ينظر: أ/ أحمد سنبل: الحوار القرآني بين التفسير والتبصير، ص ١٦١، دار ابن هانيء للنشر والتوزيع، دمشق، ط ١، ت ط ١٩٩٨م.

(٤) سورة هود، الآية: [٧٣].

(٥) سورة مريم، جزء من الآية: [٢٧].

(٦) سورة مريم، الآية: [٢٨].

ولما أشارت إليه، ﴿قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾[١].

ولكن الطفل لم يترك لهم مجالًا للتمادي إذ أنطقه الله - سبحانه وتعالى -.

٣ - ومن أمثلة الحوار الهادىء، حوار آدم وحواء مع ربهما - سبحانه وتعالى - لما عاتبها على إقدامها على المعصية، فقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[٢]. فهذه اللهجة الهادئة تناسب موقف رهبتهما من الله، وندمهما على فعل المعصية.

ومنه حوار امرأة العزيز مع الملك حين قررها ومن معها من النسوة بخطئهن في حق يوسف عليه السلام وطلب منهن الاعتراف، فقالت: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[٣]. وهذه اللهجة الهادئة تناسب موقف الاعتراف والشعور بالخطأ والندم على فعل الذنب.

(ب) التناسب بين الجمل الحوارية وبين شخصيات المتحاورين :

إن القرآن الكريم لا يجري على ألسنة المتحاورين إلا ما يوافق شخصياتهم، ولا يناقض طبيعة تفكيرهم، ومستوى إدراكهم. وفي هذا دليل واضح على واقعية هذا الحوار التي هي سبب في إحياء المشاهد التي ضمَّ عليها الحدث القصصي، وفي قدرتها على التأثير البليغ[٤].

ومشاهد المحاورات التي جرى فيها التناسب بين الجمل الحوارية وبين شخصيات المتحاورين كثيرة، ومنها تلك المحاورات التي جرت في قصة امرأة العزيز، بينها وبين يوسف عليه السلام في مشهد المراودة، وبينها وبين

(١) سورة مريم، جزء من الآية: [٢٩].

(٢) سورة الأعراف، جزء من الآية: [٢٣].

(٣) سورة يوسف، جزء من الآية: [٥١].

(٤) ينظر: عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص ١٢٩، ١٣٠.

زوجها في مشهد اتهامها ليوسف عليه السلام بإرادة السوء بها، وبينها وبين النسوة في مشهد الوليمة... وكل هذه المحاورات تتناسب وشخصيتها وما تحمله من غرور، وتكبر، واندفاع وراء شهوات النفس دون نظر في العواقب أو تقدير للأمور.

ومن ذلك الحوار الذي جرى بين ملكة سبأ وقومها حين استشارتهم في أمر كتاب سليمان عليه السلام، وهو حوار يناسب شخصية الملكة وما تمتاز به من رزانة وتعقل وحسن رأي.

ومنه المحاورات التي جرت بين مريم وأطراف الحوار الأخرى - كما سبق ذكره في قصتها في فصل الأبعاد - وهي محاورات تتناسب مع ما تمتاز به مريم من تقوى، وعفة، وقوة مراقبة لله في سرها وجهرها.



(جـ) وظائف الحوار في المشهد القصصي

إن مما يؤكد لنا أهمية الحوار في المشاهد القصصية، تلك الوظائف التي يؤديها فيها، ومن أهم تلك الوظائف وأبرزها.

١- الكشف عن مكنونات الشخصية، واستبطان مشاعرها، وسبر انفعالاتها، وتجلية أفكارها واهتماماتها، وذلك من خلال الأسلوب الذي تخاطب به الشخصية شخصيات القصة الأخرى.

ففي حوار امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام في مشهد المراودة، نجد أنها تقول له بعد أن هيأت الأجواء: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[1]. ولهجة الحوار هذه تكشف عن شخصية محمومة العاطفة، ثائرتها متوقدة المشاعر، قد زاد أحاسيسها التهابًا تمنّع يوسف عليه السلام، فشغفت به شغفًا أنساها حياءها وعفتها، وأعماها من كل شيء إلا عن إشباع شهواتها.

كما أن حوارها مع زوجها عندما قالت له: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾[2]. يكشف عن شخصية ملتوية، مغرورة، متسلطة، جريئة، ذات دهاء وكيد، قد زادها ضعف شخصية زوجها غرورًا وتسلطًا.

وفي حوار ملكة سبأ مع ملئها في شأن كتاب سليمان عليه السلام، ثم حوارها مع من سألها عن العرش. . . كل هذا يكشف عما تمتاز به الملكة من ميزات جعلتها في نظر قومها أهلًا للقيادة وتحمل المسؤولية، وحسب القارىء أن يعود إلى فصل الأبعاد ليرى كيف كشف الحوار عن مكنونات الشخصيات، وكيف جلّى أفكارها.

---

(١) سورة يوسف، جزء من الآية: [٢٣] .

(٢) سورة يوسف، جزء من الآية: [٢٥] .

٢- ومن خلال الحوار بين الشخصيات تندفع الأحداث وتتطور ويسلم كل حدث منها إلى ما بعده. فالحوار الذي جرى بين يوسف ﷺ وامرأة العزيز في مشهد المراودة، قاد إلى تأزم الموقف بعد استعصام يوسف ﷺ، ومن ثم تسلسل الأحداث حدثًا بعد آخر، حتى أدخل يوسف ﷺ السجن مدة، ثم أفرج عنه بعد اعتراف المرأة والنسوة.

والحوار الذي جرى بين الملكة وملئها في شأن كتاب سليمان ﷺ، قاد إلى اندفاع الأحداث وتسلسلها، حتى أعلنت الملكة إسلامها آخر القصة.

٣- وبالحوار نستطيع أن نتمثل الأشخاص في أزماتهم وصراعهم في المواقف المتغايرة[١].

ففي قصة ملكة سبأ مع سليمان ﷺ نلحظ الصراع الفكري الذي دار بينها وبينه حول العقيدة، والذي تطور إلى صراع مادي حين هددها سليمان ﷺ بالحرب وقومها.

ويتخلل هذا الصراع الفكري صراع نفسي أفصحت عنه عبارات الملكة عندما استشارت قومها قائلة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ . فهي مهتمّة بأمر الكتاب قلقة بشأنه، لا تعلم في أيٍّ الصواب، هل في عقيدتها أو في العقيدة التي يأمرها سليمان ﷺ باتباعها وقومها!

وفي قصة مريم الصديقة، نرى الصراع الخارجي في حوارها مع الملك

---

(١) ينظر: د / التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤١٤، وينظر: د/ حسين علي محمد: القرآن ونظرية الفن، ص ٨٦، مطبعة أبناء وهبة حسان، القاهرة، مصر، ط ٢، ت ط ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

(٢) سورة النمل: جزء من الآية: [٣٢] .

عندما فاجأها بدخوله عليها في خلوتها، فخافت منه وفزعت. ونراه في حوار قومها لها عندما أتتهم بعيسى تحمله.

كما نرى الصراع الداخلي يتداخل مع الصراع الخارجي في حوار مريم مع الملك: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ ![(١)]، فهي تحاور الملك، وتستثير تقواه، وفي الوقت نفسه تفصح عباراتها عن شدة خوفها وقلقها من الحمل غير المألوف لدى الناس.

٤ - وللحوار أهمية كبرى في تشويق المتلقي وإقناعه، وذلك لأنه يخفف من رتابة السرد، ويلبي فيه غريزة حب الاستطلاع، لمعرفة أبعاد الحوار، وما سينتهي إليه، وما سيترتب عليه من مواقف، وما سيخلفه من أحداث، فيتفاعل بذلك مع أبطال القصة.

٥- ومن وظائف الحوار، إظهار المغزى من القصة، والإفصاح عن الغرض والهدف الذي ترمي إليه، فالسياق القرآني حين يورد الحوار، لا يجرده من ذكر العظة والعبرة، لأن العظة والعبرة مقصد من مقاصد إيراده، ولهذا نجد لها موضعًا بارزًا بعد كل مشهد حواري، أو في أثنائه، بل إن المشاهد الحوارية كلها تكاد تنطق بالعظة والعبرة.

فالله - سبحانه وتعالى - لما أمر الزوجين بالهبوط من الجنة بعد معصيتهما، عقّب على ذلك بقوله - تعالى -: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[(٢)].

والحوار الذي جرى في قصة الزوجين فيه التحذير من وسوسة

---

(١) سورة مريم: جزء من الآية: [٢٠].

(٢) سورة الأعراف، الآية: [٢٧].

الشيطان، وبيان عداوته الأزلية والمستمرة لآدم وذريته، كما أن فيه الحث على التوبة، والاعتراف بالذنب عند الزلل.

وفي حوار امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام لما راودته عن نفسه فاستعصم برغم جميع محاولاتها، تتجلى القيمة كل القيمة في هذا الحوار في « تجسيد صورة المؤمن عندما يتعرض للإحتراق في جحيم تجربة الانحراف عن الخط المستقيم أمام نداء الجنس، فيقف مع إيمانه، مهما كانت التضحيات والآلام »[1].

وهكذا، ففي كل المحاورات التي جرت في القصص القرآني، تتجلى العظات والعبر، وقد تقدم الحديث عن كثير من هذه العظات في فصل الأبعاد، فليرجع إليه.



(١) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٣١٥.

المبحث الثالث

المنهج وطرائق البناء الفني في عرض الشخصية وتصويرها

على الرغم من أن السياق القرآني لا يذكر من الأحداث التي تعرض لشخصياته إلا ما يخدم الهدف المتوخّى، لكن الألفاظ التي يستخدمها في التعبير عن المشاهد القصصية تنهض برسم صور شاخصة متحركة، تخيل للحس حركة الشخصيات، وتلقي ظلالًا على نفسياتها، وما يضطرب فيها من انفعالات مختلفة.

وفضلًا عن ذلك، فهو ينوع في طرق العرض من حيث الابتداء، ومن حيث القدر الذي تعرض به القصة , وكل ذلك سيتضح من خلال عرض هذا المبحث:

(أ) إقامة العرض على التصوير:

إن المتأمل في القصص القرآني يجد أن القرآن الكريم يقيم العرض على التصوير، فيعبر بالصورة المحسّه المتخيلة عن طبيعة الشخصية البشرية، وعن الحالات النفسية التي تعتريها، والمشاهد التي تتحرك فيها، ثم يرتقي بهذه الصورة فيمنحها الحياة الشاخصة والحركة المتجددة، فنرى تلك الحالات والنماذج والمشاهد، نراها شاخصة حية، متحركة، مجسمة، حتى إذا ما عرضها أمامنا؛ رأينا الشخوص تغدو وتروح، وتعبر عن أحاسيسها المضمرة، فتبرز سمات انفعالاتها نابعة من الموقف، متساوقة مع الأحداث[١].

---

(١) ينظر: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ٧١ وما بعدها.

وفي قصص النساء في القرآن، نجد أن التصوير يبرز الانفعالات المختلفة والعواطف للشخصية، وذلك من خلال سلوكها وتصرفاتها ومواجهتها للأحداث. وحتى تلك المشاهد التي تتنقل فيها الشخصية نجد أنها تعرض وكأنها تمثل أمامنا واقعًا ملموسًا تتملاه العين مع الحس والخيال.

ويستعين السرد القصصي بأمور عدة من وصف وحوار وجرس موسيقي وتشبيه ولفظ دال على الحركة... يستعين بكل ذلك لتشكيل الصورة وإبرازها لتحقق ما يراد منها من تصوير للعواطف والانفعالات والمشاهد المختلفة.

ففي قصة آدم وحواء في سورة الأعراف، تأتي اللوحة التي عرضت فيها القصة مصورة للضعف الإنساني أمام وسوسة الشيطان، وكيده، أمام فتنة الشهوات. تصور كل ذلك في شخص آدم وحواء.

فإبليس لما أراد إغواء آدم وحواء قام بوسوستهما، مستغلًا بذلك حبهما للخلود في الجنة لما رأيا فيها من النعيم العظيم: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[١].

واللوحة هذه ترسم إبليس بصورة منفرة، ملموسة الكبر والحقد، بارزة التكبر والخبث[٢]. لم تهدأ وساوسه حتى أغواهما: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾[٣]. وكأنه قد دلى الزوجين بحبل معه، وتركهما معلقين، فلم يتحقق لهما الملك

(١) الآية: [٢٠ - ٢١].

(٢) ينظر: د/ محمد الدالي: الوحدة الفنية في القصة القرآنية، ص ٢٦.

(٣) جزء من الآية: [٢٢].

والخلود في الجنة كما سوّل لهما، ولم يسلما من نتائج المعصية !.

وهذا فعل الشيطان ببني آدم، حيث يعلِّق من اتبعه منهم بشهواته، ويجعله يلهث خلف المعاصي والمحرمات، ويظل معلقًا، فلا هو تركه ليطيع الله، ولا هو جعله يشبع من الشهوات والملذات(١).

وفي الصورة ما يوحي بأن إبليس دلّى آدم وحواء بسرعة، بدليل مجيء الفاء المفيدة للتعقيب المباشر في قوله - تعالى -: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾، وهذا من نتائج المعصية.

بيد أنهما قبل أن يتدليا حدث لهما أمر، وهو بدو السوءة: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾. وهو تخييل حسي بالتشخيص، وكأن السوءة لها حياة تملك بها أن تبدو وتبرز.

وإذا ما تملينا موقف الزوجين، رأينا كيف أنهما ارتبكا وأحرجا من بدو سوءاتهما، بدليل قوله - تعالى -: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾.

فلنتابع خطوهما، ونلحظ وقع أقدامهما، وهما يتنقلان بين أوراق الجنة يخصفان عليهما منها، وهما في ذلك الشعور الذي لا يحسدان عليه.

وبينا هما على هذي الحال إذ يسمعان صوت الرب - سبحانه -: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(٢).

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(٣).

فلقد بهتا واشتد ندمهما، وكأنا نتملى صورتهما وقد نكسّا رأسيهما، وخشع قلباهما، ولكن الله - عز وجل - تاب عليهما، فاطمأنا وسكنا.

---

(١) عمرو خالد: قصة آدم وحواء، (مادة سمعية).

(٢) جزء من الآية: [٢٢].

(٣) الآية: [٢٣].

ولكنه قضى أن يهبطهما وإبليس من الجنة: ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1]. وفي لفظة الهبوط، صورة متحركة، ترينا الزوجين، ومن أهبط معهما، وهم ينزلون من أعلى إلى أسفل، فلقد حالت المعصية - بتقدير الله - دون بقاء الزوجين في الجنة، على الرغم من توبتهما، وتوبة الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - عليهما.

ولم تنته اللوحة عند هذا الحد، بل إنها تتركنا لنتأمل ونتملى في لفظة: « ينزع » في قوله - تعالى -: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾[2].

فلفظة النزع توحي بالشدة، وتجعلنا نتخيل شدة إبليس وجبروته وهو ينزع عن الزوجين لباسهما، وهي صورة تتفق وحقد إبليس وحسده ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾، إمعانًا في الكيد والحسد.

إنها بحق صورة بصرية حية متحركة تلقي ظلالًا على نفسية إبليس، وتنم عن كيده، وإن كان لم ينزع لباسهما بنفسه، وإنما كان سببًا لنزعه.

والصورة فيها تحذير من وسوسة الشيطان، وما في اتباعه من خسارة وخيبة وحرمان.

وفي قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وسارة، تنتشر التعبيرات في إطار الصورة التي عرضت فيها القصة، فتجعل المشهد مشحونًا بالحركة، حافلًا بها.

فالضيف لما دخلوا على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وسلموا عليه، ورد عليهم، هب مسرعًا ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾[3]، ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[4].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: [٢٤].

(٢) سورة الأعراف، جزء من الآية: [٢٧].

(٣) سورة الذاريات، الآية: [٢٦].

(٤) سورة هود، جزء من الآية: [٦٩].

وقامت امرأته على خدمة الضيف، والصورة تريناها وهي تنتقل من مكان إلى آخر، لتقرب إليهم مع إبراهيم طعام القرى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾[١].

بيد أن الحركة في الصورة تقوى وتشتد بعدما سمعت سارة بشرى الغلام: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾[٢].

فلقد أقبلت على الضيوف بعدما سمعت البشرى، ونكاد نلمح وقع أقدامها، ونرى سرعتها التي توحي بارتباكها وفزعها، كما نسمع صوت ضجيجها وصياحها: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾، وما نلبث حتى نستشعر معها ألم صك الوجه، ونتبين أثره، ونسمع صداه! ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾.

ثم لا نلبث حتى نسمع حوارها الذي يتعاضد مع الوصف ومع التعبيرات الدالة على الحركة، ليكمل بذلك رسم الصورة الحافلة: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾[٣]. فهي مندهشة، ومنفعلة، ومتعجبة لغرابة الخبر! وسرعان ما نشعر بطمأنينة قلبها، وذهاب فزعها بعد أن قالت لها الملائكة: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[٤].

كما نجد أن قصة امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام حافلة بالانفعال والحركة، فالسياق القرآني يجسد لنا سلوك امرأة العزيز، ويصف انفعالاتها المختلفة، وانفعالات الشخصيات الأخرى في القصة، وذلك من خلال المشاهد التي لم ينقلها لنا بطريقة إخبارية، بل بطريقة تصويرية، تجعلنا

---

(١) سورة هود، جزء من الآية: [٧١].

(٢) سورة الذاريات، الآية: [٢٩].

(٣) سورة هود، الآية: [٧٢].

(٤) سورة هود، جزء من الآية: [٧٣].

نعيش مع شخصياتها، ونرى هيئاتهم، وتحركاتهم، ونسمع أصواتهم ونتابع الأحداث وتطوراتها كما لو كنا بعضًا منهم.

ففي مشهد المراودة يكتفي السياق القرآني بألفاظ محدودة، ولكنها مشحونة بالتعبير الدال على الحركة، ومشحونة بالانفعالات والمشاعر الهادرة الثائرة، فيقول - تعالى - ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾[1].

ففي الفعل ﴿وَرَٰوَدَتْهُ﴾، تظهر المرأة في الصورة وهي تروح وتغدو، وتتعرض ليوسف عليه السلام عن اليمين والشمال، تريد لفت انتباهه إلى محاسنها، فيفتن بها، وهو تعبير عن نيران الشهوة المحمومة التي تتوقد في داخلها، ولكن بأسلوب نظيف لا يخدش السمع ولا يثير الحرج.

وتمتد هذه الصورة بامتداد يد امرأة العزيز إلى الأبواب ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾، وهي كناية عما تريده من يوسف عليه السلام، وتجسيد لرغبتها المحمومة. وفي لفظة ﴿وَغَلَّقَتِ﴾ وما تدل عليه من شدة، ما « يبعث في الذهن صورة الدفع القوي للأبواب »[2].

ثم تأتي الصورة الثالثة لتمتزج مع الصورتين السابقتين فتكمل بذلك خطوط المشهد المحموم وألوانه: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ !.

فالصورة ترينا المرأة وهي مجهدة من تغليق الأبواب، ومن كثرة المحاولات والمراودات، وكأنها تغلي عشقًا ولهفة ! حتى لم يبق لها وسيلة إلا أن تعرض نفسها عليه في محاولة يائسة.

---

(١) سورة يوسف، جزء من الآية: [٢٣].

(٢) د/ أحمد ياسوف: جماليات المفردة القرآنية، ص ١٥٥، دار المكتبي للطباعة والنشر، سورية، دمشق، ط ٢، ت ط ١٤١٩هـ،١٩٩٩م.

ولما لم تفلح، لتأبي يوسف عليه السلام عليها، لجأت إلى محاولة إرغامه بالقوة: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾. وكأنها تحولت في الصورة إلى أنثى حيوان متوحش، قد عميت عن كل شيء إلا عن إشباع شهوتها!

وفي خلال هذا المشهد المرعب المظلم، يأتي الضياء ليتسلل إلى قلب يوسف عليه السلام فيطمئنه ويثبته، ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾[1].

ف ﴿رَّءَا﴾ البصرية، و ﴿بُرْهَـٰنَ﴾ المضاف إلى ﴿رَبِّهِۦ﴾ تفتح على ما وراء الأبواب نور الهداية.. فإذا نحن بمشهد متحرك، بل سريع الحركة تجسده لنا الصورة ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾.

فلقد انطلقا في صراع مرير كل منهما له غاية، وكل منهما يبذل أقصى طاقته، يوسف عليه السلام للهرب، وهي للحاق به، في مشهد صاخب، فيه شد وجذب يقف العزيز إزاءه مبهورًا مدهوشًا!!.

حتى إذا تكلمت المرأة فقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]، رأينا في شخصيتها ومن خلال حوارها، الكذب والكيد والجرأة والإصرار على الفعل ولو بعد حين.

ويستعين الشاهد بالصورة البصرية لمعرفة صدق ادعاء الطرفين في دعواهما، فيرى القميص قد قد من دبر، فيشهد ليوسف عليه السلام على المرأة!.

وينهي الزوج الحدث بقوله ليوسف والمرأة: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾[3]. في مشهد يجسِّد رخاوته، وضعف غيرته!.

---

(١) سورة يوسف، جزء من الآية: [٢٤].

(٢) سورة يوسف، جزء من الآية: [٢٥].

(٣) سورة يوسف، الآية: [٢٩].

ولكن الخبر ينتشر، وتلوكه الألسنة، فنرى صورة نسوة مجتمعات، يتندرن بفعل امرأة العزيز، ويستعملن في ذلك ألفاظًا قاسية موجعة، تنم عما وراءها، فيقلن: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[١].

وتجيء لفظة ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ في قوله - تعالى -: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾، لتلقي ظلالًا على الحدث، وتصور أولئك النسوة في هيئة من تفيض ألسنتهن اغتيابًا وسوء قالة[٢].

ولكن المرأة تنتقم لكبريائها المجروح، عندما تدعوهن، وتريهن يوسف عليه السلام ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾.

فالصورة البصرية المتحركة ترينا النسوة قد بهتن لجمال يوسف عليه السلام، وفتحن أفواههن لبالغ الدهش، وركّزن أبصارهن عليه، وغبن عن الدنيا، حتى لم يعدن يبالين بشيء حتى بأيديهن المجروحة بالسكاكين.

وفي الفعل المضعَّف الدال على التكثير ﴿قَطَّعْنَ﴾، ما يوحي بأن السكاكين كانت تقع على يد إحداهن فتجرحها، فترفعها عن يدها بطبعها، ثم يغلبها الدهش فتقع على موضع آخر وهكذا ![٣]. فهي صورة بصرية مثيرة !.

ويأتي الحوار متضامنًا مع الوصف والحركة، ليجسِّد أحاسيسهن وانفعالاتهن، ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[٤].

إن هذه الصورة الفنية للمشاهد الكثيرة في القصة، والتي تدور حول

---

(١) سورة يوسف، جزء من الآية: [٣٠].

(٢) ينظر: د/ كامل البصير: بناء الصورة الفنية في البيان العربي، ص ٣٦٩ وما بعدها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ت ط ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(٣) ينظر: البقاعي: نظم الدرر، مج ٤، ص ٣٥.

(٤) سورة يوسف، جزء من الآية: [٣١].

قصة عشق من طرف واحد ! ، هي صورة تعبيرية راقية، تمثل أنموذجًا فريدًا للتعبير عن المرأة وأحاسيسها، وعن القضايا التي لا يجمل التصريح بها .

وفي قصة ابنتي شيخ مدين مع موسى عليه السلام، تَطَّلِع الألفاظ بالتعبير عن الصورة، فتحيل المشهد حافلًا متحركًا .

ففي لفظة ﴿تَذُودَانِۖ﴾ في قوله - تعالى - : ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ﴾[1] تخييل، إذ إنها صورة متحركة، تخيل للحس حركة المرأتين وهما يطردان الماشية ويدفعانها ويسوقانها، والماشية تكاد تنفر منهما وتختلط بغنم القوم، وهما يلاحقانها ويتابعانها، في مشهد مؤثر يدعو للشفقة والرحمة ! .

وفي المقابل نرى صورة الرعاء وهم يتزاحمون حول الماء : ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾[2]. وما منهم من رأف بحال المرأتين، فساعدهما ! ! .

وهذا المشهد المؤثر هو ما دفع موسى عليه السلام إلى مساعدتهما على الرغم مما هو فيه من عناء ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ .

وصورة أخرى مؤثرة، تلك هي صورة موسى عليه السلام بعد أن سقى للمرأتين ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[3]. فالصورة تريناه وحيدًا، متعبًا خائفًا طريدًا. . . قد استند إلى ظل شجرة، وضاقت عليه نفسه، فرفع كفيه إلى السماء فقال : ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ .

---

(١) سورة القصص، جزء من الآية: [٢٣] .
(٢) سورة القصص، جزء من الآية: [٢٣] .
(٣) سورة القصص، الآية: [٢٤] .

وما نلبث ونحن نتملى هذا المشهد حتى نسمع وقع خطوات إحدى المرأتين، ونرى صورتها وهي تتجه ناحية موسى عليه السلام بكل استحياء وذوق: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[1].

والصورة التالية لهذا المشهد ترينا ما جرى لموسى في بيت شيخ مدين، من حسن ضيافة، . . . واتفاق على الزواج من إحدى البنتين مقابل العمل مدة معلومة.

والقصة كلها حافلة بالحركة، مشحونة بها، وقد نجحت التعبيرات المختلفة فيها في ملء إطار الصورة بما منحها التكامل في الشكل والنمو في الحركة، وذلك من خلال تصويرها لانفعالات الشخصيات المختلفة، والمشاهد المتنوعة، فتزامن الحوار مع الوصف مع التعبير الدال على الحركة ليكشف عن كل ذلك.

وفي العهد النبوي في قصة امرأة أبي لهب، نجد أن القرآن الكريم يصورها بدابة عجماء أو بحطابة، فيقول - تعالى -: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾[2].

فهذه الصورة مأخوذة من واقع البيئة التي كان يعيشها العرب، إذ المعلوم أن من لوازم البيئة اليومية توفير الحطب لأجل إشعال النار للخبز أو للطبخ أو للتدفئة. وهذا الحطب - غالبًا - ما يحمل على دابة إذا كان يؤتى به من مكان بعيد، وعادة ما يستعينون بالحمير والبغال لهذا الغرض.

---

(١) سورة القصص، جزء من الآية: [٢٥].

(٢) سورة المسد، الآية: [٣، ٤].

ومن الطبيعي أن يكون للدابة التي تستخدم في وسائل المعيشة مقود تقاد به، وهو الحبل.

وإذا نظرنا إلى تصوير القرآن من خلال الهدف والملابسات، نجد صورة امرأة أبي لهب في غاية الوضوح، فلقد صورت بصورة دابة يحمل عليها الحطب، وفي عنقها حبل من ليف تقاد به.

وقد جاءت الألفاظ تخدم الصورة الساخرة التي رسمت لها، فلفظ ﴿ٱلْحَطَبِ﴾ لتأكيد صورة الدابة، حتى لا يتجه ذهن السامع إلى تأويله إلى شيء يناسب الآدميين كحمل المتاع، ولفظ ﴿فِى جِيدِهَا﴾ تأكيد آخر لصفة الدابة، فإن الذي يقاد بالحبل في عنقه إنما هو الدواب العجماء، ولفظ ﴿مَّسَدِۭ﴾ تأكيد آخر لصفة الدابة، فالحبل الذي تقاد به حبل قوي من ليف يجعلنا نتخيلها دابة جموح تحتاج حبلًا قويًا.

ولقد استحقت هذه المرأة التصوير بالدابة، لأنها ارتكست وضلت، فصارت أضل سبيلًا من الأنعام لكفرها وجحودها، فهي امرأة ضعيفة العقل سفيهة[1].

وهناك صورة أخرى ساخرة، حمل عليها المفسرون قوله - تعالى -: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾، تلك هي تشبيه أم جميل بصورة حطابة تحمل على ظهرها حزمة حطب، وتربطها في جيدها بحبل من ليف ولحاء شجر، مفتول كما تفعل الحطابات، فهي في غاية الخساسة، والضعة، والحقارة.

وصورت بذلك لتمتعض، ويمتعض زوجها لكونهما في بيت العز والشرف، وفي منصب الثروة والجدة[2].

---

(١) ينظر: د/ عبد الحليم حفني: التصوير الساخر في القرآن، ص ١٩١ - ١٩٤.

(٢) ينظر: الزمخشري: الكشاف، جـ٦، ص ٤٥٨، والرازي: مفاتح الغيب، جـ ٣٢، ص ١٧٣، والبقاعي: نظم الدرر، مجـ ٨، ص ٥٧٤.

(ب) تنوع طرق العرض

١-التنوع في طرق الابتداء في العرض:

تختلف طرق الابتداء في عرض قصص النساء وتتنوع تبعًا لتنوع الأغراض، ذلك لأن السياق القرآني - كما تقدم - لا يعرض من أحداث قصص النساء إلا ما يحقق غاية مهمة في القصة، ولا يجري لهن ذكرًا، إلا حيث يسهمن في نمو الأحداث ... ومن تلك الطرق:

أ- أن تذكر قصة المرأة مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص، ويكتفى بمفاجآتها الخاصة(١)، وهزاتها المختلفة، ومثال ذلك: قصة مريم عند مولد عيسى عليه السلام وقصة ملكة سبأ مع سليمان عليه السلام.

ب- أن تذكر قصة المرأة مباشرة دون مقدمة ولا تلخيص، ودون مفاجآت، ومثال ذلك: قصة المجادلة، وقصة عائشة وحفصة في تظاهرهما على النبي ﷺ.

ج- أن يبدأ السياق القرآني في عرض القصة بلفظ موجه إلى النبي محمد ﷺ فيه التشويق إلى القصة، ومثال ذلك: قصة بشارة الملائكة لإبراهيم عليه السلام وزوجه بالولد إذ يقول - تعالى -: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾(٢)، وقصة موسى عليه السلام عندما عاد بزوجه إلى مصر، فقال - تعالى -: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾(٣). ، فلفظ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ يراد به التشويق.

د- أن تذكر قصة المرأة في إطار الحديث عن الشخصية الرئيسة في

(١) ينظر: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٨٢.

(٢) سورة الذاريات، الآية: [٢٤] .

(٣) سورة طه: الآية: [٩] .

القصة بعد مقدمة ترد فيها عاقبة القصة ومغزاها، ومثال ذلك: قصة حواء، فقد ذكرت ضمنًا مع قصة آدم عليه السلام، وقصة امرأة العزيز، والتي ذكرت في إطار قصة يوسف عليه السلام ومن ضمن أحداثها التي مهد لها في بداية القصة برؤيا يوسف وما أوحت به من انتصار له وتمكين ورفعة شأن، ومثلهما قصص النسوة (أم موسى، وأخته، وامرأة فرعون) واللاتي ذكرن في إطار الحديث عن قصة موسى عليه السلام وبعد مقدمة أخبر - سبحانه وتعالى - فيها عن طغيان فرعون، وما فعله ببني إسرائيل، وما سيؤول إليه حالهم وحال فرعون.

٢-التنوع في القدر الذي تعرض به قصص النساء:

يختلف القدر الذي تعرض فيه قصص النساء حسب الغرض الذي سيقت القصة لأجله؛ فإن كان الغرض يقتضي عرض القصة من أولها عرضت من أولها، وإلا اكتفي بعرض بعض حلقاتها، أو بعرضها من الوسط أو من الآخر.

ولكن ! ما يلاحظ أن الغالب على قصص النساء ألا تعرض كاملة، وإنما يكتفى بعرض حلقة من حلقاتها، وعادة ما تكون الحلقة المعروضة من وسط القصة.

ولا توجد امرأة عرضت قصتها في القرآن الكريم من الحلقة الأولى إلا حواء، ومريم. وأما بقية النسوة فقد اكتفى السياق القرآني بعرض حلقة أو أكثر من قصصهن، ولكن ليس من البداية بل من الوسط، ومثال ذلك: امرأة العزيز، وأم موسى، وملكة سبأ، ومنهن من عرضت قصتها في حلقة متأخرة، كامرأة نوح وامرأة لوط.

على أن كل حلقة من الحلقات التي عرضت فيها قصص النساء، ملأى بالعبر والعظات، وحسب القارئ أن يرجع إلى فصل الأبعاد، فيتأمل فيما ذكر من عبر. والله - تعالى - أعلم.

الخاتمة

الحمد لله على توفيقه، وفتحه، وعظيم منته. حيث يسر إتمام هذا البحث، بعد وقت وجهد أحتسبهما عنده - سبحانه - وأسأله برحمته أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به، ويعظم بركته.

وبعد، فلما كان المرتجى من كلِّ عملٍ ثماره، فأرغب في الإشارة إلى بعض النتائج التي توصلت إليها في بحثي، وأوجزها فيما يلي:

١ - القصص القرآني نسيج من الصدق الخالص، ليس فيه شائبة من خيال.

٢ - وضع القصص القرآني نماذج عدة للمرأة، وكشف عن انفعالاتها، وأبان عن مشاعرها وخواطرها، وحدد مستوى تفكيرها وعقيدتها، وأبرز مكانتها الاجتماعية، فاتضحت جوانب شخصيتها عقديًا ونفسيًا واجتماعيًا.

٣ - القصص القرآني لم يهتم بالشكل الخارجي للشخصيات النسائية المتمثل في البعد الجسمي، وذلك لأن ذكر هذه الأمور لا يخدم الهدف المتوخى من القصة، والقرآن يركز على دوافع الشخصية وانفعالاتها وسلوكها مما تكمن فيه العظة والعبرة، كما أنه يبتعد عن إثارة الغرائز، ويحرص على الستر على المرأة.

٤ - العامل الرئيس في تقويم الشخصية في نظر القرآن هو العقيدة، ولهذا عد الإيمان بعقيدة التوحيد بمثابة القوة المحركة للشخصية، والموجهة لها في سياق معين من السلوك الخاص الذي امتاز به المؤمنون.

٥ - تمتاز المواقف النفسية في القصص القرآن بأنها تقدم نماذج إنسانية

واقعية، كما أنها تهدف إلى تربية الإنسان انطلاقًا من واقعه النفسي في مجرى حياته العملية.

٦ - يمر السياق القرآني بمواطن الضعف البشري مرورًا عابرًا، دون أن يجعل من لحظات الضعف معرضًا للنزوة الحيوانية. وفي هذا ما يباين الروايات المنحرفة، والقصص الهابطة التي يدغدغ أصحابها المشاعر، فيدعون بذلك للفساد ونشر الرذيلة.

٧ - جاء في قصص النساء في القرآن وصف واقعي دقيق لسمات شخصية المرأة المختلفة، وصفاتها، فهي المرأة نفسها في كل زمان ومكان. ومن تلك السمات التي جاء وصفها:

أ - أنها - غالبًا- موهونة الإرادة، قليلة العزم.

ب - ولها كيد عظيم.

جـ - وتميل - غالبًا - للتوسع في الكلام، والثرثرة. وتولع بنقل الأخبار وتداولها، والافتنان في صياغتها، والإضافة عليها من الخيال.

د - وهي لا تستحي من المرأة كما يستحي الرجل من الرجل.

هـ - وهي غيور، قد يغيب عنها عقلها عندما تشتد غيرتها.

و - وقد تضعف عن كتم الأسرار.

ز - وتحب الزينة والبهرج والمظاهر.

ح - وهي ضعيفة البدن ليس لها قوة الرجال البدنية وجلادتهم.

ط - كما أنها ضعيفة في موقف الحكم والقيادة، تميل إلى السلم وتكره الحروب والتدمير.

ي - وهي مخلوق عاطفي.

ك - لا تستطيع مغالبة عاطفتها تجاه أبنائها خاصة.

ل - وهي تحب الولد، وأقسى ما يؤلمها أن تكون عاقرًا لا تلد ! !

م - والحياء خلق أصيل فيها. فإذا فقدته؛ خرجت عن فطرتها.

و - وإذا امتازت بحسن أو بشرف أو بغيرهما، أحبت أن تدل على غيرها بتلك الميزة.

ن - وإذا أحبت زوجها أخلصت في خدمته والتضحية لأجله على أروع صور الإخلاص والتضحية !، وإذا كرهته لم تأبه به ولم تقدره.

س - وهي لا تطيق أن تشاركها امرأة في زوجها.

ع - وأقسى ما يؤلمها أن تطعن في عرضها، وتفقد مكانتها لدى الزوج الذي تحبه.

٨ - كما جاء في القصص القرآني وصف دقيق لكثير من الانفعالات التي تصيب المرأة وغيرها بشكل عام، ومنها: التعجب والدهش، والحب، والكبر، والغرور، والخوف، والحزن، والحياء، والندم، والغيرة، والحسد.

كما جاء فيه بعض الحيل العقلية، كالإسقاط والتبرير، كما يسميها علماء النفس.

٩ - المرأة ليست ضعفًا دائمًا، فقد أثبتت قوتها وقدراتها وذكاءها في أحلك الظروف وأشدها، وفي أصعب المواقف وأدقها.

١٠- القرآن الكريم يحرص على أن تكون شخصية المرأة متوازنة، تعطي كل ذي حق حقه، ولهذا نجد في القصص القرآني نماذج فاضلة لأساليب تعامل المرأة مع نفسها ومع غيرها ممن لهم الحق عليها.

ففيه توجيه لعلاقة المرأة بربها - سبحانه وتعالى - ، من الثقة به، والتوكل عليه، والإيمان بقدرته على فعل كل شيء، والرغبة إليه والابتهال، ومناجاته، وإدامة العبادة والتبتل. . .

وفيه توجيه لعلاقة المرأة بنفسها، بالتحكم فيها وضبطها، والسيطرة عليها، وتقوية الإرادة والعزيمة المستمدة من قوة الإيمان بالله.

وتوجيه لعلاقتها مع جسدها، من توفير الراحة له عند التعب والإرهاق، وإعطائه ما يحتاج من غذاء وشراب. . .

وفيه توجيه لعلاقة الزوج بزوجها، من حسن الطاعة، والتواضع، وكتم أسراره، وخدمته، والحفاظ على مشاعره. . .

وعلاقة الأم ببنيها وما يجب أن تكون عليه، من توفير احتياجاتهم البدنية والنفسية، كالاهتمام بالرضاعة، ومنحهم الحب، والتربية القويمة، والسعي في حمايتهم وتوفير الأمن لهم.

وعلاقة الأم بأسرتها بشكل عام، من حرص على الذود عن مصلحتها، والنظر في المصلحة العامة لها دون أثرة أو أنانية، والرجوع إلى المستشار الأمين عند حدوث ما يخشى منه تفرق الأسرة وتصدعها.

وعلاقة المرأة بصديقاتها، من عدم تقديم الإخلاص لهن على الإخلاص للزوج؛ لأن أواصر الزوجية أعظم من أواصر الخُلّة.

وعلاقة المرأة بضراتها، من عدم إيذائهن، أو الكيد لهن، وضبط الغيرة حتى لا يتصدع كيان الزوجية.

١١ - لم يركز القرآن الكريم على نواحي الضعف في المرأة فحسب، بل اهتم بإظهار نواحي القوة في شخصيتها. وفي هذا أعظم دليل على واقعيته وصدقه.

١٢ - كرم الإسلام المرأة، ورفع قدرها، وشرّفها أمًّا وبنتًا وزوجة وأختًا، ومن دلائل ذلك في القصص القرآني:

أ - أنه أعفاها من مشقة الخروج لكسب الرزق، والتعب في طلب المعاش، وجعل ذلك من وظيفة الرجل ومهمته في الحياة، وذلك مرتبط بالخلق. وفي هذا حجة على دعاة الانحلال الذين يساوون المرأة بالرجل في كل شؤون الحياة، فيطالبونها بأن تعمل في وظائف لا يصلح لها إلا الرجال، ويعدون قرارها في البيت تعطيلًا لنصف المجتمع.

ب - جعل نفقتها واجبة على زوجها، وبين أن الأمور الأساسية التي تجب على الزوج هي: الطعام والشراب والمسكن والكسوة؛ لأن فيها إقامة المهجة.

جـ - ساوى بينها وبين الرجل في التكاليف الشرعية - لا في القدرة والقوة البدنية - وأعطاهما الإرادة، وبين لهما طريق الخير والشر، وعلى حسب أعمالهما تكون درجتهما في الآخرة.

د - جعل القوامة بيد الرجل لأنه أعرف بمصلحتها، وأقدر على حمايتها.

هـ - دعاها إلى التزام ضوابط الخروج عندما يستدعي الأمر خروجها؛ حرصًا على عفتها وحيائها وحشمتها.

و - حث المجتمع على إعانتها عندما تحتاج وتضطر؛ لأنها من الضعفاء.

ز - حفظ لها حقوقها في اختيار الزوج، وجعل النكاح إلى الولي، واعتبر الكفاءة في النكاح.

ح - أبرز دور النساء الصالحات والنفعيات، وبجّل أعمالهن الخيرة،

وأقوالهن الحميدة؛ ليكن قدوة لغيرهن في كل زمان ومكان في جانب العبادات والمعاملات.

١٣ - امتاز القصص القرآني الذي تناول الدور الذي تؤديه الشخصية النسوية بميزات عدة، من أهمها:

أ - اهتمام القرآن بالحدث أوضح من اهتمامه بالشخصية.

ب - في قصص النساء ألوان من الصراع، يتراوح بين الصراع المادي، والذاتي النفسي، والفكري. وهذا الصراع يكون منسجمًا مع المغزى العام للقصة. وتمثل الشخصية الدور الأول في هذا الصراع الذي من خلاله تتكشف لنا طبيعة النفس البشرية. والنهاية التي يؤول إليها الصراع بين الشخصيات هي انتصار الخير على الشر.

جـ - قد يكون العنصر الزمني إطارًا للحالة النفسية التي تعتري شخصيات القصة.

د - ذكر العنصر المكاني من عدمه، يخضع لتأثير ذلك في نمو الحدث، وتحول الشخصية وحركتها، وفي إقامة شواهد العظة والعبرة منه.

هـ - المرأة في القصص القرآني ليست مقصودة لذاتها، بل تأتي حين يكون لها دور ومكان في الحدث الذي تخير القرآن عرضه.

و- شخصية المرأة في القصص القرآني - بشكل عام - ذات دور ثانوي، باستثناء شخصيتين فقط، كشف عنهما البحث.

ز - التزم القرآن بالتعبير عن المرأة بألفاظ معينة، وأغفل أسماء جميع النساء الواردات في قصصه باستثناء مريم ابنة عمران؛ لأسباب كشف عنها البحث.

١٤ - كما امتاز المنهج الذي سلكه القصص القرآني في تناول شخصية

المرأة بأنه منهج متفرد، وذلك لامتيازه بميزات عدة، من أهمها ما يلي:

أ - لأسلوب التوكيد أهمية في الكشف عن مشاعر الشخصيات وأحاسيسها تجاه المواقف المختلفة.

ب - القرآن الكريم يستعين بالروابط العقلية واللفظية؛ لتصوير الأحداث التي تعرض لشخصيات قصصه، كما يستعين بتلك الروابط في الحوار الذي يجري بين الشخصيات، ليكون موصولاً مصورًا دقائق الموقف.

جـ - يتآزر المبنى والمعنى في أسلوب السرد القرآني، ليكشف عما كان يتفاعل في نفس الشخصية، ويبرز انفعالاتها.

د - ينهض السرد القصصي بموسيقاه اللفظية في تصوير خلجات نفوس شخصيات قصصه، ونزعاتها، وعواطفها.

هـ - لا يذكر السياق القرآني إلا ما يتعلق به الغرض من القصة، ويلجأ إلى حذف كل ما يشتت الذهن ويعترض مسار القصة.

و - من وظائف الحوار، الكشف عن مكنونات الشخصية، واستبطان مشاعرها.

ز - الألفاظ التي يستخدمها السياق القرآني في التعبير عن المشاهد القصصية تنهض برسم صورة شاخصة متحركة، تخيل للحس حركة الشخصيات، وتلقي ظلالًا على نفسياتها.

ح - الغالب على قصص النساء ألا تعرض كاملة، وإنما يكتفى بعرض حلقة من حلقاتها، وغالبًا ما تكون الحلقة المعروضة من وسط القصة.

هذا والباحثة - في نهاية المطاف - ترى أن تتقدم بالتوصيات والمقترحات التالية:

١ - أن يكون اهتمام الباحثين في مجال اللغة العربية وغيرها - في الدرجة الأولى- قائمًا على الدراسات القرآنية التي تكشف عن أسرار الإعجاز البياني واللغوي في القرآن الكريم.

٢ - أن يفاد من المبادئ والقيم التي اشتمل عليها القصص القرآني في حياتنا المعاصرة، وأن يعنى بتدريس سير الشخصيات النسائية، وتحليل مواقفهن ليكن قدوة فاضلة.

٣ - أن توظّف المواقف النسائية الواردة في قصص القرآن في الإصلاح على المستويين الفردي والجماعي.

٤ - أن تخصص بعض الدراسات للرد على مكائد الأعداء الذين يرومون إفساد المرأة، ويحثونها على التمرد على فطرتها، وذلك من خلال دراسة سمات شخصية المرأة في القصص القرآني.

٥ - أن تخصص دراسات أخرى لتحليل الألفاظ والتراكيب التي عبر بها السياق القرآني عن شخصية المرأة في القصص القرآني.

وبعـد،

فقد رسم القصص القرآني صورة مفصلة دقيقة عن شخصية المرأة، وأبرز أبعادها المختلفة. . . ولعل هذه الدراسة أضاءت شيئًا من ملامح تلك الصورة. وإن كان ما بذل فيها من جهد، هو جهد المقل، وحسبي أني استنفدت ما في وسعي، مستعينة بربي، فإن أصبتُ فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله من كل زلل وقصور وخطأ. وأرجو من كل من يملك التقويم والتسديد ألا يبخل عليّ به. وأسأله - سبحانه وتعالى - أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به كل مسلم ومسلمة. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

*** المصادر:**

١ - ابن الأثير: أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي (ت٦٣٧هـ): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

٢ - البخاري: أبو عبدالله محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ): صحيح البخاري، إشراف ومراجعة: الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م
(طبعة خاصة بجهاز الإرشاد والتوجيه بالحرس الوطني، ضمن سلسلة الكتب العلمية ١٣).

٣ - البقاعي: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر (ت٨٨٥هـ): نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسور، خرج الآيات والأحاديث ووضع الحواشي: عبدالرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٤ - ابن بلبان: علاء الدين علي الفارسي (ت٧٣٩هـ): صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق وتعليق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

٥ - ابن تيمية: أحمد (ت٧٢٨هـ): مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبدالرحمن ابن محمد بن قاسم العاصمي النجدي وابنه محمد، طبع بأمر صاحب السمو الملكي فهد ابن عبدالعزيز، تصوير الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ.

٦ - الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى (ت٢٧٩هـ): جامع الترمذي، إشراف ومراجعة: الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م، (طبعة خاصة بجهاز الإرشاد والتوجيه بالحرس الوطني، ضمن سلسلة الكتب العلمية ١٣).

٧ - الثعالبي: عبدالرحمن (ت٨٧٥هـ): الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق:

أبو محمد الغماري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

٨ - الجرجاني: عبدالقاهر (ت٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ): دلائل الإعجاز في علم المعاني، صحح أصله: الشيخ محمد عبده، والشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي، تعليق: محمد رشيد رضا، مكتبة العلم، جده، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

٩ - ابن جِنّي: أبو الفتح، عثمان (ت٣٩٢هـ):

أ - الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٣٧١هـ، ١٩٥٢م.

ب - سر صناعة الإعراب، تحقيق: د / حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

١٠ - الجوهري: إسماعيل بن حماد (ت٣٩٣هـ): الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

١١ - ابن حجر: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن علي الكناني العسقلاني المصري (ت٨٥٢هـ):

أ - الإصابة في تمييز الصحابة، دار الفكر العربي.

ب - فتح الباري شرح صحيح الإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، تصحيح وتحقيق بإشراف الشيخ عبدالعزيز بن باز، ترقيم الأبواب والأحاديث: محمد فؤاد عبدالباقي، أشرف على الطبع: محيي الدين الخطيب، نشر وتوزيع: رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية.

١٢ - الحموي: شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.

١٣ - أبو حيان: محمد بن يوسف الأندلسي (ت٧٤٥هـ): البحر المحيط، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، والشيخ علي محمد معوض، وآخرون، تقريض: أ. د / عبد الحي العزماوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

١٤ - الذهبي: محمد أحمد (ت٧١٨هـ): ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي وفتحية البجاوي، دار الفكر العربي.

١٥ - الراغب الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد (ت٥٠٢هـ): المفردات في غريب القرآن، ضبطه وراجعه: محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

١٦ - الرازي: الفخر (ت٦٠٦هـ): التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، طهران، ط٢.

١٧ - الزركشي: بدر الدين محمد بن عبدالله (ت٧٩٤هـ): البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط٣، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

١٨ - الزمخشري: جارالله أبو القاسم محمود بن عمر (ت٥٣٨هـ):

أ - أساس البلاغة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

ب - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود والشيخ علي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

١٩ - ابن سعد، محمد (ت٢٣٠هـ): الطبقات الكبرى، تقديم: د/ إحسان عباس دار صادر، بيروت.

٢٠ - أبوالسعود: محمد بن محمد العمادي (ت٩٥١هـ): تفسير أبي السعود (المسمى: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط٤، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٢١ - السيوطي: عبدالرحمن جلال الدين: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرح وتعليق: محمد أحمد جاد المولى، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، ، القاهرة، ط.٣

٢٢ - الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ): جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تصحيح وفهرسة: مكتب التحقيق والإعداد العلمي في دار الأعلام، عمّان، الأردن، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٢٣ - ابن فارس: أبو الحسن أحمد (٣٩٥هـ): معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٢٤ - القرطبي: أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري (ت٦٧١هـ): الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٢٥ - ابن قيم الجوزية: أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الدمشقي (ت٧٥١هـ):

أ - بدائع الفوائد، تصحيح وتعليق: إدارة الطباعة المنيرية، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
ب - روضة المحبين ونزهة المشتاقين، تحقيق: د / السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
جـ - زاد المعاد في هدي خير العباد محمد (خاتم النبيين وإمام المرسلين، المطبعة المصرية ومكتبتها.
٢٦ - ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ):
أ - البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٧٩م.
ب - تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.
جـ - قصص الأنبياء، تحقيق: د / مصطفى عبدالواحد، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جده، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ط٤، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.
٢٧ - الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت٤٥٠هـ): النكت والعيون تفسير الماوردي، مراجعة وتعليق: السيد بن عبدالمقصود بن عبدالرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان.
٢٨ - مسلم: أبو الحسين بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ): صحيح مسلم، إشراف ومراجعة: الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م، (طبعة خاصة بجهاز الإرشاد والتوجيه بالحرس الوطني، ضمن سلسلة الكتب العلمية ١٣).
٢٩ - ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت٧١١هـ): لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.
٣٠ - النسائي: أبوعبدالرحمن أحمد بن شعيب (ت٣٠٣هـ): سنن النسائي الصُّغرى المجتبى من السنن، إشراف ومراجعة الشيخ: صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م، (طبعة خاصة بجهاز الإرشاد والتوجيه بالحرس الوطني، ضمن سلسلة الكتب العلمية ١٣).
٣١ - ابن هشام: أبو محمد عبدالرحمن المعافري (ت٢١٣هـ): السيرة النبوية، تقديم وتعليق وضبط: طه عبدالرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٥م.

* المراجع:

١ - الأبرش: مها عبدالله العمر: الأمومة ومكانتها في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة، (رسالة ماجستير مطبوعة، قسم الكتاب والسنة، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، وزارة التعليم العالي، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، المملكة العربية السعودية، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.
٢ - الألوسي: أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود (ت١٢٧٠هـ): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تعليق: محمد أحمد الأمد، وعمر عبدالسلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.
٣ - أمين: بكري شيخ: التعبير الفني في القرآن الكريم، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٤م.
٤ - أنيس: إبراهيم: الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية للطبع والنشر، ط٦، ١٩٨٤م.
٥ - باجودة: حسن محمد: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف، مطبوعات تهامة، جده، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
٦ - البار: محمد علي: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جده، المملكة العربية السعودية، ط١١، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.
٧ - البراوي: راشد: القصص القرآني (تفسير اجتماعي)، دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، ١٩٧٨م.
٨ - البصير: كامل حسن: بناء الصورة الفنية في البيان العربي (موازنة وتطبيق)، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
٩ - البقري: أحمد ماهر محمود: يوسف في القرآن، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ١٣٩١هـ، ١٩٧١م.
١٠ - تيمور: محمود: فن القصص (دراسات في القصة والمسرح)، دار ومطابع الشعب، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة التربية والتعليم.
١١- جرار: مأمون فريز: خصائص القصة الإسلامية، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

١٢ - الجريسي: خالد: معلم التجويد، مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

١٣ - الجزائري: أبو بكر جابر: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، إخراج: راسم للدعاية والإعلان، ط١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

١٤ - جلبي: علي عبدالرزاق: دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.

١٥ - الحجيلان: ناصر بن صالح: الشخصية في قصص الأمثال العربية، (رسالة ماجستير لم تنشر)، قسم اللغة العربية، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٠هـ.

١٦ - حسان: تمام: البيان في روائع القرآن (دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني)، دار عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

١٧ - حفني: عبدالحليم:

أ - أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٨٥م.

ب - التصوير الساخر في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م.

١٨ - الخطيب: عبدالكريم: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

١٩ - الخالدي: صلاح عبدالفتاح:

أ - القصص القرآني (عرض وقائع وتحليل أحداث) دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

ب - مع قصص السابقين في القرآن (دروس في الإيمان والدعوة والجهاد)، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

٢٠ - خلف الله: محمد، وسلام: محمد زغلول: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرُّماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، في الدراسات الأدبية والنقد الأدبي (تحقيق وتعليق)، دار المعارف، مصر.

٢١ - الدالي: محمد حسين: الوحدة الفنية في القصة القرآنية، أمون للطباعة والتجليد، ط١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

٢٢ - رشدي: رشاد: فن القصة القصيرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٦٤م.

٢٣ - رضا: محمد رشيد (ت ١٣٧٢هـ): تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.
٢٤ - الرافعي: مصطفى صادق (ت١٣٥٦هـ):
أ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، ط٨، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.
ب - تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٤، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م.
٢٥ - الزبيدي: محمد مرتضى (ت١٢٠٥هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر، ط١، ١٣٠٦هـ.
٢٦ - زكريا: عبد المرضي: الحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٧م.
٢٧ - الزير: محمد بن حسن: القصص في الحديث النبوي (دراسة موضوعية فنية)، ط٣، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
٢٨ - سرور: رفاعي: أصحاب الأخدود: مكتبة الحرمين للعلوم النافعة، ط٤ .
٢٩ - السعدي: عبد الرحمن بن ناصر (ت ١٣٧٦هـ):
أ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان:
١ - تقديم: محمد زهري النجار، دار المدني، جدة، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
٢ - تحقيق: محمد زهري النجار، مكتبة الخلفاء الإسلامية، الرياض، مكتبة الهدى الإسلامية، الخبر، ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
ب - تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، مطبعة الإمام، الدمالشة، مصر، عابدين، ١٣٦٨هـ، ١٩٤٩م.
٣٠ - سلطان: منير، الفصل والوصل في القرآن الكريم (دراسة في الأسلوب)، منشأة المعارف بالأسكندرية، ط٢، ١٩٩٧م.
٣١ - السلامي: عمر: الإعجاز الفني في القرآن، مؤسسات عبد الكريم عبد الله، تونس، ١٩٨٠م.
٣٢- سالم: أحمد موسى: قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٧٨م.
٣٣- سليمان: علي حسن محمد : القصة القرآنية الخصائص والأهداف، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

٣٤- سنبل: أحمد: الحوار القرآني بين التفسير والبصير، دار ابن هانئ للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٩٩٨م.

٣٥- شديد: محمد: منهج القصة في القرآن، شركة ومكتبات عكاظ، جدة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

٣٦- الشعراوي: محمد متولي:

أ - التربية الإسلامية، دار الجيل، بيروت، لبنان، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ط٢.

ب- تفسير الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، إدارة الكتب والمكتبات.

جـ- المرأة في القرآن، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، مكتبة الشعراوي الإسلامية.

٣٧- أبو شريفة: عبد القادر، قزق: حسين لافي: مدخل إلى تحليل النص الأدبي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط٣، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

٣٨- الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني (ت١٣٩٣هـ): أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، نشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، توزيع: مكتبة المغني، الرياض، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

٣٩- الشوكاني: محمد بن علي بن محمد (ت١٢٥٠هـ): فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٠- صافي: محمود: الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحوية هامّة، دار الرشيد، دمشق، بيروت، ومؤسسة الإيمان، بيروت، لبنان، ط٤، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

٤١- طبّارة: عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن الكريم، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط١٨، ١٩٩٣م.

٤٢- طبق: عبد الجواد محمد محمد: نقض بلاغي لعلاقات مزعومة بين القرآن ونظرية دارون، دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، الزقازيق، ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

٤٣- الطراونة: سليمان: دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية، ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

٤٤- طنطاوي: محمد سيد: القصة في القرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.

٤٥- الطيب: عيد محمد: الأصوات اللغوية والأداء القرآني، دار أصداء المجتمع للنشر والتوزيع، القصيم، بريدة، المملكة العربية السعودية، ط٤، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٤٦- عباس: فضل: قصص القرآن الكريم، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
٤٧- العدوي: محمد خير محمود: معالم القصة في القرآن الكريم، دار العدوي، عمان، الأردن، ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
٤٨- ابن عاشور: محمد الطاهر (ت ١٣٩٣م): تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.
٤٩- العقاد: عباس محمود:
أ - الصديقة بنت الصديق، دار المعارف، القاهرة، ط.١٢
ب - المرأة في القرآن، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
٥٠- العلمي: عبد الله الغزّي الدمشقي: مؤتمر تفسير سورة يوسف عليه السلام، دار الفكر، بيروت.
٥١- عليان: مصطفى: بناء الشخصية في القصة القرآنية، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.
٥٢- عوضين: إبراهيم: البيان القصصي في القرآن الكريم، دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٠م.
٥٣- العيسوي: عبد الرحمن: الإسلام والعلاج النفسي الحديث، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٨م.
٥٤- الغول: محمد بن شحادة: بغية عباد الرحمن لتحقيق تجويد القرآن، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، الدمام، السعودية، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط٨، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.
٥٥- فضل الله: محمد حسين: الحوار في القرآن، قواعده، أساليبه، معطياته، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
٥٦- فهمي: مصطفى: الصحة النفسية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
٥٧- القاسمي: محمد جمال الدين (ت١٣٣٢هـ): تفسير القاسمي، المسمَّى: محاسن التأويل، تصحيح وضبط: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.
٥٨- قطب: سيد (ت ١٣٩٧هـ):

أ - التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.
ب - في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط٤، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م.

٥٩- قطب: محمد: منهج الفن الإسلامي، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط٦، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٦٠- القطان: مناع: مباحث في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م.

٦١- قوش: سليمان عمر: الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالتها في القرآن الكريم، دار الثقافة، الدوحة، ط٢، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

٦٢- محمد: حسين علي: القرآن ونظرية الفن، مطبعة أبناء وهبة حسان، القاهرة، مصر، ط٢، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

٦٣- محمد: طول: البنية السردية في القصص القرآني، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، ابن عكنون، الجزائر، ١٩٨٩م.

٦٤- المحامي: محمد كامل حسين: القرآن والقصة الحديثة، دار البحوث العلمية، الكويت، ط١، ١٩٧٠م.

٦٥- مشوح: محمد ناجي: الآفاق الفنية في القصة القرآنية، دار المجتمع، جده، ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢ م.

٦٦- مصطفى: إبراهيم، وأحمد حسن الزيات، وحامد عبدالقادر، ومحمد علي النجار: المعجم الوسيط، أشرف على طبعه: عبدالسلام هارون، المكتبة العلمية، طهران، من مطبوعات مجمع اللغة العربية.

٦٧- منصور: عبدالمجيد سيد أحمد، وصالح بن عبد الله أبو عباة: الشخصية الإنسانية والهدي الإسلامي، دار غريب للطبعة والنشر، القاهرة، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

٦٨- نجاتي: محمد عثمان: القرآن وعلم النفس، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط٦، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

٦٩- النجار. محمد الطيب: تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن والسنة النبوية، دار الاعتصام، القاهرة، ط٣، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

٧٠- نجم: محمد يوسف: فن القصة، دار صادر، بيروت، دار الشروق، عمان، ط١، ١٩٩٦م.

٧١- نصر: عطية قابل: غاية المريد في علم التجويد، مكتبة كنوز المعرفة، جده، المملكة العربية السعودية، ط٧، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
٧٢- نقرة: التهامي: سيكولوجية القصة في القرآن، (رسالة دكتوراه مطبوعة)، جامعة الجزائر، ١٩٧١م، الشركة التونسية للتوزيع.
٧٣- نوفل: أحمد: سورة يوسف، دراسة تحليلة، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط١، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.
٧٤- الهاشمي: عبدالحميد محمد: لمحات نفسية في القرآن الكريم، مطبوعات رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، سلسلة دعوة الحق، العدد (١١)، السنة الثانية، صفر، ١٤٠٢هـ.
٧٥- هلال: إبراهيم إبراهيم: من بطولات المرأة في القرآن الكريم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م.
٧٦- هلال: محمد غنيمي: النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة.
٧٧- الوكيل: محمد السيد: نظرات في أحسن القصص، الدار الشامية، بيروت، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.
٧٨- ياسوف: أحمد: جماليات المفردة القرآنية، دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع، سورية، دمشق، ط٢، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

*** الدوريات:**

١ - خلايلي: غالب: الحب بين الأدب والطب، كتيب المجلة العربية، العدد (٧١) ذو القعدة ١٤٢٣هـ، يناير - فبراير ٢٠٠٣م.
٢ - النوري: قيسي: الاتجاه النفسي في الأنثروبولوجيا، مجلة كلية الآداب، العدد (١١)، حزيران ١٩٦٨م.

*** المواد السمعية:**

* عمرو خالد: قصة آدم وحواء (شريط).



فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني
دور الشخصية النسوية في القصص القرآني

الفصل الثالث
المنهج القرآني في تناول شخصية المرأة

❀ ❀ ❀

تنويه

لإبداء أي ملاحظات أو تعليقات

يُرسل على عنوان الباحثة:

نورة بنت محمد بن فهد الرشيد:

عنيزة - ص ب: ٤٣٤

الرمز البريدي: ٥١٩١١